

ایزابیل، الیبندی

الحب و ارثه

ترجمة حمال علماني



الفهرس

٩	ربيع آخر
٨٧	الظلال
١٩١	الوطن العذب

جميع الحقوق محفوظة للناشر
١٩٨٨ / ٤ / ٣٠٠

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

حشقة هلفت، ٤٢٠٣٩٠٣ بـ تلوكس ٤١٢٤٦

الحب و ارطلاع

ايزابيل الليندي

ترجمة صالح علمني

ايزابيل الليندي، التي ظهرت في دنيا الأدب فجأة حين صدرت روايتها الأولى «بيت الأرواح» عام ١٩٨٢، أصبحت تتفق اليوم في الصف الأول مع الروائيين الناطقين بلغة سيرفانتس، وصارت تعتبر المرأة الوحيدة في تيار الواقعية السحرية في الرواية الأمريكية اللاتينية.

تقول ايزابيل الليندي (وهي من مواليد ١٩٤٢): «لقد دخلت عالم الأدب بصورة مفاجئة، في سن لا تطمح فيه نساء آخريات بأكثر من رفو جوارب أحفادهن. لقد اقتحمت الأدب اقتحاماً وفوجئت بالصدى الذي أثارته كتبى، لأنى لم أكن أتوقعه».

صدر للمؤلفة ثلاثة روايات: «بيت الأرواح» ١٩٨٢، «الحب والظلال» ١٩٨٤، «إيفالونا» ١٩٨٧، إضافة إلى مجموعة قصص قصيرة.

الناشر

هذه قصة رجل وامرأة، أحبها بعضهما
بعضًا بكل جوارحهما، لينجوا بهذا من حياة
مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي
بحرص كي لا يليها الزمن. والآن، في
ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روایتها
أخيراً. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن
أجل آخرين أو دعوني حيواتهم قائلين:
خذلي، اكتبني كي لا تمحوه الريح.

إ.أ.

القسم الأول

ربيع آخر

الحب وحده يعلمه

يعيدنا أبداً

فيوليتا بارا

اليوم المشمس الأول بخر الرطوبة التي تراكمت في الأرض خلال شهور الشتاء، ودفأ العظام المنشطة للمسنين الذين استطاعوا الخروج للتنزه في مرات الحديقة. السوداوي وحده يقي في فراشه، لأنه لا جدوى من اخراجه إلى الهواء الطلق إذا كانت عيناه لا تريان شيئاً سوى كوابيسه الذاتية، ومسامعه صماء عن تغريد العصافير. كانت المثلة خوسيفينا بيانتشي ترتدي فستاناً سابغاً من الحرير استخدمته قبل نصف قرن لتمثيل تشیخوف، وتحمل مظلة تحمي بها بشرتها التي من بورسلان مفتت، وتتقدم على مهل بين الأنصاف التي ستمتلئ عنها قريب بالأزهار واليعاسيب.

- يا الفتية المساكين - ابسمت الشهانية لدى احساسها برعشة خفيفة بين أزهار اللاتسيفي، واعتقادها بوجود المعجبين بها، أولئك الذين كانوا يعشقوها سراً ويختبئون بين النباتات ليترصدوا مرورها.

تحرك الكولونيبل بضعة سنتيمترات متكتأً على عكااز الألنيوم التي يستخدمها في اسناد ساقيه الواهتين كالقطن. فاحتفاء بالربيع الوليد، ولتحية العلم الوطني التي لا بد من ادائها كل صباح، علق على صدره ميداليات الكرتون والصفيف التي صنعتها له ايرين. وحين كان اضطراب رئتيه يسمح له، كان يصرخ مصدراً التعليمات للفرقـة وأمراً الأجداد المرتعشين بالابتعاد عن ميدان التدريب، حيث يمكن لجنود المشاة ان يسحقوهم بخطواتهم الاستعراضية الشديدة وبأخذيتهم

العسكرية المصوّلة. خفقت الراية في الهواء كطير رخة غير مرئي قريباً من اسلاك الهاتف، واتخذ جنوده وضعية التأهب بصرامة: النظر إلى الأمام.. قرع طبول.. أصوات رجولية تترنم بالنشيد الوطني المقدس الذي لا تسمعه إلا أذناه. قاطعه مرضعة ترثي زي الميدان، وكما هي عادة هؤلاء النساء، كانت صامتة ومنافقة، وتتحمل منديلاً لتمسح به اللعب الذي سال على جانبي شفتيه ويلل قميصه. أراد أن يقدم لها وساماً أو أن يرفعها رتبة، لكنها دارت على أعقابها وتركته واقفاً مع نواياه المعلقة في الفراغ بعد أن حذرته من أنها ستضر به ثلاثة ضربات على قفاه إن هو عاد لتلوث سرواله الداخلي، لأنها سمعت من تنظيف براز الآخرين. عمن تتحدث هذه المعتوهة؟ تسأله الكولونيل، واستنتاج أنها تشير بكلامها دون شك إلى الأرمدة الأكثر ثراء في المملكة، فهي الوحيدة التي تستخدم الحفاظات في المعسكر بسبب جرح من قذيفة مدفع فتحت جهازها الهضمي وأقعدتها إلى الأبد على كرسي ذي عجلات، ولكنها لم تكن تلقى التوقيير اللازم رغم كل هذا، فلدى أدنى سهو منها يسلبونها دبابيس شعرها وشرائطها. إن العالم مليء بالأوغاد والسفالة.

- لصوص! لقد سرقوا خفيّ! - صرخت الأرمدة.

فأمرتها المشرفة التي كانت تقود المعدّ ذا العجلات لتضعها في الشمس:

- أصمّي أيتها الجدة، فقد يسمعك الجيران.

ووصلت المعدّة توجيه الاتهامات إلى أن فقدت أنفاسها واضطررت إلى السكوت كي لا تموت، إنما بقيت لديها القدرة لتشير باصبع مصاب بالتهاب المفاصل إلى الماجن الذي يفتح سرواله ليعرض عضوه المحزن على السيدات. لم تكن أي منهن لتهتم به، باستثناء سيدة ضئيلة ترثي ملابس الحداد، كانت تراقب حبة التين اليابسة تلك بشيء من الحنان. فهي مغمرة ب أصحابها وتترك باب غرفتها مفتوحاً في الليل لتحثه على الدخول.

تمتنع الأرمدة المثيرة:

- قحة!

لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام ، لأنها تذكرت فجأة الأزمة القديمة ، عندما كان ما يزال لديها زوج ، وكان يدفع لها ذهباً مقابل امتياز احتضانه بين فخذيها الشخين ، وكان يفعل ذلك بكثرة ، حتى إنها توصلت إلى امتلاك كيس مليء بالذهب ، بلغ من الثقل وزناً لا يمكن لأي بحار أن يحمله على كتفه .

- أين هي نقودي الذهبية ؟

وردت عليها الموظفة التي كانت ساهية وراء الكرسي ذي العجلات :

- عم تتحدىن أيتها الجدة ؟

- أنت سرقتها ! سأستدعي الشرطة !

فردت الأخرى دون أن تضطر :

- كفى ازعاجاً أيتها العجوز .

كانوا قد أجلسوا المفلوج على مقعد ودثروا ساقيه بشال ، كان يبدو جدياً ووقوراً رغم تشوه نصف وجهه ، وكانت يده العاجزة مدسosa في جيبيه بينما تحمل يده الأخرى غليوناً فارغاً . وبأناقته البريطانية ، كان يرتدي سترة على مرفقيها رقعتان جلديتان . انه يتظر البريد ، ولماذا طلب أن يجلسوه قبالة البوابة ، ليرى اميرين حين تدخل ويعرف من النظرة الأولى ان كانت تحمل رسالة اليه . وإلى جانبه كان يتسمس شيخ حزين لا يبادله الحديث لأنهما متخاصمان ، رغم أن كليهما قد نسي سبب الخصام . وقد يحدث أن يتوجه أحدهما بالكلام إلى الآخر ، في لحظة نسيان ، فلا يتلقى جواباً ، وذلك بسبب الصمم أكثر مما هو بسبب حالة العداء القائمة بينهما .

من شرفة الطابق الثاني ، حيث البنفسجية لم تُثبت أوراقاً ولا أزهاراً بعد ، أطلت بيتريس الكانتريادي بيلتران . كانت ترتدي بنطالاً من جلد الغزال خروبي اللون وبلوزة فرنسيّة مائلة ، تنجم مع ظل حاجبيها وخاتمها الذي من الدهنج ، متبرجة بمكياح الصباح ، طازجة وهادئة بعد جلسة التمارين الشرقية التي تمارسها للاسترخاء من التوترات ونسيان أحلام الليل ، وتحمل في يدها كأساً

من عصير الفاكهة لتسهيل الهضم وتنقية البشرة. تنفست بعمق ملاحظة الدفء الجديد في الهواء، وحسبت الأيام المتبقية لرحلة اجازتها. لقد كان الشتاء قاسياً جداً، وقد فقدت خلاله لونها البرونزي. تأملت بصرامة الحديقة التي تحت قدميها، المتجملة بحلول الربيع، ولكنها لم تتبه إلى البريق الذي في حجارة الجدران ولا إلى شذى الأرض الرطبة. لقد عُكِن العشب الدائم من اجتياز أيام الصقيع الأخيرة، وما زال القرميد يتلاأً بندى الليل، وجناح النزلاء، بسقوفه ونوافذه الخشبية، كان يلمع كثيراً وباهتاً. قررت انه لا بد لها من تجديد طلاء البيت. كانت عيناهما تحصيان المسنين وتتحفظان أدق التفاصيل لتأكد من أن تعليمهما تنفذ. لم يكن ينقص أحد من النزلاء، باستثناء ذلك المغموم التعيس الذي يبقى في سريره وهو أقرب إلى الموت كآبة منه إلى الحياة. تفحصت كذلك المشرفات، معنة النظر في مراياهن النظيفة والمكوية، وشعورهن المربوطة وخفاهن المطاطية. ابتسمت راضية، فكل شيء يسير على ما يراموها قد انقضى خطر الأمطار وما يرافقها من أوبئة، دون أن تسلبها أيّاً من زبائنهما. وبقليل من الحظ ستضمن انتظام الإيراد لبضعة شهور أخرى، لأن المريض المنورك سيستمر في الحياة خلال الصيف كله.

ومن مرقبها، رأت بيتريس ابنتها ايرين وهي تدخل حديقة ملجاً «مشيئة الرب». وتأكدت ساخطة من أنها لم تستخدم الباب الجانبي المؤدي إلى البهو الخاص وإلى درج المنزل الذي في الطابق الثاني، حيث تقضيـان. لقد أعدت مدخلاً خصوصياً منفصلاً لتحولـاشـى المـروـرـ من مـأـوىـ العـجزـةـ عندـ قـدـومـهاـ إـلـىـ بـيـتهاـ أوـ خـروـجـهاـ مـنـهـ، لأنـ الشـيخـوخـةـ تـبـعـثـ فـيـهاـ الكـآـبـةـ، وـهـيـ تـفـضـلـ مـرـاقـبـتهاـ مـنـ بـعـيدـ. أـمـاـ اـبـنـتهاـ فـلاـ تـضـيـعـ فـرـصـةـ لـزـيـارـةـ النـزـلـاءـ وـكـأنـهاـ تـشـعـرـ بـالـسـعادـةـ فـيـ صـحـبـتـهمـ. يـسـدوـانـهاـ اـكـتـشـفـتـ لـغـةـ لـتـغلـبـ عـلـىـ الصـممـ وـفـقـدانـ الـذاـكـرـةـ. اـنـهـ تـجـولـ الأنـ بـيـنـهـمـ لـتـوزـعـ عـلـيـهـمـ نـوـعاًـ مـنـ الـحـلوـيـ الـطـرـيـةـ، آـخـذـةـ فـيـ اـعـتـارـهـاـ أـسـنـانـهـ الـاـصـطـنـاعـيـةـ. رـأـتـهـاـ تـدـنـوـ مـنـ الـمـفـلـوجـ، فـتـعـطـيهـ رسـالـةـ، وـتـسـاعـدـهـ عـلـىـ فـتـحـهاـ لـأـنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ عـمـلـ ذـلـكـ بـيـدـهـ السـلـيـمـةـ الـواـحـدةـ، وـتـبـقـىـ إـلـىـ جـانـبـهـ مـتـمـتـمـةـ. بـعـدـ ذـلـكـ

قامت الفتاة بجولة قصيرة مع الرجل المسن الآخر، ورغم أن الأم لم تكن تسمع من الشرفة ما يقولانه، إلا أنها خمنت بأنهما يتكلمان عن ابنه وكتنه وعن الطفل، وهو الموضوع الوحيد الذي يهمه. لقد منحت ايرين كلاً منهم ابتسامة، أو مداعبة، أو بعض لحظات من وقتها، فيها بيتريس في الشرفة تفكراً عنها لن تفهم أبداً هذه الشابة الغريبة الطباع والتي لا تشبهها إلا قليلاً. فجأة، دنا الجد الشهوانى من ايرين ووضع كلتا يديه على نهديها، ضاغطاً إياها بحركة أقرب إلى الفضول منها إلى الشبق. وقفت جامدة لبعض لحظات بدت لأمها زماناً لا نهاية، إلى أن انتبهت إحدى المشرفات للأمر فهرعت لتدخل. لكن ايرين أوقفتها بياء، وقالت

مبسمة:

- دعوه. إنه لا يؤذى أحداً بهذا.

غادرت بيتريس موقع مراقبتها وهي تعض شفتيها. مضت إلى المطبخ، حيث كانت الخادمة روسا تقطع الخضار للغداء وتتناوم مع المسلسل الإذاعي. كانت مستديرة الوجه، سمراء، بمهمة السن، واسعة الحضن، لدنة الكرش، ضخمة الفخذين. فهي بدينة لدرجة أنها لم تكن قادرة على مقاطعة ساتيتها ولا على حك ظهرها بنفسها. كيف تنظفين مؤخرتك يا روسا؟ كانت إيرين تسألهما في صغرها وهي مذهولة من هذه الكتلة المريحة التي تزداد كيلوغراماً كل عام. فتردد عليها روسا دوماً، وفيه لعادتها في الاستشهاد بالأمثال: أية أفكار تخطر لك أيتها الصغيرة! إن في السمنة لحملاً.

قالت ربة البيت وهي تجلس على كرسي بلا مسند وترشف عصير الفاكهة
بيطء:

- انني قلقة بشأن ايرين.

لم تجب روسا بشيء، لكنها أطفأت المذياع داعية إياها بذلك للبوج لها بما تكنه، فتهجدت السيدة: عليَّ أن أكلم ابنتي، لست أدرى في أية شياطين تزج نفسها، ولا أعرف من هم هؤلاء المخشنون الذين يرافقونها. لماذا لا تذهب إلى النادي لتلعب التنس وتتعرف هناك على شبان من طبقتها؟ إنها تفعل ما يحلوها

متذكرة بعملها ، لقد بدت لي الصحافة شيئاً مريباً على الدوام ، مهنة أناس غير محترمين . لو أن خطيب ايرين يعرف ما يجري لما احتمل ذلك ، لأنه لا يمكن لخطيبة ضابط في الجيش أن تسمح لنفسها بهذا الترف . كم من المرات قلت لها هذا؟ ولا تقولوا لي أن الحفاظ على السمعة هو أمر عفا عليه الزمن . الزمن يتبدل ، ولكن ليس إلى هذا الحد . ثم ان العسكريين ياروسا يتمون الآن إلى المجتمع الراقي ، وليسوا كما كانوا في السابق . لقد تعبت من شذوذات ايرين . لدى مشاكل كثيرة ، حياتي ليست سهلة ، وأنت تعرفين الكفاية . منذ اختفى اوسيبيو تاركاً الحسابات المصرفيةجمدة ومخلفاً لي قطاراً من النفقات جديراً بسفارة ، صار عليّ أن آتي بالمعجزات كي أبقى في مستوى لائق ؛ لكن كل شيء صعب ، المستون عبء ، وأظن انهم يكلفون في نهاية المطاف من النفقات والجهد أكثر مما يعودون به من فائدة ، ومن الصعب الحصول منهم على الإيراد ، خصوصاً هذه الأرملة اللعينة ، فهي تختلف دوماً في دفع شهريتها . ليست هذه التجارة بالرابة على كل حال . ولم تعد لدى القوة الكافية للاحقة ابنتي كي تضع أصبعها على وجهها وتلبس كما يشاء الرب حتى لا تُخفِّ خطيتها . لقد أصبحت في سن تستطيع معها الاعتناء بنفسها وحدها . ألا ترين ذلك؟ انظري إلى ، كيف ستكون حالي لو لا عنادي واصاري؟ لو لا ذلك لكتن مثل كثارات من صديقائي ، ولكن وجهي خريطة من التجاعيد وأقدام الندجاج ، وكانت جميع أجزاء جسمي مليئة بالكتل والدرنات . لكنني أحفظ بقوام بنات العشرين وببشرة ناعمة . لا ، لا يمكن لأحد القول ان حياتي خالية من الهموم ، بل على العكس ، ان القلق يفتك بي .

- انك تملkin وجهأً في المجد ومؤخرة في الغم يا سيدتي .

- لماذا لا تتكلمين ابنتي يا روسا؟ أظن انها تستمع اليك خيراً من استماعها

إلى .

وضعت روسا السكين على الطاولة ونظرت إلى سيدة البيت بلا تعاطف . فهي على خلاف مبدئي ودائماً معها ، وخصوصاً فيما يتعلق بـ ايرين . لم تكن تقبل بتوجيه النقد إلى البنية ، إلا أنها رأت أن الأم حقيقة في هذه الحالة . فهي تحب أيضاً

أن تراها مزينة بطرحة شفافة وأزهار عذرية ، وخارجة من بوابة الكنيسة برفقة الكابتن غوستافو مورانتي تحت صفين من السيف المرفع ، لكن معرفتها بالعالم - التي احرزتها من خلال مسلسلات الاذاعة والتلفزيون - تشير إلى القدر الكبير من المعاناة وإلى الصرف التي لا بد من احتمالها قبل الوصول إلى النهاية السعيدة .

- من الأفضل تركها على هواها يا سيدتي . فمن يولد زيزاً يموت مغنىًّا . ثم أن ايرين لن تعيش حياة طويلة ، هذا باد في عينيها الساهيدين .
- بالله عليك يا امرأة ! أية حماقات تقولين !

دخلت ايرين المطبخ مرتدية تنورة قطنية فضفاضة ويشعرها القصير المشعث . قبلت المرأتين من وجنتيهما وفتحت الثلاجة لتشم ما في داخلها . كانت أمها توشك أن تفلت لها خطبة مرتجلة ، لكنها أدركت في لحظة صفاء أن أي كلام سيكون بلا جدوى . فهذه الفتاة التي تحمل آثار بصمات على نهدتها الأيسر كانت بعيدة عنها بعداً فلكياً .

- ها قد حل الربيع يا روسا . قريباً ستفتح أزهار اللاتسيني - قالت ايرين وهي تغمز بتوسط استطاعت الأخرى فهمه ، لأنهما كانتا تفكران بالطفل حديث الولادة الذي سقط من طاقة النور .

سألت بيترис :

- لماذا هنالك من جديد ؟

- علىَّ أن أكتب تحقيقاً يا أماه . سأقابل نوعاً من القديسة . يقولون أنها تحقق معجزات .

- أي نوع من المعجزات ؟

فقالت :

- تزيل الثاليل ، تشفي الأرق والفتاق ، تسكن اليأس وتجلب المطر .
تهدت بيتريس دون أن تبدي الرضا عن مزاج ابتها . وعادت روسا إلى تقطيع الجزر وإلى المعاناة مع المسلسل الإذاعي ، وهي تلدمد أنه عندما يوجد

القديسون الأحياء فالقديسون الأموات لا يحققون المعجزات . ذهبت ايرين لاستبدال ثيابها واحضار آلة تسجيلها بانتظار مجيء فرانثيسكوليا ، الذي يرافقها دوماً لالتقطان الصور أثناء عملها .

★ ★ ★

تأملت ديننا رانكيليو الحقل ولحت العلائم المبشرة بتبدل الفصل . فتمت ما بين دعاءين :

- قريباً سيحل موسم تناسل الحيوانات وسيمضي هيبيوليتو مع السيرك . كان من عادتها مخاطبة الرب . وفي هذا الصباح ، وبينما هي مشغولة باعداد الفطور ، تاهت في صلوات واعترافات مطولة . لقد قال لها ابناها مرات ومرات ان هذه العادة الانجليكانية تثير سخرية جميع الناس . لا يمكنك عمل ذلك بصمت ودون تحريك شفتيك ؟ لكنها لم تكن توليهم اهتماماً . كانت تشعر بالرب كحضور جسدي في حياتها ، واكثر قرباً ونفعاً من زوجها الذي لا تراه إلا في الشتاء . ولم تكن تطلب من الرب سوى بعض المساعدات الضئيلة ، لأنها عرفت أن كثرة المطالب تثير في نهاية الأمر سخط الكائنات السماوية . فكانت تقتصر على طلب نصيحة حول شكوكها الكثيرة ومغفرة لآثامها وآثام الآخرين ، شاكراً اثناء ذلك أي حدث صغير مؤات : توقيف المطر ، فارقة الحمى خاثتيتو ، نضجت البندورة في البستان . ومع ذلك ، فإنها تلح على المخلص منذ أسبوعين مطالبة بشفاء ايفانخيلينا .

- اشفها - كانت تتسلل هذا الصباح وهي تضرم نار المطبخ وتضع أربع طوبيات لتسند إليها الشبكة الحديدية فوق الحطب المتقد : - اشفها يارب ، قبل أن يأخذوها إلى مشفى المجاذيب .

لم تفكك مطلقاً ، حتى ولا أمام موكب المتضرعين المتسللين حدوث معجزة ، ان التوبات التي تصيب ابنتها هي من علائم القدس . وأقل من ذلك كان ايمانها بالعفاريت المهيجة ، رغم ما تؤكده الفضوليات الثثارات بعد رؤيتها فلماً عن الرقى السحرية في سينما القرية ، حيث اللعب في الفم والعيون الزائفة هما اشارة

إلى وجود الشيطان. إن بديهيتها وعلاقتها بالطبيعة وتجربتها الطويلة كأم لعدد كبير من الأولاد، أتساح لها أن تقدر أن مرض ابنتها هو مرض جسدي وذهني ، لا وجود فيه لما هو شيطاني أو إلهي . فكان تعزوه إلى لفاحات الطفولة أو للعادة الشهرية . لقد عارضت دوماً جماعة الخدمة الصحية ، الذين يتنقلون من بيت إلى بيت لاقتناص الأطفال المختبئين بين أشجار البستان وتحت الأسرة . ورغم ان الأولاد كانوا يرفضون بأقدامهم مقاومين ، ورغم أنها كانت تقسم انهم قد عجلوا ، إلا أنهم كانوا يصطادونهم ومحققونهم دون رحمة . كانت موقفة ان هذه السوائل تجتمع في الدم مسببة اختلالاً في الجسم . ومن جهة أخرى ، فإن الحيض الذي يعتبر حدثاً طبيعياً في حياة أي امرأة ، قد يؤدي إلى احتدام اهواء بعضهن والى تسليط أفكار آثمة على اذهانهن . ويمكن لأي واحد من هذين الأمرين - اللقاءات أو الحيض - أن يكون سبب الداء الرهيب . إنما هناك شيء ثابت ومؤكد : فابتتها تنحل وتضعف ، كما يحدث للمصابين بأختبث الأمراض ، وان هي لم تشف خلال فترة معينة ، فستنتهي إلى الانهيار أو إلى القبر . لقد مات لها أبناء آخرون في طفولتهم بسبب الأوبئة أو في حوادث لا رد لها . ومثل هذا يحدث لكل الأسر . فإذا كان الطفل صغيراً جداً لم يبكوه ، لأنه يصعب مباشرة إلى السماء مع الملائكة ، ليُشع للمؤجلين على الأرض . لكن فقدان إيفان خليلينا بدا لها مؤلماً ، لأنها ستكون مسؤولة أمام أمها الحقيقة . وهي لا ت يريد أن تبدو على أنها أهملت الفتاة ، لأن الناس سيتهاوسون عندئذ من وراء ظهرها .

كانت ديجنا هي أول من يستيقظ في بيتها واخر من يأوي إلى الفراش . فمع صباح الديك تكون في المطبخ لتضع الخطب فوق الجمر الذي ما زال ساخناً من الليلة الفائنة . ومنذ أن تبدأ بغلي الماء للفطور ، لا تعود إلى الجلوس . فهي مشغولة دوماً بالأطفال والغسيل والطعام والبستان والبهائم . ومهماها اليومية متشابهة لا تبتعد ، مثل سيدة محدودة الحيات تحصر وجودها . كانت لا تعرف الراحة ولا تنعم بها إلا عندما تضع مولوداً آخر . فحياتها عبارة عن طقوس متتالية لا تغيير فيها ، اللهم إلا تلك التي تشير إلى تبدل الفصول . ما كانت تعرف سوى العمل والتعب ،

وكانت أمداً ساعات النهار بالنسبة لها هي ساعة الأصيل ، حين تتناول أشغال الإبرة ومذيعاً يعمل بالبطارية ، فتنتقل الى عالم ناء لا تفقه منه إلا القليل . لم يكن قدرها بأفضل أوأسوأ من قدر النساء الآخريات . بل أنها تجد نفسها أحياناً امرأة محظوظة ، لأن هيوليتولا يتصرف معها كفلاح جلف على الأقل ، فهو يعمل في السيرك ، فنان ، يحبوب الدهب ، ويرى الدنيا ويروي لدى عودته أموراً عجاباً . انه يتناول كؤوسه من النبيذ ، وهذا ما لا أنكره ، لكنه طبيب في أحماقه . هكذا كانت تفكري ديننا . صحيح ان الفراغ الذي يسببه غيابه كان عظيماً في موسم اعداد الأرض ، وفي موسم البذار ، وموسم الحصاد ، ولكن كانت لهذا الزوج الجوال خصال معاوضة ، فهو لا يقدم على ضررها إلا إذا كان محموراً وحين لا يكون براديلايو، الابن الأكبر ، موجوداً . لأن هيوليتورانكيليو لا يرفع يده عليها أمام الفتى . ثم أنها تعم بحرية أكبر من حرية النساء الآخريات ، وتزور الصديقات دون أن تطلب إذنًا من أحد ، ويمكنها حضور الطقوس الدينية في الكنيسة الانجليكانية الحقيقة ، وقد ربت أبناءها على اخلاقيات هذه الكنيسة . وكانت معتادة على اتخاذ القرارات بنفسها دوماً ، اللهم إلا في الشتاء ، حين يرجع زوجها إلى بيته . عندئذ تخفي رأسها ، وتختفي صوتها وتستشيره قبل ان تتصرف . ولكن كان لهذه الفترة محسنة أيضاً ، رغم أن المطر والفقر كثيراً ما يهدوان أبديين على الأرض . فهي فترة راحة ، تستريح خلاها الحقول ، وتبدو الأيام أقصر ، ويتأخر الفجر في البزوغ ، فيناسون منذ الساعة الخامسة كي يوفروا الشموع . وعندئذ ، وفيما هي تحت دفء الأغطية ، تتمكن من تقدير قيمة الرجل .

ولعمله كفنان ، لم يشارك هيوليتوفي النقابات الفلاحية ولا في غيرها من بدع الحكومة السابقة ، ولهذا تركوه بسلام ولم يلحق به أي سوء يأسفون عليه حين انقلب كل شيء ليعود كما كان في زمن الأجداد . لقد كانت ديننا ، وهي ابنة وحفيدة فلاحين ، شديدة الخذر والمحيطة . فلم تؤمن يوماً بكلمات المستشارين وعرفت منذ البدء ان الاصلاح الزراعي سيتهي نهاية سيئة . وقد أعلنت ذلك دوماً ، لكن أحداً لم يوها اهتماماً . فكانت اسرتها أوفى حظاً من آل فلوريس ، ذوي

اهسانا خيلينا الحقيقيين، ومن كثيرين من المشتغلين في الأرض من وضعوا آمالهم وحياتهم في مغامرة الوعود والقلائل تلك.

كان هيبيوليتورانكيليسيو يتمتع بسجايا الزوج الصالح، فهو هادئ، ليس بالمتقلب أو العنيف، ولم تُعرف له علاقة بنساء اخريات ولا رذائل كبرى. وهو يأتي إلى البيت في كل سنة ببعض المال، إضافة إلى هدية تكون بلافائدة في معظم الأحيان، لكنها تقابل بالترحاب دوماً، لأن المهم هو التوايا. كان وسيم المظهر، لكنه لم يتخلى عن الفضيلة أبداً مثلاً يفعل غيره من الرجال الذين ما أن يتزوجوا حتى يبدأوا بمعاملة زوجاتهم كالبهائم، كما تقول ديعنا، وهذا فقد منحته إبناء بسعادة، بل وبشيء من المتعة. وعندما تفكربمداعباته تورد خجلاً. فهي لم تسمح لزوجها بأن يراها عارية أبداً، لأن الحشمة قبل كل شيء. لكن ذلك لم يقلل من سحر مخدعها. كانت مولعة بالأشياء الجميلة التي يحسن قولها، فقررت أن تكون زوجة له أمام الله والسجل المدني، ولم تسمح له بملامستها لتصل إلى ليلة الزفاف عنراء، تماماً مثلما تمنى لبناتها أن يفعلن، فهكذا يفرضن احترامهن ولا يجرؤ أحد على اتهامهن بالخلفة. لكن ذلك كان زمناً آخر، والمحافظ على عفة البنات يصبح أصعب فأصعب الآن. فما أن ترفع احداً نظرهاعنن حتى يذهبن إلى النهر.. أبعثن إلى القرية لشراء السكر فيغفن لساعات. أصر على ان يرتدين ملابس مختلفة، لكنهن يعرفن تناسيرهن، ويفتحن أزرار بلوزاتهن ويصبغن وجوههن. آه، يا ريه! ساعدني على تربيتهن حتى الزواج وحينئذ استطيع أن أستريح. لا أريد أن تتكرر المصيبة التي حلّت بکبراهم، اغفر لها يا رب، لقد كانت صغيرة ولم تكن تدرك ما الذي تفعله، وقد جرى ذلك بسرعة مع المسكينة، حتى أنها لم تضطجع كما البشر، بل فعلت ما فعلته وهي واقفة، مستندة إلى جذع شجرة النساء كالكلاب؛ احفظ الاخريات يارب كي لا يأتي تافه ليههون، لأن براديليوس يقتله في هذه المرة وستقع البلية على هذا البيت؛ لقد نلت حصقي من العار والألم بخائيتي؛ الطفل المسكين، انه غير مسؤول عن عاره.

خايثيسو، أصغر أفراد الأسرة، هو في الحقيقة حفيدها، ثمرة زنا ابتها

الكبرى مع رجل غريب جاء في الخريف وطلب أن يسمحوا له بقضاء الليل في المطبخ. كان بارعاً بالمجيء بينها هيبيوليتوجب القرى مع السيرك وبراديليو يؤدي الخدمة العسكرية. هكذا هي الأمور، لم يكن يوجد في البيت رجل لأنذ الثأر، كما يقتضي الواجب. وعرفت ديننا ما يجب عليها عمله: دثرت الوليد، وغذته بحليب فرس وبعثت بأمه إلى المدينة لتعمل كخادمة. وعند عودة الرجال إلى البيت، واجهتهم بالأمر الواقع وكان عليهم أن يقبلوا به. بعد ذلك اعتادوا على وجود الطفل بينهم وانتهوا إلى اعتباره ابنآ آخر من أبنائهم. ولم يكن هو الابن الغريب الوحيد الذي نشأ في منزل آل رانكيلي، فقبل خاثيتو التقطوا أبناء آخرين: أيااماً تائهين طرقوا باب البيت يوماً، ثم نسوا مع مرور السنين انعدام آصرة القرابة ولم يبق لديهم إلا العادة والحنان.

ملأت ديننا الكأس بعشبة الملة لزوجها مثلما تفعل كل يوم مع اطلالة الفجر من وراء الجبال، ووضعت له كرسيه في الركن القريب من الباب، حيث الهواء أنقى. وأحرقت بضعة قوالب من السكر وزاعت اثنين منها في كل فنجان صفيحي لتحضر شراب البولي^(١) للأبناء الكبار. ثم بللت خبز اليوم السابق ووضعته على الجمر، وصفت الحليب للأطفال، ومزجت في مقلة سوداء من كثرة الاستعمال، خليطاً من البيض والبصل.

★ ★ ★

خمسة عشر عاماً مضت على اليوم الذي ولدت فيه إيفانخيلينا في مستشفى لوس ريسكوس، لكن ديننا تستطيع أن تذكره كما لو أنه حدث منذ وقت قريب. فبما أنها كانت قد انجبت مرات عديدة، فقد وضعت مولودها بسرعة، ورفعت نفسها مستندة إلى مرقيها، كما كانت تفعل دوماً، لترى الوليد وهو يخرج من أحشائها، متحققة من شبهه بآولادها الآخرين: الشعر الخشن القائم كشعر الألب

١ - شراب أوراق النباتات تشبه النعناع

والبشرة البيضاء التي تفخر بها. لهذا، حين حلوا اليها طفلة ملفوفة بحرق ولحت زغبًا أشقر يغطي ججمتها شبه الصلعاء، عرفت دون أدني شك أنها ليست ابتها. وكانت ردة فعلها الأولى ان انكرتها واحتاجت، لكن المرضة كانت على عجلة من أمرها، فرفضت الاستماع إلى حججها، ووضعت لها اللفافة بين ذراعيها وانصرفت. بدأت الطفلة بالبكاء، ففتحت ديجنا قميص نومها بحركة قديمة قدم التاريخ، ووضعتها على ثديها، فيما هي تداول مع جارتها في صالة الأمومة المشتركة بأن هناك خطأ دون ريب: فهذه ليست ابتها. عندما انتهت من ارضاعها، نهضت ببعض الصعوبة وذهبت لمقابلة القابلة المسئولة عن الجناح، لكن هذه ردت عليها إنها خطئة، وأنه لم يحدث شيء كهذا أبداً في المستشفى، ونددت بنظام استبدال الأطفال. وقالت لها أن أعراضها متيبة بالتأكيد وحققتها دون أي كلام آخر سائل في ذراعها، وأعادتها إلى سريرها. بعد ساعات من ذلك استيقظت ديجنا رانكيليو على صخب نساء أخرى تصرخ في الجهة المقابلة من الصالة:

- لقد استبدلوا ابنتي.

هرع عدد من الممرضات والأطباء الذين استنفرتهم الضجة، وجاء مدير المستشفى بنفسه. فانتهزت ديجنا الفرصة لتطرح مشكلتها بأشد الأساليب لباقة، لأنها لم تكن راغبة في استفزاز أحد. أوضحت أنها أخرجت إلى الدنيا طفلة سمراء وانهم جاؤوا بطفولة أخرى ذات شعر أشقر لا تشبه ابتها في شيء. ماذا سيظن بها زوجها حين يراها.

استنشاط مدير المستشفى غضباً: جاهلات، جاحدات. بدلاً من تقديم الشكر لأننا نساعدهن يشنن لي الفوضى. واختارت المرأةان السكوت وانتظار فرصة أخرى مواتية. كانت ديجنا نادمة لأنها ذهبت إلى المستشفى، وحملت نفسها مسؤولية ما حدث. فجميع أولادها حتى ذلك الحين ولدوا في البيت، بمساعدة ماميتها انكارناثيون، التي كانت تراقب الحمل منذ شهره الأولى، ثم تأتي قبل الولادة بيوم، فتبقى في البيت إلى أن تتمكن الأم من العودة إلى مزاولة أعمالها.

كانت تأتي بأعشابها التي تساعد على ولادة سريعة وسهلة، وبمقصاتها التي باركتها القس، وخرقها النظيفة المغلىة، وضياداتها الموصولة، وبلاسمها من أجل حلقات الأشداء، وأدواتها التي تستخدمها للقص والشق، وخيوطها، وخبرتها المسلم بها. وفيما هي تهيء الأجواء للوليد القادم، كانت تتكلم دون توقف لتسلل النفساء، فتسرد الأخبار المحلية المتداولة وقصصاً أخرى من اختراعها، وهدفها من ذلك جعل الوقت قصيراً والألام خفيفة. تلك المرأة الضئيلة والرشيقه، العابقة بشذى دائم من البخور والخزامي، ساعدت في ولادة جميع أطفال المنطقة تقريباً منذ أكثر من عشرين سنة. ولم تكن تطلب شيئاً مقابل خدماتها، لكنها كانت تعيش من عملها ذاك، لأن الشاكرين فضلها كانوا يمرون من أمام بيتها تاركين هناك البيض أو الفاكهة أو الخطب أو الطيور، أو أرنبأً بريأً أو طير حجل من الصيد الأخير. وحتى في أسوأ أزمنة البوس، حين كانت المحاصل تتلف وضروع البهائم تجف، لم تكن الضروريات تحجب عن بيت مامينا انكارناثيون. كانت تعرف كل أسرار الطبيعة المرتبطة بعملية الولادة، وكذلك بعض الأساليب المضمونة لإنجهاض بالأعشاب أو بعقب شمعة، لكنها لم تكن تلجأ إليها إلا في حالات مبررة. وإذا ما قصرت معارفها بجأت إلى بديتها. وحين يخرج الوليد إلى النور أخيراً، تقطع حبل الخلاص بمقصها العجيب لتمنحه القوة والعافية، ثم تتحققصه للحال من رأسه إلى أحصى قدميه لتأكد من عدم وجود شيء غريب في تكوينه. فإذا ما اكتشفت فيه نقصاً أو بادرة تشير إلى أنه سيحيا حياة معدنة وأنه سيكون عبئاً على الآخرين، فإنها تخلى عن الوليد وتتركه لمصيره، أما إذا كان كل شيء فيه كما أقره الله، فإنها تحمد السماء وتبادر إلى ادخاله في حركة الحياة بضررتين من كفها. ثم تقدم إلى الأم أوراق نبات لسان الثور لطرد الدم الأسود وخلصها من تعكر المزاج، وزيت الخروع لتنظيف الأحشاء، والبيرة مع صفار البيض الذي يتضمن لها حليباً وافراً. وتتولى شؤون البيت لثلاثة أو أربعة أيام، فتطبخ، وتكتنس، وتقدم الطعام لأفراد الأسرة وتهتم بقطيع الأطفال. هكذا جرت جميع ولادات ديجنا رانكيليو، لكنها حين أنجحت إيفانخيلينا، كانت القابلة في السجن

بتهمة مزاولة الطب بشكل غير شرعي ، ولم تستطع مساعدتها . لهذا السبب وليس لأي سبب سواه ، جلأت ديننا إلى مستشفى لوس ريسكوس ، حيث لاقت معاملة أسوأ مما يعامل به المحكومون . فلدى دخولها وضعوا في معصمتها لوحه تحمل رقمًا ، وحلقوها لها الشعر في منطقة العورة ، وحمموها بماء بارد ومعقم ، دون أن يأخذوا في الاعتبار امكانية جفاف حلبيها إلى الأبد ، ثم وضعوها في سرير بلا شراشف مع امرأة أخرى في مثل حالتها . وبعد أن نظروا ، دون أن يتازلوا بالاستذدان منها ، في جميع ثقوب جسدها ، جعلوها تلد تحت مصباح وعلى مرأى من كل من شاء التطفل . تحملت كل ذلك دون تهيدة تذمر واحدة ، ولكنها حين خرجت من هناك حاملة بين ذراعيها طفلة ليست هي طفليها ، ومكللة بالحياة الذي صبغها بالأحمر مثل راية ، أقسمت ألا تتضع قدميها ثانية في مستشفى ما دامت على قيد الحياة . انتهت ديننا من قلي خليط البيض والبصل واستدعت افراد الأسرة إلى المطبخ ، وجاء كل واحد منهم يحمل كرسيه . فقد كان من عادتها ، حين يبدأ الطفل بالمشي ، ان تكرس له كرسياً خاصاً ، لا يمكن لأحد سواه استخدامه ، وهو الملكة الخاصة الوحيدة في فقر آل رانكيليو المشترك . فهم يتقاسمون حتى الأسرة . والملابس تحفظ في سلال ضخمة من الخيزران ليأخذ أفراد الأسرة منها ما يحتاجونه كل صباح ، لأنه ليس هناك من مالك لشيء .

كان هيبيوليتورانكيليويرشف شراب مته بصخب ويمضغ الخبز ببطء ، بسبب أسنانه المفقودة وتلك التي ترقص في لثته . كان ييلو سلينيا ، رغم أن بيته لم تكن قوية مطلقاً . أما الآن ، فقد بدأ يشيخ بعد أن حطت السنون عليه فجأة . وتعزوز زوجته ذلك الوضع الذي وصل إليه إلى حياة السيرك التشردية ، وتجواله الدائم دون هدف معين ، وإلى الأكل السيء ، وصباح وجهه بتلك الأصبغة المستهترة التي أباحها الله للنائزات في الشوارع ، وجعلها شديدة الضرر على شخص وقور . وفي سنوات قليلة ، تحول الشاب الوسيم الذي قبلته خطيباً لها إلى رجل ضئيل ذي وجه جاف لكثره ما مارس عليه من حيل التنكر ، حتى أصبح الأنف ييلو كابريق . وصار يسعل كثيراً ويغفو أثناء تبادل الحديث معه . وقد اعتاد

خلال شهور الشتاء والبطالة الأضطرارية على تسلية الأطفال بارتداء ملابس المهرج . وتحت قناع الأصبغة الأبيض والقم الأحمر الضخم المنفرج عن قهقهة دائمة ، كانت ترى أحاديد الإجهاد . ولأنه صار كهلاً إلى حد ما ، فقد كان يجد صعوبة متزايدة في الحصول على عمل ، فأخذت تبني الآمال على روئيته مستقرأً في الريف ليساعدها في أعمالها . فالتقدم يفرض الآن بالقوة ، والمراسيم الجديدة تجشم كأعمال ثقيلة على كاهل ديجنا . فعلى الفلاحين الآن أن يتکيفوا مع اقتصاد السوق . فالأرض ومنتجاتها تخضع للمنافسة الحرة ، وازدهار كل فلاح يعتمد على انتاجه ومبادرته وكفاءته الإدارية . وحتى المندو الأميون كانوا يعانون المصير ذاته ، بعد أن اتيحت فرص عظيمة لم يملكون المال ، لأنهم قادرون - بضعة سنتات - على شراء أملاك الفلاحين الفقراء من أمثال آل رانكيليو ، أو استئجارها لمدة تسع وتسعين سنة . ولم تكن ديجنا ترغب في بيع أرضها وهجر المكان الذي أنجبت فيه أولادها وربتهم ، لتسكن في بلدة ريفية بائسة ، يسعى إليها الملاكون كل صباح لاستئجار ما يحتاجونه من أيد عاملة موفرين على أنفسهم بذلك الخوض في مشاكل مع المستأجرين . وكانت تقول إن هذا الوضع ليس إلا الفقر في الفقر ، وتعنى بجعل أسرتها تقوم بزراعة الكوادرات الست التي ورثتها . لكن صعوبة الصمود أمام المؤسسات الضخمة كانت تتزايد ، خصوصاً وإنها تفتقر إلى مساندة رجل يمد لها يد العون في هذه المشقات الكثيرة .

كانت ديجنا رانكيليو تشعر بالشفقة على زوجها، فتحتفظ له بأفضل جزء من الطعام، وبأكبر البيوض حجمًا، وبأنعم الصوف لتحوله له الكتزة والجوارب. كانت تحضر له الأعشاب لآلام الكليتين، ولصفاء الذهن، ولتنقية الدم والمساعدة على النوم، إنما لم يكن أمام هيبيوليتو، رغم عنایتها به، مفر من الهرم. في هذه اللحظة تшاجر اثنان من الأطفال على بقايا مزيج البيض والبصل وكان يتأملها دون مبالاة. لقد كان يتدخل في الأحوال الطبيعية ليفصل بينهما بالصفعات، أما الآن فعيناه لا تريان إلا إيفانخيلينا، يلاحظها بعينيه كما لو كان يخشى تحولها إلى مسخ مثل تلك المرأة التي في السيرك. كانت الفتاة لحظت ذلك كائناً آخر بين الأولاد

المقرورين والمشعدين. ولم يكن في مظهرها ما يشير إلى ما سيحدث خلال بضع ساعات، وبالتحديد عند انتصاف النهار.

- اشفها يا رب - كررت ديننا وهي تعطي وجهها بمريلتها كي لا يراها الآخرون تتكلم بمفردها.

★ ★ *

بدا الصباح رائقاً، مما جعل هيلدا تقترح تناول الفطور في المطبخ المدفأ بحرارة الوقود فقط، لكن زوجها ذكرها أنه لا يمكنها التهاون بأمر الرشوفات، لأنها تعاني من رئتيها مذ كانت طفلة، فالوقت حسب التقويم ما يزال شتاء، رغم أن لون الصباحات وصداح القنبرات كانا يبشران بقدوم الربيع. كان عليهم الاقتصاد بالوقود، فالوقت غلاء. لكن البوفسور ليال، ونظراً لضعف بنية زوجته، كان يصر على إشعال مدفعاة الكيروسين، فكان جهاز التدفئة القديم يتنقل في غرف البيت في الليل والنهار مرافقاً تنقلات من يعيشون هناك.

فيما كانت هيلدا ترتب الأواني، أطل البر وفسور ليال على الفنان، مرتدية معطفاً ولفة وخفاً، ليضع بذوراً في المعالف. وماء في الأصص لا حظ البراعم. الدقيقة في الشجرة وقدر أن الأغصان ستتملىء بالأوراق عما قريب لتحول إلى معقل أخضر يؤوي العصافير المهاجرة. كان يحب رؤية العصافير وهي تطير طلقة بقدر كراهيته للأقفال، فهو يرى أن حبسها لمجرد ترف امتلاكها أمام النظر هو جريمة لا تغفر. كما انه كان مخلصاً لمبادئه الفوضوية حتى في التفاصيل: فإذا كانت الحرية هي الحق الأول للإنسان، فلا بد لها، وبجدارة أكبر، ان تكون كذلك بالنسبة لتلك الكائنات التي ولدت في جانبها أجنهحة.

ناداه ابنه فرانشيسكو من المطبخ معلنًا ان الشاي جاهز، وان خوسيه قد جاء لزيارتهم. غذ البوفسور الخطي، لأنه لم يكن معتاداً على استقباله في مثل هذا السوق المبكر من أيام السبت، وهو المشغول دوماً بمهامه الكثيرة في غوث الآخرين. رآه يجلس إلى المائدة ولاحظ لأول مرة أنه قد بدأ يفقد شعراً من مؤخرة رأسه.

سأله وهو يربت على كتفه:

- ماذا هنالك يا بني؟ هل حدث شيء؟

- لا يا أبناه. رغبت في تناول فطور محترم أعدته أمي فقط.

كان أمنن أفراد العائلة بنية وأكثرهم خشونة، والوحيد الذي ليست عظامه طويلة وليس له أنف معقوف كأنوف آل ليل. كان يديو كصياد جنوبي ولا شيء في مظهره يشي برقة روحه. دخل مدرسة اللاهوت فور انتهاءه من الليسيه دون ان يفاجئه هذا القرار أحداً باستثناء أبيه، فمنذ طفولته كانت له مواقف يسوعية، فكان في صغره يرتدي ملابس أسقف مستخدماً في ذلك مناشف الحمام، وكان يلعب محاكياً أداء القدس. لم يكن هناك من تفسير لهذه الميول، لأن أحداً في بيته لم يكن يمارس الشعائر الدينية بشكل مكشوف، وأمه التي تدين بالكاثوليكية، لم تكن تذهب إلى القدس منذ تزوجت. وكان عزاء البروفسور ليال حيال قرار ابنه هو انه لا يلبس مسوحاً كهنوتيه وإنما سروال عمال، كما انه لم يذهب للعيش في دير بل في حي بروليتاري، وكان أقرب إلى هموم هذا العالم منه إلى أسرار الكنيسة. كان خوسيه يرتدي سروالاً ورثه عن أخيه الكبير، وقميصاً حائطاً اللون وكنزة من صوف سميك حاكتها له أمه. وكانت يداه خشتان من استخدام أدوات المسباك التي يؤمن بها نفقات عيشه.

قال بلهجة ماكرة:

- إنني أنظم دورات في المسيحية.

- أرى ذلك - رد عليه فرانشيسكو وهو يعرف ما يعنيه، إذ أنها يعملا معاً في عيادة مجانية تابعة للخورانية، وكان مطلعاً على نشاطات أخيه.

وتنهدت هيلا:

- أي خوسيه، لا تدخل في السياسة. أتريدهم أن يسجنوك ثانية يا بني؟ آخر اهتمامات خوسيه ليال كان أنه الشخصي. نفسه لا تسع إلا الحالات بؤس الآخرين. انه يحمل على كاهله حلاً لا يطاق من الآلام والمظالم. وكثيراً ما كان يعاتب الخالق الذي يختبر ابيانه بهذه القسوة: إذا كان الحب الإلهي موجوداً،

فإن كل هذا الألم البشري لا يعدو أن يكون أكثر من سخرية . وفي خضم تلك المهمة الشاقة لاطعام الفقراء وايواء اليتامي فقد بريقه الكهنوتي الذي اكتسبه في المدرسة الاكيليريكية ، ليتحول نهائياً إلى كائن متوجه وجاف ، موزعاً ما بين القنوط والشفقة . لقد ميزه أبوه من بين أبنائه لأنه استطاع رؤية التشابه بين أفكاره الفلسفية وأفكار ابنه التي يعتبرها خرافات مسيحية فجة . وهذا ما خفف من أسهـ، ووصل به الأمر لأن يصفح عن ميول خوسـيه الدينـية ويـتخـلى عن التـحـسـرـ في اللـيلـ وـرأـسـهـ غـارـقـةـ فيـ الوـسـادـةـ كـيـ لاـ يـثـيرـ قـلـقـ زـوـجـتـهـ ، مـفـرـجاـ عـنـ نـفـسـهـ عـارـ وـجـودـ خـورـيـ فيـ العـائـلـةـ .

قال خوسـيهـ متوجهـاـ إلىـ فـرانـثـيسـكـوـ :

- الحقيقة إنـيـ جـئـتـ فيـ طـلـبـ أـخـيـ . عـلـيـكـ أـنـ تـأـتـيـ لـمـسـاعـدـةـ طـفـلـةـ فيـ الحـيـ . لـقـدـ اـغـتـصـبـوـهـاـ قـبـلـ اـسـبـوعـ ، فأـصـبـيـتـ بـالـكـمـ مـنـذـ ذـلـكـ الـحـيـ . اـسـتـخـدـمـ مـعـارـفـ السـيـكـوـلـوـجـيـةـ ، لأنـ اللهـ وـحـدـهـ لمـ يـعـدـ كـافـيـاـ لـكـلـ هـذـهـ المـاـشـاـكـلـ الـكـثـيـرـةـ كـمـ يـبـدوـ .

- الـيـوـمـ لـأـسـتـطـعـ ، فـعـلـيـ أـنـ أـرـاقـقـ اـيـرـينـ لـالتـقـاطـ بـعـضـ الصـورـ ، لـكـنـيـ سـأـرـىـ الفتـاةـ غـداـ . كـمـ عمرـهـ؟

- عـشـرـ سـنـوـاتـ .

فـهـتـفـتـ هـيـلـداـ :

- ياـ اللهـ ! أيـ مـسـخـ اـسـتـطـاعـ عملـ ذـلـكـ بـتـلـكـ المـسـكـيـنـةـ الـبـرـيـةـ؟
- أبوـهاـ .

فـأـمـرـ البرـ وـفـسـورـ لـيـالـ :

- كـفـيـ مـنـ فـضـلـكـ ! أـمـ أـنـكـ تـرـيدـ المـرـضـ لـأـمـكـ؟

سـكـبـ فـرانـثـيسـكـوـ الشـايـ لـلـجـمـيعـ وـلـبـثـواـ بـرـهـةـ صـامـتـينـ ، يـبحـثـونـ عـنـ مـوـضـوـعـ لـلـحـدـيـثـ كـيـ يـمـحـوـ كـآـبـةـ هـيـلـداـ ، المـرـأـةـ الـوحـيـدـةـ فـيـ عـائـلـةـ مـنـ الذـكـورـ ، وـالـقـيـ استـطـاعـتـ أـنـ تـفـرـضـ رـقـتهاـ وـرـصـانـتهاـ عـلـيـهـمـ . فـهـمـ لـاـ يـذـكـرـونـ أـنـهـ رـأـواـهـاـ يـوـمـاـ سـاخـطـةـ . وـلـاـ بـحـضـورـهـاـ لـمـاشـاـنـاتـ الصـيـباـنـ ، وـلـاـ لـلـنـكـاتـ الـلـاذـعـةـ أـوـ

البداءات. لقد كان الغم يستولي على فرانشيسكوفي طفولته لاحساسه بأن أمه، التي عاثت بها خشونة الحياة، قد تض محل شيئاً فشيئاً إلى أن تتلاشى نهائياً، كأنها ضباب. فكان يبع عندها إلى جوارها، يعانقها ويتثبت بملابسها في محاولة يائسة للبقاء على حضورها، على دفتها، على راحة مريلتها، وايقاع صوتها. لقد انقضى زمن طويل على ذلك العهد، إلا أن الخنو عليها كان هو احساسه الأكثر رسوخاً.

فرانشيسكوفي هو الوحيد الذي بقي في بيت أبيوه بعد زواج خابير وذهاب خوسيه إلى المدرسة الاكيليريكية. كان يشغل الغرفة ذاتها التي كانت له في طفولته، والتي تضم إثناً من خشب الصنوبر ورفوفاً تغض بالكتب. لقد نوى في أحدي المرات أن يستأجر بيته مستقلاً، ولكنه في أعمقه كان يجب رفقة اسرته، كما أنه لم يكن يرغب من جهة أخرى في أن يسبب أهلاً لا مبرره لأبيوه اللذين لا يريان سوى ثلاثة مبررات تسمح للأبناء بالخروج من البيت: الحرب، أو الزواج، أو الرهبة. ثم أضافا إليها سبباً آخر فيما بعد: المهر من مطاردة الشرطة. كان بيت آل ليال صغيراً، قديماً، متواضعاً، وبجاجة للطلاء والترميم. في الليل يئن بنعومة، مثل عجوز منهكة ومصابة بداء المفاصل. لقد صمم البروفسور ليال قبل سنوات طويلة، واضعاً نصب عينيه أن الشيء الوحيد الذي لا غنى عنه هو مطبخ فسيح تدور الحياة فيه ويتسع لمطبعة سرية، وفناء لنشر الملابس والجلوس لتأمل العصافير، وعدد كاف من الغرف تتوضع فيها أسرة الأولاد. وما خلا ذلك يعتمد على اتساع الروح وسعة المخيلة، وهكذا ما كان يقوله كلما دعى أحدهم ضيق البيت أو تواضعه. استقروا فيه، وكان ثمة متسع ورحابة صدر لاحتضان الأصدقاء المنكوبين والأقرباء القادمين من أوروبا هرباً من الحرب. كانوا اسرة متألقة، فإلى أن بلغ الأولاد سن المراهقة، وصاروا يحلقون شواربهم، كانوا يدسون أنفسهم في سرير أبيوه ليقرأوا الجريدة في الصباح وليطلبوا من هيلدا أن تحك لهم ظهورهم. وعند ذهاب البنين الكبارين، أحسن آل ليال أن البيت صار واسعاً، وصاروا يرون ظللاً في الاركان ويسمعون أصوات

في المرات ، ولكن الأحفاد ولدوا فيها بعد وعاد الصخب المعتاد إلى البيت.

كانت هيلدا تقول كلما نزل المطر لو ظهر ثقب يقطر منه الماء :

- لا بد من اصلاح السقوف واستبدال أنابيب التمديدات .

فبرد زوجها :

- لماذا؟ فما زال لنا بيت في تيرول^(١) ، وعندما يموت فرانكو سترجع إلى

اسبانيا .

كان البروفسور ليال يحلم بالعودة إلى وطنه منذ اليوم الذي حمله فيه السفينة بعيداً عن شواطئ أوروبا . وقد أقسم وهو ساخط على الزعيم^(٢) ، إلا يستخدم الجوارب إلى أن يأتيه خبر دفنه ، دون أن يتصور أن تحقيق رغبته سيتأخر عشرات السنين . وقد سبب له عهده هذا ظهور حراشف في قدميه وحمل له المضايقات في حياته المهنية . فقد كان يجتمع في بعض الأحيان بشخصيات رفيعة أو يتذبذب لإجراء امتحانات في المعاهد والأكاديميات ، فكانت قدماه العاريتان في حذائه الواسع ذي النعل المطاطي تثيران تقولات الآخرين . لكنه لشدة اعتداده بنفسه ، كان يفضل أن ينظروا إليه كأجنبي غريب الأطوار أو كبايس لا يكفي دخله لشراء الجوارب على أن يقدم آية تفسيرات . وفي المناسبة الوحيدة التي استطاع فيها الذهاب مع اسرته إلى الجبال للاستمتاع بالثلج عن قرب ، بقي في الفندق وقدماه زرقاءان ومتجمدتان كسمك الرنكة .

قالت له هيلدا متسللة :

- البس جورباً يا رجل . لا ترى أن فرانكو لا يعرف شيئاً عن عهده .
فألهبها بنظرة ملؤها الوقار وبيقي وحيداً إلى جانب المدفأة . وعندما مات

١ - تيرول : مدينة إسبانية . وبينما واضح أن البروفسور ليال وزوجته هما من المهاجرين الإسبان الذين حلوا إلى بلدان أمريكا اللاتينية بعد الحرب الأهلية الإسبانية وسقوط الجمهورية سنة ١٩٣٩ .

٢ - الزعيم Caukillo : من ألقاب الجنرال فرانكو ، قائد التمرد ضد الجمهورية الإسبانية .

عدوه اللدود، ليس زوجاً من الجوارب الحمراء اللامعة التي تعبّر بحد ذاتها عن كل فلسفته في الوجود، لكنه وجد نفسه مضطراً إلى نزع الجوربين من قدميه قبل مضي نصف ساعة على لبسهما، فقد أمضى زمناً طويلاً دون أن يستخدمها، ولم يعد بإمكانه احتفال الجوارب بعد كل ذلك الزمن. حينئذ، ولكن يداري عجزه، أقسم على موافله عدم استخدام الجوارب إلى أن يسقط الجنرال الذي يحكم بيد من حديد وطنه بالتبني.

كان يقول:

- أليسوني جوارب عندما أموت، اللعنة. أريد الذهاب إلى الجحيم بجوارب حراء.

لم يكن يؤمّن باستمرار الحياة بعد الموت، لكن كل احتياط في هذا المجال كان غير ذي قيمة بالنسبة لجلالته النبيلة. لم يجعله عودة الديمقراطية في إسبانيا يستخدم الجوارب كما أنها لم تُرجعه إلى وطنه، لأن أبناءه وأحفاده وجفوره الأميركيّة أعدته. كما أنّ البيت لم يرمم كما يجب، لأن العائلة سُغلت باهتمامات أخرى بعد الانقلاب العسكري. فبسبب أفكاره السياسيّة، أدرج اسم البروفسور ليال في لائحة غير المرغوب فيهم وأُجبر على التقاعد. لم يفقد تفاؤله وهو يجد نفسه بلا عمل وبراتب تقاعدي ضئيل، بل انه طبع في المطبخ بطاقة يعرض فيها اعطاء دروس في الأدب وزرعها حيث استطاع. وقد تمكن بتلاميذه القليلين من تحقيق تعديل طفيف على الميزانية، فاستطاعت الأسرة ان تعيش حياة بسيطة وتقدم المساعدة إلى خابير، حين وجد الابن الأكبر نفسه في صancفة مادية جديدة لا يستطيع معها القيام بأداء زوجته وأطفاله الثلاثة. انحدر مستوى معيشة آل ليال، كما حدث لكثيرين من وسطهم، فاستغنووا عن نفقات حضور الحفلات الموسيقية، والمسرح، والكتيب، والاسطوانات وبعض وسائل الترفيه الأخرى التي كانت تبعث السعادة في أيامهم. وفيها بعد، حين أصبح مؤكداً أن خابير لن يجد عملاً، قرر والده بناء غرفتين وحمام في الفناء ليضمّه اليهم مع اسرته. كان الإخوة الثلاثة يجتمعون في نهاية كل أسبوع لينبوا الأجر تحت اشراف البروفسور ليال،

الذى كان يحصل على معلوماته من كتاب في تعليم البناء اشتراه من تصفية كتب قديمة . وحيث أنه لم تكن لأي منهم أدنى خبرة في هذه المهنة ، ولأن الكتاب كان ناقصاً عدة صفحات ، فقد كانت نتيجة عملهم متوقعة . فحين ينتهي البناء ، سيكون عبارة عن جدران متموجة يفكرون باخفاتها ببلبل يغطيها . لقد عارض خابير حتى النهاية فكرة العيش عالة على والديه . فقد اكتسب بالوراثة طبع الاعتداد بنفسه .

- حيث يأكل ثلاثة ، يأكل ثمانية . قالت له هيلدا دون أن تبدل من رصانتها المعهودة . فهي حين تتخذ قراراً يكون قرارها غير قابل للاستئناف في الغالب .
وأضاف البروفسور ليال :
- إنها أزمنة رديئة يا بني ، وعلينا أن نتعاون .

وعلى الرغم من المصاعب ، فقد كان يشعر بالرضا عن حياته ، وكان سيشعر بالسعادة التامة لو لم تقلقه منذ سنوات شبابه العاطفة الثورية العاصفة التي حددت مسار حياته وطبياعه . فقد كرس جزءاً كبيراً من نشاطه ووقته وماله لنشر مبادئه الأيديولوجية . ربي ابناءه الثلاثة على عقيدته ، وعلمهم منذ نعومة أظفارهم على كيفية تشغيل آلة الطباعة السرية التي في المطبخ ، ورفاقهم لتوزيع المنشورات عند أبواب المصانع من وراء ظهر الشرطة . وكانت هيلدا إلى جانبه دوماً في الاجتماعات النقابية ، حاملة ساندرا الحياكة التي لا تكل في يديها والصوف في كيس على ركبتيها . وفيما زوجها ينطرب في الرفاق ، تسرح هي في عالم سري ، متذكرة ذكرياتها وحائكة العواطف ، ومعيدة بناء أجمل ما لديها من أشواق ، ساهبة تماماً عن صخب المناقشات السياسية . وعبر عملية اصطفاء طويلة وهادئة ، تمكنت من محوا الجزء الأعظم من نكباتها السابقة ولم تختفظ إلا بالذكريات السعيدة . فهي لم تتحدث يوماً عن الحرب ، ولا عن القتلى الذين دفعتهم ، ولا عن الحادث الذي وقع لها ولا عن مسیرتها الطويلة الى المنفى . الذين يعرفونها يعزون هذه الذكرة الاصطفائية الى الضررية التي شقت رأسها في

شبابها، لكن البروفسور ليال، القادر على فهم مدلول أدنى الإيماءات، كان يشك أنها لم تنس شيئاً. كل ما في الأمر إنها لا تريد حمل أحزان قديمة، ولذا فإنها لا تأتي على ذكرها، وتلغيها بالضياع لقدر ارفاقته زوجته عبر كل الدروب خلال زمن طويل، حتى إنه لا يستطيع أن يتذكر الحياة بدونها. فقد سارت إلى جانبها بخطوات واحدة في مظاهرات الشوارع. وربما أولادها في تعاون حميم. ومدت يد العون معه لآخرين أكثر بؤساً منهم، وعسكرت في العراء في ليالي الاضرابات، وكانت تستيقظ منذ الفجر لتختيط ملابس لآخرين حين لا يكفي راتبه للقيام بأود الأسرة، وقد رافقته بالحمس نفسه إلى الحرب وإلى المنفى، وحملت له الطعام الساخن إلى السجن عندما اعتقل، ولم تفقد اتزانها يوم حجزوا على اثاث بيتها، كما لم تفقد طيب مزاجها حين ناما مرتعشين من البرد على سطح الدرجة الثالثة في سفينة اللاجئين. كانت هي لدا تتقبل كل شذوذات زوجها - وهي ليست بالقليلة - دون أن تعكر صفوها، لأنها لم تفعل شيئاً خلال حياتها المشتركة الطويلة إلا مراكمه الحب نحوه.

قبل زمن بعيد، وفي ضيعة إسبانية صغيرة، بين جبال وعرة وكروم عنب، طلبها للزواج. فرددت عليه إنها كاثوليكية وتفكر بالبقاء كذلك، وأنه لا يوجد لديها شيء شخصي ضد ماركس، لكنها لا تطيق وجود صورته فوق السرير، وإنها ستعدم أولادها لتحول دون المجازفة بموتهم مسلمين وانتهائهم إلى الليمبوس^(١). كان بروفسور المنطق والأدب شيوعياً مندفعاً وملحداً، لكنه لم يكن يخلو من بعد نظر، وأدرك أنه لا شيء سيبدل من رأي الصبية المتوردة الهشة ذات العينين البراقين، والتي أحبها جباراً. وكان من الخير له بالتالي أن يغاؤضها للتوصل معها إلى اتفاق. فاتفقا على الزواج من خلال الكنيسة، وهي الطريقة القانونية الوحيدة للزواج في ذلك الزمان، وأن يتلقن الأولاد أسرار الكنيسة على أن يتلقوا

١ - الليمبوس Limbo : موطن الأرواح النسبة أو المهملة، المحرومة من دخول الجنة لغير ذنب اقترفته، كأرواح الأطفال غير المعدين.

علومهم في مدارس علمانية، وأن يختار هو أسماء الأبناء الذكور بينما تختار هي أسماء الاناث، وأن يُدفنا في قبر بلا صليب، توضع عليه لوحة يختار هو مضمون الكتابة التي ستنتقش عليها. وقد وافقت هيلدا لأن هذا الرجل الضامر رداً على الدين الشبيهتين بيدِي عازف بيانو، والذي في عزوفه نار متقدة هو من كانت تريده زوجاً لها. وقد نفذ البروفسور الجزء الخاص به من الاتفاق بالاستقامه الصارمه التي يتصرف بها، لكن هيلدا لم تكن بممثل استقامته. في يوم ولادة الابن البكر، كان زوجها غارقاً في غمرة الحرب، وعندما استطاع الذهاب لرؤيتها، كان الابن قد تعمد باسم خابير، مثل جده. وكانت المرأة في حالة يرثى لها والوقت غير مناسب للبدء في خصم، لكنه قرر أن يلقبه فلاديمير، الأسم الأول للبنين. غير أنه لم يستطع فرض ذلك أبداً، فحين كان ينادي بهذا الأسم، كانت زوجته تسأله أية شياطين يعني، وكان الصغير من جهته ينظر إليه مذهولاً ولا يرد عليه. وقبيل الولادة الثانية، استيقظت هيلدا في صباح أحد الأيام لتروي حلمها رأته: متولد طفلاً ذكراً، ولا بد من تسميته خوسه. تجادلا بعصبية لبضعة أسابيع، إلى أن توصلوا إلى حل مناسب: خوسه ايلتش. ثم قدما قطعة عملة معدنية في الهواء ليقررا أي الأسمين يستخدمان فكسبت هيلدا، إلا أن الذنب في هذه المرة لم يكن ذنبها، وإنما ذنب الحظ الذي لم يرقه الأسم الثاني للقائد الشوري. بعد عدة سنوات ولد الابن الأخير، وكان البروفسور ليال قد فقد شيئاً من حماسه تجاه السوفيت، نجا الوليـد من تسمـيـته أولـيانـوفـ. وأطلقت عليه هيلدا اسم فـرانـثـيسـكـوـ، تـكـرـيـباـ للقديـسـ دـيـ اـسـيسـ، شـاعـرـ الفـقـراءـ وـالـحـيـوانـاتـ. وـربـماـ هـذـاـ السـبـبـ، وـلـكـونـهـ الـأـصـفـرـ سـنـاـ وـالـأـكـثـرـ شـبـهـاـ بـأـبـيهـ، أـولـتـهـ حـنـانـاـ خـاصـاـ. وـقـدـ كـافـاـ الطـفـلـ حـبـ أـمـهـ الشـامـلـ بـعـقـدـةـ أـوـدـيـبـ مـكـتمـلـةـ دـامـتـ حـتـىـ بـلوـغـهـ سـنـ الرـشـدـ حـينـ جـعلـهـ التـبـدـلـ الـدـيـ طـرـأـ عـلـىـ حـيـاةـ أـخـوـيـهـ يـدـرـكـ أـنـ تـوـجـدـ نـسـاءـ أـخـرـيـاتـ فـيـ هـذـاـ عـالـمـ».

في صباح يوم السبت هذا، أنهى فرانثيسكو تناول الشاي، وألقى على كتفه الحقيقة التي تضم معدات التصوير ودفع الأسرة.

قالت أمه :

- تدثر جيداً، فهواء الدرجة التاربة مؤذ.

فقال زوجها :

- دعيه يا امرأة، فهو لم يعد طفلاً.

وصحك الابنان.

★ ★ ★

في الشهور الأولى التي تلت ميلاد ايفانخيلينا، ندبنا ديفينا رانيكليوسوء طالعها وفكترت بان السماء تعاقبها لذهابها إلى المستشفى بدلاً من البقاء في البيت. فالكتاب المقدس يقول : بالألم ستلدين ، وهذا ما ذكرها به القس الموقر كذلك. لكنها أدركت فيما بعد كم هي نوايا الرب بعيدة الغور. فربما كانت هذه المخلوقة الشقراء ذات العينين الزرقاويين تعني شيئاً في قدرها . وبمساعدة روحية من جانب الكنيسة الانجليكانية الحقيقية ، قبلت الاختبار وأبدت استعدادها لحب هذه الطفلة ، رغم نزواتها . كثيراً ما كانت تتذكر الطفلة الأخرى ، التي أخذتها الاشبينية فلوريس والتي هي ابنتها الحقيقة . وكان زوجها يواسيها بالقول إنها تبدو أكثر عافية وقوة ولا بد أنها ستعيش حياة أفضل في بيت الأسرة الأخرى .

- آل فلوريس يملكون قطعة أرض جيدة . ويشاع أنهم سيشترون جراراً . وهم ذوو خبرة ، ويتمون إلى النقابة الفلاحية - هكذا كان هيوليتوبيرر الأمر بعد عدة سنوات ، وقبل أن تنقض الكارثة على بيت آل فلوريس .

بعد الولادة ، حاولت المرأة المطالبة بابتיהםا ، مؤكدين انهم رأتاهما تولدان وانهما انتهتا إلى وقوع الخطأ من لون شعرهما ، لكن مدير المستشفى رفض الاستماع إلى أي كلام في هذا الموضوع وهدد بارسالهما إلى السجن بتهمة بث الافتراءات ضد المؤسسة الصحية . واقتراح الابوان استبدال الابتين ببساطة وحل القضية ، لكن المرأة لم ترضيا بعمل ذلك دون سند قانوني . وقررتا أن تبقى كل منها مؤقتاً على الطفلة التي تحملها بين يديها إلى أن تتضح المشكلة أمام السلطات . ولكن بعد اضراب في جهاز الخدمات الصحية ونشوب حريق في

السجل المدني، حيث استبدل الموظفون واحتفى الأرشيف، انتهت آمالها بالوصول إلى نتيجة مرضية. فاختارت أن تربى كل منها ابنة الأخرى وكأنها ابنتها. وعلى الرغم من أنها كانتا تعيشان على مسافة ليست بالبعيدة، فقليلًا ما كانت الفرصة تسع لها للقاء، لأن حياتيهما كانتا منعزلتين. لقد اتفقنا منذ البدء على أن تدعوك كل منها الأخرى بلقب أشبيه، وأن تعمداً المولودتين بالاسم ذاته، حتى إذا ما استعادتا كننيتها الشرعية يومًا لا تضطران إلى التالف مع اسم جديد. كما أطلعتا الصغيرتين على الحقيقة مذ وصلتا إلى سن الارادك، لأنهما سترفان ذلك عاجلاً أو آجلاً. فجميع أهل المنطقة يعرفون قصة ايفانخيليتين المستبدلتين، ولن يعدم من ينقل القصة إلى الفتاتين.

أصبحت ايفانخيلينا فلوريس فلاحة تقليدية سمراء، ذات عينين ثاقبتين، ووركين ضخميين وهندين مكورين، ومستقرة تماماً فوق ساقيها الميتين والمنحوتين. كانت متينة وذات مزاج مرح. أما آل رانكيليوف فكانت من نصيهم ابنة بُكاءة، مسوسة، هشة ومحتجزة لعنابة دقيقة. كان هيوليتو يولوها اهتماماً خاصاً، تقديرأ منه واحتراماً لبشرتها الوردية وشعرها الأشقر، الغربيين تماماً عن الأسرة. فهو يراقب ابناء الذكور مراقبة صارمة حين يكون في البيت، كي لا يتجاوزوا الحدود مع هذه الطفلة التي لا تحمل دماءهم. وقد فاجأ ابنه براديليو في مناسبتين وهو يداعبها ويلامسها بخبث، ويبوسها، ولكي يضع حدأً لميلوه في ملامستها ضربه ضرباً كاد يودي به إلى الحياة الأخرى، لأن ايفانخيلينا ستكون أمام الله والبشر مثل اخته. لكن هيوليتو لم يكن يقيم في البيت إلا لبضعة شهور وغير قادر على فرض احترام أوامره في بقية شهور السنة.

منذ أن هرب للعمل في سيرك وهو في الثالثة عشرة من عمره، مارس هيوليتو رانكيليوف هذه المهنة ولم يعد يهتم بسواها مطلقاً. كانت زوجته وأولاده يودعونه عندما تبدأ الأجواء الطيبة الدافئة وتزهر الخيام المرقعة. يمضي من قرية إلى قرية ذارعاً البلاد لعرض مهاراته في جولات كرنفالية باشة ومرهقة. كان يؤدي أعمالاً متعددة تحت الخيمة. ففي أول الأمر كان يقفز على الارجوحة ويؤدي

الحركات البهلوانية، لكنه فقد القدرة على التوازن والمهارة مع مرور السنين، ثم عمل لوقت قصير في ترويض ضوارٍ تبعث على الرثاء، فكانت تثير شفقته وتحطم أعصابه. ثم قنع أخيراً بالعمل كمهرج. لقد كانت حياته، مثل حياة أبي فلاح، محكومة بحالة الأمطار وضوء الشمس. وخلال شهور البرد والرطوبة، لم يكن الحظ يبتسم للسيركات الفقيرة، فكان يركن للبيات الشتوي في بيته، ولكن مع تنفس الربيع، يقول لأهل بيته وداعاً وينطلق دون تردد، تاركاً لزوجته مسؤولية الأولاد وأعمال الحقل. فهي تحسن إدارة هذه الأمور خيراً منه، لأنها تحمل في عروقها خبرة أجيال عديدة. والمرة الوحيدة التي ذهب فيها إلى القرية ومعه نقود المحسول ليشتري ملابس ومؤونة للسنة، شرب حتى سكر وسرقوا منه كل شيء، فافتقدت مائدة آل رانكيليو السكر لعدة شهور، ولم يحصل أي منهم على حذاء جديد، ومن هنا جاءت ثقته بترويض زوجته مسؤولية المهام التجارية. وكانت هي أيضاً تفضل أن تكون الأمور على هذا الحال. فمنذ بدء حياتها الزوجية ألت على عاتقها مسؤولية الأسرة والزراعة. وكان من الأمور الطبيعية رؤيتها منكبة على المعجن أو على المحرات، أو محاطة بحشد صبيحة من مختلف الأعمار يتعلقون بآذياها. ثم كبر براديليو وظنت أنه سيساعدها في أعمالها الكثيرة، ولكن ابنها كان منذ بلوغه الخامسة عشرة أقوى وأطول فتى عرفه تلك الانحاء، لهذا أدرك الجميع أنه بعد انتهاءه من الخدمة العسكرية سيلتحق دون ريب بسلك الشرطة.

عندما تهطل أول الأمطار، كانت ديجنا رانكيليو تنقل كرسيها إلى المر وتجلس هناك لمراقبة منعطف الطريق. وفيها يداها مشغولتان دوماً في صنع سلال من القش أوفي تقييف ملابس الأطفال، كانت عيناهما المتيقظتان ترنوان إلى الطريق بين الفينة والفينية. وفجأة، في يوم لا على التعين، يظهر شبح هيبوليتو الضئيل حاملاً حفيته الكرتونية. ها هوذا محظوظاً اشواعها يتجسد في آخر الأمر، مقترباً بخطوات تصعب أكثر تناقلًا عاماً بعد عام، لكنه رقيق ومرح كما كان على الدوام. فيدوخ قلب ديجنا، تماماً مثلما حدث لها في المرة الأولى منذ سنوات بعيدة، حين، تعرفت عليه عند شباك التذاكر في سيرك جوال، بيدلته البالية المخططة

بالأخضر والذهبي وتعابير عينيه السوداين الهائجة، محضًا الجمهور على الدخول لمشاهدة الاستعراض. كان له حيئته وجه مريح، لأنه لم يكن قد وضع قناع المهرج على بشرته بعد. لم تكن زوجته قادرة على استقباله استقبالاً طبيعياً أبداً. فقد كانت تضغط على صدرها لتداري انفعالات مراهقة تدفعها للقفز نحوه والتعلق بعنقه لتخفى دموعها. لكن شهور الفراق كانت تولد فيها الخفر وتجعلها تحبّه بتحية متحفظة، خافضة عينيها، ومتوردة الوجنتين خجلاً. هاموها رجلها هنا. لقد رجع. كل شيء سينتبدل لبعض الوقت، لأنّه يتقدّم التعرّيف عن غيابه. وفي الشهور التالية تنهل إلى جميع الأرواح الخيرة التي في كتابها المقدس كي يستمر هطول المطر دون توقف ويتجدد التقويم على شتاء بلا نهاية.

أما بالنسبة للأبناء، فقد كانت عودة الأب حدثاً لا أهمية له. فلدي رجوعهم في أحد الأيام من المدرسة ^{لهم من العمل في المقطول}، يحملونه جالساً إلى جانب الباب على كرسيه المقش، وكأس المتم في يده، منسجحاً مع لون الخريف، وكأنه لم يتعد يوماً عن هذه الأرياف، وعن هذا البيت، وعن هذه الدوالى التي تحف عناقدها المعلقة في الكلابات، وعن الكلاب المستقلة في الفناء. ويلمح الأولاد عيني أحهم المعكرين، وحيوية حركاتها في خدمة زوجها، ومراقبتها القلقة هذه اللقاءات بين الأبناء وأبيهم لتحول دون اقدام الأولاد على أية منفأة. فاحترام الأب هو دعامة الأسرة، كما يقول العهد التقديم، وهذا فإنه من نوع على الأولاد أن يدعونه باسم «طوني تشالوبوا»، كما لا يكتنفهم الجديش عن عمله كمهرج، ولا أن يوجهوا إليه استئلة، وإن ^{يبيه} يتظلونوا إلى أن يجدنهم عندما يرغب في ذلك. في سنوات شبابه، عندما كان ^{سيوليت} يُقذف بواسطة مدفع من أحد طرق خيمة السيرك إلى الطرف الآخر، وهو على الشبكة وهو يعيق برائحة البارود ويبتسم ابتسامة قلقة، كان يمكن للأولاد أن يشعروا بالفخر به بعد أن يزايدهم المفروض عليه، لأنه كان يطير مثل باشق. لكن ديناً لم تعد تسمع لهم بالذهب إلى السيرك فيما بعد ليروا أيامهم وهو ينحدر ليقتصر على إداء القفزات التهريجية، لأنّها كانت تفضل أن يحتفظوا في ذاكرتهم بتلك الصورة الناجحة وألا يخلوا من

ملابسه كمهرج عجوز، ذليل ومهان، يطلق الريح، ويتكلم بصوت مصطنع ويضحك بلا سبب. وعندما مر السيرك من لوس ريسكوس وهو يجر دباً متوف الفروونودي على الأهالي بالزمار ليشهدوا الاستعراض الدولي العظيم الذي ينشده الجمهور في كل مكان، رفضت أخذ الأولاد خوفاً من رؤية المهرجين، لأنهم جميعهم متشابهون في الهيئة وكلهم مثل هيبوليتو. ومع ذلك، وفي حيّمية المنزل، كان يتذكر ويطلي وجهه، ولكن ليس لأداء قفزات تهريجية لا وقار فيها أولرواية نكات بذيئة، وإنما ليمتعهم بقصصه عن الغرائب: المرأة الملحية، والرجل الغوريلا الذي تصل قوته حد القدرة على سحب شاحنة بسلك مثبت بين أسنانه، وأكل النار القادر على ابتلاع شعلة متقدة بالنفط لكنه يعجز عن اطفاء شمعة باصبعه، والقزمة بيضاء الشعر والوجه التي تمنطي رdf عنزة، والبهلوان الذي سقط على رأسه من الارجوانة العليا ولطخ الجمهور الموقر بفتات دماغه. ولدى الانتهاء من رواية هذه الحكاية المأساوية، كان هيبوليتو يعلق موضحاً:

- ان دماغ المسيحيين مشابه لأدمغة البقر.

ولم يكن أولاده يملون الاستماع إلى القصص ذاتها مرة بعد أخرى وهم متخلقون حول أبيهم. وأمام عيون أفراد الأسرة المشدوهين الذين يستمعون إلى كلماته المتوقفة في الزمن، كان هيبوليتو رانكيليو يسترد كل الوارق المسفوح في الاستعراضات المبتذلة، حيث يكون محطاً للسخريات.

في بعض ليالي الشتاء، وبعد أن يكون الأطفال قد ناموا، كانت ديعنا تخرج الحقيقة الكرتونية المخبأة تحت السرير وتصلح على ضوء شمعة ملابس عمل زوجها، فتعيد تثبيت الأزرار الضخمة الحمراء، وترفوماً ترقق هنا وتضع رقعة استراتيجية هناك، وتلمع بشمع النحل الحذاء الأصفر العجيب، وتحيك سراً جوارب التتكر المخططة. وكانت تستغرق في هذا العمل كاستغراقها الحالي في لقاءاتها الغرامية القصيرة. ففي الصمت الليلي تتعاظم الأصوات الخافتة، ويصفع المطر قرميد السطح وتُسمع بوضوح أنفاس أولادها النائمين في الأسرة

المجاورة، حتى أنه يمكن للأم أن تخزِر أحلامهم. في ذلك الصمت. كان الزوجان يتعانقان تحت الغطاء، حابسين أنفاسهما، يلفها دفء مؤامرتها الغرامية السرية. وعلى خلاف غيرهما من الفلاحين، فقد تزوجا بعد أن أحب كل منها الآخر، وبالحب أنجبا أولاداً. وهذا فإنها لم يندما على مجيء طفل جديد حتى في أقصى أزمته الجفاف أو الزلزال أو الفيضانات، حين تكون القدر فارغة، لأن الأطفال مثل الورد والخبز، كما تقول احدى مباركات الرب.

كان هيبوليتو رانكيليويغتمن فرصة وجوده في البيت لينصب الأسيجة، ويجمع الخطب، ويصلح أدوات العمل، ويرفع السقف عندما يهدأ المطر. ومن مدخلات جولات السيركية، ومن بيع العسل والخنازير، كان يقوم بأود اسرته بفضل تدابير اقتصادية متشددة. لم يكن الطعام يفتقد في سنوات الرخاء، ولكن المال كان شحيحاً حتى في أحسن الأوقات. ما كانوا يرمون أو يهدرون شيئاً. فالصغرى يأخذون ملابس من هم أكبر منهم سنًا ويستخدمونها إلى أن لا تعود الأنسجة المهرئة تحتمل مزيداً من الترقع وتتفتت مثل قشور جافة. والكتزات الصوفية كانت نُفك حتى آخر خيط منها، فيغسل الصوف ثم تعاد حياكته. كان الآب يصنع نعالاً للجميع، وكانت الأم لا تريح ساندري حياكة الصوف وماكينة الخياطة. ما كانوا يشعرون بالفاقة مثل بعض الفلاحين الآخرين، لأنهم كانوا يملكون الأرض الموروثة عن الأجداد، ولديهم بهائمهم وأدوات عملهم الزراعية. لقد تلقوا مرة فيها مرضي قرضاً زراعياً وأحسوا بالازدهار لبعض الوقت، لكن الأمور ما لبثت أن عادت إلى وثيرتها القديمة. كانوا يعيشون على هامش سراب التقدم الذي يُنزل النكبات ببقية أرجاء البلاد.

همست ديغنا لزوجها:

- هيبوليتو، كفاك نظراً إلى إيفان خيلينا.

فقال:

- قد لا تأتيها النوبة اليوم.

- ستأتيها دوماً. لا تستطيع عمل شيء.

انتهت الأسرة من تناول الفطور، وتفرق أفرادها، ساحجاً كل منهم كرسية
الخاص. كان الصغار يسرون يومياً، من الاثنين وحتى يوم الجمعة، نحو
نصف ساعة من المشي السريع للذهاب إلى المدرسة. وفي الأيام الباردة، تعطي
الأم لكل واحد منهم حصاة مسخنة في النار ليضعها في جبيه، وبهذا تبقى يداه
دافئتان. كما كانت تعطيهما قطعة من الخبز وقاليين من السكر. ففي السابق، حين
كانوا يقدمون لهم حلباً في المدرسة، كانوا يستخدمون السكر لتحليله، ولكنهم
منذ سنوات صاروا يمتصون قطع السكر في الفسحة وكأنها حلوى. إن نصف
ساعة المسير هذه كانت رحمة إلهية، لأنهم حين يصلون إلى البيت تكون نوبة
اختهتم قد انقضت ويكون الزائرون قد انصرفوا. لكن اليوم هو السبت،
وسيكونون حاضرين في الغالب، وسيبلل خايتسو فراشه من هول كوابيسه.
إيفانخييلينا لم تعد تذهب إلى المدرسة منذ ظهرت أول علامات تغيرها. إن أمها تذكر
بدقة كيف بدأت المصيبة. كان ذلك يوم مؤتمر الضفادع بالذات. لكنها متأنكة
من أن هذا الحادث لا علاقة له بمرض الطفلة.

في صباح أحد الأيام الباكر، اكتشفوا وجود ضفدعتين متكبرتين تأملان المشهد الطبيعي قريباً من تقاطع السكة الحديدية. وبعد ذلك بقليل جاءت ضفادع أخرى كثيرة قادمة من كل الاتجاهات، ضفادع مستنقعات صغيرة، وضفادع أبار متوسطة الحجم، وضفادع بيضاء من السوادي، وضفادع رمادية من الأنهر. أطلق أحدهم صوت الانذار، فهرع الجميع لرؤيتها. وفي أثناء ذلك انتظمت الضفادع في صفوف متلاحمة وانطلقت في مسيرة منتظمة. وأثناء الطريق انضم إليها ضفادع أخرى حتى صار هناك حشد أخضر يتجه نحو الطريق العام. انتشر الخبر، وجاء الفضوليون سيراً على الأقدام، وعلى الخيول، وفي الحالات، متداولين حول هذه الأعجوبة التي لم يسبق لها مثيل. واحتل ذلك المازبيك السابض بالحياة أسفل الشارع الرئيسي المؤدي إلى لوس ريسكوس، مجرأً السيارات التي كانت تذرع الطريق في تلك الساعة على التوقف. وقد حاولت شاحنة متهرة التقدم، فانزلقت فوق جثث الضفادع الممزقة وانقلبت عن الطريق

وسط حاس الأطفال الذين سارعوا للاستيلاء على البضائع التي تناولت في المحرش. طارت الشرطة فوق المنطقة في طائرة هليوبكتر للتأكد من أن هناك مثبات وسبعون متراً من الطريق مغطاة بضفادع متراصة حتى لتبدو وكأنها سجادة براقة من الطحالب. اذيع الخبر من الاذاعة، وبعد وقت قصير حضر الصحفيون يرافقهم خبير صيني من الأمم المتحدة، أكد أنه قد رأى ظاهرة مشابهة في طفولته في بكين. نزل الأجنبي من سيارة سوداء ذات لوحة تسمية، حيث إلى اليسار وإلى اليمين وصفق الحشد له، خالطين طبعاً بينه وبين رئيس جمعية المغتنين الهواة. وبعد أن تفحص الشرقي تلك الحشود الهلامية لبعض دقائق، استنتج أنه لا مبرر للذعر، فالأمر لا يدعو أن يكون مؤمراً للضفادع واستخدمت الصحفة تلك التسمية. ولأن الزمن كان زمن فقر وندرة، فقد سخرت الصحف قائلة انه نظراً لافتقاد الماء، أرسل رب الضفادع من السماء كي يطعخها شعبه المختار مع الثوم والذكرية.

عندما أصابت النوبة ايفانخيلينا، كانت الضفادع المشاركة في المؤتمر قد تفرقت، وكان مصورو التلفزيون ينزلون معداتهم عن الأشجار، وال الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، وكان الماء يتلاًأ نقياً، وقد غسله المطر. بقيت ايفانخيلينا وحدها في البيت يومئذ، وكانت دينغنا وحفيدها خاثينتو يطععان الخنازير فضلات المطبخ. وبعد أن ألقيا نظرة على استعراض الضفادع، أدركوا أنه لا وجود لما هو أكثر من ذلك، فالامر ليس إلا اجتماع دوبيات مقرف، فرجعا إلى عملهما. ونبهتهما صرخة حادة وجلبة تحطم آوان خزفية إلى ان شيئاً يحدث في البيت. هرعا إلى هناك، فوجدا ايفانخيلينا مستلقية على الأرض، مستندة على عقبيها ومؤخرة رأسها، ومنحنية إلى الوراء مثل قوس، وهي تقذف الزبد من فمها، ومحاطة بالفناجين والأطباق المهمشة.

لجلأ الأم المذعورة إلى الوسيلة الأولى التي خطرت لها: أفرغت عليها سطلاً من الماء البارد، لكن هذا لم يهدئها، وإنما ضاعف من حالتها المرعبة، فتحولت الزبد إلى لعاب وردي عندما عضت الصبية لسانها، وانقلبت عيناهما

لتضييعا في اللامهایة، وانتقضت مرتعشة وعقبت الحجرة بالكتابة ورائحة البراز. كان التوتر عنيفاً، حتى ان جدران الطين السميكة بدت وكأنها تهتز بزلزال في داخلها. فاحتضنت ديجنا خاثيتومغطية عينيه كي لا يرى ذلك السحر المشؤوم. استمرت النوبة لبضع دقائق، مخلفة الانهاك لايفانخيلينا والذعر للأم والأخ، وانقلاب البيت رأساً على عقب. عندما جاء هيبوليتو والأولاد الآخرون الذين كانوا يتفرجون على مؤخر الضفادع، كان كل شيء قد انقضى، وكانت الفتاة تستريح على كرسيها والأم تجتمع فتات الأطباق المهمشة.

قال الأب مشخصاً الداء عندما اخبرته بها حدت:

- لقد لدغها عقرب أحمر.

- فحصتها من رأسها حتى أخمص قدميها. ليست لدغة.

- لا بد أن يكون الصرع إذن.

لكن ديجنا كانت تعرف أعراض هذا الداء وتعلم انه لا يؤدي إلى تخريب الأثاث. وفي مساء ذلك اليوم بالذات قررت أخذ ايفانخيلينا إلى سيمون المداوي. فتصححها هيبوليتو قائلاً:

- من الأفضل أن تأخذها إلى طبيب.

- أنت تعرفرأبي بالمشافي والأطباء - ردت امرأته وهي موقنة أنه إذا كان للصبية من علاج، فإن دون سيمون سيعرفه.

لقد انقضت حتى يوم السبت هذا خمسة أسابيع على النوبة الأولى دون أن يتمكنوا من عمل شيء للتخفيف عنها. وهاهي ايفانخيلينا تساعد أمها في غسل الأدوات، فيما الصباح يمضي، وتقرب الظهرة المرهوبة.

قالت ديجنا آمرة:

- أعدى الأباريق للماء والدقيق يا بنبي.

بدأت ايفانخيلينا بالغناء وهي تصف أواني الألمنيوم والinox المطلية فوق الطاولة. وكانت تسكب في كل إناء ملعقة من الدقيق المحمص وقليلًا من

العسل. وستضيف الماء فيما بعد لتقدمها إلى الزائرين الذين يأتون في لحظة غيبوتها، آملين أن يستفيدوا من وقوع معجزة بائسة.

همهمت ديننا:

- لن أقدم لهم شيئاً ابتداء من يوم غد. سنخرب بيتنا.

- لا تقولي هذا يا امرأة. ألا ترين أن الناس يأتون بداعف المحبة. ولن يجعلنا تقديم قليل من الدقيق أكثر فقرأ - رد عليها هيبيوليت، فأطربت رأسها. لأنه هو الرجل وهو دائمًا على صواب.

كانت ديننا توشك على البكاء، وأدركت أنها بدأت تفقد أعصابها، فمضت بحثاً عن بعض أزهار الزيزفون لتغلي منها شراباً مهدئاً. لقد كانت الأسابيع الأخيرة عذاباً لا يطاق. فهذه المرأة القوية الصابرة، التي راكمت الآلام وتحملت الفاقة المدقعة، ومهام الأمومة ومشاقها دون أية شكوى، أحسست أنها على حافة الغرق حيال هذا السحر الذي يحيط على بيتها. كانت متأكدة من أنها فعلت كل ما تستطيعه من أجل شفاء ابنتها، حتى أنها أخذتها إلى المستشفى حانثة بقسمها الذي أقيمت به بلا طرأ ذلك المكان أبداً. لكن كل جهودها كانت بلا جدوى.

★ ★ ★

حين قرع فرانسيسكو جرس الباب، تمنى ألا تظهر له بيتريس الكانترا. فهو يشعر بالحياء في وجودها.

- هذا هو فرانسيسكو ليال يا ماما، أحد رفافي - هكذا قدمته إيرين لأمها للمرة الأولى ، منذ عدة شهور.

وردت السيدة التي لم تستطع احتمال ما تضمره الكلمة رفيق من معنى ثوري:
- زميلك، أليس كذلك؟

منذ ذلك اللقاء عرف كل منها ما يمكن أن يتنتظره من الآخر، ومع ذلك فقد سعيا لإظهار المودة، ليس لسرة نفسها وإنما العادات بها في حسن المعاملة

والبلقة. استقصت بياتريس دون تأخير وعلمت ان فرانشيسكو ينحدر من ابوبن اسبانيين مهاجرين بلا ثروة، يتميّان إلى تلك الفئة من المثقفين المأجورين الذين يعيشون في أحياط الطبقة الوسطى. وراودتها الشكوك في الحال من أن مهنته كمصور، وأخلاقه، ودرجته التارية ليست مؤشرات على حياة بوهيمية. فقد كانت للشاب أفكاره الواضحة التي لا تلتقي مع أفكارها. ان ابنتها ايرين تنسج علاقات مع أناس غربين وهي لا تعارضها في ذلك، لأن معارضتها ستكون دون جدوى على كل حال، ومع ذلك فقد مانعت بكل ما استطاعت صداقتها مع فرانشيسكو. لم تكن تروّقها رؤية ايرين سعيدة بعلاقتها به، ورؤيتها متهددين بروابط العمل المشترك المتينة، كما لم يكن يروّقها أبداً تخيل نتائج مثل هذه الصدقة على خطوبتها من الكابتن. لقد اعتبرته شخصاً خطيراً، لأنها هي نفسها كانت تشعر بالليل إلى عني المصوّر السوداين، ويديه الطويلتين وصوته الهاديء.

ومن جهة، أدرك فرانشيسكو منذ الوهلة الأولى كنه عقيدة بياتريس وأوهامها الطبقية. فوقف عند حد معاملتها معاملة مهذبة ومحفظة، متأسفاً لكونها أم أفضل صديقة له.

وحين رأى البيت، فتن ثانية بالجدار السميك الذي يحيط بالعمارة، والمبني من أحجار نهرية مدورة، تحف بها نباتات قزمة ظهرت بفعل رطوبة الشتاء. كانت هناك لوحة معدنية وقورة كتب عليها «ماوى عجزة» وتحت هذه العبارة اسم للمأوى ينسجم مع مزاج ايرين الساخر: «مشيشة الرب». لقد فتنه دوماً ذلك التباين القائم بين الحديقة المذهبة، حيث ستتفتح عيناً قريباً أزهار الداليا والورود والدلبوث في انفجار شذى ولون، وشি�خوخة نزلاء الطابق الأول من المبني المتحول إلى مسكن للمسنين. أما في الطابق العلوي فكان كل شيء متناسقاً وينم عن ذوق رفيع. فهناك السجاد الشرقي، والأثاث الفخم، واللوحات الفنية التي اقتناها اوسيبيو بيلتران قبل أن يختفي. كان البيت مماثلاً لبيوت الحي الأخرى، لكن بياتريس، ويدافع الحاجة، أدخلت عليه بعض التعديلات، محفوظة قدر الامكان بواجهة المدخل على حالها كي يبدو البيت من الشارع فخماً مثل البيوت

المجاورة. فقد كانت شديدة الحساسية في هذا الأمر، فهي لا تود الظهور كمن تناجر بالمسنين، وانما كما لو كانت تقوم بعمل خيري . يا للمساكين .. أين ستنتهي بهم الأحوال إذا نحن لم نعتن بهم؟

وكانت تستخدم مثل هذا الخذر عندما تتحدث عن زوجها . فهي تفضل اتهامه بالذهب إلى مكان مجهول برفقة امرأة سيئة السمعة ، على ان تبدي شكوكاً في اتجاه آخر . والحقيقة انها كانت ترتتاب في أن غيابه ليس مرتبطاً بمعافمة عاطفية ، بل ان الاحتمال الأرجح هو أن قوى الأمن قد صفتة سهواً أو أنها تعاقله نتيجة خطأ ما في أحد المعتقلات ، مثل معتقلين كثيرين يدور الهمس حول مصيرهم في السنوات الأخيرة . ولم تكن هي وحدها من يفكرون بمثل هذه الأفكار السوداء . فقد كانت صديقاتها يراقبنها برببة في أول الأمر ، ويهمنن فيما بينهن من وراء ظهرها أن اوسيبيو بيльтران قد وقع في قبضة السلطة ، وأنه اقترف والامر كذلك ذنبآ دون شك : فقد يكون شيئاً اخطلت بالناس المحترمين مثل أولئك الموجودين في كل مكان . ولم تكن بياتريس ترغب في تذكر التهديدات والسمخيات الهاتفية ، ولا الرسائل المغفلة التي كانت تنزلق من تحت الباب ، ولا تلك المناسبة التي لا سبيل إلى نسيانها حين أفرغوا أكواباً من القهوة على سريرها . ففي تلك الليلة لم يكن في البيت أحد ، لأن روسا كانت قد خرجت كذلك ، وحين رجعت بياتريس مع ابنتها من المسرح ، كان كل شيء مرتباً ولم تستغربا سوى صمت الكلبة . بدأت ايرين بمناداتها والبحث عنها في الغرف وبياتريس وراءها تشعل الأنوار . وصعقتا وهما تريان على الأسرة حين شد ركاماً من الفضلات والعلب للفارغة وفشور البيض القدرة وأوراقاً ملطخة بالبراز . ووجدتا كلية محبوسة في احدى الخزائن وهي كالملينة ، وبقيت الكلبة على هذا الحال خمس عشرة ساعة إلى ان استعادت وعيها من تأثير المنوم . جلست بياتريس في تلك الليلة تتأمل القدرة والبراز على سريرها دون أن تدرك معنى هذا الاستفزاز . لم تستطع ان تخمن من هو الذي حمل أكياس القهوة إلى البيت ، وفتح الباب بفتحة لصوص ، وخدر الكلبة وحرق كل شيء

بهذه الطريقة. لم يكن مسكن العجزة الذي في الطابق الأول موجوداً في ذلك الحين، كما لم يكن لديهم خدم سوى روسا والجنائي.

بكث بياتريس:

- لا تحدثي أحداً بهذا الذي جرى يا بنتي. إنها اهانة، عار.
- لا تفكري بالأمر كثيراً يا أماه. ألا ترين أنه عمل شخص معته؟ لا تقلقي.

لكن بياتريس الكانترا كانت تعلم أن هذه الاهانة علاقة ما بزوجها، فشتمته مرة أخرى. تذكرت تفاصيل ذلك المساء الذي هجرها فيه اوسيبيو بيلتران. كان يهجم في تلك الأيام بصفة الخراف المخصصة لل المسلمين وبالزيارة الخيرية التي أوصلته إلى الأفلام. كان قد مضى على زواجهما أكثر من عشرين سنة وكان صبر بياتريس قد نفد. ما كانت قادرة على احتمال لا مبالاته وخياناته الزوجية الكثيرة، واساليبه المستنكرة في انفاق النقود على الطائرات الصغيرة المفضضة، وخیول السباق، والتماثيل الجنسية، وولائمه في المطعم، وموائد القمار، والهدایا الثمينة التي يقدمها لنساء آخريات. ولم يهدأ زوجها بعد بلوغه سن النضج، بل على العكس، فقد تفاقمت عيوبه وازداد ولعه بالملامنة مع ظهور الشيب في فوديه والتراجع حول عينيه. فصار يغامر برأس ماله في صفقات جنونية، ويهيم على وجهه لأسابيع في رحلات غريبة، ابتداء من الطواف مع عالمة آثار اسكندنافية حول القارة وحتى الابحار في رحلة فريدة لعبور المحيط في طوف تدفعه الرياح غير المواتية. وكانت جاذبيته تفتت جميع الناس إلا زوجته. وفي واحدة من مجادلاتهما العنفية، فقدت السيطرة على نفسها وانهالت عليه بوابل من الشتائم والتأنيب. كان اوسيبيو بيلتران رجلاً مؤدباً يمل أي شكل من أشكال العنف. فرفع يده طالباً هدنة وقال مبتسمًا أنه سيخرج لشراء سجائر. خرج بهدوء ولم تعد تعرف عنه شيئاً منذ ذلك الحين.

- لقد هرب من ديونه - هكذا كانت تفكري بياتريس حين لا تجد المبررات الكافية لتعلقه بأمرأة أخرى.

لم يترك أي أثر يدل على مكانه. كما لم يُعثر على جثته. وقد اعتادت هي في السنوات التالية وضعها الجديد، محاولة بجهود حثيثة الظهور أمام صديقاتها على أنها تعيش حياة طبيعية. جابت وحدتها وبصمت المشافي، والسجون، والقنصليات الأجنبية مستقصية، وبدأت تحريات سرية بالتعاون مع وكالة مخبرين خصوصيين، لكن أحداً لم يستطع العثور عليه. واحيراً، وبعد أن انفكها التجوال على عدة مكاتب، قررت اللجوء إلى مقر النائب الرسولي. لقد كان وسطها الاجتماعي ينظر بازدراء إلى مثل هذا التصرف، لذلك لم تتجروا على الاقدام عليه علانية حتى ولا أمام ايرين. فقد كان يُنظر إلى مقر المطرانية على انه وكر رهبان ماركسيين وعلمانيين خطرين متفرجين لمساعدة أعداء النظام. وكانت تلك هي المؤسسة الوحيدة التي تخوض الحرب ضد الحكومة، ويقودها الكردينال، وأضاعاً سلطة الكنيسة التي لا تُهرَم في خدمة المطاردين دون أن يهتم بسؤالهم عن لونهم السياسي. وحتى اليوم الذي احتاجت فيه للمساعدة، كانت بيتريس تعلن بعجرفة انه على السلطات أن تمحو عن الخريطة هذه المؤسسة وان تعتقل الكردينال وأتباعه العصاة. لكن مساعدتها في البحث عن زوجها ذهبت أدراج الرياح، لأنهم لم يستطيعوا كذلك في مقر النائب الرسولي من التوصل إلى أية أخبار عن غائبها. حتى بدا وكأن ريح النسيان هي التي احتطفت زوجها.

أفسدت الشكوك أعضاب بيتريس. فنصحتها صديقاتها بممارسة تمارين اليогا والتأمل الشرقي لتهدىء من قلقها الدائم. وحين صارت تقف على رأسها بمثابة، فيما قدماها متوجهتان إلى أعلى ، متنفسة من سرتها، ومركزة تفكيرها في النيرفانا⁽³⁾، كانت تتمكن من نسيان مشاكلها، لكنها لم تكن قادرة على البقاء هكذا طوال النهار. وفي اللحظات التي كانت تفكر فيها بحالتها التي صارت إليها، كانت تصاب بالذهول لسخرية قدرها. فقد تحولت إلى زوجة مفقود، هي التي طلما قالت أن أحداً لا يُفقد في البلاد وأن هذه الدعاوى ليست إلا افتراءات معادية للوطن. وحين كانت ترى النساء القلقات يتظاهرن كل يوم خميس في الساحة ، وهن يعلقون على صدورهن صور أفراد أسرهن المفقودين ، كانت تقول

أنهن مأجورات بذهب موسكو. ولم يخطر ببالها أبداً أنها قد تجد نفسها في مثل وضع هاتيك الأمهات والزوجات اللاتي يحيحن عن ذويهن. لم تكن أرملة في العرف الشرعي، ولن تصير كذلك قبل انقضاء عشر سنوات، حين سيمنحها القانون وثيقة وفاة لزوجها. ولم تستطع التصرف بالأملاك التي خلفها اوسبيبو بيلتران ولا أن تضع يدها على شركاء زوجها الزبقيين الذين تحولوا إلى دخان حاملين معهم أسمهم شركائهم. بقيت في بيتها متكلفة مزاج الدوقة، إنما دون أن يكون لديها المال اللازم للحفاظ على نمط حياتها كسيدة من سيدات الحي الراقي. ولضيقها من النفقات، كانت على وشك رش البيت بالبنزين واحراقه لقبض قيمة التأمين، حين خطرت لا يرين الفكرة الملمة باستئجار الطابق الأرضي.

اقرحت ايرين يومها قائلة:

- الآن، حيث عائلات كثيرة تهاجر إلى الخارج ولا تستطيع حل الأجداد معها، اظن اننا نقدم لهم خدمة عظيمة بتولينا مسؤولية هؤلاء المسنين. كما يمكننا بهذا الحصول على دخل بسيط.

وهذا ما فعلته. تم تقسيم الطابق الأول إلى مقصورات، وأقامتا حمامات جديدة ومساند في المرات لاسناد الشيخوخة وتثبيت الأرجل الواهنة، وغطتا الدرج بأرضية خشبية مستوية لتسهيل انزلاق مقاعد المعددين ذات العجلات وزعنتا في كل مكان مكبرات صوت تبث موسيقى هادئة تطفئ الحزن وتسكن القنوط، هون أن يدور بخليبيها أن هذه الموسيقى ستقع على آذان صباء.

استقرت بيتربيجي وبنتهما في الطابق العلوي، ومعهما روسا التي تعمل في خدمتهم منذ أربعة لا تطالها الذاكرة. وزينت الأم المنزل بأفضل مقتنياتها مستبعدة أي ابتذال، وببدأت تعيش من الإيراد الذي يدفعه نزلاء «مشيئة الرب». فإذا ما طرقت الحاجة بابها بالحاج أشد، كانت تتحرك ضمن أقصى حدود الخدر لتبיע لوجهة، أو حلية فضية أو أحدي المجوهرات الكثيرة التي اقتنتها كتعويض عن الهدايا التي كان بزوجها يقدمها لعيشقاته.

★ ★ ★

كانت ايرين تأسف لاكتشاف أمها من هذه المشاكل التافهة . وكانت تفضل العيش في مكان أكثر تواضعاً وتحويل البيت كله لا يواء مزيد من التزلاء المسنين ، وبذلك تستطيعان تغطية نفقاتها بيعبوحة ، لكن بيتريس كانت تفضل قتل نفسها في العمل واللجوء إلى كل البهلوانيات كي لا ينكشف أمر انحدارها المادي . فترك البيت سيعني اعتراضاً عليناً بالفقر . لقد كانت الأم وابتها مختلفتين اختلافاً كبيراً في نظرتها للحياة . كما أنها لم تكونا على اتفاق فيما يتعلق باوسبيوبيلتران . فبيتريس تعتبره رجلاً خبيشاً قادراً على الاحتيال ، ومتعدد الزوجات ، اضافة إلى ارتكابه أعمال نصب أخرى اضطرته إلى الفرار وذيله بين ساقيه ، ولكنها حين تعلن عن هذه الآراء تتصدى لها ايرين بضراوة . فالفتاة تبعد أباها ، وتتأبى التصديق انه قد مات ، وترفض الاعتراف بعيوبه . لم تكن لتهتم بالأسباب التي حلته على الاختفاء من عالمه المعروف . فعاظتها نحوه كانت غير مشروطة . فهي تحفظ له في ذاكرتها بصورة الرجل الأنثيق ، ذي الوجه النبيل ، والطبع المصوحة من مزاج المشاعر الطيبة والعواطف الجياشة التي تجعله بعيداً عن تحوم السفاله . لقد كانت تلك الصورة الغريبة تثير هلع بيتريس ، ولكنها الملامح التي تذكرها ايرين بحنان شديد .

كان اوسيبيوبيلتران هو الابن الأصغر لأسرة من المزارعين الأثرياء ، وقد هامله اختوه على انه متلاط لا علاج له ، وذلك لتبذيره واقباله على الحياة ، على حكس بخل ذويه وسوداويتهم . وما أن توفي ابواه ، حتى اقتسم اختوه الترك ، فأعطوه حصته وما عادوا يريدون معرفة أي شيء عنه . باع اوسيبيو أراضيه وسافر إلى الخارج حيث بدد في بضع سنوات أمواله حتى آخر قرش منها في ملاو تلبيق بالأمراء ، حسب تعابيره الطائشة . ثم رجع إلى الوطن في سفينة شحن ، وكان ذلك كافياً لتجريده نهائياً من كل قيمة في عيني أي فتاة تسعى إلى الزواج . لكن بيتريس الكانترا أغرتها بأساليبه الاستهراطية في التعامل ، وبلقبه وبالجو الذي يحيط به . كانت تتنتمي إلى اسرة من الطبقة الوسطى ، وكان طموحها منذ الطفولة هو ارقاء السلم الاجتماعي . أما رأس ما لها فكان جمال تقاطيعها ، وتكلفه

أساليبها وبعض العبارات غير المتقة بالإنكليزية والفرنسية كانت تنطقها بطلاقه توحى معها وكأنها تقنن هاتين اللغتين. وكان الورنيش الثقافي يتبع لها لعب دور مهم في الصالونات ، كما منحتها مهارتها في الاعتناء بشخصيتها سمعة واسعة كامرأة أنيقة. كان اوسبيبو بيلتران مفلساً عملياً، وقد لامس القاع في عدة جوانب من حياته، إلا أنه كان واثقاً من أن تلك الحال ليست سوى أزمة عابرة، لقناعته بأنه لا بد لذوي الحسب النجيب من أن يعوموا ثانية. ثم انه كان راديكالياً. ويمكن ايجاز العقيدة الراديكالية في ذلك الحين بكلمات قليلة: مساعدة الأصدقاء ، وسحق الأعداء ، وتحقيق العدالة فيما عدا ذلك من الحالات. ف ساعده أصدقاؤه ، ومن خلال لعب الغولف أحياناً في النادي الأكثر خصوصية ، وامتلاكه شرفة خاصة في ميدان سباق الخيل واشتراك في المسرح البلدي ، ثم بدعم من جاذبيته ومزاجه الذي هو أشبه بمزاج نبيل بريطاني ، توصل إلى جذب شركاء له في كل أصناف الأعمال التجارية . وبدأ يعيش حياة بذخ ، لأنه رأى أن العيش بطريقة اخرى ليس إلا حماقة ، وتزوج من بيتريس الكانترا لضعفه حيال النساء الفاتنات . ففي المرة الثانية التي دعاها فيها إلى الخروج معه ، سألته هي نفسها دون أية مقدمات عن نوایاه تجاهها ، لأنها لم تكن ترغب في تبذيد الوقت. كانت قد أتت خمساً وعشرين سنة من عمرها ولم يعد بإمكانها اضاعة شهور اخرى في مغازلات لا فائدة منها ، وكل ما كان يهمها هو الحصول على زوج وحسب. وقد أضحكـت صراحتها هذه اوسبيبو كثيراً ، ولكنها حين رفضـت الخروج برفقـته ثانية ، أدركـ ان حدـيثـها كان جـديـاً. ولم يستغرـقـ منهـ التـراجعـ عنـ موقفـهـ منهاـ وـتهـورـهـ فيـ طـلبـ يـدـهاـ للـزـواـجـ سـوىـ لـحظـةـ وـاحـدةـ ، لكنـ حـيـاتهـ كلـهاـ لمـ تـكـفـهـ لـلـنـدـمـ عـلـىـ ذـلـكـ التـصـرـفـ. أـنـجـباـ اـبـنـاـ وـاحـدـةـ ، اـيرـينـ ، الـتـيـ وـرـثـتـ شـرـودـ جـدـتهاـ لأـبـيهـاـ الـلـاثـكـيـ وـطـيـبـ مـزـاجـ أـبـيهـاـ الدـائـمـ. وـفـيـ الـطـفـلـةـ تـكـبـرـ ، عـقـدـ اـوسـبـيـبوـ بـيلـترـانـ صـفـقـاتـ كـثـيرـةـ ، عـادـ عـلـيـهـ بـعـضـهـاـ بـالـرـبـيعـ الـوـفـيرـ ، وـكـانـ بـعـضـهـاـ الـآـخـرـ جـنـونـاـ وـاضـحـاـ. كـانـ رـجـلـاـ وـاسـعـ الـمـخـيـلةـ ، وـخـيـرـ بـرـهـانـ عـلـىـ ذـلـكـ مـاـكـيـنـةـ قـطـافـ جـوزـ الـهـنـدـ. فـقـدـ قـرـأـ يـوـمـاـ فيـ اـحـدـيـ الـمـجـلـاتـ أـنـ جـيـ مـحـصـولـ جـوزـ الـهـنـدـ يـدـوـيـاـ يـرـفـعـ كـثـيرـاـ مـنـ كـلـفـةـ هـذـهـ

الثمار، لأنه على الوطنيين أن يتسلقوا النخلة بالتناوب، فيقطف أحدهم جوز الهند ثم يعود للنزول كي يصعد غيره. وبهذا يضيع وقت كثير في الصعود والنزول، كما ان العامل قد يهوي من أعلى الشجرة أحياناً متسرياً بذلك في نفقات إضافية غير متوقعة. فقرر التوصل إلى حل. أمضى ثلاثة أيام معتكفاً في مكتبه ومعدباً نفسه بمشكلة ثمار جوز الهند، التي يمكننا القول انه لم يكن يعرفها عن قرب، لأنه كان قد استبعد السفر إلى المنطقة المدارية من برامج رحلاته، كما انهم في بيته ما كانوا يستهلكون مأكولات دخيلة. لكنه استقصى ، ودرس حجم الثمرة وزيتها ، وال蔓اخ والترابة المناسبين لزراعتها ، وموسم القطاف ، ومدة النضوج وتفاصيل أخرى. بعد ذلك صاروا يروننه وهو مستغرق في رسم التصاميم طوال ساعات ، وكانت نتيجة هذا السهر الطويل آلة قادرة على جني كمية هائلة من ثمار جوز الهند في الساعة . ذهب إلى السجل وحصل على براءة اختراع ذلك البرج الزاحف المزود بذراع قابلة للانقاض والانفتاح ، وسط قهقهة ذويه واصدقائه الذين ما كانوا يعرفون جوز الهند أيضاً وهو في حاليه الأولية كثمار، ولم يروه إلا متوجاً بقبعات راقصات المامبو أو مبشروراً فوق حلوي حفلات الزفاف. تنبأ أوسبيسيو بيلتران أن الله لجني جوز الهند ستتفتح في شيء يوماً ما ، وقد أثبتت الزمن انه كان على صواب .

كانت تلك المرحلة عذاباً دائمًا لبياترييس ولزوجها. أراد أوسبيسيو أن يترعى العلاقة قبل استفحال الداء بانفصال أبيدي عن هذه الزوجة التي تعاديه وتلاحقه بتراتيل ساخطة ، لكنها رفضت دون أن يكون لديها أي سبب آخر سوى الرغبة في تعذيبه ومنعه من إقامة علاقة جديدة مع أي واحدة من منافساتها. وكانت تتذرع بتأمين حياة اسرية مستقرة لا يرثين ، وتقول له : قبل ان تسبب لابنتي ألمًا كهذا، عليك أن تمر فوق جثتي. وكان زوجهما على وشك أن يفعل ذلك ، لكنه فضل شراء حريرته . فقد عرض عليها في ثلاث مناسبات مبالغ طائلة كي تسمح له بالانفصال عنها بسلام ، ووافقت في المرات الثلاث ، ولكنها كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة ، بعد أن يكون المحامون قد أعدوا كل الوراق اللازمة ولم يعد

ينقص سوى التوقيع الملزم . وكانت معاركها الكثيرة معه تعزز الكراهة في نفسها . هذه الأسباب وألف سبب عاطفي آخر ، لم تكن ايرين تبكي والدها . فلا شك انه قد فر ليتحرر من قيوده ، ومن دينه ، ومن امرأته .

عندما قرع فرانثيسكوليل بباب البيت ، خرجت ايرين لاستقباله ترافقها كلية التي كانت تتبّع عند قدميهما . كانت الشابة قد استعدت للرحلة واصنعة الكنزة على كتفيها ومنديلاً على رأسها ، وحاملة آلة التسجيل .

سألها :

- أتعرفين أين تعيش هذه القديسة ؟

- في لوس ريسكسوس ، على بعد ساعة من هنا .

ترك الكلبة في البيت ، وركبا الدراجة النارية وانطلقا . كان الصباح منيراً ودافئاً وبلا غيوم .

★ ★ ★

اجتازا المدينة كلها : الشوارع المظللة بالأشجار الوارفة بين منازل الحي الراقي الفخمة ، فمنطقة الطبقة الوسطى الرمادية والصاخبة ثم أحزمة المؤس العريضة . وفيما الدراجة تطير ، كان فرانثيسكولايل يشعر بغيرين المستندة إلى ظهره ويفكر بها . المرة الأولى التي رآها فيها ، قبل أحد عشر شهراً من هذا الربيع المسؤول ، ظن أنها صبية هاربة من احدى حكايا القراءة والأمراء ، وانها تبدى له كأعجوبة لا يدركها أحد سواه . كان يبحث في تلك الأيام عن عمل خارج نطاق مهنته . فعيادته الخاصة أضحت خاوية من الزبائن ، ومثقلة كاهله بنفقات باهظة هون أية أرباح . كما أنهما أقالوه من عمله في الجامعة بعد أن أغلقوا كلية علم النفس التي اعتبرت مزرعة خصبة للأفكار الضارة . أمضى شهوراً وهو يجوب العائد والمشفى والمصانع دون أية نتيجة سوى القنوط المتزايد ، إلى أن اقتنع أن سنوات دراسته ودرجة الدكتوراة التي نالها في الخارج لن تفعه شيئاً في المجتمع الجديد ، وليس ذلك لأن الحاجة الإنسانية لمهنته قد حلّت فجأة وأصبحت البلاد

ماهولة بآنس سعداء، وانما لأن الأغنياء ما كانوا يعانون من مشاكل وجودية، والآخرون ما كانوا بقادرين على تغطية نفقات ترف العلاج السيكولوجي ، رغم حاجتهم اليه ، فكانوا يضغطون على اسنانهم ويتحملون بصمت.

صارت حياة فرانثيسكوليال ، المترفة بالصادفات الطيبة في سنوات مراهقته ، تهدوللي انتهاء العشرينات منها فصلاً ذريعاً لعنيي أي مراقب حمайд ، واكثر من ذلك لعنيي ذويه . لقد أحسن بالعزاء والتهامك لفتره بمزاولته لمهنته سراً ، ولكن سرعان ما توجب عليه أن يساهم في ميزانية الأسرة . فالعسر في بيت آل ليال كان يتحول إلى فقر . وقد احتفظ بتماسكه إلى أن أيقن أن جميع الابواب موصدة أمامه ؛ فقد زمام نفسه في أحد الأيام ، وانهار في المطبخ حيث كانت أمه تحد العشاء . وحين رأته على هذه الحال ، مسحت يديها بالمريلة ، ورفعت الصلصة عن المقد وعائقته كما كانت تفعل وهو صبي ، وقالت له :

- ليس الطب النفسي هو مجال العمل الوحيد يا بني . امسح أنفك وابحث في جهة أخرى .

لم يكن فرانثيسكود قد فكر باستبدال مهنته حتى ذلك الحين ، لكن كلمات هيلدا ألمته دروبـاً جديدة . فأسرع إلى استبعاد الرأفة بنفسه واستعرض مهاراته ليختار من بينها واحدة متوجة وتتيح له قدرـاً من المتعة كذلك . فاختار التصوير كبداية ، حيث المنافسة ضئيلة . كان قد اشتري منذ سنوات آلة تصوير يابانية مع كل معداتها ، ورأى أن الوقت قد حان لنفض الغبار عنها واستخدامها . وضع في محفظته بعض أعمالـه الفوتوغرافية ، وقلب دليل الهاتف ليـرى أين يعرض نفسه ، وهكذا وصل إلى مجلة نسائية .

كانت مكاتب المجلة تشـغل الطـابق الأـخير من مـبني قـديم يـحمل اسم مؤسس دارـالنشر مكتـوباً على الـبـوابـة بـحرـوف مـذـهـبة . فـفي حـقـبة الإـازـدـهـار اللـفـافـيـ، حين جـرـت مـحاـوـلـة زـجـ الجـمـيع في حـفـلـة المـعـرـفـة وـرـذـيلـة الـاعـلامـ، وـصـارـ الـورـقـ الـمـطـبـوـعـ يـبـاعـ بـكمـيـاتـ أـكـبـرـ منـ كـمـيـاتـ أـرـغـفـةـ الـخـبـزـ، قـرـرـ أـصـحـابـ المؤـسـسـة تـرـمـمـ الـبـنـاءـ لـتـلـاءـمـ معـ اـنـدـفـاعـةـ الـإـعـلامـ الـجـنـوـنـيـ الـتـيـ تـعـصـفـ بـالـبـلـادـ. بدـأـواـ

باصلاح الطابق السفلي، ففرشوا الأرض بالسجاد، وغطوا الجدران بخشب فاخر، واستبدلوا الأثاث غير المتناسق بمناضد من الألمنيوم والزجاج ، وزنعوا النوافذ ليفتحوا كوى انارة، وأغلقوا السلام ليشقوا ثغرات يدخلوا فيها صناديق المصاعد الحديدية، ووضعوا عيوناً الكترونية تفتح الأبواب وتغلقها بعملية أشبه بالسحر. كانت طبقات المبنى قد تحولت إلى متاهة حين توقف العمل فجأة. ولم تصل أعمال الترميم مطلقاً إلى الطابق الخامس ، الذي احتفظ باثائه ذي اللون غير المحدد، والآلة الخرافية ، وصناديق ارشيفه وثقوب سقفه التي تقطرون عراء. ولم تكن هذه المعدات المتواضعة علاقة كبيرة بالمجلة الفاخرة التي كانت تصدر هناك ، والتي كانوا يستخدمون في طباعتها جميع ألوان قوس قزح على ورق مصقول ، وأغلفة تتسم عليها ملكات جمال متخففات من الملابس، وريبورتاجات نسائية جريئة. رغم أنهم في السنوات الأخيرة ، وبسبب الرقابة ، صاروا يضعون لطخات سوداء في الصدور العارية ، ويستخدمون عبارات ملطفة للإشارة إلى كلمات ممنوعة مثل : اجهاض وطيز وحرية.

كان فرانثيسكوليال يعرف المجلة لأنّه كان يشتريها أحياناً لأمه . ولم يكن يذكر من اسماء محررها سوى اسم اييرين بيلتران ، الصحفية التي تكتب بجرأة باللغة ، وهي مزية نادرة في تلك الأيام. لذلك ، ولدى وصوله إلى استعلامات المجلة ، طلب مقابلتها . قادوه إلى صالة فسيحة مضاءة بنافذة عريضة ظهرت من خلاها في البعيد كتلة الجبل المهيء ، الضاحية الحامية للمدينة. رأى أربع طاولات عمل ، تعمل فوقها أربع آلات كاتبة . وفي طرف الصالة ، كان مشجب عليه ملابس من أقمشة زاهية . وكان هناك مخت يرتدي ثياباً بيضاء ويسرح شعر احدى الفتيات ، بينما فتاة اخرى تنتظر دورها ، جالسة دون حراك مثل صنم ، وغارقة في تأمل جمالها. أشاروا له إلى اييرين بيلتران ، وما أن رأها من بعيد حتى أحس بانجذاب إلى تقاطيع وجهها وشعرها الغريب المنفوش على كتفيها. استدعته بابتسمة متغيرة كانت هي الشرط الأخير للاقتناع بأن هذه الفتاة قادرة على سلبه حتى أفكاره ، لأنه رأى فيها تجسيداً لقراءاته الطفولية ولا حلام مراهقته . حين تقدم

منها كان قد فقد اتزانه ، ووقف أمامها مضطرباً ، غير قادر على رفع نظره عن هاتيك العينين اللتين يبرزهما المكياج . واخيراً استخرج صوته وقدم نفسه .
- اني أبحث عن عمل - قال ذلك فجأة وهو يضع على الطاولة محفظته التي تضم نماذجه الفوتografية .

فسألته بصراحة ، ودون أن تخفض صوتها :

- هل أنت في القائمة السوداء؟
- لا .

- يمكننا الكلام إذن . انتظري خارجاً وحين أنتهي هنا سأجتمع بك .
خرج فرانثيسكو متقداً الطالاوت والحقائب المفتوحة على الأرض ، والتي تحتوي على شالات ومعاطف فراء تبدو وكأنها غنائم رحلة صيد حديثة . اصطدم بباريو ، مصفف الشعر الذي انزلق بمحاذاته وهو يسرح باروكة ذات شعر شاحب ، وخبره وهو يمر ان الشقراوات هن تقليعة هذه السنة . انتظر في ردهة الاستعلامات لوقت بدا له قصير جداً ، لأنه تشاغل بالنظر إلى حركة عارضات الأزياء غير الاعتيادية بملابسهن الداخلية ، وإلى أطفال يحملون حكايا لمسابقة طفولية ؛ وإلى مخترع يصر على نشر اعلان عن جهازه الذي اخترعه لقياس التدفق البولي ، وهو جهاز مستحدث لقياس اتجاه تدفق البول وغزارته ؛ ومحبين مغمومين بمنغصات الموى يبحثان عن عيادة الحب ؛ وسيدة ذات شعر كهرمانى أسود قدمت نفسها على أنها براجة وبصارة ، وعندما رأته توقفت مشدوهة ، كما لو أنها تراه في نبوءة ، وهتفت :

- ستعيش حباً عظيماً . إني أقرأ ذلك في جينك .

كان فرانثيسكو قد قطع علاقته بخطيبته الأخيرة قبل عدة شهور وقرر البقاء بمئى عن أية شبكات غرامية . بقي جالساً هناك كتلميذ معاقب ، دون أن يدرى ما يقول وهو يشعر أنه في وضع مضحك . داعت شعره بأصابع يدها الخبرة ، وتفضحت راحتي يديه وقالت انه من مواليد برج القوس ، رغم ان له أسلافاً من برج العقرب ، لأنه موسوم بعلام الجنس والموت .. والموت على وجه التحديد .

أخيراً انصرفت العرافة، فاستراح فرانثيسكو الذي لم يكن يفهم شيئاً من دائرة البروج ولا يؤمن بقراءة الكف والتنجيم وغيرها من الخرافات. بعد ذلك بقليل ظهرت ايرين بيلتران واستطاع رؤيتها بكلمل قامتها. فبدت كما تخيلها تماماً. كانت ترتدي تنورة طويلة جداً من قماش مطرز يدوياً، وبلوزة من القطن الخام، وحزاماً مجدولاً من عدة ألوان يشد على خصرها، وحقيقة جلدية متflexة مثل حقيقة ساعي البريد. مدت له يداً صغيرة ذات أظافر قصيرة، وفي جميع أصابعها خواتم ومجموعة أساور برونزية وفضية في معصمها.

سألته :

- أيعجبك الطعام النباتي؟ - ثم أمسكته من ذراعه دون أن تنتظر الإجابة، وقادته نزولاً على السلم، لأن المصاعد معطلة، مثل أشياء كثيرة أخرى في مبني المجلة.

لدى خروجهما إلى الشارع، انعكست الشمس بقوه على شعر ايرين، وفك فرانثيسكو انه لم ير في حياته شيئاً بمثل هذه الروعة. ولم يستطع كبح دافع دفعه لتحريك أصابعه وملامسته. فابتسمت لأنها كانت معتادة على اثاره الدهشة في مجال جغرافي لم يكن مألوفاً فيه رؤية شعر بهذا اللون. وعند وصولهما إلى الناصية توقفت، وأخرجت مظروفاً ملصقاً عليه الطوابع ووضعته في صندوق البريد قائلة بغموض :

- إنها رسالة لشخص ليس لديه من يكتابه.

على بعد كواترين وحداً مطعماً صغيراً، مكاناً يرتاده نباتيون، وروحانيون، وبوهيميون، وطلاب، ومرضى قرحة معدية. كان محل مزدحماً في تلك الساعة، ولكنها كانت زبونة دائمة. حياماً صاحب المطعم باسمها، وقادهما إلى أحد الأركان وأجلسهما إلى طاولة خشبية مغطاة بشرشف مخطط وملطخ بالزبيب والجوز. استمع فرانثيسكو وايرين بمضغ الأطعمة ببطء، فيما كل منها يدرس الآخر بعينيه. وسرعان ما أحسا بالثقة وتحدثت هي عن عملها في المجلة، حيث تكتب عن هرمونات عجيبة تتحقق في الأذرع لمنع الحمل، وعن كمادات

طحالب بحرية لمحو آثار التقدم في السن عن البشرة، وعن غراميات أمراء وأميرات البيوت الملكية الأوروبية، وعن عروض أزياء فضائية أوروبية، حسب تقليعات باريس الموسمية، وموضوعات أخرى مختلفة الأهمية. وعن نفسها قالت إنها تعيش مع أمها، وخادمة قديمة وكلبتها كلبيو. وأضافت إن أبيها خرج منذ أربع سنوات ليشتري سجائر، واختفي نهائياً من حياتهم. أما خطيبها، الكابتن في الجيش، غوستافو مورانتي، فلم تأت على ذكره. وسيعلم فرانتيسكو بوجوده فيها بعد.

قدموا لها كحلوى بعد الطعام قطعاً من ثمار الباباية مع القطر، وهي الشماز التي تنمو في المناطق الشمالية الدافئة. فداعبتها أيرين بعينيها وبالملاعة، مستمتعة بالانتظار. وأدرك فرانتيسكو أن الفتاة تحترم، مثله، بعض المتع الدنيوية. ولم تأكل أيرين كل الحلوي، بل أبقيت قطعة منها في الطبق، وقالت موضحة:

- سأستمتع بمذاقها مع الذكرى بعد قليل. أما الآن، فلتتحدث عنك...
 بكلمات قليلة، لأن ميلوه الطبيعية وظروف مهمته كانت تدفعه إلى الإيجاز، وإلى الاستماع باهتمام في المقابل، روى لها انه منذ زمن لا يجد عملاً في مجال الطب النفسي ، وانه بحاجة للعمل في أي مهنة شريفة . وتخيل إليه أن التصوير مجال مناسب، لكنه لا يرغب في التحول إلى واحد من هؤلاء المهوأة المسؤولين الذين يعرضون خدماتهم في حفلات الزفاف والعياد وأعياد الميلاد، وهذا جائعاً إلى المجلة.

سألته أيرين :

- سأقابل عدداً بعض المؤسسات، هل ت يريد حوض التجربة معى؟
 وافق فرانتيسكو على الفور، مبعداً شبحاً من الكتابة عن روحه لدى رؤيته مدى سهولة كسب العيش بالضغط على زر، وصعوبة ذلك بالمقابل من خلال وضع خبرته ومعارفه التي حصلها طوال سنوات من الدراسة في خدمة الغير .

حين جاء لها بالحساب، فتحت حقيقتها لتخرج نقوداً، لكن فرانتيسكو كان قد تلقى تربية يدعوها أبوه تربية الرجلة الصارمة، لأن التهذيب ليس نقيراً للثورية. فسارع لتناول فاتورة الحساب متتجاوزاً الخطوات التي خطتها الداعيات

إلى التحرر في حملاتهن من أجل المساواة، ومجاجًاً الصحفية الشابة مفاجأة غير متتظرة.

قالت له متحججة :

- أنت بلا عمل، دعني أدفع.

وسيكون هذا أحد الأسباب القليلة لمجادلاتها حلال الشهور التالية.

سرعان ما حصل فرانشيسكوليال على المؤشر الأول من مؤشرات عدم ملاءمة عمله الجديد. ففي اليوم التالي رافق ايرين إلى المنطقة الحمراء من المدينة، معتقداً أنها قد قامت باتصالات سابقة. لكن الأمر لم يكن كذلك فقد وصلا إلى حي المואخير عند الغروب وراحوا يدرعان الشوارع تائهين، حتى إن بعض الزبائن الأقوباء تصدوا للفتاة ليسألوها عن تسعيرتها. وبعد مراقبة قصيرة، اقتربت ايرين من امرأة سمراء تقف على ناحية أحد الشوارع، تحت أنوار الإعلانات الضئيلة بعدة ألوان.

- عفواً يا آنسة، هل أنت قحبة؟

اسرع فرانشيسكوليال بالاستعداد لخطتها إذا ما قامت الأخرى بتوجيه ضربة من حقبيتها إليها، وهو أمر له ما يبرره. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل ان ما حدث هو العكس تماماً. إذ نفخت السمراء نهديها كيلونيين محبسين في بلوزتها التي توشك ان تتمزق وابتسمت مضيئة الليل ببريق سن ذهبي في فمها، وردت:

- في خدمتك يا ابني.

وضحت لها ايرين الأسباب التي استدعت وجودها هناك، فأبدت الأخرى استعدادها للتعاون مبدية تلك النوايا الطيبة التي يُظهرها الناس نحو الصحافة. أثار ذلك فضول زميلاتها وبعض العابرين، فالتفتت هناك خلال دقائق مجموعة بشرية عرقلت السير في الشارع، فاقتصر فرانشيسكوليال على الطريق قبل أن تأتي دورية، كما يحدث كلما اجتمع أكثر من ثلاثة أشخاص دون تصريح مسبق من القيادة. قادتهما السمراء إلى مقهى المتدرين الصيني، حيث واصلوا الحوار الممتع

مع القوادة ونساء المحل الأخريات، فيها الزبائن يتظرون بصبر، بل انهم أبدوا استعدادهم للمشاركة في الحوار إذا تعهدت باغفال ذكر اسمائهم.

لم يكن من عادة فرانشيسكو توجيه الأسئلة الحميمة خارج عيادته ولغير أهداف علاجية، وهذا السبب أحسن بالخجل حين استجوبت ايرين المرأة استجواباً مكثفاً: كم رجلاً تستقبل كل ليلة، ما هو مجموع دخلها، التسيرة الخاصة بالتلاميذ والمسنين، أمراضها، أحزانها وشكاؤها، سن الاعتزال، ما هي نسبة العلوم والشرطة. وكان التحقيق يكتسب على شفتيها سحر براءة باهرة. ولدى انتهاءها من عملها كانت قد نسجت علاقة طيبة مع سيدات الليل، حتى أن صديقها خشي ان تقرر الانتقال للعيش في المندرين الصيني. ثم عرف فيما بعد أنها تعمل دوماً بهذه الطريقة، مضيفة شيئاً من روحها على كل ما تقوم به. فقد رأها في الشهور التالية وهي توشك أن تبني طفلًا حديث الولادة حين قامت بإجراء ريبورتاج عن اليتامي، وتلقي بنفسها من طائرة لمجارة بعض المظليين، ويغمى عليها من الرعب في منزل لاستحضار الأرواح بعد تعرضها لساعات طويلة من الفزع.

لقد رافقها منذ تلك الليلة في معظم خطواتها كصحفية. وساهمت الصور في ميزانية آل ليال وأحدثت تحولاً في حياة فرانشيسكو الذي اغتنى بمعامرات جديدة. وعلى النقيض من تفاهة المجلة وبريقها الزائف، كان هناك واقع العيادة القاسي في حي أخيه خوسيه، حيث كان يذهب ثلاثة مرات في الأسبوع لعلاج أشد الحالات يأساً، رغبة منه في المساعدة، لأنه لم يكن هناك من عزاء لكل ذلك المؤس. لم تخامر الشكوك أحداً في المجلة بالمصور الجديد. كان يدور جلاً هادئاً، حتى أن ايرين نفسها لم تعرف شيئاً عن حياته السرية، رغم أن بعض المؤشرات الغامضة كانت تستثير فضولها. وبعد زمن طويل، عند اجتيازها تخوم الظلال، ستكتشف الوجه الآخر لهذا الصديق الوديع قليل الكلام. لقد تمنت علاقتها خلال الشهور التالية، ولم يعد أحدهما يستغني عن الآخر، فقد اعتادا قضاء وقت العمل وساعات الفراغ معاً، مخترعين الذرائع المختلفة كي لا يفترقا. كانوا

يتقاسمان الأيام ويصيّها الذهول لكثره الأشياء التي يشتركان في حبها: فهما مغترمان بالموسيقى ذاتها، ويقرآن للشعراء أنفسهم، ويفضلان النبيذ الأبيض المز، ويضحكان في ايقاع متطابق، وتشير حفيظتهما المظالم ذاتها، ومخجلان من المخجلات نفسها. وكانت ايرين تستغرب أختها فرانثيسكو أحيلاناً ليوم أو يومين، لكنه كان يتتجنب تقديم التفسيرات، وكان عليها قبول ذلك دون توجيه أسئلة. فكان شعورها هذا مشابهاً لشعور فرانثيسكو حين تذهب مع خطيبها. لكن أيّاً منها لم يعرف الاعتراف بالغيرة.

★ ★ *

ذهبت ديجنا رانكيليو لاستشارة دون سيمون، المعروف في كل أرجاء المنطقة باستطباباته الصائبة، والتي تفوق شهرتها استطبابات المستشفى. كان يقول أن الأمراض نوعان: أما إنها تشفي، وحدها، وإنما أنها لا علاج لها. وفي الحالة الأولى يمكنه تخفيف آلام المريض واحتصار الزمن اللازم للشفاء. أما إذا جاءه مريض لا رجاء في شفائه، فإنه يرسله إلى طبيب لوس ريسكوس، منقداً بذلك سمعته ومتلطفاً في طريقة بالشكوك سمعة الطب القليدي. وجدته الأم جالساً على كرسٍ من القش أمام باب بيته، على بعد ثلاثة كواردات من ساحة القرية. كان يهرش كرشه بلطف ويتحدث بصوت عالٍ إلى بيغاء توازن متراجحة على مسند الكرسي.

قالت له ديجنا مبتسمة:

- ها أنذا قد جئتكم بابني.

فرد المداوي باعتداد:

- أليست هذه هي إيفيان خليلينا المستبدلة؟

ردت ديجنا بالإيجاب. ونهض الرجل متمهلاً ودعاهما للدخول إلى منزله. دخلتا غرفة فسيحة معتمة، تغص بالقوارير والأغصان الجافة والأعشاب المتبدلة من السقف والأدعية المطبوعة المعلقة في أطر على الجدران؛ كانت تبدو أشبه

بكفه يقطنه ناج من الغرق منها بعيادة عالم، كما كان يجب أن يسموه. فهو يؤكّد انه طبيب مجاز من البرازيل، ومن يرتاد في ذلك يعرض عليه شهادة متسلخة ممهورة بتواقيع مزركشة ومحاطة باطار من رسوم ملائكة مذهبة. كانت هناك ستارة من المشمع تفصل ركتناً من الحجرة. وفيما الأم تروي تفاصيل نكتتها، كان يستمع وعيناه مغمضتان في تركيز ساهم، ويصوب بعض النظرات العرضية إلى ايفانخيلينا، متقصياً آثار الخدوش على بشرتها، وشحوب وجهها، ورغم الوجترين اللذين يشققهما البرد والظلال البنفسجية تحت العينين، فقد كان يعرف هنّه الأعراض. ولكن ليتأكد تماماً، أمرها بالدخول إلى ما وراء ستارة ونزع كل ملابسها.

قال وهو يضع البيضاء على الطاولة ويلحق بایفانخيلينا :

- سأفحص هذه الصغيرة يا سيدة رانكيليو.

وبعد أن فحصها بدقة، وجعلها تبول في مبولة ليدرس طبيعة بولها، عزّز دون سيمون شكوكه :

- لقد أصابتها عين.

فسألت ديننا رانكيليو مذعورة :

- وهل لهذا شفاء يا دون؟

- نعم، له شفاء. ولكن علينا اكتشاف المسبب لتمكن من معالجة الداء. أتفهمين؟

- لا.

- تقصي عن يكره الصبية وأخبرني لأنّك من تحسين حالتها.

- لا أحد يكره ايفانخيلينا يا دون سيمون. أنها طفلة بريئة. من ذا الذي يستطيع القسر بها هكذا؟

- رجل مفتاظ بعد الصد أو امرأة غيورة - أشار المداوي وهو ينظر إلى نهدى المريضة الصغيرين.

انفجرت ايفانخيلينا بالبكاء يائسة، وانتابت أمها ارتعاشة غضب، فهي

ترقب ابنتها عن قرب ، وكانت متأكدة من انها ليست على علاقة غرامية بأحد ، بل انها لا تستطيع أن تصدق أن هناك من يمكنه الحقن الضرر بها . كما أن ديننا فقدت بعض ثقتها بدون سيمون مذ علمت كيف تخونه زوجته ، واستنتجت ، وهي حقيقة في استنتاجها ، انه لا يمكن لحكمته ان تكون واسعة كما يدعى ما دام هو الشخص الوحيد في القرية الذي لا يعرف شيئاً عن قرونه . ارتباط في تشخيصه للمرض ، ولكنها لم تنشأ ان تظهر بمظاهر عدم اللياقة ، فطلبت بكثير من المواربة أن يصف لها دواء ما كي لا تنصرف من عنده صفر اليدين .

- صف للصغيرة بعض الفيتامينات يا دون ، لنرى ان كانت تشفى . فربما هي مصابة إلى جانب ضربة العين بالطاعون الانكليزي . . .
أعطتها دون سيمون حفنة أقراص من صنع بيتي وبعض الأوراق المطحونة في هاون والتحولة إلى غبار .

- اذيببي هذا في نبيذ وأعطيها منه مرتين في اليوم . وعليك أن تضع لها كذلك كمادات خردل وتغطسيها في ماء بارد . ولا تنسى مغلي أوراق البلوط ، فهو ينفع دوماً في مثل هذه الحالات .

- وهل ستشفى بهذا من النوبات؟

١ - ستختفي سخونة بطنها . ولكنها لن تتحسن ما دامت مصابة بالعين .
وإذا ما جاءتها نوبة أخرى فأحضرها كي أرقيها .

بعد ثلاثة أيام من ذلك ، رجعت الأم وابنته التكثيف العلاجي ، لأن ايفانخيينا صارت تعاني نوبة يومية عند الظهيرة . وفي هذه المرة تصرف المداوي بحزن . قاد المريضة إلى ما وراء ستارة المشمع ، وعراها بيديه وحملها من رأسها إلى أخص قدميها بمزيج مؤلف من الكافور والكحول الأزرق والماء المقدس في نسب متساوية ، وذلك باهتمام خاص الأجزاء المتأثرة بالداء : الكعبين ، والتهدين ، والظهر ، والسرة . لقد صبغ التدليك والفرغ واحتكم هاتيك اليدين الغليظتين بشرة الصبية بلون سماوي خفيف وسب لها هيجاناً عصبياً كاد يؤدي بها إلى الاغماء ولحسن الحظ . فقد كان لديه نوع من شراب الورد لتهيئة المريضة ، لكنه

أفقدتها الوعي وجعلها ترتعش . بعد تعزيم الاستشفاء أعطى الأم قائمة طويلة من الوصايا وعدة أنواع من الأعشاب الطبية : أوراق صور لمعالجة الضيق والجزع ، والهندباء من أجل كبح العواطف ، وكف الذئب لمنع خود الهمة ، وأوراق الرتم للحيلولة دور الانتخاب والبكاء ، وأوراق البهشية للوقاية من العين والحسد ، والصنوبر لإشفاء وخز الصمیر والملع . وأشار عليها أن تلأ طشتاً بهاء من النبع ، وتلقى فيه الأوراق والأزهار وتركتها تترنخ في ضوء النهار لأربع ساعات قبل أن تغليها على نار هادئة . وذكرها انه لإشفاء القلق الغرامي لدى البرئين ، لا بد من وضع حجر قدح في طعامهم والحيلولة دون تقاسمهم السرير مع أفراد الأسرة الآخرين ، لأن سخونة الشبق معدية ، مثلها مثل الحصبة . وأعطتها أخيراً زجاجة تحتوي على أقراص كالسيوم ، وصابون معقم لحمامها اليومي .

بعد مرور أسبوع نحلت الصبيحة وزاغ بصرها ، وصارت يداها ترتعشان ، ومعدتها تتقلب ، وتواصلت النوبات اليومية دون انقطاع . عندئذ حللتها ديعنا رانكيليتو ، قاهرة مقاومتها الطبيعية ، إلى مستشفى لوس ريسكوس ، حيث فحصها طبيب شاب قدم حديثاً من العاصمة ، يتكلم بمصطلحات علمية ، ولم يسمع في حياته من قبل بأمراض مثل ضربة العين . فأكده لها ان ايفانخيلينا مصابة بالهستيريا . ونصحها بتجاهل الأمر وانتظار أن يهدىء انقضاء سنوات المراهقة اعصابها . ووصف لها مسكنأً قادراً على طرح ثور أرضاً ، ونبهها الى وجوب ارسالها إلى مستشفى الطب النفسي في العاصمة إذا لم تفارقها نوبات الجنون هذه ، وقال انهم سيعيدونها هناك إلى رشدها بالاصدمات الكهربائية . أرادت ديعنا أن تعرف إن كانت الهستيريا تسبب اهتزاز الفناجين على رفوف الخزانة ، واكتتاب نباح الكلاب ، وسقوط وابل حجارة لامريئة وصاحبة على السطح وارتفاع اثاث البيت ، لكن الدكتور فضل عدم الخوض في هذه الأعمق واكتفى بتوصيتها بوضع أوانى المطبخ في مكان آمن وتقيد الحيوانات في الفناء .

أغرق الدوار ايفانخيلينا أول الأمر في سبات عميق ، أشبه بالموت . فكانوا يفتحون لها عينيها بصعوبة كبيرة لتأكل . إذ أنهم صاروا يدسون لقمة الطعام بين

شفتيها ثم يرثون وجهها باء بارد لتشذّر مصففها وابتلاعها. وكان عليهم أن يرافقوها إلى المرحاض، لخشيّتهم من سقوطها هناك وهي نائمة. ولم يكن هذا السبات يتوقف إلا عند الظهرة، وفي موعد نوبة غيبوبتها العادة، وهي اللحظة الوحيدة التي تبدي فيها شيئاً من الحيوة. وقبل مضي أسبوع، لم تعد الأعراض التي وصفت لها في المستشفى تؤثر فيها، ودخلت مرحلة شرود وكآبة ألمتها السكون والأرق في الليل والنهار. حينئذ بادرت الأم إلى دفن الأعراض في حفرة عميقه في البستان، حيث لا يمكن لأي كان حي أن يجدها.

★ ★ ★

لحوات ديفنا رانيكليو اليائسة إلى ماميتا انكارناثيون، التي وافقت على فحص الصبية بعد أن أوضحت بشكل قاطع أن اختصاصها هو عمليات الولادة والحمل، وليس النوبات الناجمة عن مسبيات أخرى. وجاءت إلى البيت في صباح أحد الأيام واستطاعت مشاهدة غيبة الجنون والتتأكد بعينها من ان ارتعاش الاناث وهياج الحيوانات ليست مجرد تقولات، وإنما هي الحقيقة المئية.

قالت مبينة رأيها:

- هذه الصبية يلزمها رجل.

أغضب كلامها آل رانيكليو الذين ما كانوا قادرين ان يصدقوا بأن صبية محترمة، ربواها كابنة لهم، وأولوها عنابة خاصة وصانوها من الاحتكاك حتى باخوتها، يمكن لها ان تهيج مثل كلبة. هزت القابلة رأسها متوجهة هذه الحجج وأصررت على تشخيصها، وأوصت بأن يوكلوا إليها القيام بأعمال متواصلة، ليحولوا بذلك دون ازدياد شرودها.

- البطالة والغفوة يوصلان إلى الكآبة. وعليكم في جميع الأحوال ان تزوجوها، لأن هذه الزوجية لن تنتهي دون فحل.
لم تتفيد الأم المستنكرة بهذه النصيحة الأخيرة. لكنها نفذت وصية البقاء

على الفتاة مشغولة دوماً، فأعادت إليها بذلك البهجة والنوم، فلم تتمكن من التحفيظ حدة النوبات التي تصيبها.

وسرعان ما علم الجير أن بهذه الشذوذات وبدلوا يتخلون حول البيت.

وكان أكثرهم جرأة يطوفون منذ الصباح الباكر ليرى والظاهرة عن قرب. وحاولوا أن يهدوا لهذه الحالة فائدة عملية، فاقترب بعضهم على إيفانخيلينا للتواصل مع الأرواح التي في المطهر أثناء نوبتها، وأنه تنبأ لهم عن المستقبل وتهدىء المطر: وأدركت ديننا أن انتقال المسألة إلى يد العالمة سيسجّل الناس يضدون من كل مكان ليجوسوا في بستانها، ويدنسوا فتاء بيتها ويطسخوا من ابتها. وهذا لن تجد إيفانخيلينا إلى الأبد رجلاً محترماً يقترب منها ويمنحها أطفالاً هي في أمس الحاجة إليهم. ولأنها فقدت الأمل في العلم، فقد ذهبت لزيارة راعيها الانجليكاني في الحوش المطل على النيل، والمستخدم كمعبد لأتباع يهوه. لقد كانت عضواً فعالاً في الأخوية البر وتستانتية الصغيرة، فاستقبلها الراعي بمودة. روت له دون اخفاء أي تفصيل عن النكبة التي تجثم على بيتها، موضحة أنها قد أبعدت ابتها عن أية علاقات أئمة، بما في ذلك نظرات أخواتها وأبيها بالتبني.

استمع الموقر إلى الحكاية باهتمام بالغ. ووضع ركبتيه على الأرض لبعض دقائق، وغرق في التأمل طالباً إيماء من رب. ثم فتح الكتاب المقدس كيما اتفق له وقرأ أول عبارة وقعت عليها عيناه: «وكان هولوفيزيس سعيداً جداً بها فشرب الخمر دون حساب، شرب أكثر مما شربه في حياته كلها». ففسر سعيداً ردّ الرب على مشكلة خادمته رانكيليyo:

- هل ترك زوجك شرب الكحول يا أختاه؟
- حضرتك تعلم أن هذا مستحبيل.
- كم من السنوات مرت وأنا أعظه بالامتناع عنه؟
- لا يستطيع تركه، فالخمر متغلغل في دمه.
- قولي له أن يقترب من الكنيسة الانجليكانية الحقيقة، ونحن قادرون على مساعدته. أرأيت سكيراً بیننا؟

أيدت ديننا أقواله عدة مرات متتالية لتبرر ضعف زوجها . فالقضية ترجع إلى يوم ميلاد ابنها الثالث الذي مات فور ولادته . ولم يكن هيوليتوبيلك نقوداً لشراء تابوت ، فوضع الملائكة الصغير في علبة حذاء ، وحمله تحت ابطه ومضى به نحو المقبرة . وفي الطريق ، حاول أحد احزانه ببعض رشفات من الخمر ، ثم واصل الشرب إلى أن نسي نفسه . وعندما استعاد وعيه وهو ملقى على برميل ، كانت العلبة قد اختفت . ورغم أنه جال المنطقة كلها للبحث عنها ، إلا أنه لم يجد لها أبداً .

- تصور الكوايس التي تنتابه إليها الموقر . ما زال مسكنيني هيوليتوبيلم بهذا الأمر . يستيقظ صارخاً لأن ابنته يناديه من الليموس . وكلما تذكر ذلك جأ إلى الزجاجة . هذا هو سبب سكره ، وليس الفجور أو الأثم .

- لدى المدمن على الكحول عنز جاهز دوماً . ان ايقان خيلينا هي بوق الرب ، وبمرضها يدعو الرب زوجك للصلاح قبل فوات الأوان .

- مع كل تقديري إليها الموقر ، إلا أنني أفضل ، إذا ما أتاح لي الرب الخيار ، رؤية هيوليتوبيلماً بوقار بدلاً من رؤية ابتي تعوي مثل كلبة وتتكلم بصوت رجولي .
- هذه غطرسه آثمة يا اختاه ! من أنت حتى تشيري على بيته كيف يقود مصائرنا البائسة ؟

وبدافع الغيرة صار الراعي الانجليكانى يتزدد منذ ذلك اليوم على بيت آل رانكيليو بكترة ، يرافقه بعض أعضاء جمعيته الورعين ، لمساعدة الفتاة بصلواتهم الجماعية . لكن أسبوعاً آخر مضى دون ان تظهر على ايقان خيلينا علامات التحسن . وفيها أحد المنظفين يطوف مترصداً حول البيت في موعد النوبة ، اكتشف طريقة للإفاده من هذا الوضع . فقد اصطدم بكرسي ، وليتفادى السقوط استند عرضاً على السرير الذي تتلوى الفتاة فوقه . وفي اليوم التالي اختفت الثاليل التي كانت تملأ يده . فانتشر خبر المعجزة في الحال وازداد عدد الزائرين بشكل مفزع ، وكان هؤلاء الزائرون على يقين من انهم سينالون الشفاء في لحظة النوبة . وقد نقض أحدهم الغبار عن قصة الايقان خيليتين المستبدلتين في المستشفى وأضيفت القصة إلى

نسيج المعجزة التي وقعت. حيثند قدر الموقر أن المسألة خارج نطاق معارفه واقتراح أخذ المريضة إلى الخوري الكاثوليكي ، فكنيسته ، نظراً لكونها أقدم عهداً ، تمتلك خبرة أكبر في شؤون القديسين ومآثرهم .

استمع الأب ثيريلوفي الكنيسة إلى القصة من شفاه الآبوبين رانكيليو وتنذكر ان ايفانخيلينا هي الوحيدة بين أبناء جيلها التي لم تشارك في المaulة الأولى في المدرسة لأن أمها تتسمى إلى جماعة الهرطقة البروتستانتية . أنها احدى نعاج قطيعه المفتونة ببهرجة طبل الانجليكانيين وصنجهم ، ولكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يمحجب نصيحته عنها .

- سأصلني من أجل الصبية . فرحة الرب واسعة وقد يساعدنا ، رغم ابعادك عن الكنيسة المقدسة .

- شكرأ يا أباها . ولكن إضافة للصلوات ، ألا يمكنك أن ترقيها للطرد الشيطان منها ؟

رسم الكاهن اشارة الصليب مستنكراً . لا بد أن مصدر هذه الفكرة هو خصميه البروتستانتي ، لأنه لا يمكن لتلك الفلاحة أن تخوض في مثل هذه الأمور . فالفاتيكان ما عادت تنظر ، في الأزمنة الأخيرة ، بعين الرضى الى هذه الطقوس ، بل إنها كانت تحول دون ذكر الشيطان ، وكأنها وجدت انه من الأفضل تجاهله . لقد كانت لديه هو بالذات دلائل لا تدحض حول وجود الشيطان ، مفترس الأرواح ، وهذا لم يكن يميل إلى المواجهة معه في طقوس مرجلة . ثم أن وصول أخبار مثل هذه الممارسات إلى مسامع رؤسائه ، سيكشف شيخوخته برداء الفضيحة السوداء نهائياً . ومع ذلك ، فإن الحس العام كان ينبهه إلى أن الاتجاه كثيراً ما يلودي إلى مآثر لا تفسير لها ، ولربما أدى تردده لصلة أبانا الذي في السموات بطبع مرات ، وبعض رشات من الماء المقدس إلى تهدئة المريضة . وقال للأم أن هذا يكفي ، مستبعداً احتمال الأصابة بمس شيطاني . فطرد الأرواح لا يمكن تعليقه على مثل هذه الحالات ، لأن ذلك يعني ضرورة الانتصار على الشيطان بالسدات ، (وكاهن هرم ووحيد مثله ، منسي في قرية ريفية ، لا يمثل نداً مهيناً

لواجهة قوى الخبيث، إذاها افتقرطن أن سبب آلام ايفانخيلينا هو هذه القوى. وأمرها بالصلحة مع الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، لأن هذه النكبات تحمل بمن يرتابون بربنا في مذاهب الزندقة. لكن ديننا كانت قد رأت مالكي الأرضي وهم يتهماسون مع الخوري في جحرة الاعتراف في الكنيسة، وما بين ثنتين «أنا الخاطئ» والهمس، كان يتجلس على الفلاحين وي Shi بهم، ويبلغ عن بساتينهم الصغيرة، لهذا السبب فقدت ثقتها بالكاثوليكية، واعتبرتها حلقة الأغنياء ومعادية للفقراء في عصياب مكشف لوصايا يسوع الذي بشر بعكس ذلك.

أصبح الأب ثيريلويترد منذ ذلك الحين على منزل آل رانكيليو كلها سمح له مشاغله الكثيرة وساقاه المتعبان. فيمرة الأولى التي جاء بها، اهتزت قناعاته الراسخة أمام مشهد الفتاة المذعنة بهذا الداء الغريب. ولم يجد الماء المقدس والصلوات نفعاً في التخفيف من أعراض المرض، كما أنها لم تزد من تفاقمه، فاستنتاج ان الشيطان بعيد عن هذه المسألة. والتلقى مع الموقر البر وستانتي في المسعي الروحي ذاته. إذ اتفقا على التعامل مع الداء على أنه مرض عقلي وليس كتجلى الهي في جميع الأحوال، لأن المعجزات التافهة المنسوبة إلى الصبية تبدو غير جديرة بالاهتمام عند التمعن بها. وقد قاوما معاً الخرافية بعد أن درسا الحالة واستخلصا ان اختفاء بعض الثاليل التي غالباً ما تشفي وحدها، وتحسن المناخ، وهو أمر طبيعي في هذه الفترة من السنة؛ ومواتاة الحظ المريرية في بعض ألعاب البخت، ليست كافية لتبرير هذه الظاهرة من القدسية. لكن حجج الكاهن الكاثوليكي والراعي البر وستانتي القوية هذه لم توقف مواكب الحج الى بيت آل رانكيليو. وقد انقسم رأي الزوار الذين كانوا يأتون طلباً للأفضل. ففيما كان بعضهم يؤكّد المشاً السرياني للأزمة، كان آخرون يعزّونها إلى سحر شيطاني خبيث. وكان البر وستانتي والخوري والقليلة وطبيب مستشفى لوس ريسكونس يشكلون جوقة تزعم أنها المستير يا، لكن أحداً لم يشأ الاصناع اليهم في حماسته مهرجان المعجزات التافهة ذاك.



تخيلت ايرين انها تطير فوق ظهر تنين مجنب وهي تحضرن خصر فرانثيسكو، وتلصق وجهها بنسيج سترته الخشن فيما شعرها يتطاير مع الهواء. خلفا آخر بيوت المدينة وراءهما، وصار الطريق يمتد وسط حقول محفوفة بأشجار حورلامعة. وبعيداً كانت تظهر الجبال المحاطة بضباب بعد الأزرق. كانت ايرين تركب مدلية ساقيها على جانبي القسم الخلفي من المقعد، تائهة في تخيلات مستحضره من طفولتها، وكأنها تعود على فرس عبر الكثبان في حكاية شرقية. كانت تستمع بالسرعة وبالارتعاشة المزبلة بين ساقيها، وبالزمرة الرهيبة التي تختنق جلدتها، مفكرة بالقديسة التي ستقابلها، ويعنوان لتحقيقها الصحفي ، ويحطط هذا التحقيق الذي سينشر على أربع صفحات مع صور بالألوان. فمنذ ظهور المُلهم ، قبل عدة سنوات ، الذي كان يمضي من الشمال إلى الجنوب شافياً القروح وباعثاً الأموات ، لم تسمع أية أحاديث عن المعجزات . كان هناك مشعوذون ، ومحضرو أرواح ، وذوو مفاصل مطابعة بالعشرات ، كالفتاة التي تصدق الصدائع ، والشيخ الذي يتباً بحدوث الزلازل ، والأصم الابكم الذي يشن الآلات بمجرد التحديق بها ، وقد تأكّدت من ذلك حين أجرت معه مقابلة بالاشارات ثم لم تجد بعد ذلك من وسيلة لتشغيل ساعتها التي توقفت . ولكن باستثناء هذا الشخص الشهير ، لم يكن هناك من يهتم منذ زمن بعيد بمعجزات ذات نفع للإنسانية . وكانت المصاعب تزداد يوماً بعد يوم في العثور على أخبار جذابة للمحللة . حتى صار يبدو وكأن لا شيء منها يحدث في البلاد ، وإذا ما حدث شيء من هذا فالرقابة تمنع نشره . دست ايرين يديها تحت سترة فرانثيسكو لتتدفق أصابعها الخدرة . داعت صدره العigel ، انه مجموعة أعصاب وعظام ، وهو مختلف تمام الاختلاف عن هوستافو ، كتلة العضلات المتراكمة المتشكلة في ألعاب المبارزة والجحود والتمارين الرياضية وخصوصاً ترين الاستلقاء وحني الجذع الذي كان يمارسه خمسين مرة يومياً مع عناصر وحدته ، لأنه لا يطلب من رجاله عمل شيء لا يكون هونفسه قادرًا على عمله ، فهو يقول : اني مثل أب لهم ، أب قاس ، إنما عادل . وعند ممارسة الحب في عتمة الفنادق ، كان ينزع ملابسه متباھياً بمظهره ويستعرض نفسه

في الحجرة وهو عاري. لقد كانت تحب ذلك الجسد المحمس بالملح والريح، والمدبوغ بالجهد البدني، والمرن، الصلب، المتناسق. فتتأمله ملاظفة وتدابعه وهي شبه ساهية، ولكن باعجاب. أين هو الآن؟ ربما يكون بين ذراعي امرأة أخرى. فرغم أنه يقسم في رسائله على الوفاء، إلا أن ايرين تعرف ضيق طباعه وتستطيع أن تلمع خلاسيات وسوداوات يستمتعن بصفحته. عندما كان في مهمة في المنطقة القطبية كان الوضع مختلفاً، ففي وسط ذلك البرد الجليدي، حيث لا رفاق سوى طيور الطريق وستة رجال مدربين على نسيان الحب، كان العفة أمراً اضطرارياً. لكن الفتاة متأكدة من أن حياة الكابتن في المنطقة المدارية تسير بشكل مختلف. وابتسمت حين رأت ان ذلك كله لا يهمها كثيراً وحاولت أن تتذكر آخر مرة شعرت فيها بالغيرة على خطيبها، لكنها لم تتمكن من ذلك.

وحمل صجيج المحرك إلى ذهنها أغنية من أغانيات وحدات الصاعقة الاسانية، كان غوستافو مورانتي يدنون بها بكثرة:

أنا رجل جرمه الحظ

بمخيلب ضارٍ،

أنا عريس المنيّة

أمسكت بها بساعد قويٍّ

وجعلت حبها راتبي.

كان تردددها هذه الأغنية على مسمع من فرانشيسكو فكرة سيئة، لأنه أطلق على غوستافو منذ ذلك الحين لقب «عريس المنيّة». ولم تغضب ايرين لهذا. الحقيقة أنها قليلاً ما كانت تفكّر بالحب، ولم تكن تجادل في أمر علاقتها الطويلة مع الضابط. كانت تتقبلها كشيء طبيعي مكتوب في قدرها منذ الطفولة. فطالما سمعت أنها تشكل مع غوستافو مورانتي الثنائي النموذجي، حتى أنها اقتنعت بذلك دون أن تتوقف للتأكد من مشاعرها. كان شخصاً متواسكاً، راسخاً، رجوليّاً، ومغروساً بشبات في واقعها. كان تعتقد نفسها كوكباً يبحر في الريح، ولحوافها من تمردتها الداخلي، كانت تستسلم أحياناً لاغراء التفكير ب حاجتها من

يکبح اندفاعاتها؛ لكن هذه الحالات المعنوية لم تكن تدوم إلا لوقت قصير. وحين تتأمل في أمر مستقبلها تصاب بالكآبة. لذلك كانت تفضل العيش متجاوزة حدود المألف ما دام ذلك متاحاً لها.

أما فرانسيس كوشللم يكن يرى في علاقة ايرين بخطيبها اكثرا من محصلة عزلتين وفراقات طويلة. وكان يقول انه حين ستتاح لها فرصة البقاء معًا البعض الوقت، فسيدركان كلاهما أن ما يجمعهما هو حكم العادة وحسب. ولم تكن هنالك أي اندفاعات في هذا الحب، فقد كانت لقاء اتهما هادئة وفراقاتهما شديدة الطول. وكان يعتقد ان ايرين تمنى في أعماقها اطالة أمد هذه الخطوبة حتى نهاية حياتها، كي تعيش في حرية مشروطة وتلتقي مع خطيبها بين الحين والآخر ليتداعيا كالجراء. كان واضحاً ان الزواج يخيفها، وهذا كانت تختلق الاุดار لتأخره، وكأنها تتمنى بانها ما إن تتزوج من ذلك الأمير المهيأ للوصول إلى رتبة الجنرالية، حتى يتوجب عليها ان تتخلّى عن ملابسها التي كالخرق المتنافرة، وعن اساورها الصاخبة وحياتها المائحة.

في هذا الصباح، وبينما الدراجة النارية تنهي الحقول والتلال نحو لوس ريسكوس، كان فرانسيس كوشل يحسب الوقت القليل المتبقى لعودة عريس المنية، فمجيءه سيتغير كل شيء. ستختفي سعادة الشهور الأخيرة التي أمضتها إلى جانب ايرين، وسيسود الأحلام، والمفاجآت اليومية وشوق انتظارها والضحك لرؤيتها تبادر إلى مهام غير معقولة. سيكون عليه توخي الحذر، والتحدث في الأمور العادلة فقط، وتفادي كل شيء مريب، لقد تقاسما حتى ذلك الحين تواطؤاً ساكتاً. كان يبدو على صديقه أنها تحول في العالم ببراءة، وانها لم تكتشف العلام الضئيلة لحياته المزدوجة، فهي لا توجه أسئلة على الأقل. ولم يكن عليه اتخاذ اجراءات احتياطية في حضورها، لكن مجيء غوستافو مورانتي سيضطره إلى ان يكون أكثر حذراً. كان يرى أن علاقته بـ ايرين ثمينة جداً، فيرغب في الحفاظ عليها دون المساس بها. ولم يكن راغباً في غرس الرياء والكذب في صداقته، معها، لكنه كان يدرك انه لن يجد مفرأً من ذلك بعد وقت قصير. وفيها هو يقود الدراجة

أحسن برغبة في إطالة أمد الم Shawar حتى حدود الأفق، حيث لا يصلها ظل الكابتن، وان يجتاز حدود البلاد، ثم حدود القارة وينطلق إلى بحار آخرى مع ايرين التي تختضن خا صرته . بدلت له الرحلة قصيرة جداً . ولدى انحرافه إلى درب ضيق، ظهرت حقول قمح فسيحة كانت تلمع في هذه الفترة من السنة مثل رغب أخضر فوق السهول . تهد بشيء من الأسى لأنها وصلت إلى هدفها . اهتديا دون صعوبة إلى المكان الذي تعيش فيه القديسة ، مستغربين تلك العزلة وذلك الصمت المطبق، لأنهما كانا يتظاران على الأقل وجود مهرجان من الفضوليين الراغبين في رؤية الظاهرة :

- أنت متأكدة من أنها هنا؟

- متأكدة.

- لا بد أنها قد يسرا قليلة الشأن إذن ، لأنه لا وجود لأحد .
برز أماماً عينها مسكن فلاحين فقراء ، جدرانه من الطين المطلي بالكلس ، وسقفه مغطى بقرميد باهت اللون ، وكان هناك ممراً أمام الباب ونافذة واحدة في البناء كله . ومقابلة يمتد فناء فسيح تحيط به عريشة بلا أوراق تبدو وكأنها فسيفساء أ Guscan جافة وملتوية ، تطل منها أول البراعم متئثرة ببواarden الصيف . انتبهما إلى وجود بشر ، وحجيرة من ألواح خشبية يبدو إيمانها المرحاض ، ووراءها بقليل بناء صغير مربع يستخدم كمطبخ .

هرعت عدة كلاب مختلفة الأحجام والفراء لاستقبال الزائرين وهي تنبج هائجة . كانت ايرين ، المعتادة على التعامل مع الحيوانات ، تسير وسط مجموعة الكلاب وتتحدث إليها وكأنها تعرفها منذ الأزل . أما فرانثيسكو فقد فوجيء بنفسه وهو يكرر في دخилته بيت الشعر السحري الذي تعلمته في طفولته ليdraً عن نفسه هذه الأخطار : «توقف أيها الحيوان الضاري ، واجث بذيلك إلى الأرض ، فقبل أن يوجد الكلب العظيم ، في البدء كان الرب ». لكن اسلوب صديقته كان أكثر جدوى دون ريب ، ففي حين كانت هي تتقدم مطمئنة ، راحت الكلاب تحيط به مكشة عن أنفاسها ، كان يتذهب للبدء بتوزيع الركلات على أنوف الكلاب الدافئة

عندما ظهر طفل صغير يحمل قضيباً، وأفزع كلاب الحراسة بصرخاته التي أطلقها. وعلى الجلبة، خرج من البيت أشخاص آخرون: امرأة بدينة ذات مظهر خشن وقاطن، ورجل له وجه مليء بالأحاديد حتى ليبدو أشبه بحجة كستناء شتوية، وعدة أطفال من مختلف الأعمار.

سألت ايرين:

- هل تعيش هنا ايفانخيلينا رانكيلي؟

- أجل، لكن المعجزات عند الظهيرة.

فأوضحت اهلاً صحفيان جذبها حجم الشائعات. فدعتمها الأسرة، التي تغلبت على الاحساس بالارتكاك، للدخول الى البيت انسجاماً مع التقليد الراسخ لساكني هذه الأرض.

★ ★ ★

بعد قليل جاء الزائرون الأوائل واستقروا في فناء آل رانكيلي. وعلى ضوء الصباح صور فرانثيسكو ايرين وهي تتحدث إلى أفراد الأسرة، والتقط لها صوراً وهي ساهية، لأنها لم تكن تحب الوقوف أمام الكاميرا. فقد كانت تقول ان الصور ليست إلا تحايل على الزمن باسقاطه على قطعة ورق مقوى حيث تبقى الروح جامدة. كان الهواء النقي والحماس يمنحان الشابة مظهراً مخلوقة من مخلوقات الغاب، فهي تتنقل في ارجاء بيت آل رانكيلي بحرية وثقة وكأنها ولدت هناك، متهدلة وضاحكة ومشاركة في توزيع المطبات، متفادية الكلاب التي كانت تهز ذيولها بين ساقيها. وكان الأطفال يلاحقونها بسبب شعرها الغريب، وثيابها الشاذة، وضحكتها الدائمة، وسحر حركاتها الصغيرة.

جاء عدد من الانجليكانيين ومعهم جيتاراتهم، ونایاتهم وطبوفهم وبدأوا بترتيل المزامير تحت قيادة الراعي المقر الذي بدا ضئيلاً بستره اللامعة وقبعته الجنائزية. كان في صوت الجحوة وفي موسيقاها نشار، لكن أحداً، باستثناء ايرين وفرانثيسكو، لم يكن يلحظ ذلك على ما يبدو. فهم يسمعون هذه التراتيل منذ عدة أسابيع، حتى أن آذانهم اعتادتها.

جاء كذلك الأب ثيريلو وهو يلهث للجهد الذي بذله في قيادة الدراجة من الكنيسة وحتى بيت آل رانكيليتو. كان مجلس تحت العريشة ساهماً في شرودات كثيبة أو في ترديد صلوات يحفظها عن ظهر قلب، ويهز لحيته البيضاء التي كانت تبدو من بعيد وكأنها باقة سوسن متسلية من صدره. ربما كان قد أدرك أن سبحة سانتا خيمينا التي باركتها يد البابا ليست مجده في هذه الحالة، مثلها مثل تراتيل زميله البروتستانتي أو أقراس طبيب لوس ريسكوس الملونة. وبين الحين والآخر كان ينظر إلى ساعته ليتحقق من دقة موعد النوبة. وكان أشخاص آخرون جذبتهم امكانية حدوث معجزة يحتفظون بالصمت تحت افريز سطح البيت، على كراس منتشرة في الظل. كان بعضهم يتبادلون حديثاً متقطعاً عن زراعة الموسم القادم أو عن مباراة في كرة القدم جرت في مكان ناء وسمعوا عنها في المذيع، دون أن يأتوا ولو بشكل عابر على ذكر الدافع الذي قادهم إلى هذا المكان، احتراماً لأصحاب البيت أو خجلاً من أنفسهم.

كانت إيفانخيلينا وأمها تقدمان للزائرين ماء بارداً مع دقيق محمص وعسل. ولم يكن يندو على الفتاة شيء يشير إلى أنها في حالة غير طبيعية؛ فهي هادئة، متوردة الوجنتين، وعلى وجهها الذي يبدو كبرتقالة ترسم ابتسامة بلهاء. كانت سعيدة لأنها محظوظة اهتمام هذا الملتقى الصغير.

تأخر هيوليتورانكيليتو طويلاً في جمع الكلاب ليقيدها إلى الأشجار. فقد كانت تبع بقوة. ثم اقترب بعد ذلك من فرانشيسكو ليشرح له ضرورة قتل واحدة من الكلاب، لأنها ولدت في اليوم السابق والتهمت أولادها، وهو أمر لا يقل خطورة عن مسياح دجاجة بصوت ديك. إن بعض عيوب الطبيعة تفرض علينا اجتناثها من جذورها للحيلولة دون انتقال العدوى إلى مخلوقات أخرى. وهيوليتو دقيق جداً في مثل هذه الأمور.

كان يتحدث في هذا الشأن، حين وقف الموقر في وسط الفناء وبدأ بالقاء خطبة حماسية من أعماق رئيه. وأصغى الحاضرون إليه خجلاً من الانقضاض عنه، رغم انهم جميعاً، باستثناء الانجليكياتين، كانوا يشعرون بحيرة لا ريب

فيها . «ارتفاع في الأسعار! غلاء في المعيشة! هذه مشكلة معروفة . ولو قفها توجد وسائل عديدة: السجن، الضرائب، الاضراب، الخ . ولكن ما هو جوهر المشكلة؟ ما هو السبب؟ كيف يلتهب جشع الانسان مثل كرة النار؟ هناك ميل خطير إلى الرذيلة، واندفاع فاسد نحو المللذات الدنيوية . وهذا هو ما يبعد الانسان عن رب المقدس، ويؤدي إلى خلل انساني، وأخلاقي، واقتصادي وروحي ، ويطلق العنان لغضب رب القادر على كل شيء . ان زماننا هذا هو مثل زمن سادوم وعموره، فقد هوى الانسان في غياب الرذيلة والاثم وهو ينال عقابه الآن لأنه أدار ظهره للخالق . ان يهوه يرسل علينا التحذيرات لتنروي وتنوب عن خطابانا القدرة . . . »

- عفوك أيها المؤرق، هل أقدم لك مرطباً بارداً؟ - قاطعته ايفانخيلينا تاركة اياه معلقاً في خيط الاهام لتعداد آثار جديدة .

دنت واحدة من أتباع البروتستانتية، وهي حولاء وقصيرة الساقين، من ايرين لتوضح لها نظريتها حول ابنة آل رانكيليتو: «لقد دخل بيلسيبو، أمير الشياطين، في جسدها . اكتبي هذا في مجلتك يا آنسة . انه يحب الحق الاذى باليساريين، لكن جيش الخلاص أقوى منه وسيهزمه . اذكري هذا في مجلتك، لا تنسى» .

سمع الأب ثيريلو الكلمات الأخيرة، فأمسك بذراع ايرين وقادها جانباً .
- لا تهتمي لما نقوله . فهو لا الانجليكانيون جهله تماماً يا بنيتي . ليسوا على الایران الصحيح، ولكن لديهم بعض المزايا الطيبة، وهذا لا يمكن نكرانه .
أتعلمين أنهم لا يقربون المسكرات؟ وحتى المدمنين يتخلون عن الشراب في هذه الطائفة، ولهذا أحترمهم . لكن الشيطان لا شأن له في هذه القضية . الفتاة معتوهة، وهذا هو كل شيء .

- والمعجزات؟

- عن آية معجزات تتكلمين؟ لا تصدقني هذه الترهات!

قبل انتصاف النهار بدقائق غادرت ايفانخيلينا رانكيليتو الفناء لتدخل إلى

البيت. خلعت كنزتها، وحلت ضفيرة شعرها وجلست على أحد الأسرة الثلاثة التي في الغرفة. خيم الصمت على الجميع في الخارج، وراحوا يقتربون من المر لينظروا من خلال الباب والنافذة. لحقت ايرين فرانشيسكو بالفتاة إلى داخل البيت، وفيه هو يعد آلة التصوير للعمل، كانت هي تجهز آلة التسجيل.

كانت أرضية بيت آل رانكيليو الترابية، المروطة والمبللة بالماء والموطوءة من جديد، قد اكتسبت تماسك الاسمنت. وكان الأثاث القليل مصنوعاً من خشب عادي دون مسح، وكانت هناك بعض المقاعد وكراسي القش التي بلا مسند، وطاولة خشنة من صنع بيتي. والزينة الوحيدة هي لوحة تمثل المسيح وقلبه يشتعل. كانت هناك ستارة تفصل حجرة نوم البنات، أما فراش الصبيان فكان مدوداً على الأرض في حجرة ملحقة بالبيت لها مدخل مستقل، وبهذا كانت تتم الحيلولة دون اختلاط الاخوة. كل شيء كان تزييناً تماماً، وتبعثر منه رائحة النعنع والزعتر، وكانت توجد باقة زهور حمراء في قارورة تمنع النافذة مظهراً مفرحاً، وعلى الطاولة يمتد شرشف أحضر مزين بمربيعات. وجد فرانشيسكو في هذه الأشياء البسيطة موضوعاً جمالياً عميقاً فقرر التقاط بعض الصور لمشاهد من البيت فيها بعد ليضمها إلى مجموعته الخاصة. لكنه لم يستطع عمل ذلك مطلقاً.

★ ★ *

في الساعة الثانية عشرة ظهراً هوت ايفانخيلينا على السرير. ارتعش جسدها وصدرت عنها آهة عميقة وطويلة ورهيبة، بدت وكأنها نداء حب. وراحـت تتنفس مرتجفة وتقوسـت إلى الوراء في جهد يفوق طاقة البشر. واحتـ من وجهـها المشـوه ملامـح الطـفلـة البـسيـطـة التي كانتـها قبل قـليلـ ، وكـبرـت فـجـأـة عـدـة سـنـواتـ ، وارتـسمـت على وجـهـها تـكـشـيرـة غـيـوبـة وأـلمـ وـشـقـ. اهـتزـ السـرـيرـ ، ورأـتـ اـيرـينـ الـواـجـةـ انـ الطـاـوـلـةـ التي تـبـعدـ عنـها مـسـافـةـ متـرـينـ تـتـحـركـ هيـ الآـخـرـىـ وـحدـهاـ دونـ وـسـاطـةـ شـيـءـ مـعـرـوفـ. تـغلـبـ الذـعـرـ علىـ فـضـولـهاـ فـدـنـتـ منـ فـرـانـشـيسـكـوـ بـحـثـاـ عنـ حـيـاةـ. أـمسـكـتـ بـذـراعـهـ وـالتـصـقـتـ يـهـ دـونـ أـذـنـتـرـفـعـ بـصـرـهـاـ عنـ الشـهـدـ الجـنـوـيـ

الذي يجري فوق المراش ، لكن صديقها أبعدها عنه بلطف ليتمكن من استخدام آلة التصوير. وفي الخارج كانت الكلاب تتبع في عویل کارثی متواصل ، مشاركة في جوقة أصوات الغناء والترليل . وكانت اباريق الصفيح ترافق فوف رفوف الخزانة ، وضربات غريبة تطرق السقف مثل وايل من الحصى ، وزلزلة متواصلة تهز لوحاً من الخشب فوق دعامة افريز السطح ، حيث تخزن الاسرة المؤونة ~~والمنورة~~ وأدوات الفلاحه . وسقط من هناك مطر ذرة تسببت من الأكياس ليفاقم من حدة الاحسیس الكابوسية . وعلى السرير ، كانت ايفانخيلينا رانكيليو تتلوی ، ضحية هذیانات مبهمة واضطربات خفیة . الأب المکھر والمترزع الاسنان ، بملامحه المؤثرة كمهرج کثیب ، كان يراقب المشهد بأسی من عتبة الباب ، دون ان يقترب . بقيت الأم إلى جوار السرير وعيانها مغمضتان ، وكأنها تحاول سماع صمت الرب . وانبعثت آمال الزائرين الذين كانوا داخل الیت وخارجه ، فراحوا يتقربون من ايفانخيلينا واحداً واحداً طالبين منها تحقيق معجزاتهم الصغيرة البائسة .

- اشفی لي هذه الدمامل أيتها القديسة .
- اجعلیهم لا يأخذوا ابني خوان إلى الجنديه .
- ليمعجك الله يا ايفانخيلينا ، أيتها الملیة بالكرامات ، اشفی زوجي من البواسیر .

- أعطني اشارة ، على أي رقم ألعب في اليانصيب؟
 - اوقفي المطر يا خادمة الرب ، قبل أن يذهب البذار هباء .
 الذين بجاؤوا بداعي الايمان أو مجرد اللجوء إلى ملاذ يائس ، كانوا يمرون بانتظام ، متوقفين للحظة إلى جانب الفتاة ليتقىدوا برغبتهن ثم يبتعدون وقد تبدلت ملامحهم لتقتنهم من ان العتایة الإلهية ستنعم عليهم بواسطتها .
 لم يلحظ أي منهم وصول شاحنة رجال الشرطة .

سمعوا الأوامر ، وقبل أن يتمكنوا من الاتيان بأي رد فعل ، هاجم العسكريون الحشد ، محظيين الفنانه ومندفعين إلى داخل الیت وأسلحتهم في

أيديهم . أزاحوا الناس جانباً ، وجعلوا الأطفال يركضون صارخين ، وضرروا
بأعاقب بنادقهم كل من وجدهو أمامهم ، وملؤوا الهواء بأصواتهم الأمرة .
صرخ الرجل المتن ذو الرقبة الشبيهة برقبة ثور ، والذي كان يقود المجموعة :
- وجوهكم إلى الجدار ! وأيديكم على الرقبة !

أذعن الجميع للأمر ، ما عدا ايفانخيلينا رانكيليو السادرة في غيبوبتها
وايرين بيلران المتجمدة في مكانها ، والتي لم تستطع الحركة من هول المفاجأة .
جأر رقيب له ملامح سكان المنطقة :

- أورا凡ك !

فقالت ايرين بصوت متensus وهي تشير إلى رفيقها :
- أنا صحفية وهو مصور .

فتشرعوا فرانثيسكيو بفظاظة مارين بآيديهم على خاصرته وتحت ابطيه وما بين
ساقيه في حذائه . وأمروه :
- استدر !

دنا منه الضابط ، الذي سيعرفانه فيما بعد باسم الملائم خوان دي ديوس
راميريث ، ووضع سبطانة مسدسه الرشاش على خاصرته :
- اسمك !

- فرانثيسكيولال .

- أي خراء تفعله هنا ؟

فقطاعته ايرين :

- ليس خراء ، ولكنه تحقيق صحفي .
- لم أكلمك أنت !

فابتسمت وهي ترفع من رتبته العسكرية ساخرة :

- أما أنا فأكلمك يا سيد النقيب .

ارتبك الرجل ، غير المعتمد على وقاحة المدنيين ، ونادى :
- رانكيليو !

وللحال بز من بين أفراد الوحدة العسكرية مارد أسمر، ذو ملامح فلاحية،
مسلح ببنية ووقف متاهباً أمام رئيسه.

أشار الملازم إلى إيفان خيلينا التي كانت في عالم آخر، هائمة في تواصل
مضطرب مع الأرواح:
- أهذه هي شقيقتك؟

أجاب الآخر وهو ثابت، كعباه ملتصقان بعضهما البعض، وصدره
مندفع، ونظره إلى الأمام، ووجهه كالصوان:
- أجل يا سيدي الملازم.

في هذه اللحظة هز السطح وابل جديد واكثر عنفاً من الحجارة اللا مرئية،
فانبطح الملازم أرضاً، وحذا رجاليه حذوه. ورأهم الآخرون بذهول وهم يرhzون
على مرافقيهم وركبهم إلى الفناء، حيث نهضوا مسرعين وراحوا يركضون بشكل
متعرج ليحتلوا مواقعهم. ومن وراء حوض المغسلة، بدأ الملازم اطلاق النار باتجاه
البيت. كانت تلك هي الاشارة المنتظرة.

فضغط الحراس الذين أصحابهم مس وثار فيهم عنف لا كابح له، على ازنة
بنادقهم، وامتلا الفضاء خلال لحظات بالصلب، والصراخ، والنحيب،
والنباح، والعويل، والبارود. جميع من كانوا في الفناء انبطحوا على الأرض،
وبحث بعضهم عن مخبأ في الساقية ووراء الأشجار. وحاول الانجليكانيون انقاد
ادواتهم الموسيقية وحشر الألب شيريلونفسه تحت الطاولة وهو يضغط على سبحة
سانتا خيميتا ويتوسل بصوت عال الحمایة من رب الجيوش.

أحس فرانسيسكوليال أن الطلقات غرقريباً من النافدة وأن بعضها يصطدم
بجدran الطين السميكة مثل وابل من نبيات مظلمة. أمسك ايりن من خاصرتها
وطرحها أرضاً ليحميها بجسده. أحس بها ترتعش بين ذراعيه ولم يدر ان كانت
ال الفتنت تحت ثقله أم أنها مذعورة. وما أن توقف الصراخ والذعر حتى نهض واقفاً
وركض نحو الباب، موقناً من انه سيجد نصف ذرينة من القتلى الذين صرعهم
الرصاص، لكن الجثة الوحيدة التي رأتها عيناه كانت جثة دجاجة مزقت الطلقات

أحشاءها. كان الحراس مبهورين، كمن أصابهم مس من الجنون، فمفعتمين بالشعور بالسلطة. وكان الجيران الفضوليون يجثمون على الأرض وقد غطاهم الغبار والوحش، فيما الأطفال ي يكون والكلاب تشد سلاسلها وتعوي بيسن الأحسن فرانثيسكو بايرين تر إلى جانبه مثل غمامه بخار، وقبل أن يتمكن من ايقافها وصلت إلى حيث الملازم ويداها على خاصرتها، وصرخت بصوت بدا وكأنه ليس صوتها:

- متوجهون! بهائم! لا تمحرون الناس؟ لا ترون انكم قد تقتلون أحداً؟ ركض فرانثيسكو نحوها وقد أيقن أنها سيطلقون رصاصة ما بين عينيها، ولكنه صعق حين رأى الملازم يضحك.

- لا نفقيدي أعصابك يا جميلى، لقد أطلقتنا النار في الهواء. فزجرته ايرين دون أن تتمكن من التحكم بأعصابها:

- ولماذا تكلمي دون كلفة؟ ثم ما الذي تفعله حضرتك هنا أولاً؟ حدثني رانكيلي عن مشكلة اخته، قلت له: حيث يفشل الرهبان والأطباء تتجمع القوات المسلحة. هذا ما قلته له. وهذا السبب نحن هنا. سترى الآن هذه الصبية ان كانت ستواصل الرفس عندما أعتقلها.

سيار بخطوات واسعة نحو البيت. ولحق به كل من ايرين وفرانثيسكو وكأنهما تمثالان متتحركان. ان ما حدث بعد ذلك سيقى محفوراً في ذاكرتيهما إلى الأبد، وسيذكر انه كحادث مركب من صبور عاصفة ومتقطعة.

دنا الملازم خوان دي ديوس راميريث من سرير ايفانخيلينا. تحركت الأم لتصوقه، لكنه أبعدها جانباً. لا تلمسها! كان هذا هو ما استطاعت المرأة أن تقوله صارخة، لكن صرختها جاءت بعد فوات الأوان، لأن الضابط كان قد مد يده وأمسك المريضة من ذراعها.

و قبل أن يتمكن أحد من استيعاب الأمر، انطلقت قبضة ايفانخيلينا لتصطدم بوجه العسكري الأشقر، ضاربة أنفه بقوة طرحته على ظهره فوق الأرض. وتدحرجت خوذته تحت الطاولة مثل كرة غير نافعة. فقدت الشابة

تشنجها في الحال، ولم تعد عيناهما تبدوان تائهتين كما لم تعد تقذف الزيد من فمها. ان من أمسكت الملازم راميريث من سرتته العسكرية دون أية مشقة، ورفعته عن الأرض لتخرجه من البيت وتهزه كما لو كان مسحة، هي الصبية الرقيقة ذات الخمسة عشر عاماً والظام الهشة التي كانت تقدم قبل قليل الدقيق المحمح مع العسل تحت العريشة. ان قوتها الهائلة وحدها هي التي كانت تشى بحالتها غير الطبيعية وقتئذ. وكانت استجابة ايرين للموقف سريعة جداً، فقد انتزعت آلة التصوير من بين يدي فرانثيسكرو راحت تلتقط الصور دون أن توقي اهتماماً لضبط العدسة، على أمل أن تخرج بعض الصور المناسبة، رغم التبدل الكبير في شدة الضوء بين الظلال التي في داخل البيت وتلاؤ نور الظهرة خارجه.

ومن خلال عدسة الكاميرا، رأت ايرين ايفانخيلينا وهي تسحب الملازم إلى وسط الفناء وتلقى به بإهمال على بعد أمتار قليلة من البر وستانتين الدين ما زالوا يقبعون على الأرض مرتعشين. حاول الضابط الوقوف على قدميه، لكنها عاجلته بعدة ضربات محكمة على رقبته وتركته ملقى على الأرض، ثم أتبعت ذلك ببعض الركلات دون غصب، متتجاهلة وجود الحراس الذين كانوا يحيطون بها مصوبين أسلحتهم نحوها، ولكن دون أن يتجرأوا على اطلاق النار، وقد شلهم الذهول. شدت الصبية البندقية الرشاشة التي كان راميريث ما يزال يختضنها إلى صدره وطوطحت بها بعيداً، فسقطت في الوحل وغاصت فيه تحت أنف خنزير غير مبال، تشممتها قبل أن يراها تختفي ويتلعلها الوحل.

في هذه اللحظة وعى فرانثيسكوليلال الوضع وتذكر دراسته السيكولوجية. فاقترب من ايفانخيلينا رانكيليو وربت على كتفها برقة، ولكن بحزن في الوقت ذاته، منادياً إياها باسمها. وبدت الشابة كأنها ترجع من رحلة حلم طويلة. فاطرقت رأسها، وابتسمت بخفر ومضت لتجلس تحت العريشة، فيما كان العسكريون يركضون لاستعادة البندقية الرشاشة وتنظيفها من الوحل، والبحث عن الخوذة، ونجدة قائدتهم بمساعدته على الوقوف ونفض ثيابه، وكيف تشعر يا سيدي الملازم؟ والضابط الشاحب المرتعش يزحهم بضربات من يده، ثم يضع

خوذته على رأسه ويمسك سلاحه ، دون أن يجد في معجمه الواسع من العنف ما هو لائق بهذه الواقعة .

كان الجميع جامدين ومرتعبين ينتظرون وقوع أمر فظيع .. نوبة جنون ظلامية أو ضرية أخيرة تقضي عليهم ، لأن يصفوهم إلى الجدار ويطلقون عليهم النار دون أي إجراء آخر ، أو أن يحملوهم على الأقل إلى الشاحنة بأخاص بنا دقهم ويخفون أثرهم في هذه من وهاد الجبل . ولكن بعد تردد طويل ، دار الملازم خوان دي ديوس راميريث على عقيبه واتجه نحو المخرج ، وصرخ .

- انسحبوا إليها الخصيان !

فتبعد رجاله . وكان آخر من انصاع للأمر هو براديليو رانكيليو ، الأخ الأكبر لايغانخيلينا ، المشوش والذي غطت وجهه الأسماء امارات الذهول . فلم يتحرك من مكانه إلا بعد أن سمع صوت حرك الشاحنة ، فركض ليتعلق بمؤخرتها ويلتحق بيقية رفاقه . حينئذ تذكر الضابط الصور ، فأصدر أمراً عاد الرقيب على أثره مهرولاً نحو ايرين ، وانتزع منها آلة التصوير ، وأخرج شريط الفلم وعرضه للنور . ثم ألقى بالكاميرا من فوق كتفها كما لو كانت علبة بيرة فارغة .

انصرف الحراس وخيم صمت شامل في فناء بيت آل رانكيليو . كان الجميع مشغولين بأفكارهم ، كما يحدث في الأحلام الخبيثة . وفجأة حطم صوت ايغانخيلينا صمت السحر :

- هل أقدم لك مرطباً آخر أيها الموقر؟

حينئذ تنفسوا الصعداء ، وتمكنوا من الحركة ، والتقطوا أشيائهم المبعثرة باحساس من الخجل .

تنهد الأب ثيريالو وهو يرفض مسوحه المعرفة :

- فليحمنا الرب !

- ولبحفظنا ! - أضاف الراعي البر وستانتي الشاحب مثل أرنب . استعادت ايرين آلة التصوير . كانت الوحيدة التي تبتسم بين الجميع . وبعد

ان انزاح الرعب، لم تعد تذكر سوى ما ححدث، وتفكر بعنوان للتحقيق وتتساءل إذا كانت الرقابة ستسمح بذلك اسم الضابط الذي تلقى الاهانة والضرب.

قال هيبيوليتورانكيليو معرباً عن رأيه بما جرى:

- فكرة سيئة هذه التي خطرت لابني باحضار المدرس.

وأضافت زوجته:

- سيئة جداً.

بعد ذلك بقليل، عادت ايرين مع فرانشيسكو إلى المدينة. كانت الشابة تشد إلى صدرها باقة كبيرة من الأزهار، هدية من أطفال رانكيليو. كانت رائفة المزاج ويدو عليها وكأنها قد نسيت ما ححدث، وليس لديها ادنى قدر من الوعي للخطر الذي تعرضت له. الشيء الوحيد الذي كان يزعجها على ما يليهو هو فقدان الفلم، والذي لا سبيل بدونه إلى نشر الخبر، لأن أحداً لن يصدق مثل هذه الواقعه. وكانت تعزي نفسها بالتفكير أنه بامكانها العودة يوم الأحد القادم لالتقط صور أخرى ليفتخيلها أثناء نوبتها. فقد دعتها الأسرة للعودة، لأنهم يعدون العدة لذبح خنزير يوم الأحد، وذلك في حفلة سنوية يجتمع فيها عدد من الجيران ويقيمون وليمة مشتركة مهيبة. أما فرانشيسكو، فقد أمضى الرحلة كلها وهو يراكم الغضب في نفسه، وحين أوصل ايرين أمام بيتها لم يكن قادرًا على التوقف. فضحته وهي تودعه:

- لماذا تغضب كثيراً يا فرانشيسكو؟ لم يحدث أي شيء. بعض رصاصات في الهواء فقط ودجاجة ميتة. هذا هو كل شيء.

كان قد قرر حتى ذلك الحين ابعادها عن المؤس المستحكم، وعن الظلم والقمع الذي يراه يومياً، وهي موضوعات الحديث السائد بين آل ليال. كان يرى في ابحار ايرين ببراءة وسط بحر القلق الذي يغمر البلاد أمراً عجيباً، وكذلك في عدم اهتمامها إلا بما هو حالم ونبي. وكان يفاجأ برأيتها تطفو مطهرة في هواء نواياها الطيبة. ان تفاؤل صديقتها غير المبرر، وحيويتها العارمة والنظيفة، كانت لها نتائج بلسمية لعذاباته التي يعانيها بسبب عجزه عن تغيير الأحوال. ومع ذلك،

فقد راودته في ذلك اليوم رغبة في امساكها من كتفيها وهزها إلى أن يضع لها قدميها على الأرض ويفتح عينيها على الحقيقة. ولكنه حين تأملها إلى جوار سور بيتها الحجري، ويداها محملتان بالزهور البرية التي ستقدمها للمسنين، وشعرها المشعشث بعد الرحلة على الدراجة النارية، أحس أن هذه الفتاة لم تولد لتعيش قذارات الواقع. قبلها من وحنتها، أقرب ما يكون من القم، وهو يشعر برغبة جامحة في البقاء إلى جانبها إلى الأبد ليحميها من الظلال. كانت تبكي منها رائحة أعشاب، وكانت بشرتها باردة. وعرف أن حبها هو قدره المحتم.

القسم الثاني
الظلال

ما زالت الأرض الدافئة
تحفظ آخر الأسرار
فيشتني هويدوبرو

منذ بدأ فرانثيسكو العمل في المجلة وهو يشعر أن حياته تجري في قلق دائم . فقد كانت المدينة مقسمة بحدود غير مرئية عليه اجتيازها بكثرة . فهو يصور في اليوم ذاته فساتين متقدمة من المسلمين والدانيل ، ويعالج طفلة اغتصبها أبوها في حي أخيه خوسيه ، أو يحمل إلى المطار القائمة الأخيرة لأسماء الضحايا كي يسلمها إلى رسول مجهول بعد أن يردد كلمة السر . كانت أحدي قدميه في الحلم المفروض عليه والقدم الأخرى في الواقع السري . وكان عليه في كل مناسبة ان يلائم حالته المعنية مع مقتضيات اللحظة الراهنة . وحين يتنهى يوم عمله ، كان يستعرض في سكون غرفته الأحداث فيستخلص أن خير ما يفعله في خضم ذلك التحدي اليومي هو عدم التفكير كثيراً كي يمول دون أن يصيبه الخوف أو الغضب بالشلل . وفي هذا الوقت كانت صورة ايرين تكبر في الظل إلى أن أصبحت تختلي كل الفضاء المحيط به .

حلم ليلة الأربعاء بحقن أقحوان . ولم يكن من عادته أن يتذكر الأحلام ، لكن الأزهار كانت طازجة وندية في ذلك الحلم لدرجة أنه استيقظ موقناً من انه قد نُقل وهو نائم إلى الخلاء . وعند الضحى التقى في مكاتب المجلة بالمنجمة ، تلك السيدة ذات الشعر الداكن والمصرة على قراءة حظه : ما إن رأته على سلم الطابق الخامس حتى بادرته بالقول :

- أستطيع قراءة الأمر في عينيك : إنك آت من ليلة حب .

دعاهما فرانثيسكو لتناول البيرة ، ولعدم وجود امارات فلكية اخري تساعدها في استخلاص نبوتها ، روى لها حلمه . فأخبرته أن زهور الأقحوان هي فأل خير ، ولا بد بالتالي أن يقع له حدث سعيد خلال الساعات التالية .

ثم أضافت :

- هذا مجرد عزاء يا بني ، لأن يد الموت تشير إليك .

لكنها كانت قد قالت له ذلك مراراً وتكراراً من قبل ، حتى ان سوء الطالع استنفذ ما يحمله من فاجعة تخفيفه .

احس فرانثيسكو باحترام كبير نحو العراقة حين تحققت نبوتها الطيبة بعد

قليل، عندما اتصلت به ايرين في البيت طالبة منه أن يدعوها للعشاء ، لأنها كانت راغبة في لقاء آل ليال . لقد أمضيا ذلك الأسبوع دون أن يلتقيا تقريراً . فمحررة قسم الأزياء أرادت التقاط مجموعة من الصور في الكلية الحربية مما شغل وقت فرانشيسكو تماماً . كانت الملابس الرائجة في ذلك الحين هي الملابس الرومنطيقية ذات العقد والفضاضة ، ورغبت محررة قسم الأزياء في مواجهة هذا الزي واظهاره من خلال خلفية تضم الآلة الحربية الثقيلة والجنود . وفكراً القومندان ، قائد الكلية ، من جانبها بانتهاز هذه الفرصة لاظهار القوات المسلحة في مظهر أكثر لطفاً ، ففتح لهم أبواب ثكته بعد اتخاذ تدابير أمنية مضاعفة . فامضى فرانشيسكو وبقية أفراد فريق العمل عدة أيام في المعلم العسكري ، لم يعد يعرف بعدها ان كان يشمئز أكثر من الاناشيد الوطنية الحماسية والمراسم الحربية أم من ملوكات الجمال الثلاث اللواتي يتحررن من خلال عدسات آلة تصويره . كانوا جميعهم يخضعون لدى دخولهم وخروجهم لتفتيش دقيق ، وكان الجنود يقلبون لهم محتويات حقائبهم وسط فوضى مزلزلة ليفتتشوا بين الفساتين والأحذية وباروكات الشعر ، ويدسوا أيديهم في كل مكان وبيحثوا بواسطة آلات الكترونية عن أي شيء مثير للشبهة . العارضات كن يبدأن عملهن بوجوه ساخطة ويقضين الساعات وهن يتمتنن متذمرات . وكانت مهمة ماريو ، الماكير الأنثى والرصين الذي يرتدي الملابس البيضاء دوماً ، ان يغير ملامحهن لكل صورة ، يساعدنه في ذلك معاونان حديثاً العهد في التختن ، يحومان مثل يراعتين من حوله . كان فرانشيسكو يتولى مسؤولية آلات التصوير والأفلام ، محاولاً الاحتفاظ بهدوئه دوماً ، حتى ولو عرّضوا الفلم للضوء أثناء تفتيشهم ودمروا عمل اليوم كله .

كانت هذه المجموعة الجحوالة تسبب شيئاً من الخلل في نظام الكلية ، وتتشوش من هم غير معتمدين على مثل هذه المشاهد . والجنود الذين لم تسترضهم ملوكات الجمال ، هيجهم المساعدان اللذان ما كانا ينفكان عن دغدغتهم أمام ناظري معلم التجميل المستاء . لم يكن مزاج ماريو ليسجوم مع الابتذال ، كما انه كان قد تجاوز منذ سنوات أية ميل إلى الحياة الإباحية المشتركة . فهو ينتهي إلى

اسرة عامل في مناجم الفحم لديه أحد عشر ابنا. وقد ولد وترعرع في قرية رمادية حيث غبار المنجم يغطي كل شيء بطبقة من البشاشة الدائمة التي لا يمكن لمسها، ويلتصق برئات الأهالي، محولاً الجميع إلى ظلال شخوصهم. كان مقرراً له أن يسير على الطريق التي سارها أبوه، وجده وآخوه، لكنه لم يكن يشعر بالقدرة على الزحف في باطن الأرض والخف في الصخر الصلاد، ولا على مواجهة قسوة العمل في المناجم. كانت له أصابع رقيقة وروح ميالة إلى الخيال، فعالجوه بضربه بالسوط. لكن هذه الأساليب القاسية لم تشف أخلاقه الانثوية ولم تلوّمه طبيعته. فكان الطفل ينتهز أية غفلة لينعم بمتع فريدة تشير سخرية وسطه القاسي؛ لأن يجمع حجارة من النهر ويحملوها ليستمتع برأيه بريق الوانها؛ ويحبوب المشهد الكثيب باحثاً عن أوراق جافة ليتسقها في أوضاع فنية؛ وكان يتأثر حتى الدموع أمام مشهد غروب الشمس؛ واغباً في تشبّتها إلى الأبد في جملة شعرية أو في رسم يستطيع تخيله، لكنه يعجز عن تحقيق ذلك. أمّه وحدها هي التي كانت تتقبل تلك التصرفات الغريبة دون أن ترى فيها امارات شذوذ، وإنما اليقين بأنه روح مختلفة. ولأنقاذه من عقوبات أبيه القاسية، أخذته إلى الكنيسة ليكون مساعداً لخدمها، آمنة بأن توارى نعومته الانثوية وسط تراتيل القدس وقرابين البخور. لكن الطفل كان ينسى الرطانة اللاتينية، وينسى نفسه وهو ساهم - بمنظار الذرات المذهبة الطافية في حزم الضوء الداخلية من الكوى. غض الكاهن النظر عن هذا الشرود، وعلمه الحساب القراءة والكتابة وبعض المبادئ الثقافية التي لا غنى عنها. ولدى بلوغه الخامسة عشرة، كان يحفظ عن ظهر قلب الكتب القليلة الموجودة في الكنيسة وبعض الكتب الأخرى التي كان يستعيرها من التركي صاحب المتجر، حيث كان هذا الأخير يسعى لاجتذابه إلى الحجرة الخلفية الملحقة بالمتجر ليلقنه آلية اللذة بين الذكور. وحين علم أبوه بأمر تلك الزيارات، قاده بالقوة إلى ماخور المخيم برفقة شقيقه الكبيرين، فانتظروا هناك دورهم مع مجموعة من الرجال المتحرقين لاتفاق أجراهم ل يوم الجمعة . وكان مارييو هو الوحيد الذي انتبه إلى الستائر المسخنة والحائلة اللون، وإلى رائحة البول، ونفحة

الخذلان اللامائي التي تلف ذلك المكان . وهو الوحيد الذي تأثر لكتابة أولئك النساء المنهوكات من استخدام الحب ومداعباته . وحاول ، بعد ان هدده أخواه ، أن يترف كذكر مع المؤمن التي كانت من نصبيه ، ولكنها بمجرد أن ألقت نظرة واحدة إليه أدركت ان هذا الفتى تنتظره حياة عزلة وتوحد . أحسست بالشفقة عليه وهي تراه يرتجف اشمشزاً من منظر لحومهن العارية ، فطلبت ان يتركوها معه على انفراد لتؤدي عملها بسلام . وعندما خرج الآخرون ، أقفلت الباب بالمزلاج ، وجلست إلى جانبه على السرير ، وأمسكت يده ، ثم قالت ماريوا الذي كان يتحبب ملتاعاً :

- لا يمكن عمل هذا بالقوة . اذهب بعيداً عن هنا يا بني ، اذهب إلى حيث لا يعرفك أحد ، لأنهم سيتهون هنا إلى قتلك .
لم يتلق في حياته كلها نصيحة أثمن من تلك . مسح دموعه ووعد بالا يعود إلى ذرفها في سبيل رجولة لا يرغب في أعماقه بها .
- قالت له المرأة مودعة :

- إذا أنت لم تبتل بالعشق ، فسوف تصل بعيداً .

ثم طمأنت الأب ، لتنقذ بذلك الفتى من عقوبة الضرب .

في تلك الليلة حدث ماريوا بهما جرى . فبحثت في أعماق خزانتها ، وأخرجت حزمة صغيرة من أوراق نقدية مجعدة وضعتها في يد ابنها . بهذا المال ركب قطاراً إلى العاصمة ، حيث توصل إلى العمل كصبغي تنظيف وكنس صالون للحلاقة النسائية مقابل طعامه وفرشة قاسية يقضى عليها الليل في محل ذاته . كان مفتوناً . لم يكن يتصور وجود عالم كهذا : نبرات واضحة في الكلام ، عطورات ناعمة ، أصوات باسمة ، طيش ، دفع ، استرخاء . كان يراقب من خلال المرايا أيدي الحالقات المحترفات فوق الشعور فنصبيه ذهول الاعجاب . تمرس في معرفة الروح الانثوية عبر رؤيته للنساء دون حجاب . وفي الليل ، حين يبقى وحيداً في الصالون ، كان يجرب بعض التسريحات على الشعور المستعارة ويجرب استخدام الظلال ، والبودرة ، وأقلام المكياج على وجهه بالذات ليتدرّب على فن التجميل ،

وراح يكتشف كيف يمكن تجميل وجه عادي بواسطة الألوان والأقلام . وسرعان ما سمحوا له أن يتدرّب ببعض الزبونات الجديّدات ، وبعد عدة شهور كان خير من يقص الشعور وصارت السيدات المتشدّدات يطالبن بخدماته . كان قادرًا على تغيير امرأة ذات مظهر تافه ، مستفيداً من إطار شعر مهلهل وخدع أصيحة التجميل التي أتقن استخدامها بمهارة . ولكنّه كان قادرًا قبل كل شيء على اظهار نقطة الجاذبية في كل امرأة ، لأن الجمال في نهاية المطاف ليس سوى موقف . بدأ يدرس دون توقف ويمارس عمله بجرأة ، تساعدته غريزة صائبة توصله دوماً إلى أفضل النتائج . الجميع كان يسعين للحصول على خدماته : العرائس وعارضات الأزياء والممثلات وسفيرات ما وراء البحار . وفتحت بعض السيدات الثريات وذوات النفوذ في المدينة بيوتها له ، وهكذا وضع ابن عامل المناجم قدمه لأول مرة فوق السجاد الفارسي ، وشرب الشاي في فنادق الخزف الشفاف واستمتع بريق الفضة المزخرفة ، والأخشاب المصقوله ، وأصناف الكريستال الفاخرة . وسرعان ما أتقن تمييز الأشياء الثمينة حقاً وقرر لا يقبل بها هو أقل منها ، لأن روحه كانت تعاف أي شكل من أشكال الابتذال . وحين ولج أوساط الفن والثقافة ، أدرك انه صار عاجزاً عن التراجع ، فأطلق العنان لتيار ابداعه ولرؤياه للصفقات التجارية . وخلال بضع سنوات صار صاحب أشهر صالون للتجميل في العاصمة ، ومالك محل صغير لبيع الأثريات ، وعدة تجارات غامضة . وأصبح خبيراً باللوحات الفنية ، وبالاثاث الفاخر ، والأشياء الثمينة ، يستشيره في شأنها أناس في أعلى الواقع . كان مشغولاً ومتوجلاً على الدوام ، لكنه لم ينس مطلقاً أن فرصته الأولى للنجاح قدمتها له المجلة التي تعمل فيها ايرين بيلتران ، لذلك كان يترك جميع مشاغله إذا استدعوه هناك إلى عرض أزياء أو اجراء رسورتاج حول الموضة والجمال ، فيحضر حاملاً حقيقة تبديل شكل الوجه الشهيرة ، التي تضم أدوات عمله . وصار واسع النفوذ ، حتى ان السيدات الجريئات اللواتي كان يحملهن قبل ذهابهن إلى حفلات المجتمع الكبرى ، كن يفارحن بباراز توقيعه على خدهن الأيسر مثلما تبرز البدويات وشمهن .

حين تعرف على فرانسيسكوليال، كان ماريور جلاً متوسط العمر، ذا أنف دقيق ومستقيم نتيجة جراحة تجميلية، نحيلًا ومتتصب القامة بفضل الريحيم والتمارين والمساجات، ولبشرته لون برونزى اكتسبه من الأشعة ما فوق البنفسجية، ويرتدي بأناقة أفضل أنواع الملابس الانكليزية والإيطالية. وكان مثقفاً ومهذباً ومشهوراً، يتجلو في أجواء النخبة، ويُسافر إلى أماكن نائية بحجة السعي لاقتناء الآثاريات. كان يعيش كارستقراطي، لكنه لم يكن ينكر لأصوله المتواضعة، وكلما سُنحت له الفرصة للحديث عن ماضيه في القرية المنجمية، فعل ذلك بشموخ وبمزاج طيب. فكانت بساطته هذه تقتنص تعاطف من لم يغروا له تكلفة أصلًا نيلًا لا وجود له. وفي وسط الصفة الأكثر انفلاتاً، الذي لا تلجه إلا الألقاب العربية أو المال الوفير، فرض نفسه بذوقه الرفيع وقدرته على نسج العلاقات مع الناس المناسبين. ولم يرجع مطلقاً إلى بيت اسرته، كما لم يعد لرؤيه أبيه أو اخوه، لكنه كان يبعث كل شهر شيئاً إلى أمه ليضمن لها بعض الرفاهية ولمساعدة شقيقاته في دراسة مهنة أو في إقامة تجارة هن أو في اقتناء مهر للزواج. كانت ميوله العاطفية غامضة، دون شذوذ، مثل كل شيء في حياته. وحين قدمته ايرين إلى فرانسيسكوليال لم يشنِّ بتأثره سوى بريق خفيف في حدقتيه. وقد لاحظت هي ذلك، فكانت تمازح صديقها فيما بعد قائلة له إن يمذر من تقرب الحلاق منه إذا كان لا يريد أن ينتهي به الأمر إلى وضع قرط في اذنه والتحدث بصوت غنج. بعد أسبوعين من ذلك، كانوا في الاستوديو يعملون في الترسيرات الجديدة للموسم، حين ظهر الكابتن غوستافو مورانى بحثاً عن ايرين. ولدى رؤيته ماريور تبدلت ملامحه وجهه. كان الكابتن يشعر بغيره شديد من المختلين وكان يسيطره ان تكون خططيته في مكان تختك فيه مع من يعتبرهم منتحلين. كان ماريور مستغرقاً في الصاق ندف مذهبة على وجنتي عارضة ازياء باهرة الجمال، ولم تسعفه غريزته في الانتباه إلى رفض الآخر له، فمد يده إلى الكابتن مبتسمًا. قاطع غوستافو ذراعيه فوق صدره وهو ينظر إليه بازدراء بالغ وقال له انه لا يتعامل مع مماليك. ساد الاستوديو صمت جليدي، وخيم الذهل على ايرين والمساعدين

والعارضات وجميع من كانوا هناك. شحب لون ماريو وبدا كما لو ان غمامه من الكآبة تسدل على عينيه. حينئذ ترك فرانشيسكو ليال آلة تصويره، وتقدم ببطء ليضع احدى يديه على كتف مصطفى الشعر. وقال بصوته الواضح واللطيف المعهود:

- اتعرف لماذا لا تري ملامسته يا كابتن؟ لأنك تخشى من مشاعرك. ربما هناك بين رفاقت في الثكنة عدد كبير من الشاذين جنسياً.

و قبل أن يعي غوستافو مورانى خطورة هذا الكلام، ويقوم برد الفعل المناسب، تدخلت ايرين لتمسك بذراع خطيبها وتقوده خارج الصالة. لم ين ماريو أبداً هذا الحادث. وبعد بضعة أيام دعا فرانشيسكو إلى العشاء. كان يقظن في الطابق الأخير من مبنى فخم. وكان ديكور شقته يعتمد على اللونين الأبيض والأسود، بأسلوب جذاب، يجمع الحداثة والأصالة. وبين خطوط الفولاذ والزجاج الهندسية، كانت توجد ثلاثة أو أربع قطع اثاث باروكية عتيقة جداً وسجاد حريري صيني. وعلى السجادة الوثيرية التي تغطي الأرضية كان يخرب هرانا، وقريراً من المدفأة التي يشتعل فيها حطب شذى الرائحة كان يغفو كلب أسود لامع. قال ماريو وهو يرحب به: اني أعبد الحيوانات. ورأى فرانشيسكو سطلاً فضياً مليئاً بالثلج وضع في زجاجة شمبانيا لتبرد، وإلى جواره كأسين. لاحظ العتمة الخفيفة التي تسد البيت، وشم شذى الخشب والصمغ الذي يحترق في مدخنة من البرونز، وسمع موسيقى الجاز المنبعثة من مكبرات الصوت وأدرك أنه المدعو الوحيد. راودته للحظة الرغبة في العودة على أعقابه والخروج، كي لا يبعث أي بارقة أمل في نفس مضيفه، لكنه مالبث أن أحس بالرغبة في عدم احراجه وكسب وده. نظر كل منها إلى عيني الآخر وسيطر على فرانشيسكو شعور هو مزيج من العطف والتعاطف، فبحث بين أفضل مشاعره عن أكثرها ملائمة لتقديمهما إلى هذا الرجل الذي يعرض عليه حبه بحياء. جلس إلى جانبه على الأريكة المغطاة بالحرير وتناول منه كأس الشمبانيا مستعيناً بتجربته المهنية للإبحار في هذه المياه المجهولة دون اقراره أية حافة. وكانت تلك ليلة لا تنسى بالنسبة لكليهما.

روى له ماريوقصة حياته وألح له بأشد الأساليب كياسة إلى العاطفة التي كان يبنيها في روحه. أحس بسلبيته، لكنه كان منفعلاً إلى حد لا يستطيع معه كبح عواطفه، إذ لم يلتقي أبداً من قبل برجل فنته إلى هذا الحد. كان فرانثيسكو يقارن قوة الرجلولة وأمنها بتلك الرقة الغربية. لم يكن الحب بالنسبة لماريو بالأمر السهل وكان يخشي نوبات الميجان التي سببت له في الماضي كدراً كثيراً، لكنه كان مستعداً في هذه المناسبة لتسليم نفسه كاملاً للعبة. وتحدث فرانثيسكو كذلك عن نفسه وأفهمه، دون أن يعبر عن ذلك مباشرة، امكانية قيام صدقة متينة وعميقة بينهما، ولكن ليس الحب بأي شكل من الأشكال. واكتشفا في تلك الليلة أن هما اهتمامات مشتركة، وضحكا، واستمعا إلى الموسيقى وشربا زجاجة الشمبانيا كلها. وفي لحظة ثقة حمراء في أبسط قواعد الحبطة، تحدث ماريون عن رعبه من الدكتاتورية وعن رغبته في مقاومتها. فكشف له حينئذ صديقه الجديد، القادر على اكتشاف الحقيقة في عيون الآخرين، عن سره. وعندما ودعا بعضها، قبل بدء حظر التجول بقليل، شد كل منها على يد الآخر بحزم، وكأنهما يوقعان بذلك عقداً تضامنياً.

منذ ذلك العشاء، لم يعد ما يجمع ماريوفرانثيسكو هو العمل في المجلة وحسب، وإنما العمل السري كذلك. ولم يعد مصنف الشعر إلى التلميع إلى أية هواجس قد تسيء للعلاقة الرفاقية. كان موقفه شفافاً ووصل الأمر بفرانثيسكو إلى الشك بأنه قد يتكلم كما فعل في تلك الليلة المشهودة. وانضمت إيرين إلى المجموعة، رغم أنها أبعداً عنها عن أي عمل سري، لكنها تتزمت بحكم ولادتها وتربيتها إلى الفئة المقابلة. كما أنها لم تبد أي ميل إلى السياسة على الاطلاق، فضلاً عن كونها خطيبة أحد العسكريين.

في هذا اليوم، وفي الأكاديمية الغربية، أنهك ماريتو التراخي . ففوق الاجراءات الأمنية، والحر وتعكر المزاج الجماعي ، تأتي تصرفات مساعديه الشاذة أمام الوحدة العسكرية لتزيد من ضيقه .

- سأطربدهما من العمل يا فرانثيسكو. فهذا الاحقان تافهان ولن يتحققنا

لنفسهما أية مكانة على الاطلاق . كان على أن أطربهما إلى الشارع مذ فاجأتهما متعانقين في حمام المجلة .

كان السمّ قد نال من فرانشيسكو ليل أيضاً ، لأنّه لم ير ايرين منذ عدة أيام . فهو لم يكدر يلتقي بها طوال الأسبوع ، وكان قانطاً من لقائهما عندما اتصلت به لتخبره أنها ستزوره لتناول العشاء معه .

أعدت العدة في بيت آل ليل لاستقبالهما . طبخت هيلدا أحد أطباقها المفضلة واحتوى البروفسور زجاجة بيذ وباقة من أول أزهار الموسم ، لأنّه كان يكن تقديرًا للفتاة ويشعر كأنّ حضورها هونفحة نظيفة تكسس الضجر والقلق . دعوا كذلك إلى العشاء ابنيهما الآخرين ، خوسبيه وخابير مع اسرته ، لرغبتهم في جمعهم معاً ولو لمرة واحدة في الأسبوع على الأقل .

كان فرانشيسكو قد انتهى من تحميض شريط فلم في الحمام الذي يستخدمه كمختبر ، عندما أحس بوصول ايرين . علق أشرطة النيجاتيف ، وجفف يديه وخرج مقللاً الباب بالفتاح كي يحمي بذلك عمله من فضول أبناء أخيه ثم أسرع لاستقبالهما . داهنه رائحة المطبخ بمداعبة لذذة ، ووصلت إلى مسامعه أصوات طفولية واضحة ، ووجد الجميع في صالة الطعام . حينئذ رأى صديقته . وأحس ان الحظ يحالقه ، لأنّ قماش فستانها كان مزييناً بازهار أقحوان ، وكانت الأزهار ذاتها تتدلى من شعرها المصفور في جديلة . تلك هي صفة حلمه وخلاصه نبوءات المنجمة الطيبة .



دخلت هيلدا إلى صالة الطعام حاملة بين يديها إناء يتضاعد منه البخار ، فانطلقت جوقة من صيحات الترحيب بها .
- مونسدونغوا ! - تنهى فرانشيسكو دون تردد ، فقد كان قادرًا على تمييز شذى البندوره وأوراق الغار حتى ولو كانت في أعماق البحر .

وصاح أحد الأطفال :

- اكره الموندونغرو! انه كالمنشفة!

تناول فرانثيسكو قطعة خبز وغمسها في الصلصة الشهية ورفعها إلى فمه، فيها الأم تسكب الطعام في الأطباق بمساعدة ذاتها. كان خابير هو الوحيد الذي يجدو غير عابيء بالضجة من حوله. فقد كان الأخ الأكبر صامتاً وساهماً يلهم بقطعة من حبل بين يديه. وفي الأذمنة الأخيرة، صارت تفكيره يشد و هو يربط أنواعاً من العقد المتنوعة: عقدة البحار، وعقدة صياد الأسماك، وانشوطه راعي البقر، وعقدة الدليل، وعقدة الخيط، وعقدة الركاب، وعقدة الخطاف، والمفتاح، والصارى. وكان يربط هذه العقد وخلوها بأصرار غامض. كان أولاده يراقبونه مفتونين أول الأمر، لكنهم تعلموا تقليده فيما بعد وفقد الحبل جاذبيته بالنسبة لهم. لقد اعتادوا رؤية أبيهم مشغولاً بهوسه.. عادة هادئة لا تزعج الآخرين في شيء. التذمر الوحيد كان يأتيه من زوجته التي تحمل يديه المتصلبتين من كثرة احتكاكهما بالحبل الملفوف إلى جانب السرير في الليل وكأنه أفعى أليفة.

كرر الطفل :

- لا أحب الموندونغرو!

فاقتربت جدته :

- كل سمك السردين اذن

- لا، له عيون!

ضرب الكاهن الطاولة بقبضته مزعزاً الأطباق. فتجمد الجميع حين

صرخ :

- كفى! ستأكل ما يقدم إليك. أتعرف كم هم الناس الذين لا يملكون سوى فنجان شاي وكسرة خبز يابسة في اليوم؟ الأطفال في حسي يسقطون مغمى عليهم بسبب الجوع!

لمست هيلا ذراعه بحركة متسللة كي يستكين ويمنع عن ذكر الجائعين في حيه، لأنه يخاطر بذلك في تقويض الوجبة العائلية وفي تعريض كبد أبيه للخطر.

احنى خوسيه رأسه، خجلاً من غضبه. ان سنوات عديدة من التجربة لم تهدىء من احتدام انفعالاته ولا من هواجسه للمساواة بين أمثاله من بني البشر. حطمته ايりن الصمت مطرية على الطعام واحتفى الجميع معها برائحته وقوامه ومذاقه، وبأصله البروليتاري قبل كل شيء.

قال فرانشيسكو ملاحظاً:

- من المؤسف أن نيرودا لم يكتب أغنية للموندونغو.

فقال أبوه بحماس:

- ولكنه كتب واحدة لحساء الصلور، أتريد سماعها..

لكن صغيراً مكتوماً اسكنه.

لم يكن البروفسور ليال ليغضب من هذه المداعبات. فقد كبر أولاده وهم يسمعونه يلقي من ذاكرته أو يقرأ بصوت عال أشعار الكلاسيكيين، لكن أصغرهم وحده هو الذي أصبح بعدي حماسه الأدبي. كان مزاج فرانشيسكو أقل اندفاعاً، وكان يفضل صقل ذوقه من خلال القراءة المنهجية ونظم الأشعار سراً، تاركاً لأبيه امتناع الانشاد كلها رغب في ذلك. أما أولاده الآخرون وأحفاده فلم يعودوا يصبرون على هذا الأمر. وهيلدا وحدها هي التي كانت تطلب منه أن ينشد لها الأشعار حين يخلوan وحدهما في بعض الأمسيات. وفي تلك المناسبات، كانت تترك الحياكة لتصفي باهتمام إلى الكلمات وترتسم على وجهها ما يصح الافتتان التي بدت عليها عند لقائهما الأول، وتحسب سنوات الحب الطويلة التي تقاسمتها مع هذا الرجل. فعندما اندلعت الحرب الأهلية في إسبانيا كانا شابين متيمين. ورغم أن البروفسور ليال كان يرى في الحرب أمراً قدراً، إلا أنه انطلق إلى الجبهة مع الجمهوريين. وحملت زوجته صرة ملابس وأوصدت باب منزلها دون أن تنظر إلى الوراء وراحت تنتقل من ضيعة إلى ضيعة مقتدية آثاره. كانوا يرغبان في أن يكونا معاً حين يفاجئهما النصر، أو المهزيمة، أو الموت. بعد خريفين من ذلك ولد ابنتها الأكبر في ملجأ مرتجل بين أنقاض دير. ولم يستطع أبوه حمله بين ذراعيه إلا بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على ولادته. وفي شهر كانون الأول من السنة نفسها،

قبيل أعياد الميلاد، دمرت قبلة المكان الذي كانت تنزل فيه هيلدا والطفل. حين سمعت الضجة التي سبقت الكارثة، عُمِّكت من تأمين الوليد في حضنها، وانحنت عليه مثل كتاب مغلق لتحمي حياة الطفل، فيما كان السقف ينهار ليُسحقها. أخرجوا الصغير من بين الأنفاس سليماً تماماً، أما أمه فقد أصيَّت بكسر عميق في الجمجمة وتهشم أحد ذراعيها. فقد زوجها أثراها لبعض الوقت، ولكنه وجدها بعد بحث طويل في مستشفى ميداني، حيث كانت تقبع منهكة لا تذكر حتى اسمها، مصابة بفقدان الذاكرة، بلا ماض ولا مستقبل، والطفل معلق على صدرها. عندما انتهت الحرب، قرر البروفسور ليال الانطلاق نحو فرنسا، لكنهم لم يسمحوا له بالخروج المريضية من المأوى الذي كانت تعالج فيه، فكان عليه أن يخطفها ليلاً. حلها فوق عارضتين خشبيتين لها أربع عجلات، ووضع الوليد في ذراعها السليمة، وربطها ببطانية وسار بها يجر نفسه متناقلًا في دروب الكآبة تلك التي تقود إلى المنفى. اجتاز الحدود مع امرأة لا تعرفه، وعلامة ادراكها الوحيدة هي غناها للطفل. لم يكن لديه مال، ولا أصدقاء. وكان يعرج بسبب جرح أحدهشه رصاصة في فخذه، لكن ذلك لم يبْطِئه من خطواته وهو يرى أن الأمر متعلق بإنقاذ اسرته. الشيء الوحيد الذي كان يحمله معه هو مسيطرة حساب قديمة ورثها عن أبيه، وقد أفادته في إعادة تعمير أبيته وفي وضع خطط للبنادق في أرض المعركة. في الجانب الآخر من الحدود، كانت الشرطة الفرنسية تنتظر قافلة المهزومين اللاتينية. فصلوا الرجال جانباً واعتقلوهم. وجادل البروفسور ليال كمحبوب محاولاً أن يشرح الوضع مما جعلهم يقتادونه بأعقاب البنادق مع الآخرين إلى معسكر التجميع.

عثر ساعي بريد فرنسي على العريبة في الطريق. فدنا منها مرتاحاً حين سمع بكاء الطفل. نزع البطانية فرأى شابة معصوبة الرأس، أحد ذراعيها مربوط إلى عنقها بحالة، وتحمل في ذراعها الآخر طفلاً لا يتتجاوز عمره بضعة أسابيع يبكي من البرد. حملها إلى بيته وجهد مع زوجته في تقديم المساعدة لها. ومن خلال منظمة دينية بروتستانتية انكليزية مخصصة لغوث وحماية اللاجئين، عثر على

الزوج على شاطئ مسيح بأسلاك شائكة، حيث كان الرجال يقضون نهارهم بخمول يراقبون الأفق وينامون في الليل بدفع أنفسهم في الرمال بانتظار أوقات أفضل. كان ليال على وشك الجنون يأساً وهو يفكر بهيلدا وأبنته، ولهذا بكى حين سمع من ساعي البريد أنها بخير، أحلى رأسه وبكي طويلاً لأول مرة في حياته منذ بلوغه سن الرشد. ووقف الفرنسي يتأمل البحر، دون أن يجد كلمة أو حركة مناسبة لتقديم السلوى له. وحين ودعه رأه يرتجف، فخلع معطفه، وألقاه عليه لتبدأ بينهما صدقة ستدام نصف قرن. ساعده في الحصول على جواز سفر، وفي تنظيم وضعه القانوني وفي الخروج من معسكر اللاجئين. وأثناء ذلك قدمت زوجته هيلدا كل أنواع الرعاية. كانت امرأة عملية كافتقدان الذاكرة بالأسلوب من ابتداعها، لأنها لم تكن تعرف اللغة الإسبانية، فقد استخدمت قاموساً لتلقيها أسماء الأشياء والمشاعر واحداً واحداً. كانت تجلس إلى جانبها ساعات وساعات لتجوب معها المعجم كله من الألف إلى الياء، مكررة كل الكلمة إلى أن ترى بريق الفهم في عيني المريضة. و شيئاً فشيئاً استعادت هيلدا ذاكرتها المفقودة. وكان أول وجه استعادت تشكيله في ضبابية ذاكرتها هو وجه زوجها، ثم تذكرت اسم ابنتها وأخيراً، ومثل سيل جارف تواردت إلى ذهنها أحداث الماضي، والجمال، والشجاعة، والحب، والفرح. وربما اتخذت في تلك اللحظة قرار اصطفاء ذكرياتها ومحو كل المنغصات من المرحلة الجديدة التي بدأتها، لأنها عرفت بالبداية ضرورة استخدام كل قواها لبناء مصيرها كمهاجرة. فكان من الأفضل نسيان مشاعر الحنين المؤلمة، والوطن، والأقارب والاصدقاء الذين بقوا هناك، فلم تعد للحديث عنهم منذ ذلك الحين. بدت وكأنها قد نسيت بيتها الحجري ولم تجد محاولات زوجها في تذكيرها به خلال السنوات التالية. كانت تعطي انطباعاً بأنها قد نسيته تماماً مع ذكريات أخرى، ولكنها بالمقابل لم تكن في يوم من الأيام أكثر تقدماً في ادراك الحاضر والتخطيط للمستقبل، وفي مواجهة حياتها الجديدة بحماس كامل.

يوم أبحر آل ليال نحو أطراف أخرى من الأرض، حضر ساعي البريد

وزوجته إلى الميناء لوداعهم، وقد ارتديا ملابس الأحد. وكانت قاتلاتها الضئيلتين هما آخر ما أمكن تمييزه حين ابتعدت السفينة في عرض البحر. وإلى أن تلاشت شواطئ أوروبا في البعيد، بقي جميع المسافرين في مقدمة السفينة ينشدون أغنيات الجمهورية بأصوات يقطعها النحيب، ما عدا هيlda، التي كانت تقف في مقدمة السفينة بحزن، والطفل في حضنها، معنة النظر إلى المستقبل.

ذرع الزوجان ليال دروب المنفى، واعتادا على الفقر، وبحثا عن عمل، وأقاما صداقات واستقرَا في الجهة الأخرى من العالم متصرّبين على الشلل الأولى الذي يصيب من فقدوا جذورهم. وأخرجا إلى النور حصنًا جديداً ولد من الآلام والفاقة. ولكي يتسلّك في النكبات استندا إلى حب صمد أمام جميع الاختبارات، حب أكبر من أي حب آخر. وما زالا، بعد أربعين سنة من ذلك، يراسلان ساعي البريد الفرنسي وزوجته، لأن الأربعة حافظوا على قلوبهم النبيلة وأذهانهم الصافية.

وفي هذه الليلة، وبينما هم جالسون إلى المائدة، كان البروفسور في ذروة البهجة. فوجود إيرين بيتران أطلق لسانه. كانت الشابة تصغي إليه وهو يتحدث عن التضامن بانبهار طفلة أمام مسرح للدمى، لأن تلك الخطابات الحماسية كانت بعيدة بعدها شاسعاً عن عالمها. وفيما كان البروفسور يراهن على اسمى القيم الإنسانية، متجاهلاً آلافاً من سنوات التاريخ التي ثبت العكس، واثقاً من أن جيلاً واحداً يكفي خلق وعي أرقى ومجتمع أفضل إذا ما توفرت الظروف الازمة، كانت هي ، في ذهولها، تنسى الطعام ليبرد في طبقها. كان البروفسور يؤكد أن السلطة شر مطلق، وإن من يضعون يدهم عليها ويمسكون زمامها هم حثالة البشرية، لأن من يفوز بالهيئات عادة هم العنيفون والدمويون. لذلك لا بد من مقارعة كل أشكال السلطة وترك البشر يعيشون أحراجاً في نظام من المساواة. وكان يخطب أمام إيرين المبهورة قائلاً :

- الحكومات فاسدة في جوهرها، ولا بد من الغائها. إنها تكفل حرية الأغنياء المستندة إلى الملكية واستبعاد الآخرين في المؤس .

فعلق خوسيه بشيء من الضجر، وهو الذي لم يسمع هذه النبرة الخطابية
المدوية منذ سنوات :

- إن كراهيّة السلطة هي داء مستحكم فيمن هرب من دكتاتورية ويعيش
الآن في ظل دكتاتورية أخرى.

فمع مرور الزمن، لم يعد أولاد البر وفسور ليال يأخذون أباهم على محمل
الجدا، وكان اهتمامهم يقتصر على الحيلولة دون اقترافه للمحاولات. لا بد أنهم
قدموا له المساعدة أكثر من مرة في طفولتهم، ولكنهم ما ان بلغوا سن الرشد حتى
هجروه وهجروا خطاباته ولم يعودوا إلى استخدام آلة الطباعة التي في المطبخ ولا
إلى الذهب إلى الاجتماعات السياسية. وبعد الغزو السوفييتي لهنغاريا عام
١٩٥٦، لم يعد الأب نفسه إلى الحزب أيضاً، لأن خيبة الأمل كانت أن تودي
 بحياته. ووقع خلال بضعة أيام ضحية كابة مربعة، لكن الثقة بقدر الإنسانية ما
لبثت أن عادت لتملاً روحه، وحملته إلى تجاوز خيبة الأمل والشكوك التي عذبه.
ودون أن يتخلّى عن مبادئه في العدالة والمساواة، قرر أن الحرية هي الحق الأول
للإنسان، فترع صوري لينين وماركس من الصالة وعلق صورة لميخائيل باكونين.
وأعلن قائلاً: اعتباراً من الآن، أنا فوضوي. لم يعرف أي من أولاده ما الذي
يمكن أن يعنيه ذلك، واعتقدوا البعض الوقت إنها فئة دينية أو فريق من المحبوبين.
إذ لم يكن هناك من يتم بهذه الأيديولوجية التي أفل نجم رواجها وكتبتها رياح ما
بعد الحرب. واتهموه بأنه الفوضوي الوحيد في البلاد، وربما كانوا محقين في ذلك.
بعد وقوع الانقلاب العسكري، ولحمائه من تهوره، نزع فرانشيسكو قطعة أساسية
من آلة الطباعة. كان لا بد من منعه بأية طريقة من مواصلة نشر أفكاره وتوزيعها
في أرجاء المدينة، كما فعل في مناسبات سابقة. وأقنعه خوسيه فيها بعد انه من الخير
التخلص من تلك الآلة القديمة عديمة الجدوى وحملها إلى حيه، حيث أفادت
بعد اصلاحها وتنظيفها وتشحيمها في نسخ الأمالى المدرسية للتلاميذ في النهار
ومنشورات التضامن في الليل. لقد أنقذ هذا الاحتياط الموقف البر وفسور ليال حين
قامت الشرطة السرية في احدى حلقات المداهمة بتقطيع الحى بيتاً بيتاً، ولا بد انه

كان سيعجز عن تقديم تفسير لوجود آلة الطباعة في المطبخ . حاول الأولاد أن يبيروا لأبيهم كيف أن الأعمال المعزولة والعبثية تلحق ضرراً بقضية الديمقراطية يفوق النفع الذي قد تعود به ، لكنه كان يتهزأ أي سهومنهم ليعود إلى زج نفسه في المخاطر ، تدفعه إلى ذلك مبادئه الملتهبة .

حين علموا بأمر المنشورات المعادية للمجلس العسكري التي أقيمت من فوق مبني البريد ، توسلوا إليه :
- حذار يا أبناه !

فرد البروفسور بتصميم :

- لقد أصبحت شيئاً عجوزاً ، وكبرت على اخفاء ذيلي بين ساقين .
- إذا أصابك شيء ، فأضع رأسى في الفرن وأموت مختفقة . - كانت هيلدا تحذر دون أن ترفع صوتها ودون أن تفلت من يدها معرفة النساء . وكان زوجها مقتعاً من أنها ستتفنّد ما تقوله ، فيتخذ بعض الاحتياطات ، ولكنها لم تكن بالاحتياطات الكافية على الاطلاق .

وكانت هيلدا من جانبهما تقاوم الدكتاتورية بأسلوب فريد . فكان جهدها يتركز مباشرة على الجنرال ، الذي به مس من الشيطان على حد زعمها ، وهو تمجيسد للشر ذاته . كانت تفكّر أنه بالامكان هزيمته بواسطة الصلاة والابتهاكات الدينية التأملية التي تجري مرتين في الأسبوع . وفي تلك الاجتماعات للصلوة كانت تلتقي بمجموعة من ذوي الأرواح الورعه المصممين في دخليتهم على القضاء على الطاغية ، وكان عدد تلك الجماعة يزداد يوماً بعد يوم ، حتى تحولت إلى حركة على المستوى الوطني للصلة في حلقات . ففي اليوم المحدد ، وفي ساعة معلومة ، يجتمع المؤمنون في جميع مدن البلاد ، وفي القرى النائية ، والضياع التي نسيها التقدم ، وفي المعتقلات والسجون ، وحتى في المراكب التي في عرض البحر ، ليقوموا جميعهم معاً بمجهود روحي رهيب ، ليتوصلوا من خلال هذا النشاط المنظم إلى سحق الجنرال وحاشيته سحقاً لا قيامة منه . لم يكن خوسه يقبل بمثل هذه الخرافات ويرى أنها خاطئة من وجهة النظر اللاهوتية ، أما فرانشيسكو فلم يكن

يستبعد احتمال ان يؤدي هذا الاسلوب المبتكر إلى نتائج مرضية، لأن الاجراء يصنع المعجزات، وإذا ما علم الجنرال بهذا السلاح المهيب للقضاء عليه، فقد يصاب بالذهول وتتصبح حياته في أسوأ حال. وكان يقارن نشاط أمه بالاحداث الغريبة التي تقع في بيت آل رانكيليو ويستخلص أنه في ازمنة القمع تبرز حلول خيالية لأكثر المشاكل تعقيداً.

كان البروفسور ليال يمزح قائلاً:

- دعك من الصلوات يا هيلدا، والتفتي إلى الجودو فإن له أساساً علمياً أكبر.

لقد سخر منها أفراد اسرتها كثيراً، إلى أن أصبحت تذهب إلى تلك الاجتماعات بحذاء مطاطي وملابس رياضية، مخفية كتاب الصلوات بين ملابسها. وكانت تقول لهم أنها ذاهبة للجري في الحديقة، فيما هي مصممة في الحقيقة على مواصلة مهمتها الشاقة في مقاومة السلطة بضربات المسحة.

في بيت آل ليال، كانت ايسرين تصغي باهتمام إلى كلمات رب البيت، مفتونة برقة همجته الاسانية التي لم تخفف منها سنوات طويلة من الحياة الاميركية. حين كانت تراه يوميًّا منفعلًا، عينيه اللامعتين ورعشة قناعاته الراسخة، تشعر أنها تتنقل إلى القرن الماضي، إلى قبومظلم للمفوضوين، حيث يجري تحضير قبلة بدائية للاقائها لدى مرور عربة ملكية. أثناء ذلك كان فرانثيسكو وخوسيه يتبادلان حديثاً جانبياً عن قضية الطفلة المغتصبة التي أصبحت بكاء، فيما هيلدا وكتتها تسوليان شؤون العشاء والأولاد. أما خابير فكان يأكل قليلاً ولا يشارك في الحديث. لقد وجد نفسه عاطلاً عن العمل منذ اكثر من سنة، وخلال تلك الشهور كانت طباعه تتبدل وتحول إلى شخص متوجه، أسير كآباته. وقد اعتادت الأسرة على صمته الطويل وعيشه الخاويتين من أي فضول، وعلى ذقنه سيئة الحلاقة، فيما عادوا يرهقونه باظهار تعاطفهم واهتمامهم الذي كان يرفضه. هيلدا وحدها هي التي كانت تصر على ايماءات التودد وعلى سؤاله في كل لحظة أين تمضي أفكارك يا بني.

أخيراً استطاع فرانثيسكو مقاطعة منلوج أبيه، وروى لأفراد الأسرة مشهد لوس ريسكوس، وكيف طوحت ايفانخيلينا بالضابط كما لو كان منفحة ريش. وأعربت هيلدا عن رأيها بالقول انه للقيام بعمل كهذا لا بد ان تكون محمية من الرب أو الشيطان، لكن البروفسور ليال أكد على أن الفتاة ليست إلا ناجاً غير طبيعي لهذا المجتمع الفلق. فالفقير، ومفهوم الخطية، والرغبة الجنسية المجموعه والعزلة هي سبب دائها. صحكت ايرين، مقنعة من أن الوحيدة التي اصابت في تشخيصها للداء هي ماميتا انكارناثيون وأن الحل العلمي هو في البحث عن رفيق يتزوجها واطلاقهما معاً في الجبل ليفعلا كم الأرانب البرية. ووافق خوسيه على ذلك. وحين سأله الأطفال بشيء من التفصيل عما تفعله الأرانب البرية، شدت هيلدا انتباهم إلى الفاكهة: بواكيير مشمش الدامايسكو، مؤكدة أنه لا وجود لبلد على الأرض يتتج ثماراً بمثل هذه اللذة. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة للإعراب عن المشاعر القومية التي يتسامل بها آل ليال، لكن البروفسور لم يفوت الفرصة لاظهار ذلك:

- على البشرية أن تعيش في عالم موحد، تختلط فيه أجناس ولغات وعادات وأحلام جميع البشر.

فسألت ايرين التي فقدت تماماً اتجاه الحديث:

- وما علاقة هذا بالمشمش؟

ضحك الجميع، فالليال القادرون على تحويل أي موضوع إلى منشور سياسي ، لم يفقدوا لحسن الحظ القدرة على السخرية من انفسهم. بعد الحلوي، شربوا قهوة فاخرة ذات رائحة شذية أحضرتها ايرين معها. وعند الانتهاء من العشاء ذكرت الشابة فرانثيسكو بالختزير الذي سيُذبح في بيت آل رانكيليو في اليوم التالي. ثم ودعتهم مخلفة وراءها أثراً من خفة الظل التي لفتهم جميعاً، باستثناء خابير الصامت، والذي لم يكدر يشعر بوجودها لشدة استغرافه في يأسه وفي عقده.

- تزوج منها يا فرانثيسكو.

- لديها خطيب يا أماه.

فرد هيلدا، وهي عاجزة عن اصدار حكم محايد في أمر يتعلق بابنها:
- أنت أفضل منه بكثير دون شك.

★ ★ *

عندما تعرف فرانشيسكو على الكابتن غوستافو مورانتي، كان قد أحب ايرين جمله لا يكاد يداري استياءه منه. في تلك الفترة لم يكن هو ذاته ليعرف بأن هذه العاطفة التي تفنته هي الحب، وحين كان يفكر بها كان يفعل ذلك بمصطلحات الصدقة المحسنة. منذ لقائه الأول مع مورانتي كره كل منها الآخر بمجاملة، أحدهما فعل ذلك بدافع الاحتقار الذي يشعر به المثقف تجاه العسكريين، وفعله الآخر للشعور ذاته معكوساً. حياة الضابط بانحناءة خفيفة دون ان يمد يده اليه، ولا حظ فرانشيسكو نبرة الغطرسة التي باعدت بينهما منذ البداية، والتي كانت تحول رغم ذلك إلى عذوبة حين يتوجه بالحديث إلى خطيبته. لم تكن توجد امرأة اخرى بالنسبة للكابتن. لقد اختارها منذ زمن مبكر لتكون شريكه حياته، وكان يبعدها ومحبها بكل جوارحه. ولم تكن الغراميات العابرة ولا مغامرات اليوم الواحد تستحق الذكر لديه، فهي أمور لا بد منها خلال فترات فراغها الطويلة التي تفرضها ظروف مهنته. ولم تكن أية علاقة أخرى لترك أثراً في روحه أو ذكرى في جسده. كان يحب ايرين منذ الأزل، منذ كانوا طفلين يلعبان في بيت الجدين موقفين معاً أول قلق البلوغ. وكان فرانشيسكو ليال يرتعش عند تفكيره بمداعبات ابناء العمومة هذه.

كان من عادة مورانتي الاشارة إلى النساء على اثنين سيدات، مؤشراً بذلك إلى الفرق بين هذه الكائنات الاثيرية وبين عالم الذكر الحشن. وكان يستخدم في سلوكه الاجتماعي آداباً احتفالية إلى حد التحذق، مناقضاً بذلك شكل تعامله الحشن والحميبي مع رفاقه في السلاح. وكان مظهره كبطل في السباحة جذاباً. والمرة الوحيدة التي صمتت فيها الآلات الكاتبة في الطابق

الخامس من مبني المجلة، كانت يوم ظهوره في صالة المحررين بحثاً عن ايرين. كان برونزيَا، شاحناً، وبارز العضلات، كأنه تجسيد لجوهر المحارب. رفعت الصحفيات والمخرجات وعارضات الأزياء المتأنفات عيونهن عن أعمالن، وكذلك فعل المخشنون، ووقف الجميع مشدوهين وهو يتأملونه، تقدم دون أن يبتسم، ومعه مشى عظماء الجنود في كل الأزمنة: الاسكندر، ووليوس قيصر، ونابليون، وجوشوا الأفلام السينمائية الحربية. وتوتر الجو في تهيدة عميقه ودسمة وحارة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يراه فيها فرانشيسكو، فأحسن رغمأ عنه بالانبهار لصورته المسلطة. لكن حالة من الكآبة هيمنت عليه فور ذلك، عزّاها إلى نفوره من العسكريين، لأنّه لم يكن ليقبل الاعتراف بأنّها مجرد غيرة عادلة. لقد كان يواري تلك الأحساس في الأحوال الطبيعية، لأنّه يخجل من المشاعر التافهة، لكنه لم يستطع مقاومة الأغراء بزرع القلق في روح ايرين، فكان يعرب لها، وبكثرة، في الشهور التالية عن رأيه في الحالة الكارثية التي تعيشها البلاد منذ ان هجرت القوات المسلحة ثكناتها لتعتصب السلطة. فكانت صديقته تبرر الانقلاب بالذرائع التي لقنتها إياها خطيبها؛ لكن فرانشيسكو كان يفند تلك الحجج مبيناً ان الدكتاتورية لم تحل أية مشكلة، وإنما هي فاقمت فقط من المشاكل القائمة وخلقت مشاكل أخرى جديدة، لكن القمع يحول دون معرفة الحقائق. لقد وضعوا غطاء محكمًا فوق الواقع وترکوا حسأء فظيعاً يتعفن في القاع، مراكمين بذلك ضغطاً كبيراً لن يجدوا عندما يحين موعد انفجاره ما يكفي من آلة الحرب والجنود للسيطرة عليه. كانت ايرين تستمع ساهية، فمصاعبها مع غوستافو هي مصاعب من نوع آخر. فهي لا تتطابق مع مواصفات الزوجة النموذجية للضابط علي الرتبة، كما أنها واقفة من أنها لن تكون كذلك أبداً، حتى ولو قلبت نفسها مثل جورب. وكانت تعتقد أنها ما كانت ستتجه، وربما لم تكن ستتاح لها فرصة اللقاء به لو أنها لم يعرفا بعضهما منذ الطفولة، ذلك لأن العسكريين يعيشون في حلقات مغلقة ويفضلون الزواج من بنات قادتهم أو شقيقات رفاقهم اللواتي يتلقين تربيتهن كخطيبات بريئات وزوجات خلصات، رغم أن الأمور لا تسير

على هذا الحال دوماً. لذلك فهم يقسمون على تحذير رفيقهم إذا ما كانت زوجته تخدعه، ويخبرونه على اتخاذ اجراءات مناسبة قبل أن يبلغوا القيادة العليا ويقوضون مستقبله لكونه ذا قرون. وكانت هي ترى في هذه العادة شيئاً مشيناً. كان غوستافو يؤكّد أول الأمر انه يستحيل قياس الرجال والنساء في المقاس ذاته، ليس ضمن أخلاقيات الجيش وحسب، وإنما في أخلاقيات أي عائلة محترمة أيضاً، لأن هناك فروقاً بيولوجية لا يمكن انكارها وتراثاً تاريخياً ودينياً لا يمكن لأية حركة تحرر نسائية ان تمحوه. وكان يقول ان اغفال ذلك قد يؤدي إلى إلحاق اضرار بالمجتمع. لكن غوستافو كان يفارِج بانه ليس مفترأً برجولته، كما هم معظم أصدقائه. إلا أن معايشته لها وقضاءه ستة في القطب الجنوبي لتركيز أفكاره وصقل ما في تكوينه من نتوءات أوصله إلى ادراك ظلم هذه النظرة الأخلاقية المزدوجة، فعرض على ايرين المبادرة المهدبة بان يكون خلصاً لها بدوره، حيث ان حرية الحب لكتلتها كانت تبدوه بدعوة جنونية اخترعتها الشعوب الاسكندنافية. وبقوته على نفسه كقوته على الآخرين، وبتصميمه على العهد الذي قطعه، وأنه مغرم ، ومرهق في أغلب الأحيان من التمارين البدنية، وفي بعضه في الظروف العادية . فخلال فترات الفراق الطويلة كان يقاوم ضيق طبعه مستعيناً على ذلك بقوة روحه أسيرة الوعد . وكان يتأنّم معنوياً حين يستسلم لاغراء مغامرة عابرة، ولم يكن قادرًا على العيش في العفة لزمن طويل ، لكن قلبه كان على وفائه ، كضريبة لخطيبته الأبدية .

كان الجيش بالنسبة لغوستافو مورانتي خياراً طاغياً. دخله مبهوراً بالحياة القاسية، ورغبة في ضمان مستقبل مستقر، وجباً بالقيادة واستمراراً لتقليد عائلي. فأباه وجده كانا جنرالين . وفي الخامسة والعشرين من عمره بُرُز كواحد من أفضل تلاميذ دفعته ، وكان بطلاً في المبارزة والسباحة . تخصص في سلاح المدفعية وحقق رغبته في قيادة وحدة عسكرية وتدریب المجندين الجدد . حين تعرّف فرانشيسكو ليال عليه ، كان عائدًا لتوه من آنتاركتيكا ، حيث أمضى اثنى عشر شهراً وهو معزول تحت سماء متقلبة ، يحد بصره أفق قبة سماوية زئبقيّة ، تضيئها شمس باهتة

طوال ستة شهور متواصلة لا ليل فيها، ثم يليها نصف عام آخر عاشه في ظلام دائم. كان قادرًا على الاتصال بآيرين بواسطة اللاسلكي مرة في الأسبوع ولدة ربع ساعة فقط، يستغلها ليطلب منها كشفاً بكل أعمدتها؛ وقد أمضته الغيرة والعزلة. لقد اختارته القيادة العليا من بين مرشحين كثیرین لصلابة طبعه ولياقته البدنية، فعاش في هذه الأرض الفسيحة المقفرة مع سبعة رجال آخرين، معانٍ من عواصف ترفع الماء أمواجاً سوداء عالية كأنها الجبال، مدافعين عن أثمن كنوزهم: الكلاب الأسكندرية ومستودعات الوقود، في درجة حرارة تصل إلى الثلاثين تحت الصفر، متحركين كآلية لمقاومة البرد القطبي والحنين الذي لا علاج له، كل ذلك من أجل المهمة الوحيدة والمقدسة في إبقاء راية الوطن خفافة وسط ذلك الموضوع النسي. كان يحاول ألا يفكر بآيرين، لكن الارهاق والجليد والأقراص المخفة للشبق التي كان المرض يقدمها إليه، لم تستطع محاذيرها الدائمة من قلبه. كان يتسلى باصطياد الفقمات في شهور الصيف لت تخزينا في الثلوج للشتاء، ويخدع الساعات بإجراء تجارب في الارصاد الجوية، فيقوم بقياس ارتفاع المد، وسرعة الرياح، وكثافة الغيوم، ودرجة الحرارة والرطوبة، متبنّاً بالعواصف، ومطلقاً بالونات اختبار ليتعرف على نوايا الطبيعة من خلال حسابات مثلية. من بلحظات بهجة ولحظات كآبة، لكنه لم يسقط أبداً في مهابي الفزع واليأس. وقد بدلّت هذه العزلة وهذا التواصل مع الأرض الجليدية الهائلة من مزاجه وروحه، وجعلته ميالاً إلى التأمل. فانغمس في المطالعة ودراسة التاريخ، مانحاً تفكيره بذلك بعداً جديداً. وكان حين ينقل الحب عليه، يكتب رسائل إلى آيرين باسلوب صاف مثل المشهد الأبيض الذي يحيط به، لكنه لم يكن يستطيع ارسالها لأن وسيلة النقل الوحيدة هي السفينة التي ستأتي لالتقاطهم بعد انقضاء السنة. وحين رجع أخيراً، كان أكثر نحواً، تكاد بشرته أن تكون سوداء بفعل انعكاس الثلوج، ويداه قاسستان، ومجنوناً من الشوق. أحضر معه مئتين وتسعين رسالة في ملفات مغلقة ومرقمة في تسلسل تاريخي دقيق، وضعها فوق ركبتي خطيبته التي وجدها ساهمة ومتقلبة، ومهتمة بعملها الصحفي أكثر من اهتمامها

بتخفيف أشواطها الغرامية ، وليس لديها أي ميل إلى قراءة ذلك الكيس من الرسائل المتأخرة . ومع ذلك فقد سافرا لبضعة أيام إلى شاطئ ناء ، حيث عاشا عاطفة مندفعه وعوض الكابتن عن الزمن الضائع خلال شهور العفة الاضطرارية . كان هدفه من كل هذا الغياب الطويل هو جمع المال الكافي للزواج منها . أثناء وجوده في تلك الأصقاع المهجورة كان يكسب ستة أضعاف الراتب العادي لرتبته . لقد كان يرغب في أن يقدم لابرین بيتاً مستقلاً ، واثناً حديثاً ، وادوات منزليه كهربائية ، و سيارة ومورداً مضموناً . ولم تكن هناك من جدوى في ابدائها عدم الاكتراث وافتراحتها بعقد اتحاد طوعي بينهما بدلاً من الزواج ، ليريا ان كانت الأمور التي تجمع بينهما اكبر من الاختلافات . لم تكن لديه نوايا في اجراء اختبارات قد تلحق الضرر بمكانته العسكرية ، فالحياة الاسرية المستقرة ستكون عاملاً مهمّاً عند تقويمه لترقيه إلى رتبة ميجر . ثم ان العزوبيه في القوات المسلحة تصبح مثيرة للريبة بعد سن معينة . في أثناء ذلك ، كانت بياتريس الكانترا ، غير المكررة بترتديتها ، تعد العدة للزفاف بحماس . فهي تحب المحلات التجارية لاقتراض أطباق الحرف الانكليزية المزخرفة يدوياً برسوم عصافير ، والشرائف الهولندية المطرزة ، والملابس الداخلية الحريرية الفرنسية وأشياء اخرى فاخرة لجهاز عرس ابنتها الوحيدة . ومن سيكوي كل هذه الأشياء عندما تتزوج يا أماه؟ بهذا كانت ابرين تتذمر وهي ترى المحرمات البلجيكية والحرائر اليابانية ، والأقطان الایرلندية ، والاصناف الاسكتلندية وأصناف المنسوجات الالخري المجلوبة من مناطق نائية

لقد أمضى غوستافو خدمته كلها في حاميات في الأقاليم ، لكنه كان يأتي إلى العاصمة للقاء ابرين كلما ساحت له الفرصة . ولم تكن هي تتصل بفرانشيسكو في هذه المناسبات حتى ولو كان لديها عمل مستعجل في المجلة . فقد كانت تضيع مع خطيبها في عتمة صالات الرقص ، أو يأخذان بيدي بعضهما بعضاً للذهاب الى المسرح أو للنزهة ، أو لتبادل الحب في فنادق سرية ، حيث يغوضان عن أشواطهما الطويلة . وكان هذا يؤثر على مزاج فرانشيسكو و يجعله متقلباً ، فيحبس نفسه في

غرفته ليستمع إلى موسيقاه السيمفونية المفضلة ويتلذذ باحزانه . وفي أحد الأيام دون أن يتمكن من منع نفسه عن الكلام ، اقترف حماقة سؤال الفتاة الشابة عن حدرد علاقتها مع عريض المنيه . فضحتك بكل حيويتها ، ورددت عليه نازعة منه نعمة الشك : لا تخسبي ما أزال عذراء بعد هذه السن . بعد ذلك بقليل ، أوفد غوستافو مورانتي إلى بنى لقضاء عدة شهور في مدرسة للضباط . وكان اتصاله بايرين يقتصر على رسائل عاطفية ملتهبة ومكالمات هاتفية وهدايا يبعثها في الطائرات العسكرية . ان شيخ هذا العاشق العنيد كان السبب في ان فرانشيسكو نام مع ايرين كأخ . وبقي يضرب جبهته بكفه كلما تذكر تلك الليلة ، مذهولاً . لتصرفه ذاك .

ففي احدى المناسبات بقيا في مكاتب المجلة لإنجاز تحقيق صحفي . كانت المادة الأولية جاهزة لديهما ويعملان على اعدادها للنشر في اليوم التالي . وطارت الساعات دون أن يتتبها إلى أن بقية الموظفين قد انصرفوا وأن الأضواء قد أطفئت في جميع المكاتب . خرجا لشراء زجاجة نبيذ وشيء يأكلانه . وبما انها كانت يحبان العمل وهمما يستمعان إلى الموسيقى ، فقد وضعوا موسيقى كونشيرتون في آلة التسجيل ، وبين أنغام الناي والكمانات من الوقت دون ان يفطنوا إلى النظر في الساعة . أنهيا العمل في وقت متأخر جداً ، وعندئذ فقط وصل اليهما من خلال النافذة صمت الليل وظلمته . لم تكن هناك ادنى علامة من علامات الحياة ، وكانت المدينة تبدو كأنها مقفرة ومحجورة بسبب كارثة محظوظ كل أثر بشري منها ، كما في قصص الخيال العلمي . حتى الهواء كان يبدو كثيناً وجاماً . حظر التجول ، همسا في ايقاع متlapping وهوما يشعران بأنها وقعا في المصيدة ، لأن التحول في الشوارع كان مستحيلاً في مثل هذا الوقت . حمد فرانشيسكو حسن طالعه الذي أتاح له البقاء معها مزيداً من الوقت . وفكرت ايرين بقلق أنها وروسافهرعت الى الهاتف لتوضّح لها الوضع . وبعد أن شربا بقية النبيذ ، واستمتعوا مرتين إلى الكونشيرتو وتحديثاً في ألف موضوع ، نال منها الارهاق ، فاقتصرت ان يستريح على الأريكة . كان حمام الطابق الخامس في مبني المجلة عبارة عن غرفة فسيحة ، فهي

تستخدم كمكان تستبدل فيه عارضات الأزياء ملابسهن ، وكصالات مكياج لوجود مرآة كبيرة فيها مضاءة بشكل جيد ، بل أنها كانت تستخدم كبوفية وذلك بفضل الموقف الصغير الذي يغلون عليه الماء . لقد كان الحمام هو المكان الخاص والحميمي الوحيد في المجلة . وفي أحد أركانه كانت توجد اريكة منسية منذ أزمنة بعيدة . أنها قطعة أثاث ضخمة ، مغطاة ببروكار أحمر ، مليء بشقوق تبرز منها النابض الصدئة التي لا تناسب وقارها المتمي إلى أواخر القرن الماضي . كانوا يستخدمون تلك الأريكة في حالات الصداع ، ولبكاء آلام الحب وأحزان صغيرة أخرى ، أو بكل بساطة للراحة إذا ما ازدادت وتيرة العمل . وعليها أوشكـت أحـدى السـكريـرات أن تنـزـفـ دـمـهـاـ بـسـبـبـ حـالـةـ اـجـهـاضـ مـفـاجـئـةـ ، وهـنـاكـ باـحـ مـسـاعـداـ مـارـيوـ بـعـواـطـفـهـاـ لـبعـضـهـماـ ، وهـنـاكـ بـالـذـاـتـ فـاجـأـهـاـ هـذـاـ الـأخـيرـ وـقدـ خـلـعاـ سـرـوالـيهـماـ وـهـمـاـ فـوـقـ السـجـادـةـ الـاسـقـفـيـةـ حـائـلـةـ اللـونـ . عـلـىـ هـذـهـ الـأـرـيـكـةـ اـضـطـجـعـ فـرـانـشـيسـكـوـ وـايـرـينـ مدـشـرـينـ بـمـعـطـفـيهـماـ . لـقـدـ أـغـفـتـ هـيـ عـلـىـ الفـورـ ، أـمـاـ هـوـ فـبـقـيـ مـسـتـيقـظـاـ حـتـىـ الصـبـاحـ ، مـعـذـبـاـ بـأـنـفـعـالـاتـ مـتـنـاقـضـةـ . لـمـ يـكـنـ يـوـدـ المـغـامـرـةـ فيـ عـلـاقـةـ سـتـزـعـزـعـ دونـ شـكـ رـكـائزـ حـيـاتـهـ معـ اـمـرـأـ تـجـبـدـ نـفـسـهـاـ فـيـ الجـانـبـ الـأـخـرـ مـنـ السـورـ . كـانـ يـشـعـرـ بـمـيـلـ جـامـسـ نـحـوـهـاـ ، فـقـيـ حـضـورـهـاـ تـهـبـعـ جـمـيعـ حـوـاسـهـ وـتـتـلـىـءـ رـوـحـهـ بـالـسـعادـةـ . اـنـ اـيـرـينـ تـسـعـدـ وـتـفـتـتـهـ ، فـوـرـاءـ مـظـهـرـهـاـ التـقـلـبـ وـغـيرـ الـوـاعـيـ ، بلـ وـالـسـادـجـ ، كـانـ يـوـجـدـ جـوـهـرـ لـاـ تـشـوـبـهـ شـائـبـةـ ، مـثـلـ فـاكـهـةـ تـنـتـظـرـ موـسـمـ نـضـجـهـاـ . فـكـرـ كـذـلـكـ بـغـوـسـتـافـوـ مـورـانـيـ وـيـدـورـهـ فيـ قـدـرـ اـيـرـينـ . وـخـشـيـ أـنـ تـصـدـهـ الشـائـبـةـ وـلـمـ يـشـأـ المـجاـزـفـةـ بـصـدـاقـتهاـ . فـالـكـلـمـاتـ الـتـيـ تـقـالـ لـاـ يـمـكـنـ مـحـوـهـاـ بـعـدـ النـطـقـ بـهـاـ . وـعـنـدـمـاـ كـانـ يـتـذـكـرـ فـيـهـاـ بـعـدـ مـشـاعـرهـ فـيـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ الـتـيـ لـاـ تـنـسـيـ ، وـصـلـ إـلـىـ نـتـيـجـةـ مـؤـدـاـهـاـ هـنـاـ لـمـ يـجـرـأـ عـلـىـ الـاـفـصـاحـ عـنـ حـبـهـ لـأـنـ اـيـرـينـ لـمـ تـكـنـ تـشـارـكـهـ قـلـقـهـ . لـقـدـ نـامـتـ بـهـدـوـءـ بـيـنـ ذـرـاعـيـهـ وـلـمـ يـدـرـ فيـ خـلـدـهـ اـنـهـ قـدـ أـثـرـتـ فـرـانـشـيسـكـوـ تـأـثـيرـاـ عـمـيقـاـ . كـانـ تـعـيـشـ صـدـاقـتهاـ بـنـداـوـةـ ، دـوـنـ أـيـ بـادـرـةـ تـشـيرـ إـلـىـ مـيـوـلـ غـرـامـيـةـ ، وـفـضـلـ هـوـأـلـاـ يـكـرـهـهـاـ وـاـنـ يـتـظـرـ إـلـىـ أـنـ يـمـلـأـهـاـ الـحـبـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ ، مـثـلـمـاـ حـدـثـ لـهـ . كـانـ يـمـسـ بـهـاـ مـنـكـمـشـةـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ ، تـتـنـفـسـ بـهـدـوـءـ فـيـ نـوـمـهـاـ ، وـشـعـرـهـاـ الـطـوـيلـ يـغـطـيـ وـجـهـهـاـ وـكـتـفيـهـاـ مـثـلـ

زخرفة قائمة، بقي جامداً يراقب حتى الهواء الذي يستنشقه كي ينفث عنها هيجانه النابض الرهيب. كان يأسف من جهة لأنه ارتضى بعهد الأخوة المضرم الذي يكبل يديه منذ شهور، ويود الانقضاض بياس لغزو جسدها، ولكنه يعترف من جهة أخرى بضرورة الوصول إلى عاطفة قادرة على إقصائه عن الرغبات التي تحكم بهذه المرحلة من حياته. بقي إلى جوارها، متشنجاً بالتوتر والقلق، لكنه مستعد في الوقت ذاته لاطالة هذه اللحظة إلى الأبد، حتى سمع أول جلبة الشارع ورأى ضوء الفجر من النافذة. استيقظت ايرين مبهوتة ولم تذكر لأول وهلة أين هي، لكنها مالبثت أن نهضت ومسحت وجهها بالماء البارد وخرجت مسرعة إلى بيتها، تاركة فرانشيسكو منسياً في يتمه. منذ ذلك اليوم روت لكل من يود السمع أنها ناما معاً، وهذا - حسب رأي فرانشيسكو - لم يكن صحيحاً للأسف بالمعنى المجازي للتعبير.

★ ★ ★

انشق فجرا يوم الأحد عن سماء مفعمة بالضوء وعن هواء حار وثقيل، فبدا وكأنه يوم متقدم من الصيف. في ذلك اليوم، أدركت ايرين ان اساليب العنف لم تحرز تطويراً يذكر، فلقتل خنزير ما زال يستخدم الاسلوب ذاته الذي كان شائعاً منذ الأزلمنة البربرية. لقد اعتبرت ايرين الأمر احتفالاً طريفاً، لأنها لم تكن قد رأت من قبل عملية ذبح دجاجة، وبالكاف كانت تعرف الخنازير في حالتها الطبيعية. ذهبت وهي مستعدة لاجراء تحقيق صحفي للمجلة، وكانت متحمسة لمشروعها، حتى أنها لم تذكر ايفانخيلينا ونباتاتها الصاصبة، ويددت كأنها قد نسيتها. أحس فرانشيسكو لدى مروره في المكان انه يجتاز موقعاً غير معروف، فقد انفلت الريبع خلال هذا الأسبوع من عقاله، مرسخاً خصراً الحقول، ومزهراً أشجار الأر umo، تلك الأشجار الأخاذة التي تبدو من بعيد وكأنها مكسوّة بالنحل، ويعتبر الاقتراب منها على الدوار بسبب الشذى المستحيل الذي يفوح من عناقدها الصفراء، وكانت الأشواك ونباتات العليق قد تحولت إلى مسكن:

للعصافير فيها الهواء يتذبذب مع طنين الحشرات . حين وصلا الى بيت آل رانكيليو كان العمل قد بدأ لتسوه ، وكان أصحاب البيت والمدعون يتحركون بنشاط حول موقد في الفناء ، والأطفال يركضون صارخين ومرحين وسط الدخان الذي يلوح بشرتهم ، أما الكلاب فكانت تترصد بصرى سعاده إلى جوار القدور ، موقنة أنها ستثال فضلات الحفلة : استقبل آل رانكيليو الضيوف باحترام ، لكن ايرين لمحت في الحال نفحة حزن في وجوههم . فوراء المظهر الحميم المرحب ، أحسست بوجود الأسى ، إنما لم يتع لها الوقت للتفصي عن السبب أو لمناقشة الأمر مع فرانشيسكو ، لأنهم جاؤوا بالختزير في هذه اللحظة وهم يجرؤونه جرأ . كان حيوناً ضخماً ربى من أجل استهلاك الاسرة ، بينما بيعت جميع الخنازير الأخرى في السوق . فقد انتقام خبير بعد أيام من ولادته ، مدخلأً يده في حلقه ليتأكد من خلوه من البثور ، وليضمن جودة لحمه . وعُذى طوال شهور بالحبوب والخضار ، خلافاً للخنازير الأخرى التي تغذى بالفضلات . وعُزل عن رفاقه ، وبقي حبيساً لا يسمح له بالحركة في انتظار مصيره ، بينما شحمه يتکاثر وقوائمه الطيرية تنموا . لقد مشي الحيوان في هذا اليوم لأول مرة مختاراً المتنى متر التي تفصل حظيرته عن مذبح تضحيته ، متسللاً فوق قوائمه القصيرة التي لا خلاص لها ، وقد برهه الضوء ، وأصمه الذعر . حين رأته ايرين لم تستطع ان تتصور كيف سيحملون الموت إلى كتلة اللحم الضخمة تلك التي يزيد وزنها عن وزن ثلاثة رجال أقوياء .

كانوا قد وضعوا قريباً من النار بضعة ألواح خشبية فوق براميل ليصنعوا منها طاولة . وعند وصول الضحية ، اقترب منه هيبيوليتورانكيليو رافعاً فأساً ووجه ضربة قوية بمؤخرة الاداة إلى جبهته . سقط الخنزير على الأرض متراجعاً ، لكنه لم يغب عن الوعي تماماً ، لأن قباعه الحاد كان يعلويتلاشى صداه في الجبال ، حاملاً الرعشة إلى شفاه الكلاب التي كانت تلهث متحرقة ، قيده عدد من الرجال ورفعوه بمشقة فوق الطاولة . عندئذ بدأ عمل الخبير ، وهو رجل يحمل معه منذ ولادته موهبة القدرة على القتل ، هذه القدرة الغريبة التي لا تقاد تظاهرين النساء . كان الخبير قادرًا على اصابة القلب بضربة واحدة حتى وهو مغمض

العينين، لأن ما يقوده ليس المعرفة التشريحية، وإنما غريزة الجлад. لقد جاء من مكان بعيد لاداء مهمة قتل الحيوان، ودعي خصيصاً لذلك، لأنه إذا لم تتم عملية القتل بمهارة، فقد تحطم صرخات احتضار الحيوان أعصاب جميع سكان المنطة. تناول الرجل مدية هائلة ذات مقبض عظمي ونصل فولاذي حاد، أمسكها بكلتا يديه مثل كاهن ازتيكي وغرسها في الرقبة، موجلاً إياها دون تردد إلى مركز الحياة. جأر الخنزير بيساس وانجست من الجرح دفقة من الدم الحار ملطخة من كانوا قريباً، ومشكلة بقعة على الأرض سارت الكلاب إلى لعقها. قربت ديننا سطلاً لجمع الدم فيه، فامتلاً في الحال، وطفت في الهواء رائحة حلوة هي مزيج من الدم والذعر.

في هذه اللحظة انتبه فرانثيسكو إلى أن إيرين ليست إلى جانبه، وحين بحث عنها بعينيه وجدها خامدة على الأرض. رآها الآخرون كذلك، وانطلقت جوقة من القهقهات احتفاء بالاغماء الذي أصابها. انحنى فرانثيسكو فوقها وهزها ليجبرها على فتح عينيها. وحين تمكنت من الكلام، قالت بمشقة: أريد الذهاب من هنا. لكن صديقها أصر على البقاء حتى النهاية. فقد حضرا من أجل هذا. نصحها بأن تتعلم التحكم بأعصابها أو أن تستبدل مهنتها، فحالة فقدان التماسك هذه قد تحول إلى عادة دائمة، وذكرها بالبيت المskون بالأرواح حيث كان صرير الباب كافياً لجعلها تنهار ممتدة بين ذراعيه. وكان ما يزال يسخر من إيرين حين خدت انفاس الحيوان، وعندما تأكدت من أنه قد مات تماماً، تمكنت من النهوض على قدميها.

لكن العملية تواصلت. صبوا ماء يغلي على جثة الحيوان وكشطوا الورير بأداة حديدية، حتى صار جلده يلمع، وبدا وردياً ونظيفاً مثل بشرة طفل حديث الولادة. بعد ذلك شقوا بطنه وشرعوا في سحب أحشائه وتقطيع شحمه أمام عيون الأطفال المأخذدين والكلاب الملطخة بالدم. غسلت النسوة أمтарاً وأمتاراً من الأمعاء في الساقية، ثم حشوتها ليصنعن منها السعف. ومن المرق الذي وضع لتغلي فيه، ملأوا فنجاناً لتنشيط إيرين، ترددت الشابة أيام حساء مصاصي الدماء

ذاك ، الذي كانت تطفو في خشارات قاتمة . لكنها شربته كيلا تسبب استياء مضيفيها ، فوجدها لذيداً وذا خصائص علاجية مضمونة ، لأنها ما لبست ان استعادت بعد بعض دقائق انتعاشها وتورد وجتها . أمضيا بقية النهار وهما يلتقطان الصور ، ويأكلان ويسربان النبيذ من دجاجة كبيرة ، فيها كان المضيفون يذيبون الدهن في علب صفيحية . كان الشحم يطفوا متزناً في المرق ، فيخرجنوه بمصفاف كبيرة ويقدمونه مع الخبز . طبعوا كذلك الكبد والقلب وقدموهما لضيفهم . وعند الأصيل كان النعاس يغالب الجميع : الرجال بفعل الخمر ، والنساء بسبب التعب ، والأطفال بسبب النعاس والكلاب لأنها اتحمت للمرة الأولى في حياتها . عندئذ ذكر فرانشيسكو وايرين انها لم يريا ايفانخيلينا طوال اليوم . فسأل ديجنا رانكيليوا :

- أين ايفانخيلينا؟

فأطرقت ولم تجب . فلاحت ايرين حين ادركت أن شيئاً قد حدث ، وسألت :

- وابنك ، الشرطي ، ما اسمه .

فردت الأم والفتjan يرتعش في يدها :

- براديليو دل كارمن رانكيليرو .

أمسكتها ايرين من ذراعها وقادتها برقة إلى ركن منعزل في الفنا ، كانت العتمة قد اكتنفت في تلك الساعة . أراد فرانشيسكو اللحاق بها ، لكنها أوقفته بابياءة من يدها ، واثقة من أنها حين تنفرد بديغنا ستتاح لها فرصة الوصول إلى حالة من التالف الاثنوي . جلستا وجهاً لوجه على كرسين من القشن . وعلى ضوء الشفق الخافت رأت ديجنا رانكيليرو الوجه الشاحب الذي تلتهمه عينان غريبتان مرسومتان بقلم أسود ، والشعر المشعش بفعل الهواء ، وتلك الملابس المستخرجة من أرمنة أخرى والخرز الصاخب في المعصمين . وعلمت انه رغم الهوة الظاهرية التي تفصل بينهما ، يمكنها أن تروي لها الحقيقة ، لأنهما من حيث الجوهر شقيقتان ، كما هن جميع النساء في نهاية المطاف .

ليلة الأحد الماضي، وفيما كان جميع من في البيت نائمين، رجع الملازم
خوان دي ديوس راميريث وعاونه، ذاك الذي أتلف أفلام فرانشيسكو.
وأوضحت ديجنا لايرين.

- معاونه هو الرقيب ماوستينوريفيرا، ابن اشبيفي مانويل ريفيرا، ذي الشفة
المشرومة.

بقي ريفيرا عند الباب مسيطرًا على الكلاب، فيما دخل الملازم إلى حجرة
النوم وهو يركل الآلات ويطلق التهديدات والسلاح في يده. أوقف أفراد الأسرة،
الذين لم يصحوا تمامًا بعد، إلى الجدار، وسحب ايفانخيلينا إلى سيارة الجيب.
كان آخر مارأه أبواما منها هو بريت قميص نومها الأبيض يهتز في الظلام، حين
اجبرها العسكريان على الصعود إلى السيارة. وسمعا صرختها لهنيهة وهي
تناديهم. انتظرا حتى الفجر قلقين، وما أن سمعا صياح الديكة حتى ركبا إلى
الثكنة. استقبلهما هناك العريف المتاوب بعد ان انتظرا طويلاً، وأخبرهما ان ابنتهما
قد أمضت الليل في زنزانة، ولكن تم الافراج عنها منذ الصباح الباكر. وسألًا عن
براديليو، فقيل لها انه قد نُقل إلى منطقة أخرى.

قالت الأم :

- منذ ذلك الحين ونحن لانعرف شيئاً عن البنية وليس لدينا أية أخبار عن
براديليو.

بحثا عن ايفانخيلينا في القرية، وطافا على بيوت فلاحي المنطقة بيتاً بيتاً،
وأوقفا السيارات العابرة على الطريق العام ليسألوا سائقها ان كانوا قد رأوها،
واستجوها الراعي البروتستاني، والكافن الكاثوليكي، والمداوي، والقابلة وكل
من وجدهما في طريقهما، ولكن أحداً لم يقدم لها بارقة من الأمل. مضيا في كل
اتجاه، من المهر وحتى قمة الجبال دون أن يعشرا لها على أثر، لقد ذرت الريح
اسمها في شقوق الصخر والدروب، وبعد خمسة أيام من البحث غير المجدى
ادركا أن العنف قد ابتلعها، فارتدى ديجنا ملابس الحداد وذهبت إلى بيت آل
فلوريس لتروي لهم عن الفاجعة الجديدة. ذهبت خجلة لأن ايفانخيلينا لم تعرف

في بيته إلا التعasse ، ولأنه كان من الخير لها أن تعيش في بيت أمها الحقيقة .
وردت عليها السيدة فلوريس :

- لا نقولي مثل هذا الكلام يا اشبيتي . ألا ترين أن الرزايا لا تخطيء
أحداً؟ تذكرني ابني فقدت زوجي وأولادي الأربعه منذ سنوات ، لقد أخذوهم ،
انتزعوهم مني ، مثلما فعلوا بيفانخيلينا . انه قدرها يا اشبيتي . ليس الذنب ذنبك
وانها ذنبي أنا ، لأنني أحمل النحس في دمي .

استمعت ايفانخيلينا فلوريس المتوردة والمعافاة ، ذات الخمسة عشر عاماً
إلى المرأةين وهي واقفة وراء كرسي أمها بالتبني . كانت لها ملامح دينغنا رانكيليو
المتينة والسمراء ، ويداها الممتلتتان وإلياتها الكبير تان ، لكنها لم تكن تحس انها ابنة
هذه المرأة ، لأن ذراعي الأخرى هما اللذان احتضناها في طفولتها وثدييها هما
اللذان أرضعاها . ومع ذلك ، ولسبب ما ، شعرت بان المفقودة هي أكثر من اخت
بالنسبة اليها ، بل شعرت بأنها هي ذاتها المستبدلة ، وانها حياتها التي عاشتها
الأخرى ، وأحسست أن موتها سيكون هو موت ايفانخيلينا رانكيليو . وربما في لحظة
الصفاء هذه ، اختارت ايفانخيلينا فلوريس المهمة التي ستتحملها فيما بعد لتجوب
العالم مطالبة بالعدالة .

أفضت دينغنا بكل هذا للتقاسم مع ايرين ، وحين انتهت من الحديث
كانت آخر شارات الموقد تنطفئ و كان الليل يهيمن على الأفق . انه موعد
الريحيل . وعدتها ايرين بيلتران بان تبحث عن ابنتها في العاصمة وأعطيتها عنوان
بيتها ، لتنصل بها إذا ما حصلت على أخبار جديدة . وتعانقتا مودعتين بعضهما .
في هذه الليلة بالذات لاحظ فراتشيسكو شيئاً مختلفاً في عين الشابة ، ولم يجد
الفرح والذهول المعادين . لقد أصبحت حدقتا عينيها قاتتين وحزينتين ، مثل
أوراق اليوكالبتوس الحافة . فأدرك حينئذ أنها قد بدأت تفقد براءتها وانه لم يعد
هناك ما يحول دون اطلاعها على الحقيقة .



جاب الصديقان الاماكن المعهودة يسألان عن ايفانخيلينا رانكيليyo، يدفعهما الاصرار اكثر من الامل. لم يكونوا الوحدين في هذه المساعي . ففي مراكز الاعتقال ، وفي موقع الشرطة ، وفي الجنح المحظور من مشفى الطب النفسي الذي لا يرسلون إليه سوى من أوصلهم التعذيب إلى حالة لا شفاء منها ، يدخلونهم هناك بقمصان المجاذيب ويضعونهم تحت اشراف أطباء من الفروع الأمنية ، كان يرافق ايرين بيلتران وفرانشيسكو ليال كثيرون من يعرفون خيراً منها درب الجلجلة ويقودونها فيه . وهناك ، كما في كل مكان يتفاهمون فيه الألم ، كان التضامن الانساني حاضراً مثل بلسم يساعد على تجاوز التعasse .

سألت ايرين امرأة تقف معها في الصف :

- وعمن تبحثين أنت يا سيدتي ؟

- لا أحد يا بنبي . أمضيت ثلاث سنوات في افتقاء آثار زوجي ، لكنني أعرف الآن انه يرقد بسلام .

- لماذا تائين إذن ؟

فردت وهي تشير إلى امرأة اخرى :

- لأساعد احدى صديقاتي .

لقد تعارفنا منذ سنوات وجابتانا معاً جميع الأماكن المحتملة تطرقان الأبواب ، وتتوسلان الموظفين ، وترشوان الجنود . احداهما كانت محظوظة وعلمت على الأقل ان زوجها لم يعد بحاجة لها . لكن الأخرى واصلت طوافها . كيف اتركها وحيدة ؟ ثم انها اعتادت على الانتظار والمذلة ، هكذا قالت ، فكل حياتها صارت تدور حول مواعيد الزيارة والأنظمة ، وأصبحت تعرف أساليب الاتصال بالمعتقلين والحصول على معلومات عنهم .

- ايفانخيلينا رانكيليyo سانتشيث ، خمسة عشر عاماً ، اعتقلت للاستجواب في لوس ريسكوس ثم اختفى اثرها .

- لا حاجة بكم لمزيد من البحث عنها ، فلا بد أن أيديهم قد تجاوزت الحد معها .

- اذهبوا إلى وزارة الدفاع ، فهناك توجد قوائم جديدة.
- ارجعوا الأسبوع القادم في مثل هذا الوقت.
- من الخامسة يجري استبدال الحرس ، أسلوا عن انطونيو، انه شخص طيب وقد يساعدكم.
- من الأفضل أن تبدأوا البحث في مستودع الجثث ، وبهذا لا تضيعون وقتكم دون جدوى.

كانت لدى خوسيه ليال خبرة في هذه الأمور ، فقد استنفد جزءاً كبيراً من طاقته في مثل هذه النشاطات . استخدم اتصالاته كakahن لتمكنها من الدخول حيث لم يكن بامكانها الدخول بمفردهما . رافقها إلى مستودع الجثث ، وهو عبارة عن بناء رمادي عتيق يسلو كأنه مهجور ونبذير شؤم ، بناء ملائم تماماً كبيت للموتى . إليه ينتهي مصرير المعدمين ، والجثث مجهلة الهوية في المستشفيات ، وصرعوا مشاجرات السكارى أو من يُقتلون دون ذنب ارتكبوه ، وضحايا حوادث المرور . وفي السنوات الأخيرة صار ينقل إلى هناك رجالاً ونساء مبتوري الأصابع ، ومقيدين بأسلاك ومحروقى الوجوه بمواقد حام أو مشوهين بالضرب ، مما يجعل التعرف عليهم مستحيلاً ، ويجعل مصيرهم النهائي قبراً بلا اسم في الفتنة رقم ٢٩ من المقبرة العامة . كان الدخول إلى هناك يستوجب الحصول على تصريح من القيادة ، لكن خوسيه كان يتربّد على المكان بكثرة حتى صار الموظفون يعرفونه . فعمله في مقر النائب الرسولي هو التقسي عن آثار المفقودين . وبينما كان المحامون المتطوعون يحاولون دون نجاح التوصل إلى وسيلة قانونية لحماية المخطوفين في حال وجودهم على قيد الحياة ، كان خوسيه وكهنة آخرون ينجزون الاجراء البير وقراطي الفطيع بالتنقل بين الموتى حاملين صورهم في أيديهم للتعرف على شخصياتهم ، ونادراً ما كان الكهنة يتمكنون من اخراج أحد هم وبه رمق من الحياة ، لكنهم كانوا يثقون من ان المعونة الإلهية ستتمكنهم من تسليمه إلى ذويه جثة هامدة ليدفنه .

رجا فرانثيسوكو ايرين أن تبقى خارجاً ، بعد ان نبهه أخوه إلى ما سير يانه في

مستودع الجثث، لكنه وجد فيها اصراراً جديداً، ولدته رغبتها في معرفة الحقيقة، دفعها إلى اجتياز عتبة الباب. كان فرانشيسكو رجلاً صلباً أمام الرعب وذلك لمهاراته العملية في المشافي والمصحات العقلية، ولكنه أحس بالاضطراب لدى خروجه من هذا المكان، وبقي كذلك لزمن طويل؛ وهكذا عرف أيضاً ما شعرت به صديقه. لم تكن حجرات التبريد كافية للكل تلك الأجساد، وحيث ان الطاولات ما كانت تتسع لها جميعاً، فقد راكموها في مستودعات كانت مخصصة فيما مضى لاستخدامات أخرى. كانت رائحة الجلو مشبعة بالفورمول والرطوبة، وكانت الصالات الفسيحة القذرة، ذات الجدران الملوثة، غارقة في الظلام. ولم يكن هناك سوى مصابيح قليلة تضيء المرات والمكاتب العتيقة والمستودعات الواسعة. كان اليأس يخيم على المكان، ويدوأن من يقضون يوم عملهم هناك كانوا مصابين بعذوى عدم المبالاة، وكانت قدرتهم على الحزن مستنفذة. فكل منهم يؤدي عمله مقلباً الموت كما لو كان بضاعة تافهة، متعاشماً معه بشكل وثيق يجعله ينسى الحياة. رأيا هناك موظفين يمضغون طعامهم فوق طاولات التشريح، وأخرين يستمرون إلى برامج رياضية من المذيع غير مكتئبين بالجثث المتتفحة، أو يلعبون الورق في مستودعات القبور حيث تحفظ جثث ذلك اليوم.

فتضا الحجرات واحدة واحدة، متوقفين بشكل خاص عند جثث النساء، وكن عاريات وقليلات العدد. أحس فرانشيسكو بفمه يمتليء باللعاب، وبيد اميرين ترتعش في يده، بينما كانت الشابة الشاحبة تنسل صامتة ومتجمدة، وجاحظة العينين، كأنها في كابوس بلا نهاية. كانت منفعلة لدرجة أنها لم تشعر بأنها تطفو في ضباب متن. لم تستطع فهم هذه الرؤيا الجهنمية، بل ولم يستطع خيالها الملجم ادراك أبعاد ذلك الرعب.

لم يكن فرانشيسكو من النوع الذي يتراجع في مواجهة العنف، فهو يشكل حلقة من تلك السلسلة البشرية الطويلة التي تتحرك في السرية وتعرف ما وراء كواليس الدكتاتورية. ولم يكن هناك من يرتتاب بنشاطه في تهريب المطلوبين، والرسائل، والمال الذي يأتي من مصادر غامضة، وقوائم الأسماء، والمعلومات

والأدلة المتجمعة لراسها إلى الخارج كي تكون جاهزة إذا ما قرر أحدهم يوماً كتابة القصة. لكن القمع لم يكن قد مسه حتى ذلك الحين، كان يتمكن من الإفلات منزلاً وسط الخطر، وعلى شفير الهاوية دوماً. مرة واحدة فقط، وبالمصادفة، قذفوا القفاز في وجهه وجزوا شعر رأسه. فلدى عودته من عيادته، في الفترة التي كان ما يزال يمارس فيها مهنته كطبيب نفسي ، التقى بدورية توقف المارين. ظن أول الأمر أنها عملية تفتيش روتينية ، فأخرج لهم وثائقه ، لكن يدين كالمخالب انزلتها عن الدراجة النارية وانغرست فوهة بندقية في صدره.

- انزل يا حنث!

لم يكن وحيداً في ذلك الموقف العصيب . كان هناك صبيان في سن تلاميذ المدارس يجشوون على الأرض ، وأجبروه على الركوع إلى جانبهما . سدد اليه جنديان سلاحهما وأمسك ثالث بشعره الطويل وراح يجهزه . على الرغم من مرور سنوات على ذلك الحادث إلا انه غير قادر على تذكره دون ان يصاب بتشنج من العجز والمذلة ، مع انه أدرك مع مرور الوقت انه حادث لا أهمية له على الإطلاق بالمقارنة مع وقائع اخرى . حاول يومها التحدث إلى الجنود بعقلانية ، لكنه لم ينل لقاء ذلك سوى ضربة بعقب بندقية على ظهره وعدة جراح في جلدة رأسه . رجع في تلك الليلة إلى بيته وهو يتميز غضباً ، ويعاني حالة من الذل لم يشعر بمثلها من قبل .

بكث أمه :

- لقد حذرتك من انهم يقصون الشعور الطويلة يا بني .
- عليك منذ هذه اللحظة يا فرانسيسكو أن ترك شعرك يطول من جديد ، لأنه لا بد من المعارضة بكل الأساليب الممكنة . - هكذا تعلم والده بغضب ، ناسياً رفضه للشعر الطويل لدى الرجال . وفعل فرانسيسكو ذلك ، واثقاً من انهم سيعودون إلى جز شعره ، لكن أمراً معاكساً ترك ذوي الشعور الطويلة بسلام . كانت ايرين بيلتران تعيش حتى ذلك الحين محمية بجهل ملاهيكي ، ولم يكن الأمر نتيجة تهاون أو بلاهة ، وإنما لأن معاير وسطها كانت كذلك . فامها

وآخرون كثيرون من طبقتها الاجتماعية، يلوذون بعالم الحي الرافق المتنظم والهدىء، وبمجتمعات الاستجمام الخاصة، وملاعب التزلج، والاصياف الريفية. وقد ربوها على جهل البديهيات غير المواتية وانكارها، أو تفسيرها كظواهر خاطئة. لقد رأت في احدى المرات سيارة تتوقف فجأة وتخرج منها مجموعة رجال يقدرون بأنفسهم على أحد المارة ويدخلونه إلى السيارة بالقوة؛ وشمت من بعيد دخان حرائق الكتب المحظورة، ولاحت أشياء لها شكل الأجساد البشرية تطفو في مياه القناة العكررة. وكانت تسمع في بعض الليالي صوت مرور الدوريات العسكرية وازيز طائرات المليوكتر في السماء. وقد انحنت يوماً لتسعف شخصاً سقط مغمى عليه من الجوع في الشارع. كانت رياح العنف تدوم من حولها دون ان تصل إلى لفها ولملامستها وهي محمية بالسور العالى الذي ربوها وراءه، لكن حساسيتها رغم ذلك كانت مهيبة، وحين قررت الدخول الى مستودع الجثث كانت تخطو خطوة ستؤثر على وجودها كله. لم تكن قد رأت في حياتها من قبل ميتاً عن قرب حتى هذا اليوم الذي رأت فيه من الموتى ما يكفي ملء أسوأ أحلامها. توقفت أمام قبو فسيح مبرد لتأمل جثة شابة ذات شعر أشقر معلقة بخطاف مع اخرين. كانت تشبه ايفان خيلينا رانكيليو من بعيد، ولكنها لم تستطع التعرف اليها لدى الاقتراب منها. ورأت وهي ترتعد آثاراً عميقاً على جسدها، وحرقاً في وجهها، كما رأت ان يديها مبتورتان.

- ليست ايفان خيلينا، لا تنظر اليها. - رجا فرانشيسكو صديقه وأبعدها وهو يحتضنها، وقادها إلى الباب وقد أصابه من الوجوم مثل ما أصابها.

★ ★ ★

رغم ان الجولة في مستودع الجثث لم تدم سوى نصف ساعة، إلا أن ايرين بيلتران لم تعد هي نفسها بعد الخروج من هناك، إذ انكسر شيء في روحها. أحس فرانشيسكو بذلك قبل ان يسمع كلمة واحدة منها، فبحث بجزع عن طريقة

لتقديم السلوى اليها . دعاها للركوب على الدرجة النارية وتوجه بأقصى سرعة نحو الجبل .

كثيراً ما كانا يذهبان معاً لتناول وجبة خفيفة في هذا المكان . فالغداء الخلوي في الجبل وضع حداً لجدهما عند دفع الحساب في المطعم وصارا يستمتعان بالهواء الطلق في هذا المنتزه الجميل . كانت الشابة تخشى ان تفقد الكلبة سلامتها غريزتها وتصاب بالبله لطول معاشرتها المسنين وتسكعها في مرات مأوى العجزة ، وهذا كانت ترى انه لا بأس في حلها إلى هناك لتركض على هواها قليلاً . قامت الكلبة المسكونة بالرحلة في المرات الأولى وهي ترتعد ، مستكينة على الدرجة النارية بين الاثنين وقد تهدلت اذناها وملا الفزع عينيها . ولكنها مع مرور الوقت صارت تحب تلك الرحلات وأصبحت جلبة أي دراجة نارية تبعث فيها فرحاً جنونياً . لم تكن كلبة من سلالة نبيلة ، فهي ملطخة بعدة ألوان ، ورثتها من طيش اسلافها البناديق واختلاطهم ، لكنها كانت مرتبطة بسيدتها بولاء وقور . كانوا ثلاثة يبدون فوق الدرجة النارية وكأنهم مشهد مسل من مشاهد الكرنفال : ايرين بفساتينها الفضفاضة وشالاتها وكشاشتها وشعرها الطويل المفلت للريح ، والكلبة في الوسط ، وفرانسيسكو الذي يحافظ على توازن سلة الطعام وهو يقود الدرجة .

كان الدخول سهلاً إلى تلك الحديقة الطبيعية الهائلة ، المغروسة في وسط المدينة ، لكن اناساً قليلين كانوا يرتدونها ، وكان هناك كثيرون لا علم لهم بوجودها . كان فرانسيسكو يشعر انه سيد المكان ، فيستخدمه كلما رغب في تصوير المناظر الطبيعية : تلال بد菊花ة متعطشة للصيف ، وأقنية ذهبية ، وأشجار بلوط بريمة تعشش فيها السنابس في الخريف ، وصمت أغصان جراء مطبق في الشتاء . وأما في الربيع ، فستتيقط الحديقة نابضة ومشعة بألف لون من الخضراء المتنوعة ، ويعنacid من الحشرات بين الزهور ، ويكل جداولها الحصوية ، وجذورها المتسلقة ونسغها الذي يروي أوردة الطبيعة الخفيفة . كانوا يجتازان جسراً فوق الساقية ويدأن الصعود في طريق متعرج تحيط به جنائن مزروعة بأصناف غريبة . وكلما

أوغلا في الصعود تشابكت الأشجار أكثر واحت الدور وبدأت تظهر أشجار الحور الناعمة وهي تمتليء بأول أوراق السنة، وأشجار الصنوبر دائم الخضرة، واليوكالبتوس النحيلة السامة، وأشجار الزان الحمراء. كان حر الظهيرة يبعثر ندى الصباح فيغمـر الأرض ضباب خفيف يحجب المشهد. وعند القمة يتباهمـا احساسـاً بأنـهما الوحـيدان اللذـان يسكنـان هـذا المـكان المسـحـور. كانـا يـعرفـان أركـاناً خـفـية هـنـاك، ويـتـقـنـان اختـيـار الأمـاـكـنـ يـتأـمـلـان مـنـها المـدـيـنـةـ الـرابـصـةـ تـحـتـ أـقـدـامـهـاـ. وـفـي بـعـضـ الـأـحـيـانـ، عـنـدـماـ تـشـتـدـ كـثـافـةـ الضـبـابـ فـيـ الأـسـفـلـ، وـتـضـيـعـ قـاعـدةـ الجـبـلـ فـيـ زـبـدـ ثـابـتـ، يـسـطـعـيـعـانـ اـنـ يـتـخـيـلـاـ إـنـهـاـ فـيـ جـزـيرـةـ مـحـاطـةـ بـالـطـحـينـ. أـمـاـ فـيـ الـأـيـامـ الـمـشـرـقـةـ فـانـهـاـ يـتأـمـلـانـ شـرـيطـ حـرـكةـ المـرـوـرـ الفـضـيـ المـتـصـلـ، وـتـصـلـهـاـ ضـجـجـهـاـ مـثـلـ دـوـيـ سـيـلـ بـعـيدـ. وـفـيـ بـعـضـ الـأـمـاـكـنـ كـانـتـ الـأـورـاقـ وـارـفةـ وـشـدـيـدـةـ التـشـابـكـ، وـكـانـ الشـذـىـ النـبـاتـ كـثـيـراـ إـلـىـ حدـ اـصـابـتـهـاـ بـنـوعـ مـنـ النـشـوـةـ الـمـشـوـشـةـ. كـلـاـهـاـ كـانـ يـخـفـيـ أـمـرـ هـذـهـ الـهـرـوـيـاتـ إـلـىـ الجـبـلـ كـسـرـثـيـنـ. وـكـانـاـ يـمـتـعـانـ عـنـ الـحـدـيـثـ عـنـهـاـ دونـ أيـ اـنـفـاقـ مـسـبـقـ بـيـنـهـاـ لـيـحـفـظـاـ بـحـمـيمـيـتـهـاـ.

لـدـىـ خـرـوجـهـاـ مـنـ مـسـتـوـدـعـ الجـثـثـ، فـكـرـ فـرـانـشـيـسـكـوـ وـانـ خـضـرـةـ الغـابـةـ الـكـثـيـفـةـ، وـرـطـوبـةـ الـأـرـضـ وـشـذـىـ الدـبـالـ هيـ وـحدـهاـ الـقـادـرـةـ عـلـىـ بـعـثـ العـزـاءـ فـيـ نـفـسـ رـفـيقـهـ وـجـعـلـهـاـ تـنسـيـ اـولـثـكـ الـمـوتـيـ. قـادـهـاـ إـلـىـ الـقـمـةـ وـبـحـثـ عـنـ رـكـنـ مـنـعـزـلـ وـظـلـيلـ. جـلـسـاـ تـحـتـ صـفـصـافـةـ، قـرـيبـاـ مـنـ السـاقـيـةـ الـتـيـ تـنـحـدـرـ مـتـوـاـثـةـ بـيـنـ الـحـجـارـةـ. كـانـتـ فـرـوعـ الـشـجـرـةـ الصـغـيـرـةـ تـسـقـطـ حـوـلـهـاـ مـكـوـنـةـ خـصـاـ مـنـ الـأـغـصـانـ. بـقـيـاـ صـامـتـيـنـ وـهـمـاـ يـسـتـنـدـانـ إـلـىـ الجـذـعـ ذـيـ الـعـيـقـدـ، دـونـ أـنـ يـلـمـسـ أحـدـهـاـ الـآخـرـ، لـكـنـهـاـ كـانـاـ قـرـيبـيـنـ فـيـ اـنـفـعـالـتـهـاـ حـتـىـ لـيـدـوـانـ وـكـانـهـاـ يـسـكـنـانـ بـطـنـاـ وـاحـدـاـ. كـانـاـ مـشـبـعـيـنـ بـالـفـاجـعـةـ، وـكـانـ كـلـ مـنـهـاـ غـارـقـ فـيـ أـفـكـارـهـ، يـشـعـرـ بـالـسـلـوـيـ فـيـ قـرـبـ الـآخـرـ مـنـهـ. وـأـعـادـهـاـ مـرـوـرـ السـاعـاتـ، وـنـسـيـمـ الـجـنـوبـ، وـخـرـيرـ الـمـاءـ، وـزـقـرـقـةـ الـعـصـافـيرـ الـصـفـرـاءـ وـشـذـىـ الـأـرـضـ إـلـىـ الـاحـسـاسـ بـالـوـاقـعـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ. وـأـخـيرـاـ قـالـتـ اـيـرـيـنـ:

- علينا أن نرجع إلى المجلة.

- يجب أن نرجع.

لأنها لم يتحركا. التقطت هي بعض الأعشاب ورفعتها إلى فمها، ومضغتها لتمتص رحيقها، ثم التفت لتنتظر إلى صديقها، ففاص هو في حدقتيها الضبابيتين. وبلا تفكير، جذبها فرانثيسكو إليه وبحث عن فمها. كانت قبلة عفيفة، فاترة، وقصيرة، ولكن كان لها رغم ذلك أكثر هزة أرضية على حواسها. أحس كل منها ببشرة الآخر التي لم يعرفها من قبل بهذه الدقة وعن هذا القرب، وبضغط أيديها وحيمية ملسمها المشتاق منذ بدء العصور. اعتراها دفء نابض في العظام، في الشريانين، في الروح؛ شيء ما كانا يعرفانه أو أنها نسياه تماماً، لأن ذاكرة اللحم هشة. اختفى كل شيء من حولها ولم يعيَا سوى وجود شفاهها الملتحمة وهي تأخذ وتعطي. الحقيقة أنها لم تكن تكون قبلة، كانت إيماء تواصل متظر ومرغوب، ولكنها كانا واثقين من أن هذه القبلة هي الوحيدة التي يستطيعان أن يتذكراها حتى آخر أيامها، وإنها الوحيدة التي ستترك، بين جميع المداعبات، أثراً لا يمحى في أشواطها. أدركوا أنها سيذكران بدقة، ولسنوات طويلة، تلك الملمسة الرطبة والدسمة بين شفاهها، ورائحة العشب الطازج وأحساس القلق في روحيهما. لقد دامت تلك القبلة ما تدومه تهيبة. وحين فتح فرانثيسكو عينيه، كانت الشابة تقف مطلة على الهاوية وذراعها متقطاعان على صدرها. كلاماً كان يتنفس تنفساً هائجاً ومتقدداً، وكلاماً كان غارقاً في مكانه وزمانه الخاصين. لم يتحرك فرانثيسكو من مكانه، متأثراً بعاطفة جديدة ومطلقة نحو هذه المرأة التي ارتبطت بمصيره إلى الأبد. بدا له انه سمع نحيباً خافتاً وأدرك الصراع الدائر في قلب ايرين: حب، أخلاص، شكوك. تردد بين رغبته في احتضانها وخشيته من ممارسة الضغط على نوایاها. وانقضت لحظات من الصمت وهما على هذا الحال. ثم التفت ايرين، واقتربت ببطء لتجثوا إلى جانبه. أحاط خصرها وشم عطر بلوزتها وآيات جسدها العميقه.

- لقد انتظري غوستافو طوال حياته. وسأتزوج منه.

فهمس فرانثيسكو:
- لا أعتقد.

خفت حدة توترهما شيئاً فشيئاً، وأمسكت هي برأس صديقها القاتم بين يديها وتأملته. ابتسما متخففين، سعيدين، مرتعبين، وواثقين من أنها لن يخالوا الأقدام على مغامرة عابرة لأنها خلقاليتتقاسما الحياة كلها ول يعرفا معًا جسارة تبادل الحب إلى الأبد.

كان المساء يذوي وحضره الخديقة تحول إلى القتامة. إنها ساعة الرجوع. نزلا كهبة ريح فوق الدراجة النارية. انرؤيا الجثث الضبابية لن تمحى من روحيهما أبداً، لكنهما في هذه اللحظة كانا يشعران بالسعادة.

لم يفارقهما أوار هذه القبلة لأيام عديدة، وملا لياليهما بأشباح رقيقة، مختلفاً على بشرة كل منها ذكرى الآخر مثل حرق. ان بهجة ذلك اللقاء كانت تحملهما خفيفين في الشارع، وتدفعهما إلى الضحك دون سبب ظاهر، وتوقعهما من أحلامهما فجأة، فيلمس أحدهما شفتيه بأطراف أصابعه ويذكر شكل فم الآخر بدقة. كانت ايرين تفكك بغوستافو وبالحائقـة الجديدة التي اطلعت عليها مؤخراً. وكانت تشك انه يشارك في ممارسة السلطة مثل أي ضابط آخر في القوات المسلحة، وان له حياته السرية التي لا يشاطرها إياها على الاطلاق. صارت ترى كائنين مختلفين في ذلك الجسد الرياضي الذي تعرفه حتى المعرفة. فأحسست لأول مرة في حياتها بالخوف منه وتعنت ألا يعود أبداً.

★ ★ ★

شنق خابير نفسه يوم الخميس. كان قد خرج مساء ذلك اليوم للبحث عن عمل كعادته كل يوم، ولم يرجع. أحسـت زوجته بمثول الفجيعة في وقت مبكر، أحسـت بها قبل أن يساورها القلق بوقت طويـل. وحين خيم الليل، وقفت تنتظره عند عتبة الباب وعيناهـا على الشارع. حيثـنـد صار هاجـس المأسـاة لـديـها لا يـطـاقـ، فـتناولـتـ الـهـاتـفـ وـاتـصـلـتـ بـحـمـيـهاـ وـبـكـلـ مـنـ تـعـرـفـهـ مـنـ الـأـصـدـقاءـ،ـ لـكـنـهاـ لـمـ تـحـصـلـ عـلـىـ أـيـ خـبـرـ عـنـ زـوـجـهـاـ.ـ وـفـيـماـ هـيـ تـرـضـدـ الطـلـالـ خـلالـ زـمـنـ بـداـهـاـ لـاـ نـهـائـاـ،ـ وـتـسـتـحـضـرـهـ إـلـىـ ذـاـكـرـتـهـاـ،ـ دـاهـمـهـاـ حـظـرـ التـجـولـ،ـ وـمضـتـ أـشـدـ السـاعـاتـ ظـلـمةـ

حتى رأت بزوج فجريوم الجمعة . لم يكن الأطفال قد استيقظوا بعد عندما توقفت سيارة دورية للشرطة أمام باب البيت . كانوا قد وجدوا خايبير ليال معلقاً على شجرة في حديقة الأطفال . لم يكن قد تحدث عن الانتحار مطلقاً ، ولم يودع أحداً ، كما أنه لم يترك ملاحظة أخيرة ، ومع ذلك فقد عرفت دون أي شك انه قد انتحر ، وفهمت أخيراً معنى عقد الحبل التي كان يربطها وحملها دون توقف .

تولى فرانثيسكو أمر الجثة ومسؤولية اجراءات جنازة أخيه . وفيما هو ينجز اجراءات الموت البير وقراطية المتعة ، كان يحمل في ذاكرته صورة خايبير كما ظهر لعيشه فوق طاولة المركز الطبي ، مستكيناً تحت الأنوار الجيلدية المبنعة من المصايب الفلورية . كان يحاول البحث عن أسباب هذه النهاية القاسية والاعتياد على فكرة أن رفيق حياته ، والصديق اللا مشروط والحاامي لم يعد موجوداً في هذا العالم . تذكر تعاليم أبيه : العمل هو مصدر الفخر والاعتزاز . ما كانوا يعرفون البطالة حتى خلال العطلة ، فأيام الأعياد كانت تستغل بعمل مفيد في بيت آل ليال . لقد مرت الأسرة بأوقات عصبية ، لكنهم لم يفكروا أبداً بقبول الصدقات ، حتى ولو جاءت من أسلافها عم بتقديم المساعدة لهم . وعندما رأى خايبير ان السبل أمامه مسدودة ، ولم يبق له سوى القبول بمساعدة أبيه وأخيه ، فضل المضي بصمت . رجع فرانثيسكو في ذكرياته إلى زمن بعيد ، حين كان أخوه الكبير فتى عادلاً مثل أبيه وعاطفةً مثل أمه . لقد ترعرع أبناء ليال الثلاثة متكتفين ومتضامنين ، ثلاثة في مواجهة العالم ، ثلاثة في عصبة واحدة ، مرهوبون في باحة المدرسة لأن كلّاً منهم كان محياً من الاثنين الآخرين ، وأية اساءة لهم يدفع المسيء ثمنها في الحال . كان خوسيه ، أوسطهم ، هو الأقوى والأشد ، لكن خايبير كان أكثر إثارة للخوف بسبب جسارته ومهاراته في توجيه اللükمات . لقد أمضى مراهقة مضطربة إلى أن أحب أول امرأة شدت انتباذه ، فتزوج منها وأخلص لها حتى ليلته الأخيرة . وقد شرف كنيته^(١) : فكان مخلصاً لزوجته ، ولاسرته ولاصدقائه . كان يجب عمله كبيولوجي

١ - كنية هي ليال *leal* ، والكلمة تعني : مخلص ، وفي . وهذا يوضع الصورة المجازية للتعبير .

٢ - نيرفانا : الراحة الأبدية عند البوذيين .

ويفكر بالسفر للتعليم، لكن الظروف قادته إلى العمل في مخبر تجاري، حيث وصل خلال سنوات قليلة إلى أعلى المراتب، لأن احساسه بالمسؤولية كان يواكب مخيلة خصبة مكتته من تجاوز أجرًا المشاريع العلمية. لكن هذه الخصائص لم تفده في شيء حين أعد المجلس العسكري قوائم المحظوظين من العمل. فنشاطه في النقابة كان بمثابة وصمة في نظر السلطات الجديدة. لقد راقبوه أول الأمر، ثم عادوه، وفي النهاية طردوه. وحين صار دون عمل، فقد الأمل في الحصول على عمل جديد، بدأ تأكله وانحداره. كان يهيم على وجهه شاحباً وهزلاً في ليالي الأرق ونهرات المذلة. لقد طرق أبواباً كثيرة، وانتظر طويلاً في قاعات الانتظار، وهرع إلى اعلانات الجرائد ولكنه وجد نفسه مثقلًا باليأس في نهاية الطريق. وفي بطالته راح يفقد هويته شيئاً فشيئاً. كان مستعداً للقبول بأى عرض للعمل، حتى ولو كان الأجر زهيداً لأن حاجته للاحساس بأنه ذو فائدة كانت ملحة. فالبطالة جعلت منه كائناً هامشياً، مجھولاً، ينكره الجميع لأنّه غير متّجّ، وذاك هو مقياس القيمة الإنسانية في المجتمع الذي كان عليه أن يعيش فيه. لقد تحلى خلال الشهور الأخيرة عن أحلامه، ونسى أهدافه واعتبر نفسه منبوذاً. لم يكن أولاده يفهمون سبب تعكر مزاجه وكآبته الدائمة، فهم يبحثون كذلك عن عمل في غسل السيارات، أو حمل الأكياس في السوق أو القيام بأى عمل لتخفيف العبء عن الميزانية العائلية. ويوم وضع ابنه الأصغر على الطاولة قطعاً نقدية كسبها من مرافقته كلاب الأثرياء للتزهّة في الحديقة، انكمش خابير كحيوان مضروب، ولم يعد ينظر إلى عيني أحد منذ ذلك الحين وغرق في الخيبة. فقد الرغبة في اللبس، وكثيراً ما صار يقضى يومه مستلقياً في السرير، وأصبحت يداه ترتعشان لأنّه بدأ بتعاطي الشراب خفية، شاعراً بالذنب لأنّه ينفق بذلك نقوداً كان البيت في أمس الحاجة إليها. وكان يجهد كل سبت للحضور إلى بيت والديه نظيفاً ومرتبأً كي لا يحمل أسرته مزيداً من الكآبة، لكنه كان عاجزاً عن محوذلك التعبير الحزين من نظرته. وقد ساءت علاقته بزوجته، لأنّ الحب في مثل هذه الظروف يصاب بالانهak. كان بحاجة للمواساة، لكنه كان يترصّد في الوقت ذاته أي تغيير عن

الرثاء حاله كي يرد عليه بغضب . لم تكن زوجته تصدق أول الأمر أنه لا يجد أي عمل شاغر ، ولكن فيما بعد ، حين علمت بأمر آلاف العاطلين عن العمل ، أطبقت فمها وضاعفت ساعات عملها . فأنهك ارهاق هذه الشهور شبابها وجهاها اللذين كانت تكتنزهما باعتبارهما ثروتها الوحيدة . فلم يعد ينفع لها للأسف وقت للحفاظ على ذلك الجمال ، لأنها كانت تركض لا بعاد الجوع عن أولادها واليأس عن زوجها . ولم تتمكن من الحيلولة دون ضياع خابير في متاهة العزلة . لقد لفته اللامبالاة مثل دثار ، وألغت احساسه باللحظة الراهنة ، وفنت قواه وجردته من شجاعته . كان يتصرف كشبع . ولم يعد يحس برجولته مذرأى بيته ينهار ، وأحس بانطفاء الحب في عيني زوجته . وفي لحظة لم تستطع اسرته رصدها مسبقاً لشدة قرها ، انكسرت ارادته نهائياً . انصرف عن الرغبة في الحياة وقرر احتضان موته .

لقد صدمت المأساة آل ليال مثل ضربة فأس . فشاخت هيلدا فجأة ، وكذلك البروفسور ، وسيطر عليهما الصمت المطبق . حتى العصافير الصاحبة صمتت في الفناء كما ييلدو . ورغم ادانة الكنيسة الكاثوليكية الصارمة للمتحرين ، إلا أن خوسيه أقام قداساً من أجل راحة روح أخيه . ووضع البروفسور قدميه للمرة الثانية في معبد . فعل ذلك في المرة الأولى يوم زواجه ، وكانت السعادة تغمره . أما حالته في هذه المرة فكانت مختلفة تماماً . بقي واقفاً طوال مراسم قداس الجنائز ، يداه متقطعتان وشفتاه مطبقتان في خط نحيل ، تُسکره الكآبة . وكانت أمرأته تصلي بخشوع ، راضية بموت ابنها على أنه اختبار آخر من القدر .

حضرت ايりين الجنائز ، وكانت مذهولة لا تفهم سبباً لكل هذه التعاسة . بقية ساكنة إلى جانب فرانثيسكو ، يهيمن عليها كرب هذه الأسرة التي أحبتها كأنها اسرتها . كانت تعرفهم سعداء ، متلهلين ، باسمين ، جاهلة انهم يعيشون الألم بسرية ووقار . لقد كان بمقدور البروفسور ليال ، ربما بسبب أصله القشتالي ، ان يعبر عن جميع الانفعالات باستثناء تلك التي تمزق روحه . وكان من عادته ان يقول : الرجال لا ي يكون إلا بدافع الحب . أما عينا هيلدا فكانتا تغزو رقان

بالدموع عند أي اندفاع: الحنان، الفرح، الحنين. أما الألم فكان يصلبها كالزجاج. وكانت الدموع قليلة جداً في مأتم ابنها البكر.

دفنه في قطعة أرض صغيرة، اشتراها في اللحظة الأخيرة. وبدت الطقوس مرتجلة ومشوشاً، لأنه لم يخطر ببالهم حتى ذلك اليوم التفكير بمتطلبات الموت. ومثل جميع محبي الحياة، كانوا يشعرون أنهم مخلدون.

- لن نرجع إلى إسبانيا يا امرأة. - قرر البروفسور ليال، فيما كانت آخر رفوش التراب تهال على القبر. وقبل للمرة الأولى منذ أربعين سنة باستئنافه إلى هذه الأرض.

عادت أرملة خابير من المقبرة إلى بيتها، فجمعت أمتعتها القليلة في علبة من الكرتون، وأمسكت بأيدي أولادها وودعت الأسرة. ستنذهب إلى الجنوب، إلى المقاطعة التي ولدت فيها، لأن الحياة في ذلك المكان أقل قسوة ويمكنها الاعتماد هناك على مساعدة اختوها. كما أنها لم تكن راغبة في أن يكبر أولادها في ظل الأب الغائب. ودع آل ليال كتهم وأحفادهم، ورافقوهم إلى المحطة خامدي العزيمة، ورأوهم يصعدون إلى القطار ويبعدون دون أن يصدقوا أنهم سيفقدون أولئك الأطفال الذين شاركوا في تربيتهم. لم يكونوا يأبهون بأية ثروة مادية، وكانت ثقتهم في المستقبل موضوعة في الأسرة، ولم يتتصروا يوماً أنهم سيهربون بعيداً عن ذويهم.

رجع البروفسور من المحطة إلى البيت، ودون أن يخلع السترة وربطة العنق السوداء، جلس على كرسي تحت شجرة الكرز في الفناء وعيناه تائهتان. كان يحمل بين يديه مسطرة الحسابات القديمة، وهي الشيء الوحيد الذي نجا من كارثة الحرب وأحضر إلى أميركا. كان يحتفظ بها دوماً على الكوميديينو قريباً منه، وكان يسمع للأطفال باللعب بها عندما يريد مكافأتهم فقط. وقد تعلم أولاده الثلاثة طريقة استخدامها بجعل أجزائها تنزلق لرسم الأرقام، ورفض استبدالها حين تجاوزتها الأجهزة الإلكترونية المتطورة. كانت عبارة عن أنبوب تلسكوبي من البرونز، نقشت الأرقام الدقيقة على سطحها، وقد صنعتها صناع

القرن الماضي المهرة. بقي البروفسور ليال جالساً تحت الشجرة لساعات عديدة، يتأمل جدران الطوب التي بناتها بنفسه لا يوأء ابنه خابير. وفي تلك الليلة قاده فرانثيسكوبا يشبه الإكراه إلى سريره، لكنه لم يستطع اجباره على تناول الطعام. وفي اليوم التالي فعل الشيء نفسه. لكن هيلدا مسحت دموعها في اليوم الثالث وجمعت الصلابة الحاضرة دوماً في أعماقها، واستعدت للنضال مرة أخرى من أجل اسرتها.

قالت:

- السيء في أبيك يا فرانثيسكو انه لا يؤمن بالروح. لهذا يشعر بأنه فقد خابير.

ومن خلال نافذة المطبخ كان بإمكانها رؤية البروفسور على كرسيه وهو يدير مسطرة الحسابات. تنهدت هيلدا، ووضعت الطعام في الثلاجة دون أن تذوقه، وحملت كرسيًا آخر إلى الفناء وجلست تحت شجرة الكرز واضعة يديها فوق تنورتها، دون أن تستغلهما بحياكة ولا بخياطة للمرة الأولى منذ زمن لا ترقى إليه الذاكرة. وبقيت ثابتة على تلك الحال لساعات. عند الغروب توسل اليها فرانثيسكو ليأكل شيئاً، لكنه لم يحصل منها على رد. وبصعوبة كبيرة حللاها إلى حجرة نومهما ووضعهما في السرير، حيث بقيا صامتين وأعينهما مفتوحة ومكدرة، كشيخين معتوهين. قبل وجنتيهما، ثم أطفأ النور متمنياً من أعماق روحه أن يناما نوماً عميقاً يهدى من حزنها. ولدى استيقاظه في اليوم التالي رأها يجلسان تحت الشجرة في الوضع الذي كانا عليه في اليوم السابق، صامتين، بشيابهما المجددة، ودون أن يقتربا أو يأكلا. وكان عليه أن يستجمع كل معلوماته ليراقب شدة المفرطة التي تعرضا لها. فجلس يرصد هما بصر، متباهاً لها الوقت ليصلوا إلى قراره أحزانهما.

عند الظهيرة رفع البروفسور ليال عينيه وتطلع إلى هيلدا وسألها بصوت هشمته أربعة أيام من الصمت:
ـ ما الذي أصابك يا امرأة؟

- مثلما أصابك أنت.

وفهم البروفسور الأمر. لقد كان يعرفها حق المعرفة، وعلم أنها ستنسلل
للموت بنفس القدر الذي يفعله هو، لأنها لن تسمع له بالذهب وحيداً بعد أن
أحبته كل هذه السنين الطويلة.

فقال وهو ينهض بمشقة ويمد يده إليها:

- حسن.

دخلـا إلىـ الـبيـت عـلـى مـهـلـ، مـسـتـدـيـن إـلـى بـعـضـهـاـ. سـخـنـ فـرـانـشـيسـكـوـ
الـحسـاءـ، وـعادـت الـحـيـاة إـلـى مـسـارـهـاـ.

★ ★ ★

أخذـت ايـرـينـ بـيلـترـانـ، المـسـتـبـعدـةـ منـ مـأـتمـ آلـ ليـالـ، سيـارـةـ أـمـهـاـ وـمضـتـ
وـحـيـدةـ إـلـى لوـسـ رـيـسـكـوسـ، مـصـمـمـةـ عـلـى الـبـحـث عـنـ اـيـفـانـخـيلـيـنـاـ بـمـفـرـدـهـاـ. لـقـدـ
وـعـدـتـ دـيـغـنـاـ بـمـسـاعـدـتـهـاـ فـيـ التـقـصـيـ وـلـمـ تـكـنـ تـرـيـدـ اـنـ تـرـكـ اـنـطـبـاعـاـ بـالـاسـتـخـفـافـ.
كـانـتـ مـحـطـهـاـ الـأـولـىـ هيـ بـيـتـ آلـ رـانـكـيلـيوـ، حـيـثـ قـالـتـ لهاـ الـأـمـ بـصـبـرـ مـنـ اـحـتـمـلـتـ
انـكـسـارـاتـ كـثـيرـةـ:

- دـعـكـ مـنـ الـبـحـث عـنـهاـ يـاـ آـنـسـةـ. لـقـدـ اـبـتـلـعـتـهـاـ الـأـرـضـ.

لـكـنـ ايـرـينـ كـانـتـ مـصـمـمـةـ حـتـىـ عـلـىـ قـلـبـ الـأـرـضـ إـذـاـ اـقـضـىـ الـأـمـرـ،
لـلـعـثـورـ عـلـىـ الصـبـيـةـ. فـيـهاـ بـعـدـ، وـحـيـنـ كـانـتـ تـعـودـ بـذـاكـرـتـهاـ إـلـىـ هـذـهـ الـأـيـامـ، كـانـتـ
تـسـأـلـ عـمـاـ دـفـعـهـاـ إـلـىـ مـنـطـقـةـ الـظـلـالـ. لـقـدـ شـعـرـتـ مـنـذـ الـبـدـءـ أـنـ فـيـ يـدـهاـ طـرـفـ
خـيـطـ، وـانـهاـ إـذـاـ مـاـ شـدـتـهـ فـسـتـنـفـلتـ لـفـافـةـ لـاـ نـهـاـيـةـ لهاـ مـنـ الـفـوـاجـعـ. أـحـسـتـ اـنـ هـذـهـ
الـقـدـيـسـةـ ذـاتـ الـمـعـجـزـاتـ الـمـرـيـةـ هيـ الـحدـ بـيـنـ عـالـمـهـاـ الـعـادـيـ وـبـيـنـ مـنـطـقـةـ الـظـلـالـ
الـتـيـ لـمـ تـطـأـهـاـ قـدـمـاهـاـ مـنـ قـبـلـ. وـاستـتـجـتـ وـهـيـ تـفـكـرـ بـذـلـكـ، اـنـ مـاـ يـدـفـعـهـاـ لـيـسـ
مـجـدـ فـضـولـ طـبـعـهـاـ وـمـهـتـمـهـاـ فـقـطـ، وـانـهاـ شـيـءـ كـالـدـوـارـ. لـقـدـ أـطـلـتـ عـلـىـ بـثـرـ لـاـ قـرـارـ
هـاـ وـلـمـ تـسـتـطـعـ مـقاـومـةـ اـغـرـاءـ الـهـاوـيـةـ.

استقبلها الملائم خوان دي ديوس راميريث في مكتبه دون تأخير. ويداها أقل قوة مما كان عليه حين عرفته يوم الأحد المنبك ذاك، في بيت آل رانكيليو، وتبينت أن حجم الرجل يعتمد على الموقف الذي هو فيه. أبدى راميريث شيئاً من الكياسة نحوها. كان يرتدي سترة مفتوحة، ورأسه حاسر، ولم يكن يحمل سلاحاً، وكانت يداه متflexتين، حمروين، وملئتين بالقرح التي تصيب الفقراء. من الصعب على شخص رأى ايرين لا يتعرف عليها، فبمجرد رؤية شعرها المشعر وملابسها الغربية ولومرة واحدة، يمكن لأي كان ان يتذكرها، وهذا لم تحاول خداعه وأبدت اهتماماً بايفانخيلينا رانكيليو دون ديجاجات.

قال الضابط :

- لقد جرى اعتقادها لاستجواب روتيني قصير. قضت تلك الليلة هنا وذهبت في اليوم التالي باكراً.

مسح راميريث العرق عن جبهته. كانت حجرة مكتبه حارة.

- وهل اخرجتموها إلى الشارع دون ملابس؟

- كان مع المواطن رانكيليو حذاء وعباءة.

- لقد اقتادوها من سريرها ليلاً. وهي دون سن الرشد، فلماذا لم تعيدوها إلى أبيها؟

فرد الملائم عليها بجفاء :

- لست مطالباً بمناقشة أساليب الشرطة معك.

- هل تفضل أن تفعل ذلك مع خطبي، الكابتن في الجيش غوستافو مورانتي؟

- ما الذي تتصورينه؟ أنا لا أقدم كشفاً بأعمالي إلا أمام قائد المعاشر. لكن راميريث تردد، فكل ما هو بين جلد وعظامه كان متشرباً بمبدأ الأخوة العسكرية؛ وفوق الخلافات بين الوحدات العسكرية، هناك مصلحة الوطن المقدسة ومصلحة الزي العسكري الذي لا يقل قدسيّة؛ وعليهم في كافة الوحدات أن يحموا أنفسهم من سلطان الرياء الذي ينمو ويتکاثر في أحشاء

الشعب بالذات. لهذا لا بد لهم من الارتكاب بالمدنين دوماً كاجراء احتياطي ، والاخلاص لرفاق السلاح كاجراء استراتيجي . لا بد للقوات المسلحة من أن تكون كتلة متهاصة ، هذا ما قالوه لهآلاف المرات . وما أثر عليه أيضاً رقي طبقة الفتاة الاجتماعية الظاهر ، لأنه كان معتمداً على احترام سعادتي المال والسلطة ، والفتاة تملك الآنتين ما دامت تتجرأ على استجوابه بهذه السهولة ، وتعامله كما لو كان خادمها . بحث في سجل المناوبة وأراها إيه . كان مقيداً فيه دخول أي فانخيلينا رانكيليو سانتشيث إلى الشكنة ، فتاة في الخامسة عشرة ، اعتقلت لدعوتها إلى اجتماع غير مرخص في بيت اسرتها ولا لاحقها الأذى الجسدي بشخص الملائم خوان دي ديوس راميريث . وفي الهاشم ملاحظة تشير إلى أنهم قرروا إلغاء استجوابها بسبب نوبة بكاء أصابتها . وبيلي ذلك توقيع العريف المناوب اغناسيو برافو .

قال راميريث :

- اعتقد أنها ذهبت إلى العاصمة . فهي تريد العمل كموسم ، مثل اختها الكجرى .

- وهي بلا نقود وشبه عارية أيها الملائم ؟ ألا ترى الأمر غريباً بعض الشيء ؟
- هذه الحشرة كانت نصف مخولة .

- أيمكنني التحدث إلى أخيها براديليو رانكيليو ؟
- لا . لقد نُقل إلى موقع آخر .

- أين ؟

- معلومات سرية . إننا في حالة حرب داخلية .

ادركت أنها لن تحصل على مزيد من المعلومات في هذا المكان ، ولأن الوقت كان ما يزال باكراً ، فقد مضت إلى القرية لتقوم بجولة هناك وفي نيتها تبادل الحديث مع أحد . كانت تريد التقصي عن رأي أهل القرية بالعسكرين عموماً وبالملازم راميريث بوجه خاص ، لكن الناس كانوا يديرون وجوههم حين يسمعون تلك الأسئلة ويتبعون بأسرع ما يمكن دون أن ينطقو بكلمة واحدة .

لقد فرضت سنوات الحكم الاستبدادي على الناس التزام جانب المذركفأعده للاستمرار في الحياة . وفيما كانت ايرين تنتظر ان ينتهي الميكانيكي من اصلاح اطار السيارة ، جلست في استراحة قريبة من الساحة . كان الربيع يتبدى في طiran الزرازير الزفافى ، وفي انتفاح الدجاجات الفخورة برفقة بطانتها من الصيصان ، وفي ارتعاش الصبایا في فساتينهن القطنية الرقيقة . دخلت هرة حبلى إلى الاستراحة بوقار وقبعت تحت طاولتها .

لقد أحست ايرين في بعض مراحل حياتها بان قوة الحدس تداهمها أحياناً . وكان يخيل اليها أنها تسمع علامات المستقبل وترى ان سلطة الذهن قادرة أحياناً على فرض وقوع بعض الأحداث . وبهذا المنطق فسرت ظهور الرقيب فاوستينو ريفيرا في المكان الذي اختارته لتناول الطعام فيه . وحين روت ذلك لفرانشيسكو فيما بعد ، طرح نظرية أبسط : فذلك المكان هو المطعم الوحيد في لوس ريسكروس والرقيب كان يشعر بالظلم في تلك الساعة دون شك .

رأت ايرين الرقيب وهو يدخل متعرقاً ، ويدنو من الكونتور ليطلب زجاجة بيرة ، فتعرفت في الحال على وجهه الريفي ، بوجنتيه العاليتين ، وعينيه الزائغتين ، وشعره القاسي ، وأسنانه الكبيرة المناسبة . كان يرتدي الزي العسكري ويحمل قبعة الخدمة في يده . تذكرت المعلومات القليلة التي ذكرتها أمامها عنه ديجنا رانكيليو وقررت استخدامها لمصلحتها . فبادرته قائلة :

- أنت الرقيب ريفيرا؟

- رهن اشارتك .

- ابن مانويل ريفيرا ، ذي الشفة المشرومة؟

- هو ذاته ، في خدمتك .

اعتباراً من هنا اخذ الحديث مساره السهل . دعته الشابة إلى تناول الشراب على طاولتها . وما ان استقر إلى جانبيها وفي يده زجاجة ثانية من البيرة ، حتى جعلت من نفسها غنيمة له . ومع الكأس الثالثة بدا بوضوح أن الحارس لا يتحمل الكحول ، فقدت الحديث في السبيل التي تهمها . بدأت باستئصاله قائلة له

انه قد ولد ليحتل موقعاً قيادياً، وانه بامكان أي شخص أن يلاحظ ذلك، وإنها هي نفسها انتبهت إلى الأمر في بيت آل رانكيليو، حين سيطر على الموقف بهيبة القائد وبرودة أعصابه، وانه نشيط وكفاء، وليس كالملازم راميريث.

- هل ملازمك هذا متهرور دائمًا هكذا؟ تصور كيف أخذ باطلاق النار في كل اتجاه! لقد خفت كثيراً . . .

فرد الرقيب:

- لم يكن هكذا في السابق. لم يكن رجلاً سيناً، أو كذلك.

كان يعرفه كما يعرف كف يده، لأنه يعمل تحت أمرته منذ سنوات. لقد كان راميريث، لدى قدومه من كلية الضباط، يجمع فضائل العسكري الجيد: فهو مهذب، وصارم، وخلص، وكان يحفظ الأنظمة واللوائح عن ظهر قلب، ولا يسمح بوقوع الأخطاء. كان يتفحص طلاء أحذية الجنود ومعانها، ويشد أزرارهم ليتأكد من حسن ثباتها، ويطالع مرؤوسيه بأقصى الجدية أثناء الخدمة. وكان مهوساً بالنظافة، فهو يشرف شخصياً على مراقبة نظافة المراحيض، ويجمع الرجال عراة مرة كل أسبوع ليكشف عن الأمراض التناسلية والقمل. كان يتفحص أعضاءهم السرية بعدسة مكبرة، وكان يفرض على المصاين علاجاً قاسياً واهانات لا حصر لها.

- لكنه لم يكن يفعل ذلك بداعف شريرة يا آنسة، وإنما ليعلمنا كيف نصير بشراً. وأظن أن ملازمي كان طيب القلب في ذلك الحين.

★ ★ ★

تذكر ريفيرا تنفيذ أول اعدام بالرصاص وكأنه يراه أمامه الآن. حدث ذلك منذ خمس سنوات، بعد أيام قليلة من الانقلاب العسكري. كان الجوما يزال بارداً حيئاً، وكان المطر قد هطل في تلك الليلة دون توقف وكأنه شلال متصل نزل من السماء لغسل الدنيا، وخلف الشكنة نظيفة، تعيق برائحة الطحالب

والرطوبة. وعند الفجر توقف المطر، لكن المشهد بدا مقرضاً بتأثير ذكرى ذلك الوابل. وبين الأحجار كانت تلمع برك الماء مثل قطع من زجاج. كان فضيل الاعدام يقف في طرف الفتاء، يتقدمه خطوطين الملازم رامي ريث الذي كان يedo شديد الشحوب. جاؤه والمعتقل وسط حراسه، وكانوا يستدلونه من ذراعيه، لأنه لم يكن قادرأ على الاستناد على قدميه. لم يتتبه ريفيرا أول الأمر إلى حالة المعتقل المتردية، وظنه خافقاً، كغيره من يمارسون التمرد لاحق الضرب بالوطن، ثم يغمى عليهم حين تأتي اللحظة التي سيدفعون فيها ثمن ذنبهم. لكنه أمعن النظر في الحال ورأى أن ذلك المعتقل هو من سحقوا ساقيه. كان عليهم أن يعرفوه عن الأرض ليحلوا دون تعثر قدميه المترهلتين بالأرض المصوقة. نظر فاوستينوريفيرا إلى رئيسه وأدرك ما يحيط في ذهنه. فقد كانوا يتبدلان الحديث في بعض ليالي المساوية كندين، حديث رجل لرجل، متباوزين الرتب للبحث في أسباب الانقلاب العسكري ونتائجها. كانت البلاد فريسة يتقاسمها السياسيون المعادون للوطن، الذين أضعفوا الأمة وحوّلوا الوطن إلى صيد سهل للعدو الخارجي ، هذا ما كان يقوله الملازم رامي ريث، ويضيف : ان الواجب الأول للجندي هو الحفاظ على الأمن ، وهذا استولى العسكريون على السلطة ليعودوا إلى الوطن منعه ، وليكتسوا في طريقهم أعداءهم الداخليين . كان ريفيرا يكره التعذيب ، ويعتبره أسوأ ما في هذه الحرب التي أغرقوه فيها ، ثم أن التعذيب لا يشكل جزءاً من مهمته ، ولم يعلمه إياه ، وهو يجعله يتقيناً أحشاءه . فتوجيه ركلتين إلى جانح عادي كجزء من التحقيق الروتيني ، أمر مختلف عن تعذيب المعتقل تعذيباً منهجاً ، لماذا يصمت هؤلاء النساء؟ لماذا لا يتكلمون منذ الاستجواب الأول ويوفرون كل هذه الآلام التي لا جدوى منها؟ فجميعهم يعترفون في نهاية الأمر ، أو أنهم يموتون لأن الاعدام بالرصاص في انتظارهم .

- فضيل ! انتبه . . . !

فهمس إليه فاوستينوريفيرا ، وكان حينئذ برتبة عريف أول :

- سيدى الملازم .

- ضع المعتقل أمام الجدار أيها العريف!
- لكنه لا يستطيع الوقوف يا سيدي الملائم.
- فليجلس إذن!
- أين سيجلس يا سيدي الملائم؟
- فانكسير صوته :
- أحضروا كرسيًّا، اللعنة.

التفت فاوستينو إلى الرجل الواقف إلى يساره، وكرر اصدار الأمر، فمضى الآخر لاحضار الكرسي . لماذا لا يطروحونه على الأرض ويقتلونه مثل كلب قبل أن يتضح الفجر ونرى وجوه بعضنا بعضاً؟ لماذا كل هذا التأخير؟ فكر بذلك قلقاً لأن الضوء كان يزداد في الفناء لحظة بعد أخرى . رفع المعتقل بصصره وتطلع اليهم واحداً واحداً بعيدين يملؤها ذهول الاحتضار، وتوقف عند فاوستينو. لا شك انه يعرفه . لأنهما لعبا الكرة معاً في الملعب ذات يوم . كان الآخر يقف في برк الماء المتجمدة حاملاً في يديه يندقية تثقل عليه مثل نير، بينما لا يزال هو يتظر هنا . في أثناء ذلك وصل الكرسي وأمر الملائم بأن يقيدوه إلى المسند، لأنه كان يتربّح مثل فزاعة . دنا العريف منه وفي يده منديل . فقال المعتقل :

لا تعصب عيني يا عسكري .
فخفض الآخر رأسه خجلاً متمنياً أن يصدر الضابط أمره في الحال ، وان تنتهي هذه الحرب دفعة واحدة ، وان تسوى الأمور ليتمكن من السير في الشارع
سلام ومن تبادل التحية مع المدنيين .

صرخ الملائم :

سدد! سلا...!

هاهودا يصدر الأمر أخيراً، فكر العريف الأول . وأغمض الذي سيموت عينيه لبرهة ، لكنه فتحهما من جديد ليرى السماء . لم يعد يشعر بالخوف . كان الملائم مرتبكاً . فمذ علم بمسألة الاعدام وهو يمضي شاحباً، يدق في رأسه صوت قدّيم آت من طفولته . ربما هو صوت أحد معلميه أو صوت كاهن الاعتراف في

مدرسة الرهبان: جميع البشر أخوة، لكن هذا غير صحيح، فليس أخاً من يزرع العنف، ثم ان الوطن قبل كل شيء.. وما الآخرون سوى أندال، ان لم نقتلهم قتلونا. هذا ما يقوله الكولونيالات، أما أن تقتل أو تُقتل، هكذا هي الحرب، ولا بد من الاقدام على هذه الأعمال، فشذ بنطالك ولا ترتجف.. لا تفكّر.. لا تخس.. وقبل كل شيء، لا تنظر إلى وجهه، لأنك ان فعلت ذلك خوّزت نفسك.

- نار!

زعزعت رخة الرصاص الماء، وبقي صداها يتربّد في الجو الجليدي. طار عصفور دوريّ مبكر فرعاً. وبدا أن رائحة البارود وصوت الرصاص سيدوّمان إلى الأبد، لكن الصمت ما لبث أن عم ثانية. وفتح الملائم عينيه: كان المعتقل على الكرسي يتطلع إليه بكرباء وهدوء، وعلى بنطاله المجدل يقع دم طازج. لكنه كان حياً ووجه صاف في ضوء الفجر. كان حياً وكان يتظر.

سأل الملائم بصوت خافت:

- ما الذي حدث أيها العريف؟

فرد فاوستينوريفيرا:

- لقد أطلقوا النار على ساقيه يا سيدى الملائم. الشباب من أبناء المنطقة، وهم يعرفون بعضهم بعضاً. كيف يمكنهم أن يقتلوا صديقاً؟
- والآن؟

- الآن جاء دورك يا سيدى الملائم.

فهم الضابط الصامت ذلك، فيما أفراد فصيل الاعدام يتظرون متاملين الندى الذي كان يتبعُّر بين الأحجار. وكان المعتقل بانتظار كذلك في الطرف الآخر من الفناء، وينزف على مهل.

- ألم يخبروك بذلك يا سيدى الملائم؟ الجميع يعرفون الأمر: لا، لم يخبروه.
ففي مدرسة الضباط أعدوه للقتال ضد البلدان المجاورة أو ضد أي ابن عاهرة

يعتدي على التراب الوطني. ودربوه كذلك على مقاومة الاشارة ومطارتهم دون رحمة، وعلى اصطيادهم دون تردد، ليتيح للرجال المحترمين، وللننساء والأطفال أن يسيراً في الشارع مطمئنين. كانت تلك هي مهمته. لكن أحداً لم يقل له إن عليه ان يحطم رجلاً مقيداً ليجبره على الكلام، لم يعلمه شيئاً من هذا، وهما هذا العالم ينقلب رأساً على عقب الأن، وعليه ان يذهب ليطلق رصاصة الرحمة على هذا التعيس الذي لا يشكوا حتى مجرد شكوى. لم يخبره أحد بذلك من قبل.

ربت العريف الأول على ذراع الملازم خفية كيلا يلاحظ أنفراد فضيل

الاعدام تردد قائلهم. وهم:

- المسدس يا سيدي الملازم.

أخرج السلاح من قرابه وسار عبر الفناء. كان صدى وقع جزmetه الأصم على الأرض المرصوفة يرن في جوف الرجال. تقابل الملازم والمعتقل وجهاً لوجه، وكل منها ينظر في عيني الآخر. كانوا في سن واحدة. رفع الضابط ذراعه مسدداً إلى الصدغ وأمسك المسدس بكلتا يديه ليسيطر على ارتعاشته. وكانت السراء الصافية هي آخر ما رأاه المحكوم حين ثبتت الرصاصة رأسه، فغطى الدم وجهه وصدره ولطخ بدلة الضابط النظيفة.

بقي نشيج الملازم في الهواء يموج مع صوت الطلقة، لكن فاوستينوريفيرا وحده هو الذي سمعه.

- تشجع يا سيدي الملازم. يقولون ان هذا الأمر كالحرب. شاق في المرة الأولى، لكن المرة يعتاد عليه بعد ذلك.

- عليك اللعنة أهيا العريف.

وكان العريف حقاً، فمع مرور الأيام والأسابيع صار القتل في سبيل الوطن بالنسبة اليهما أسهل كثيراً من الموت في سبيله.

انتهى الرقيب فاوستينوريفيرا من الكلام ومسح العرق عن عنقه. كان في غيبة النوبة لا يكاد يميز ملامح ايرين بيلتران، لكنه كان قادراً على الاعجاب بانسجام تقاطيعها. نظر إلى ساعته وانتقض بشكل مفاجيء. لقد مضت ساعتان

وهو يكلم هذه المرأة، ولو لا انه سيتأخر عن نوبة خدمته، لحدثها في بعض الأمور الاخرى. فهـي تحسن الاستماع بانتباـه وتهـتم بحـكـاـياتـهـ، ولـيـسـ مـثـلـ اـولـاثـ الـأـنـسـاتـ المـتـجـهـاتـ الـلـوـاتـيـ يـشـمـخـ بـأـنـوـفـهـنـ حـينـ يـُـفـرـغـ الرـجـلـ بـضـعـةـ أـكـوـابـ ماـ بـيـنـ صـدـرـهـ وـظـهـرـهـ. لاـ يـاسـيـدـيـ، اـنـهـ اـمـرـأـ حـقـيقـيـةـ عـلـىـ مـاـ يـيـدـوـ، وـاثـقـةـ مـنـ نـفـسـهـاـ وـفـيـ رـأـسـهـاـ أـفـكـارـ، رـغـمـ اـنـهـ ضـيـلـةـ بـعـضـ الشـيـءـ وـلـيـسـ ذـاتـ نـهـدـيـنـ كـبـيرـيـنـ وـرـدـفـيـنـ جـيـدـيـنـ، وـلـيـسـ فـيـهاـ أـيـ بـرـوزـ مـعـقـولـ يـمـسـكـهـاـ الـرـءـءـ مـنـ هـيـنـ يـجـدـ الجـدـ. قال وهو ينفض بـدـلـتـهـ الـعـسـكـرـيـةـ وـيـنـهـضـ وـاقـفـاـ:

ـ لم يكن ملازمي بالـرـجـلـ السـيـءـ ياـ آـنـسـةـ. لـقـدـ تـبـدـلـ فـيـهاـ بـعـدـ، حـينـ منـحـوـهـ صـلـاحـيـاتـ وـاسـعـةـ وـلـمـ يـعـدـ عـلـيـهـ تـقـدـيمـ حـسـابـ أـمـامـ أـحـدـ.

انتظرت ايـرـينـ إـلـىـ أـنـ دـارـ عـلـىـ عـقـبـيـهـ مـنـصـرـاـ، وـأـوـقـتـ آـلـةـ التـسـجـيلـ الـتـيـ تـخـفـيـهـاـ فـيـ حـقـيـقـيـتـهـاـ عـلـىـ الـكـرـسـيـ. الـقـتـ بـآـخـرـ قـطـعـ الـلـحـمـ إـلـىـ الـقـطـةـ وـهـيـ تـفـكـرـ بـغـوـسـتـافـوـ مـوـرـانـيـ مـتـسـائـلـةـ أـنـ كـانـ خـطـيـيـهـاـ قـدـ اـجـتـازـ فـنـاءـ فـيـ أـحـدـ الـأـيـامـ وـالـسـلـاحـ فـيـ يـدـهـ لـيـطـلـقـ رـصـاصـةـ الرـحـمـةـ عـلـىـ أـحـدـ الـمـعـتـقـلـيـنـ. اـسـبـعـدـتـ هـذـهـ الصـورـ بـيـاسـ،ـ مـحـاـوـلـةـ اـنـ تـذـكـرـ وـجـهـ غـوـسـتـافـوـ الـخـلـيقـ وـعـيـنـيـهـ الزـرـقاـوـيـنـ،ـ فـلـمـ يـرـدـ إـلـىـ ذـهـنـهـ سـوـىـ وـجـهـ فـرـانـشـيـسـكـوـ لـيـالـ وـهـوـ يـنـحـيـ إـلـىـ جـانـبـهـ عـلـىـ طـاـوـلـةـ الـعـمـلـ،ـ وـعـيـنـيـهـ السـوـدـاوـيـنـ الـلـتـيـنـ تـحـمـلـانـ بـرـيقـ الـتـفـهـمـ،ـ وـتـكـشـيـرـ فـمـهـ الـطـفـولـيـةـ حـينـ يـضـحـكـ وـمـلـاـحـهـ الـأـخـرـىـ،ـ الـمـتـوـرـةـ وـالـقـاسـيـةـ،ـ حـينـ يـصـدـمـهـ جـلـاءـ شـرـ الـأـخـرـيـنـ.



كان ملـجـاـ «ـمـشـيـشـةـ الـرـبـ»ـ مـضـاءـ بـأـنـوـارـ قـوـيـةـ،ـ وـكـانـ سـتـائرـ الصـالـاتـ مـفـتوـحةـ،ـ وـالـمـوـسـيـقـىـ تـطـفـوـ فـيـ الـجـوـ،ـ لـأـنـ الـيـوـمـ هوـيـومـ الـزـيـارـةـ وـفـيـهـ يـاتـيـ أـقـرـاءـ الـمـسـنـينـ وـاـصـدـقـاؤـهـمـ لـادـاءـ وـاجـبـ الـشـفـقـةـ.ـ كـانـ الطـابـقـ السـفـلـيـ يـيـدـوـ مـنـ بـعـيدـ وـكـانـهـ عـابـرـةـ حـيـطـاـتـ رـاسـيـةـ نـتـيـجـةـ خـطـأـ مـاـ بـيـنـ الـجـنـانـيـنـ.ـ كـانـ النـزـلـاءـ وـضـيـوـفـهـمـ يـتـمـشـونـ عـلـىـ سـطـحـ تـلـكـ السـفـنـيـةـ مـسـتـمـتـعـيـنـ بـبـرـودـةـ الـلـيـلـ أوـيـسـتـرـ يـمـحـونـ عـلـىـ آـرـائـكـ الـشـرـفةـ

كأشباح فقدت رونق ألوانها، وكأرواح من زمن آخر، يتحدثون إلى أنفسهم، بعضهم يمضغ الهواء وأخرون يتذكرون كما يجدوا أزمنة بعيدة أو يبحثون في ذاكرتهم عن أسماء جلسائهم وأسماء أبنائهم وأحفادهم الغائبين. إن العودة إلى الحديث عن الماضي في مثل هذه السن هو كالدخول في متاهة، حيث لا يمكن التعرف أحياناً على أي مكان، أو أي شخص، أو أي كائن عزيز وتحديده في ضباب الذاكرة، كانت المشرفات يتجلون بزيهن صامتات ليذernen أرجلًا ذاوية، ويوزعن أقراص الدواء الليلية، ويقدمن المشروبات الساخنة للتزلاء والمرطبات للآخرين. ومن مكبرات صوت لا مرئية كان تنطلق أنغام راقصة متداقة لشوبان لا علاقة لها بالواقع الداخلي البطيء لنزلاء البيت.

قفزت الكلبة متهللة حين رأت فرانثيسكو وايرين يدخلان الحديقة. وقالت ايرين لصديقتها وهي تدعوه للصعود إلى السفينة وتقوده إلى حيث مسافرو الماضي :

- حذار، لا تدس نبطة اللاتنسيني.

كان شعر الفتاة مسرحاً في غدير مرفوعة فوق رأسها، كاشفاً بذلك عن انحناء رقبتها، وكانت ترتدي عباءة طويلة من القطن، وقد غابت من يديها للمرة الأولى اساورها النحاسية والبرونزية الصاحبة. لقد أثار شيء ما فيها استهجان فرانثيسكو، لكنه لم يستطع تحديده. راقبها وهي تمشي بين المسنين، تبتسم للجميع وتجاملهم، وخصوصاً أولئك الذين كانوا مغربين بها. لقد كان كل منهم يعيش حاضراً مغموراً بالحنين. أشارت ايرين إلى المفلوج الذي لا يستطيع امساك قلم بأصابعه المتيسسة، والذي يملي عليها رسائله عادة. انه يكتب إلى أصدقاء طفولته، والى عشيقات من الزمن القديم، وأقرباء مدفونين منذ عشرات السنين، لكنها لم تكن تبعث هذه الرسائل المحزنة، كي لا يعاني خيبة الأمل حين يعيدها البريد اليه بعدم وجود من يتلقاها. كانت تخترع ردوداً وترسلها إلى الشيخ لتحول دون حسرة معرفته انه وحيد في هذه الدنيا. وقدمت إلى فرانثيسكو كذلك شيئاً غبيلاً لا يزوره أحد مطلقاً. كانت جيوبه مليئة بكلوز دافئة يحتفظ بها

بحرص وغيره: صور باهتة الألوان لفتيات تحيط بوجوههن ورود، وبطاقات قديمة يظهر فيها نهد لا يكاد يستره شيء، أو ساق جسور يبرز من بين شرائط الدانتيلا. واقتربا من كرسي الأمملة المعقودة الأوسع ثراء في المملكة. كانت المرأة ترتدي فستانًا ذاويًا، وشالاً أكله العث وتقادم الزمن، وفردة ففاز واحدة تحتفظ بها من المناولة الأولى. وكانت تتدلّى من مقعدها ذي العجلات أكياس بلاستيكية مملوءة بالترهات وعلى ركبتيها صندوق أزرار، تعد ما فيه مراراً وتكراراً لتأكد من أنها لم تفقد أي زر منها. تدخل كولونيل يضع ميداليات من الصفيح ليقول لها بصوت هامس به أثر من الربوأن قذيفة مدفع هي التي فتت نصف جسد هذه المرأة البطلة. أتعلم أنها قد ملأت كيساً بالنقود الذهبية التي كسبتها بنزاهة من زوجها لكونها مطيبة له؟ تصوري يا آنسة مدى حافته وهو يدفع ثمن ما يمكنه الحصول عليه مجاناً؛ أنا أتصفح مرؤوسني بآلا يذروا رواتبهم على العاهرات، لأن النساء يفتحن سيقانهن راضيات عند رؤيتها بدللة عسكرية، وأقول هذا عن تجربة؛ فالنساء يفضن عن حاجتي. وقبل أن يتمكن فرانثيسكو من الاستيضاح حول تلك الأسرار، اقترب رجل طويل القامة وشديد التحول، تغطي وجهه ملامح مأساوية، ليسألهما عن ابنه، وعن كنته والطفل. أخذته ايرين جانباً وأسرت إليه بشيء، ثم قادته نحو مجموعة صاحبة وبقيت إلى جانبه إلى أن رأته يهدأ. أوضحت الشابة لصديقتها أنه كان لهذا العجوز ابنان اثنان، نُفي أحدهما إلى الجهة الأخرى من الكوكب ولم يكن يستطيع الاتصال بأبيه إلا من خلال رسائل كانت تصبح أكثر تباعداً وبروداً مرة بعد أخرى، لأن البعد مثل مرور الزمان، يولد النسيان. أما الابن الآخر فقد اختفى مع زوجته وطفليه الذي كان عمره بضعة شهور. لم يحظ العجوز بنعمة فقدان العقل، وصار يهرب إلى الشارع عند أي سهر من المشرفات، تدفعه الرغبة في البحث عنهم. وحاولت ايرين ترسیخ الافتراضات الفظيعة مؤكدة له ان لديها معلومات تفيد انه لم يبق أي منهم على قيد الحياة. لكنه رغم ذلك لم يفقد الأمل في العثور على الطفل يوماً، لأن همساً كان يدور عن أطفال أنقذتهم عمليات الماجرة بالأيتام. بعض من أشيئ عن

موتهم كانوا يظهرون فجأة في بلدان نائية وقد تبتهم عائلات من عروق أخرى، أو عشر عليهم في مؤسسات خيرية بعد عدة سنوات وقد نسوا انه كان لهم آباء. وتمكنت ايرين بفضل اكاذيب الشفقة ان تمنعه من الهرب كلما وجد الحديقة دون مراقبة، لكنها لم تستطع منعه من انفاق احلامه في عذابات لا شفاء منها وحياته في التفصي عن التفاصيل لرغبتها في زيارة قبور ذويه. ثم أشارت لفرانثيسكو إلى عجوزين من رق وعاج يتارجحان على اريكة من الحديد، ولا يكادان يعرفان اسميهما، ولكن كلاً منها تمكن من حب الآخر رغم معارضته بيتريس الكانترا الصارمة، والتي كانت تعتبر الأمر استخفافاً بالعادات لا يغتفر. من رأى عجوزين تالفين يتبدلان القبلات خلسة من قبل؟ أما ايرين فكانت تدافع عن حقهما بهذه السعادة الأخيرة وتمنى لجميع النزلاء حظاً مائلاً، لأن الحب ينchezهم من الوحدة، أسوأ قيود الشيخوخة، فدعيعهم وشأنهم السلام يا أماه، ولا تنظر إلى الباب الذي تركه هي مفتوحاً في الليل، ولا تغضبي هكذا حين تجدينها معاً في الصباح، انها بيارسان الحب، كيف لا، حتى ولو قال الطبيب ان ممارسة الحب مستحبة في مثل سنها.

وأرت صديقها اخيراً سيدة تستمع بالبرودة على الشرفة، انظر اليها بامعان، انها خوسيفينا بياتشي، المثلة، هل سمعت بها؟ وللح فرانثيسكو سيدة نحيلة كانت دون شك آية في الجمال وهي ما تزال كذلك بطريقه ما. كانت ترتدي روب ما بعد الاستيقاظ وتتعلل خفأً ناعماً، إذ انها تنظم شؤونها حسب توقيت باريص، بفارق عدة ساعات وفضلين. وكان على كتفها شال بالي من فراء الثعالب، فيه عيون زجاجية مؤثرة وأذياles مهترئة.

قالت ايرين وهي تمسك الكلبة لتنعها من الافلات:

- في احدى المرات أمسكت «كليو» بالشال، وحين انقدناه منها كان يبدو وكأن قطاراً قد مر فوقه.

كانت المثلة تحفظ بصناديق ملابس قديمة من مسرحياتها المفضلة، وبثياب لم تستخدم منذ نصف قرن، كثيراً ما كانت تنفض الغبار عنها لتريها الزملائتها

المبهورين في بيت المسنين . لقد كانت تسيطر تماماً على جميع مواهبها ، بما في ذلك التغنج . ولم يكن اهتمامها بالدنيا قد تضاءل ، فهي تقرأ الصحف وتذهب إلى المسينا من حين لآخر . كانت ايرين ت Miz her عن الآخرين ، والمشرفات يعاملنها بطريقة مختلفة ، فینادینها بلقب سيدة بدلاً من جدة . ولعزاء أيامها الأخيرة لم تفقد أبداً خيلتها التي لا تنضب ، فكانت تشغل نفسها في أوهامها دون أن يكون لديها الوقت والحماس للاهتمام بصفائر الحياة . لم تكن ذكرياتها مختلطة ، فهي تخزنها في ترتيب دقيق وتبتهج في تقبيل تلك الذكريات . ومن هذه الناحية كانت أوفر حظاً من بقية المسنين الذين تخونهم الذاكرة وتحرو أحداً من ماضيهم وتولد فيهم الخشية من انهم لم يعشوا تلك الأحداث . لقد عاشت خوسيفينا بيانتشي حياة زاخرة ، وكان من حسن طالعها العظيم أنها تذكر تلك الحياة بدقة موثق عقود . ولم تكن تأسف إلا على الفرص التي أضاعتها ، وعلى اليد التي لم تمدها ، وعلى الدموع التي لم تذرفها ، وعلى الأفواه التي لم تستطع تقبيلها . لقد تزوجت عدة مرات ، وكان لها عشاق كثيرون ، وخاضت مغامرات لم تفكرببتائجها ، وأهدرت وقتها بسعادة ، وكانت تقول دوماً أنها ستموت حين تبلغ من العمر مئة سنة . لقد أعدت مستقبلاً بشعور عملي ، فاختارت بنفسها ملجاً العجزة حين ادركت أنها لم تعد قادرة على العيش بمفردها ، وأوكلت إلى حام مهمه إدارة مدخراتها لليؤ من لها حياة مريحة حتى آخر أيامها . كانت تشعر بميل شديد نحو ايرين بيلزان ، لأن شعرها وهي شابة كان له مثل هذا اللون الحاد ، وكانت تتسلى بتخيل أن الشابة هي حفيتها ، أو أنها هي ذاتها في مرحلة تألقها ، كانت تفتح صناديقها المترعة بالكنوز ، وتعرض عليها الشهرة التي أصابتها وتطلعها على رسائل المعجبين الذين فقدوا سلام الروح وهدوء البال من أجلها . لقد عقدتا عهداً سرياً بينهما . إذ رجتها خوسيفينا بيانتشي قائلة : يوم أبدأ بتوسيع سراويلي الداخلية أو أفقد القدرة على شفتي ، فساعديني على الموت يا ابني . ووعدتها ايرين بذلك طبعاً .

قالت ايرين وهي تقود فرانثيسكو إلى الطابق الثاني عبر السلم الداخلي :
- أمي مسافرة ، وهذا ستتناول العشاء وحدنا .

كان الظلام والصمت يخيمان على الطابق العلوي ، لأن أنوار الطابق الأول لا تصل إلى هناك ، كما ان الموسيقى التي تبثها مكبرات الصوت في «مشيئة الرب» لم تعد مسموعة . كان الزائرون قد بدأوا بالانصراف ، والنزلاء بالعودة إلى غرفهم ، وأخذ سكون الليل وظلالة المميزة يعمان البيت . استقبلتهما روسا ، البدينة الرائعة ، بابتسامتها العريضة في الردهة . كانت تشعر بالضعف أمام هذا الشاب الأسمر الذي يحييها بحماس وبيازحها وبيدو مستعداً للتدحرج على الأرض لمعانقة الكلبة . كانت تشعر انه أقرب إلى نفسها من غوستافو مورانتي واكثر الفة منه ، رغم انه ليس بالشخص المناسب لصغيرتها دون شك . فطوال الشهور التي عرفته اثناءها لم تره أبداً إلا بهذا البنطال الرمادي ، وهذا الحذاء ذي النعل المطاطي ، يا للأسف . وفكرت : من يلبس جيداً أهلاً به . لكنها عدلت ما فكرت فيه للحال متذكرة المثل المعaks : المسوح لا تصنع الراهب .

و قبل ان تغوص في المطبخ قالت موصية :

- أشعلِ الأنوار يا ايりن .

كانت الصالة مزينة ببساطة : سجادات عجمية ، ولوحات معاصرة ، وبعض كتب الفن الموزعة في فوضى استراتيجية . وكان الأثاث يبدو مريحاً ، وكثرة النباتات تمنح الجلوس نوعاً من البرودة . استقر فرانشيسكو على الأريكة مفكراً بيته أبويه ، حيث الشيء الفخم الوحيد هو جهاز للموسيقى ، فيما كانت ايりن تفتح زجاجة نبيذ وردي .

سألها :

- لماذا سنحتفل ؟

فردت صديقتها دون ان تبتسم :

- بأن الحظ حالفنا في البقاء على قيد الحياة .

تأملها بصمت موقناً أن شيئاً قد تبدل فيها . رآها تملأ الكؤوس بيد مرتعشة ، وفي وجهها العاري من المكياج لحة حزن . ولكسب بعض الوقت والتحقق من مشاعره ، بحث فرانشيسكو بين الاسطوانات واختار موسيقى تانغو

قديمة، وضع الاسطوانة في الحاكي وجاء هما صوت غارديل الواضح عبر خمسين سنة من التاريخ. استمعا بصمت، وكل منها يمسك بيد الآخر، إلى أن دخلت روسا لتعلن ان العشاء جاهز في غرفة الطعام.

فقالت له ايرين :

- انتظر هنا. لا تتحرك. وخرجت بعد أن أطفأت الأنوار.
رجعت بعد قليل وهي تحمل شمعدانًا ذا خمس شموع، بدت كروة يا منبقة من عصر آخر بعباءتها الطويلة البيضاء ويريق الشموع الذي ينعكس خطوطاً معدنية في شعرها. قادت فرانثيسكو باحتفالية عبر الممر إلى غرفة كانت فيها مضي حجرة نوم واسعة، وتحولت الآن إلى غرفة للطعام. كان الأثاث كبيراً جداً بالنسبة لأبعاد الحجرة، لكن ذوق بيتريس الكاتنرا الصائب تجاوز هذا العائق بطلاء الجدران باللون الأحمر البومي في تضاد دراميكي مع زجاج المائدة وقمash الكراسي الأبيض. واللوحة الوحيدة في الحجرة كانت تمثل طبيعة صامتة من المدرسة الفلامنكية : بصل ، ثوم ، بندقية صيد مسندة في أحد الأركان وثلاثة ديوك بريمة متراهلة ومعلقة من قوائمها .

نصحته ايرين :

- لا تتأمل اللوحة كثيراً وإنما جاءتك الكوايس .
احتفل فرانثيسكو صامتاً بغياب بيتريس وعريس المنية ، وسعیداً بوجوده وحيداً مع ايرين .

- أخبريني لماذا أنت حزينة الآن يا صديقة .
لأنني عشت حياتي حتى اليوم حالة وأخشى أن استيقظ الآن .

★ ★ *

كانت ايرين طفلة مدللة ، ابنة وحيدة لأبوين ثريين ، محمية من الاحتياط بالعالم الخارجي ، بل ومن هواجس قلبها ذاته . ملاطفات . تدليل ، مداعبات ،

مدرسة انكليزية للآنسات ، جامعة كاثوليكية ، حذر شديد من أخبار الصحافة والتلفزيون ، فهناك كثير من الشر والعنف ، ومن الخير ابقوها بعيدة عن هذه الأمور ، ستعرف الألم فيما بعد ، لا مفر من ذلك ، فلنجعلها تعيش طفولة سعيدة اذن ، نامي يا طفلتي فأمك ساهرة . كلاب من سلالات ممتازة ، حدائق ، حصان خاص في النادي ، تزلج على الثلج في الشتاء ، وشاطئ البحر طوال الصيف ، دروس في الرقص لتنقن التحرك برقه بدل مشيتها المتقافزة ووقعها على الأثاث مثل بلهوان ؛ دعيها وشأنها يا بياتريس ، لا تزعجيها ، هذا ضروري ، علينا ان نبنيها سليمة : صورة شعاعية للعمود الفقري ، تنظيف للبشرة ، طبيب نفسي لأنها حلمت يوم الثلاثاء بمستنقعات متحركة واستيقظت صارخة . أنها خطيبتك يا اوسيبيو ، فأنت تفسدتها بهدايا الحظية ، والعطور الفرنسية ، وبلوزات الدنتيلا ، والمجوهرات غير الملائمة لطفلة في سنها . المذنبة في جعلها تافهة وضيقة الأفق هي أنت يا بياترس ، فاييرين تلبس الخرق لتعبر عن عدوانيتها نحوك ، لقد قال ذلك الطبيب النفسي . وأنا أقول : رغم كل العناية في تربيتها ، انظر ماذا كانت النتيجة . . فتاة غريبة الأطوار تسخر من كل شيء وترفض استخدام الأصبغة لتكرس وقتها للصحافة ، هذه المهنة لا تعجبني ، أنها مهنة خباء ، لا مستقبل لها ، بل أنها مهنة خطيرة . لا بأس يا امرأة ، لكننا تمكننا من جعلها سعيدة على الأقل ، فهي تضحك بسهولة وقلبه فرح ، وبقليل من الحظ ستعيش سعيدة إلى أن تتزوج ، وبعد ذلك ، حين يتوجب عليها مواجهة الحياة بنفسها ، فستقول على الأقل ان ابوها منحها سنوات طويلة من السعادة . ولكنك ذهبت يا اوسيبيو ، عليك اللعنة ، وهجرتنا قبل ان تكبر تماماً ،وها أنها الان تائهة ، التعasse تسرب من جيم مساماتي ، تقرن ، تغرقني ، لم أعد أستطيع ايقافها وأصبحت حماية ايرين من أي أذى أكثر صعوبة ، أمين . أترى عينيها ؟ دائمًا شاردتين ، لهذا تظن روسا أنها لن تعيش طويلاً ، تبدو وكأنها تودع . انظر اليها يا اوسيبيو ، لم تعودوا عينيها السابقتين المعهودتين ، لقد امتلأتا بالظلال وكأنهما تنتظران إلى بتر . أين أنت يا اوسيبيو ؟

قدرت ايرين حجم الكراهية الكبيرة التي تسود علاقة ابويها قبل شعورهما بذلك. ففي ليالي طفولتها كانت تبقى مستيقظة تستمع إلى مشاحناتها المتبادلة، نظرها مثبت في سقف غرفتها وجزء لا يوصف في عظامها. كانت تهتئ أمها البالكية في مناجيات هاتافية طويلة مع صديقاتها تؤرقها، فالصوت يصلها مشوهاً عبر الأبواب المغلقة وكابة روحها. لم تكن تفهم معنى الكلمات، لكن خيالاتها كانت تمنحها المعنى، وكانت تدرك أنها تكلم عن ابيها. لم تكن تنام إلى أن تسمع صوت سيارته تدخل الكراج وفتحها يدور في الباب، عندئذ يتلاشى كرها، وتتنفس الصعداء، وتغمض اجفانها للتفرق في النوم. وعندما يدخل اوسيبيو بيلتران ليقبل ابنته القبلة الأخيرة لكل يوم، يجدها نائمة، فينصرف مطمئناً لاعتقاده أنها سعيدة. وحين استطاعت الطفلة حل الرموز الصغيرة، عرفت انه سيذهب بعيداً ذات يوم، وهو ما حدث فعلًا في آخر الأمر. لقد كان ابوها رجلاً عابراً في الحياة، كان عابراً على الدوام، فهو يقف متبايناً من جهة إلى أخرى غير قادر على السكون، بصره يضيع في البعيد، وينتقل من موضوع إلى آخر بشكل مفاجيء أثناء الحديث، يسأل ولا يصغي إلى الرد. لكنه أمامها فقط كان يتخذ مظهراً ثابتاً. فاييرين هي الكائن الوحيد الذي يحبه حقاً، وهي وحدها التي جعلته يبقى لبعض سنوات أخرى. كان إلى جانبها في اللحظات الحاسمة من حياتها كامرأة، فهو الذي اشتري لها أول مشد للصدر، وأول جوارب النايلون، والأحذية ذات الكعب العالية، وحكي لها كيف تتم عملية الحبل، فكانت مفاجأة لاييرين، لأنها لم تستطع ان تصور كيف يمكن لشخصين يتبادلان الحقد والكراهية كابويها ان يفعلوا ذلك ليجيئا بها إلى الدنيا.

ومع مرور الزمن أدركت ان هذا الرجل الذي تعبده قادر على ان يكون مستبداً وقاسياً، فهو يهين زوجته باستمرار، مشيراً لها إلى أثر أي تجعيدة في وجهها، وإلى كل كيلوغرام يزداد في خصرها، أرأيت كيف ينظر إليك السائق يا بيتريس؟ انت مناسبة للذوق البروليتاري يا عزيزتي . وكانت ايرين بينها، تمارس دور الحكم في مشاداتها التي لا تنتهي. لماذا لا تصالحان ونأكل الحلوي

احتفالاً بذلك؟، كانت تقول لها متولدة. وكان قلبها يميل لصالح الأب، لأن علاقتها بأمها كانت تتسم بالمنافسة. فيباتريس تراقب تكوينها الأنثوي وتراجع حساباتها عائنة إلى الزمن الذي كانت فيه في مثل سنها. رباء، عساها توقف عن النمو!

لقد تفتحت الفتاة باكراً على اندفاعات الحياة. ففي الثانية عشرة كانت تبدو أصغر من سنها، ولكنها كانت قد تعرضت لهزات داخلية وقلق مغامرات. وكثيراً ما كانت تلك الانفعالات العاصفة تعكر أحلامها وتبعث الحمى في أيامها. كانت قارئة نهمة دون تحفظ، رغم عين أمها المتيقظة المراقبة، فهي تضع يدها على أي كتاب تحصل عليه، أما تلك الكتب التي لم تكن تستطيع اظهارها أمام بياتريس، فكانت تقرؤُها في منتصف الليل تحت شرشف السرير، مستخدمة للاضاءة مصباحاً يدوياً. وهذا توصلت إلى معلومات أكثر من تلك التي تصل إليها في العادة فتاة من وسطها، وعوضت بالخيال الرومنسي ما كانت التجربة تحررها منه.

كان اوسيبيو بيلتران وزوجته مسافرين يوم سقط الوليد من كوة النور. لقد مضت على هذا الحدث سنوات، لكن روسا وايرين لن تنسياه مطلقاً. ذهب السائق يومها لاحضار الطفلة من المدرسة وتركها عند باب الحديقة، فقد كان عليه أن يؤدي مهاماً أخرى. كان المطر قد هطل طوال ذلك اليوم، وصار لون سماء الشتاء في تلك الساعة كلون الرصاص المذاب، فيما كانت أنوار الشارع تضاء. فوجئت ايرين حين رأت بيتها غارقاً في الظلام، دون أي ضوء، والصمت ينخيم عليه. فتحت الباب بمعناها واستغربت لأن روسا ليست في انتظارها كعادتها، وليس تستمع إلى تمثيلية الساعة السادسة من المذيع. وضعت كتبها على طاولة المدخل وتقدمت في المر درون أن تصفيء المصايبع. دفعها حاجس غامض وضبابي للتقدم إلى الأمام. انسلت على رؤوس أصحابها ملتصقة بالجدران، ومنادية على روسا بكل ما في ذهنهما من قوة. كانت الصالة خاوية، وكذا ذلك غرفة الطعام والمطبخ. ودون أن تجرأ على مواصلة التقدم، وقفت تستمع إلى الطبل الذي

يدق في صدرها ، محاولة البقاء دون حراك ، بل ودون تنفس إلى أن يرجع السائق . حاولت أن تتشجع قائلة لنفسها انه ليس هناك ما يخيفها ، وأن مربيتها ربما تكون قد خرجت من البيت أو نزلت إلى القبو . ولأنها لم تبق وحيدة في البيت من قبل ، فقد منها الضطراب من التفكير بوضوح . ومع مرور الدقائق راحت تنحني إلى أن وجدت نفسها متزوية في الركن ، وحين أحسست بالبرد في قدميها تنبهت إلى أن جهاز التدفئة لا يعمل ، فتوقعـت عندئذ حدوث أمر خطير ، لأن روسـا لم تكن تهمـل واجباتـها أبداً . حسمـت أمرـها لـتفصـي ما حـدث ، وتقـدمـت بـبطـء إـلى أن سـمعـت أولـ التـأوهـات . توـترت جـمـيع أـعـصـابـها ، واختـفى الرـعـب ليـقـودـ الفـضـولـ خطـواتـها نحوـ جـنـاحـ الخـدـمـ ، حيثـ كانـ محـظـورـاً عـلـيـهاـ الدـخـولـ . هـنـاكـ تـوـجـدـ آـلـاتـ تسـخـينـ المـاءـ ، وـغـرـفـ الغـسـيلـ وـالـكـويـ ، وـمـسـتوـدـعـ الـخـمـورـ وـالـمـؤـونـةـ . وـفـيـ نـهاـيـةـ المـرـكـانـ غـرـفـةـ رـوـسـاـ ، وـمـنـهاـ كـانـ يـأـتـيـ النـحـيبـ المـخـتـنـقـ . وـبـاتـجـاهـهاـ سـارـتـ مـفـتوـحةـ العـيـنـينـ وـالـقـلـقـ يـبـنـضـ فيـ وجـهـيـهاـ . لـمـ تـرـضـوـهـاـ مـنـ فـرـجـةـ الـبـابـ ، وـصـورـتـ لهاـ مـخـيلـتهاـ مشـاهـدـ منـ الرـعـبـ ، فـتـوـاردـتـ القرـاءـاتـ المـحـظـورـةـ إـلـىـ ذـهـنـهاـ مـثـلـ شـحـنةـ منـ الفـزعـ وـالـعـنـفـ : فـيـ الـبـيـتـ لـصـوصـ ، وـروـسـاـ مـلـقاـةـ عـلـىـ السـرـيرـ مـقـطـوعـةـ العـنـقـ ؛ وـفـرـانـ ضـارـيـةـ هـارـيـةـ مـنـ القـبـوـ تـلـتـهـمـهاـ ؛ رـوـسـاـ مـقـيـدةـ الـقـدـمـينـ وـالـيـدـيـنـ وـمـهـوـوسـ يـغـصـبـهاـ ، كـماـ قـرـأتـ فـيـ قـصـةـ أـعـارـهاـ إـيـاهـاـ السـائـقـ . لـكـنـهاـ لـمـ تـتـصـورـ أـبـداـ مـارـأـتـهـ لـدـىـ دـخـولـهاـ . أـدـارـتـ اـيـرـينـ قـبـصـةـ الـبـابـ بـحـذرـ ثـمـ دـفـعـتـهـ بـبـطـءـ . أـدـخلـتـ يـدـهاـ ، وـلـمـسـتـ الجـدارـ بـحـثـاـ عنـ مـفـتـاحـ النـورـ وـأشـعـلـتهـ . وـأـمـامـ عـيـنـيهـاـ الـمـهـورـتـيـنـ منـ الضـوءـ المـفـاجـيءـ ، بـدـتـ مـرـبـيـتهاـ الـبـيـنـةـ وـالـحـبـيـبةـ رـوـسـاـ ، مـنـهـارـةـ عـلـىـ كـرـسيـ وـفـسـتـانـهاـ مـرـفـوعـ إـلـىـ وـسـطـهـاـ وـسـاقـاهـاـ السـمـراـوـانـ الـمـعـدـتـانـ فـيـ جـوـرـيـنـ مـنـ الصـوـفـ يـصـلـانـ إـلـىـ رـكـبـيـهاـ ، مـلـطـختـيـنـ بـالـدـمـ . كـانـ رـأـسـهـاـ مـائـلـاـ إـلـىـ الـورـاءـ وـجـهـهـاـ مـهـوـكـاـ مـنـ الـأـلـمـ . وـعـلـىـ الـأـرـضـ ، بـيـنـ قـدـمـيـهاـ ، كـانـ تـجـمـعـ كـتـلـةـ حـرـاءـ مـلـفـوـقـةـ بـمـصـرـانـ أـزـرـقـ طـوـيلـ وـمـلـتوـ .

ما ان رأـتـهاـ رـوـسـاـ حتـىـ قـامـتـ بـانـزالـ مـلـابـسـهـاـ لـتـسـترـ بـطـنـهـاـ وـحاـولـتـ النـهـوضـ دونـ جـلـوىـ .

- روسا، ماذا أصابك؟

- هيا يا صغيرتي! اخرجي من هنا!

سألتها ايرين وهي تشير إلى الأرض:

- ما هذا؟ دنت الطفلة من مربيتها، احتضنتها بذراعيها، ومسحت العرق عن جبها بمريلتها المدرسية وغمرت خدها بالقبلات. ثم سألتها أخيراً:

- من أين خرج هذا الطفل؟

فردت روسا مشيرة إلى فتحة التهوية التي في السقف:

- سقط من فوق، من كوة النور. سقط على رأسه ومات، لهذا هو مغطى بالدم.

انحنى ايرين لتفحصه وتأكدت من أنه لا يتنفس. لم تجد ضرورة لتوضيح أنها تعرف شيئاً حول هذه الأمور وأنها قادرة على أن تحدد بدقة أنه جنين في الشهر السادس أو السابع، وأنه يزن حوالي كيلوغراماً ونصف، جنسه ذكر، وسبب ازرقاقه يرجع إلى نقص الأوكسجين، وأنه ربما يكون قد مات قبل الولادة. الشيء الوحيد الذي فاجأها هو أنها لم تلمع حالة الحمل من قبل، ولكنها عزت ذلك إلى سمنة مربيتها، التي يمكنها أن تواري انتفاخاً بين كتل جسدها اللحمية.

- ماذا سنفعل يا روسا؟

- آه يا صغيرتي! يجب ألا يعلم أحد بهذا الأمر، هل تقسمين لي إنك لن تخبرني أحداً؟

- أقسم لك.

- هيا نلق به إلى القهامة.

- مؤسف أن ينتهي هكذا يا روسا. فهو ليس مذنبًا لسقوطه من كوة النور. لماذا لا ندفنه؟

وهذا ما فعلته. ما ان تكنت المرأة من النهوض، والاغتسال واستبدال ملابسها، حتى وضعتا الوليد في كيس من أكياس السوق، وختمتاه بشريط

لاصق. خبأنا كيس الرفات البلاستيكي حتى الليل، وبعد أن تأكّدنا من أن السائق قد نام، حملناه إلى الحديقة لتدفنه. حفرنا حفرة عميقّة، وضعتنا في قاعها الكيس والكتلة الخامدة التي فيه، وطمرناه بحذر، ثم طأنا التراب ورددنا فوقه أحدي الصلوات. بعد يومين من ذلك اشتربت أيرين بنتة لا تنسيني وزرعتها حيث يرقد الوليد الذي سقط من كوة النور. ومنذ ذلك الحين أحسّنا إليها متحدّثان بالاشتراك في مؤامرة كبيرة، يجمعها سرّ لن تكشفه أي منها لسنوات طويلة، وصار السرّ مالوفاً بينها حتى أنه بدأ يظهر مصادفة في أحاديثهما. ولم يهتم أحد من في البيت بتقصي ما تعنيه. كان كل جنائي جديد يتلقى وصية الفتاة بالاعتناء بنته اللاتسيني، وفي فصول الربيع، حين تفتح أزهارها الصغيرة، كانت تقطفها لتصنع منها باقة تضعها في غرفة مرببتها.

بعد ذلك بوقت قصير، اكتشفت أيرين أثناء لعبها مع ابن عمها غوستافو ان للقبّلات طعم الفواكه وانه يمكن لأكثر المداعبات خراقة وغرارة أن تلهب الحواس. كانا يختبئان لتبادل القبل، موقظين الرغبة الكامنة فيها. وقد احتاجا لبعضة أصياف قبل ان يصلوا إلى المتعة الفصوى، وذلك لخوفهما من العواقب وللتصلب الفتى الذي لقنه وعلمه انه يوجد صنفان من النساء: المحترمات الجديرات بالزواج منهن والآخريات لمضاجعتهن. وكانت ابنة عمه تتّممي الى الصنف الأول. ما كانا يعرفان شيئاً عن وسائل منع الحمل، وفيما بعد فقط، عندما علمت حياة التكّنة القاسية الشاب وظائف الرجال، وأكسبت أخلاقه بعض المرونة، استطاعا ممارسة الحب دون خوف. ثم نضجا معاً خلال السنوات التالية، ولم يعد الزواج سوى أمر شكليّ لمّن اتفقا على شؤون المستقبل.

على الرغم من وجود خطيبها ولقائهما الساحر بالحب، فقد بقي مركز الكون بالنسبة لها هو أباها. كانت تعرف فضائله ونقائصه الكبيرة. فقد فاجأته في عدد لا حصر له من الخيانات الزوجية والأكاذيب، رأته جباناً وخاسراً، ولمحته وهو يلاحق بعيري كلب شبق النساء الآخريات. لم تكن لديها أوهام بشأنه، لكنها كانت تحبه جياً عميقاً. وفيما كانت تقرأ في غرفتها في مساء أحد الأيام، أحسّت به قريباً منها. وقبل

أن ترفع نظرها لتراه، علمت أنها زيارة الوداع. رأته واقفاً عند الباب وأحسست كأن ما تراه ليس إلا شبحه، وانه ليس هناك، وإنما ممحواً، بالطريقة التي كانت تخشى حدوثها دوماً.

قال اوسبييو وهو يقبل جبها:

- سأخرج للحظة يا بنبي.

فردت الفتاة وهي موقنة من أنه لن يرجع:

- وداعاً يا أباها.

وكان هذا ما حدث. لقد مضت أربع سنوات، ولكنها من خلال آلية عزاء مهلهلة لم تعتبره ميتاً، مثلما اعتبره الآخرون. كانت تعلم أنه حي، وكان ذلك يمنحها بعض الطمأنينة، و يجعلها تتصوره سعيداً كذلك في حياة جديدة. لكن رياح العنف التي راحت تصفع عالمها الآآن ملأتها بالشكوك. كانت خائفة عليه.

★ ★ ★

انتهى الصديقان من تناول العشاء. كانت صورتاهم تتعكسان على جدران الحجرة في ظلين عاليين يهتزان مع ارتعاشة ضوء الشموع. كانوا يتكلمان بما يشبه الهمس ليحتفظا بحميمية هذه اللحظات. روت ايرين لفرانثيسكو قصة صفقة اللحوم الخيرية المؤثرة وخلص هو إلى الاستنتاج بأنه لن يفاجأ بأي تصرف من تصرفات هذه الأسرة.

قالت ايرين:

- بدأ كل شيء عندما تعرف أبي على مبعوث عربي.

كانت مهمة الرجل الموفد من حكومته هي شراء الأغنام. عرفوه على اوسبييو بيلتران في حفل استقبال أقامته سفارة المبعوث، وللحال أصبحا صديقين، فكلاهما يعيش حياة يلهبها الميل الجامح نحو النساء الجميلات والخلفات الممتعة. بعد تلك المأدبة، دعاه والد ايرين لمواصلة الحفلة في بيت

احدى السيدات ، حيث اكملوا احتفالهما بالشمبانيا والنساء المرتقة إلى أن انتهيا في ليلة حراء صاحبة يمكن لها أن تودي بأشخاص آخرين عديمي الخبرة إلى الجحيم . استيقظا في اليوم التالي وقد انقلب معدتاهم وتشوش ذهناهما ، لكنهما ما لبشا أن انبعثا بعد حمام دافئ وحساء محار كثيف وساخن . لم يكن العربي ، كمسلم فاضل ، معتاداً على تناول المسكرات ، فعانى من أثر الحرمة ، وكان لا بد لاوسبييو من مرافقته والتسرية عنه ومتابعته بالعلاج الطبيعي في مثل هذه الحالة : دعك جبهته بالكافور ووضع كمادات باردة عليها . وعند الظهيرة صارا آخرين ، وكأنما قد باحا لبعضهما بأسرار حياتيهما . حينئذ نصح الاجنبي اوسيبيو بان يتولى تجارة الأغنام ، لأن في الصفقة أطنان من المال لم يحسن كسبها .

صحيح بيلتران :

- لم أر في حياتي نعجة على الطبيعة ، ولكنها إذا كانت مثل الأبقار أو الدجاج فلن أجده أية صغورة .

كانت تلك هي بداية صفقة ستقوده إلى الإفلاس وإلى نسيان نفسه ، كما تكهنت زوجته قبل وقت طويل من حصولها على أدلة معقولة لفترض ذلك . سافر إلى أقصى جنوب القلاوة ، حيث تتكاثر المواشي ، وبإشراف إقامة مسلح وبراد ، موظفاً في المشروع جزءاً كبيراً من ثروته . وحين صار كل شيء جاهزاً ، وصل رجل دين مسلم ، مبعوث من قلب أرض العرب لمراقبة العمل ، وليتهم كل شيء حسب شريعة القرآن . كان عليه أن يصل إلى متوجهها نحو مكة عند ذبح كل نعجة وأن يتأكد من أنها قد ذُبخت بجرة واحدة من السكين وأين دمها قد نزف كله كما تقتضي الطهارة المحمدية . وبعد تطهير جثث المواشي وتنظيفها وتجمدها ، كانت تُرسل بطريق الجو إلى وجهتها الأخيرة . في الأسابيع الأولى ، تمت الإجراءات بالصرامة المناسبة ، لكن الإمام ما لبث أن فقد حاسمه الذي بدأ به . وذلك لافتقاره إلى الحوافز . إذ لم يكن بين من يحيطون به أحد يدرك أهمية مهمته ، بل لم يكن هناك من يحسن الحديث بلغته أو من قرأ كتابه المقدس . وكان الوضع على العكس من ذلك تماماً ، فهو محاط بأجانب سافلين يضحكون من ذفنه ويقومون بحركات بذية

ويسخرون منه اثناء تأدبه تراثيه العربية . لقد أخذ المناخ الجنوبي ، والختين ، وعدم التفهم الثقافي من حماسه ، ثم لم يثبت ان انكسر ، فتصحه اوسيبيو بيلتران ، العملي دوماً ، بان يسجل تراثيه على جهاز تسجيل يعمل بالبطارية ، كي لا يتوقف العمل . اعتباراً من هذه اللحظة أصبح انحدار الامام واضحاً للكل ذي عين بصيرة . ووصل به التشوش إلى حدود حنفية ، فلم يعد يهتم بالحضور إلى المسلح ، وغلب عليه الكسل ، ولعب القهار ، والنوم ، ورذيلة شرب الخمور ، وكلها امور محمرة في ديانته . ولكن لا أحد يتمتع بالكمال ، كما كان يقول صاحب المسلح ليواسيه حين يجده نادماً على بؤسه البشري .

كانت الأغnam تذهب بمحمد وباردة كأحجار قمرية ، دون ان يتبه أحد إلى انها لم تخلص من نجاستها عبر الوريد وأن آلة التسجيل كانت تصدح باغنيات البولير والرانشير بدلاً من الصلوات الالزمة . وما كان للأمر أن يؤدي إلى نتائج ذات بال ، لو لا ان الحكومة العربية المعنية أرسلت ، دون سابق انذار ، مفوضاً لمراقبة الشريك الاميركي الجنوبي . في اليوم الذي زار فيه المفتش مكان الأحداث وتأكد من الطريقة التي يتم بها اهمال تعاليم القرآن ، وضع حدأً لصفقة الخراف المزدهرة ووجد اوسيبيو بيلتران نفسه مع امام محمدى في ذروة الندم ، وبين يديه جبل من الأغnam المجمدة التي لا وجود لسوق يشتريها لأن حمها لم يكن مرغوباً في البلاد . فكان أن برز حيئذ ذلك المظهر الرائع من شخصيته . إذ انتقل مع بضاعته إلى العاصمة ، وراح يجوب الأحياء الفقيرة في سيارة شاحنة ليوزع اللحوم على من هم بأمس الحاجة إليها . كان وائقاً من أن مبادرته ستجعل بعض كبار التجار يشعرون بالاهانة ، فيسعون إلى محاكاته ، ويتبرعون كذلك بجزءٍ من ممتلكاتهم إلى المعوزين . ووصل به الأمر إلى الحلم بسلسلة متباينة مؤلفة من أصحاب الأفران ، وتجار الخضار ، وأصحاب متاجر السمك والموزن ، ومنتجي المعجنات ، وتجار الأرز والسكاكر ، ومستوردي الشاي والقهوة والشوكولاتة ، وصانعي المعلبات والمشروبات والأجبان ، أي أن كل صناعي ومتاجر س يقدم جزءاً من أرباحه لتسكين الجوع الذي يداهم المحروميين والأرامل والأيتام والعاطلين وغيرهم من البائسين .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فالجزارون اعتبروا الفتنة تهريجاً وتجاهلها الآخرون ببساطة . ولأنه واصل صليبيته بحماس رغم كل شيء ، فقد تلقى التهديد بالموت لأنه يدمر تجارتهم وسمعتهم كتجار شرفاء . اتهموه بالشيوخية ، ففاصم ذلك من عصبية بيترис الكانتراء المحبطية ، والتي احتجت لصلاحية عالية كي تتحمل شذوذات زوجها ، ولكن ليس لتحمل صدمة اتهام بهذه الخطورة . كان اوسبيسيو بيلتر ان يوزع بنفسه أخذ الأغnam وظهورها في شاحنة علقت على جانبها اعلانات كبيرة وزودت بمكير صوت يعلن عن مبادرته . وسرعان ما وجد نفسه محاطاً بالشرطة وبالقتلة المأجورين . فرجال الأعمال المنافسين كانوا عاقدين العزم على القضاء عليه . شهروا به وهددوه بالقتل وأرسلوا إلى زوجته رسائل مغفلة تتضمن سفالات لا تصدق . وعندما ظهرت شاحنة «الملحمة الخيرية» في التلفزيون ، وتحول صف البائسين إلى حشد يستحيل على خفراء الأمن العام ضبطه ، فقدت بيتريس الكانتراء آخر قرشة من البر وقدفت في وجهه كل ما جمعته طوال حياة من الصغينة . فذهب اوسبيسيو دون رجعة .

قالت ايرين :

- لم أشعر أبداً بالقلق على أبي يا فرانسيسكو . كنت واثقة من أنه قد هرب من أمي ، ومن دائنيه ، ومن الأغnam اللعينة التي بدأت تتعرف دون أن يجد لها وجهة . لكنني الآن أشك في كل شيء .

صارت تشعر بالخوف في الليل ، حين تظهر لها في أحلامها أجساد مستودع الجثث الزرقاء ، وخابير ليال المعلق مثل ثمرة على شجرة الاكاسيا في حديقة الأطفال ، وصفوف النسوة اللانهائية عمن يسألن عن رجالهن المفقودين ، وايفانخيليانا رانكيليو الحافية ويقمص النوم وهي تنادي من الظلال ، وبين جميع هذه الأشباح الغربية كانت ترى كذلك أباها غارقاً في مستنقعات الحقد .

نهدت ايرين :

- ربها انه لم يهرب ، وإنما قتلوه أو اعتقلوه ، كما تظن أمي .

- ليس من سبب منطقى يحمل على الظن بوقوع رجل في مثل مكانه
ضحية للشرطة .

- ليس للمنطق علاقة بكونيسي ، ولا بالعالم الذي نعيش فيه .
اثناء حديثها دخلت روسا لتعلن ان هناك امرأة تسأل عن ايرين ، وان
اسمها هو ديفنا رانكيليو .

★ ★ ★

كانت ديفنا تحمل عبء الزمن على كاهلها ، وكانت عينيها قد ابيضتا
لكثرة ما راقبت الطريق متظاهرة . اعتذرت لمجيئها في مثل هذه الساعة المتأخرة
وأوضحت انها اتتها تصرفت بدافع اليأس . لأنها لا تعرف من تتوجه اليه . وحيث
انها غير قادرة على ترك الأولاد وحدهم ، فقد كان يستجحيل عليها أن ت safar في
النهار ، لكن ماميتها انكارنانثيون أبدت استعدادها للبقاء مع الصغار تلك الليلة ،
فأقامت لها طيبة القابلة أن ترك الحافلة إلى العاصمة . رحب ايرين بها ، وقادتها
إلى الصالة وقدمت لها شيئاً تأكله ، لكنها لم تقبل سوى فنجاناً من الشاي .
جلست على حافة الكرسي مخفضة بصرها ، ومسككة في حضنها بكيس مهرباً
أسود اللون . كانت تضع شالاً على كتفيها ، ولم تكن تنورتها الصوفية الباهة
لتغطي نهاية جوربها المطويين عند الركبتين . كان لا بد لها من بذل الجهد للتغلب
على خجلها .

- هل توصلت إلى شيء عن ايفانخيلينا يا سيدتي ؟
نفت الأم ذلك بحركة من رأسها ، وقالت بعد صمت طويل أنها تعتبرها
مفيدة وان الجميع يعلمون ان البحث عن المفقودين مهمة لا تنتهي أبداً . وانها لم
تأت من أجلها ، وإنما من أجل براديليو ، ابنها الاكبر . وخفضت صورتها إلى ما
يشبه الهمس غير المسموع وقالت معتبرة :

- إنه مختبئ .
كان قد فر من الثكنة . ويسبب حالة الحرب القائمة ، فان القرار من الخدمة

قد يكلفه حياته. لقد كان هجر سلك الشرطة في زمن آخر لا يكلف المرء سوء بعض الاجراءات البير وقراطية. أما الآن، فحراس الشرطة يشكلون جزءاً من القوات المسلحة، وهم يقومون بالمهام نفسها التي يقوم بها الجنود في ميدان المعركة. كان براديليو رانكيليوف وضع حرج، لأنه سيلقى مصيرًا سيئاً إذا ما ألقوا القبض عليه، هذا ما ادركه أمه حين رأته وهو مثل حيوان مطارد. كان زوجها هيبوليتو هو الذي يتخذ القرارات الهامة في البيت، لكنه التحق للعمل بأول سيرك نصب خيمته في المنطقة. فما إن يسمع نداء الطليل ملتناً عن أي استعراض، حتى يخرج حقيقته التي تضم لوازم مهمته، ويتحقق بالفرقة منطلقًا في جولات عبر القرى والضياع، ويصبح من الصعب العثور عليه. لم تتجرأ ديغنا كذلك على الحديث عن مشكلتها مع أناس آخرين، بقيت في صراع مع القلق لعدة أيام، إلى أن تذكرت حديثها مع إيرين بيلتران واهتمام الصحافية بالمحنة التي تجثم على بيت آل رانكيلي. وفكرت بأنها الكائن الوحيد الذي يمكنها التوجه إليه.

قالت هامسة :

- يجب إخراج براديليو من البلاد.

- لماذا فر من الخدمة؟

لم تكن الأم تعرف السبب. فقد جاء إلى البيت في أحد الأيام، كان شاحباً ومنهوكاً، بدلته العسكرية مزقة، ونظراته كنظارات محبول. رفض التكلم. كان جائعاً جداً، وبقي يأكل بشراعة لوقت طويل، مالاً فمه بكل ما يجد في المطبخ: بصل نيء، قطع كبيرة من الخبز، لحم قديد، فواكه، شاي. وعندما شبع أستد ذراعيه إلى الطاولة، وأخفى رأسه بينهما، وغفا مثل طفل صغير من الانهاك. حرست ديغنا نومه. وبقيت إلى جانبه لأكثر من ساعة وهي تتأمله لتخيل الطريق الطويل الذي قاده إلى تلك الحالة من الاستنزاف والخوف. ولم يشاً براديليو عندما استيقظ ان يرى أخوته ليحول دون أن يشوا به في لحظة سهو. كان ينوي الهرب إلى الجبال حيث تعجز حتى النسور من العثور عليه. وقال ان غرضه الوحيد من الزيارة هو وداع أمه واخبارها بأنها لن يعودا إلى اللقاء، لأن لديه مهمة يود تنفيذها

حتى لو كلفه ذلك حياته، ويعدها سيتهز فصل الصيف ليجتاز الحدود من أحد المرات الجبلية. لم توجه ديننا رانكيليو أسئلة اليه، لأنها تعرف ابنها: فهو لا يطلع أحداً على أسراره فاكتفت بتذكيره أن محاولة اجتياز الحدود دون دليل بين هذه الجبال اللامتناهية هو عمل جنوني، حتى ولو كان الجوجيداً، لأن كثيرين يضيغون في تلك الأماكن الوعرة ويهيمون على وجوههم إلى أن يفاجئهم الموت، فتغطيتهم الثلوج ويختفون حتى الصيف التالي، حين يصطدم مسافر بيقاياهم. نصحته بالتواري عن الأنظار إلى أن يملأوا البحث عنه أو أن يرحل إلى الجنوب، حيث يمكنه الهرب عبر الجبال الواطئة بسهولة أكبر.

فقطاعها براديليو:

- دعيني وشأني يا أماه. سأفعل ما عليّ عمله وبعد ذلك سأسافر كما أستطيع.

انطلق إلى الجبل يقوده خاثينتو، الأخ الأصغر الذي يعرف هذه الجبال كما لا يعرفها أحد سواه. واختبأ في القمة، حيث صار يتغذى بالسحالي والقوارض والجذور وبعض الطعام الذي يحمله إليه أخوه الصغير بين الحين والآخر. رضخت ديننا لمشيئته بتقرير مصيره بنفسه، ولكن حين فتش الملازم راميريث المنطقة بيتاً بيتاً بحثاً عنه، متوعداً من يتستر ون عليه وعارضاً مكافأة لمن يساعد في القبض عليه، وحين جاء الرقيب فاوستينوريفيرا إلى بيتها في احدى الليالي، وهو بالملابس المدنية، ليحذرها هامساً إذا كانت تعرف مخبأ المارب لتخبره أنهم سيسيطون الجبال إلى أن يجدوا مكانه، فقررت الأم حينئذ ألا تتضرر أكثر. وقالت موضحة:

- الرقيب ريفيرا من العائلة تقريباً، وكان لا بد له من أن يمحذرني. ان فكرة خروج الابن إلى بلد آخر، بالنسبة لمزارعة أمضت حياتها كلها في المكان الذي ولدت فيه، ولم تعرف سوى القرية القرية، تبدو فكرة مستحيلة التحقيق مثلها مثل أخفائه في قاع البحر. لم يكن بإمكانها ان تتصور ان حجم العالم يصل إلى أبعد من الجبال التي تلوح في الأفق، لكنها كانت تخمن ان الأرض

تند إلى مناطق يدور الحديث فيها بلغات أخرى، حيث يعيش أناس من各种 nationalities مختلفه وفي مناخات غريبة، هناك حيث يصبح من السهل فقدان التوجيه الصحيح، ويتبادر سوء الطالع المرء. لكن الذهاب إلى هناك أفضل من الموت على أي حال. كانت قد سمعت عن المفيدين، وهو موضوع صار يتردد بكثرة في السنوات الأخيرة، وكانت تأمل في مساعدة إيرين لتأمين لجوء برايدلي إلى بلد أجنبي. حاولت الشابة أن توضح لها المصاعب التي لا يمكن تجاوزها لتحقيق هذه الفكرة، وأنه لا يمكن مغافلة الحراس المسلمين، والقفز على سور حديدي والدخول دون مجازفة إلى بناء أحدى السفارات، حيث لا يوجد أي دبلوماسي مستعد لتقديم الحماية إلى عنصر فار من القوات المسلحة، وأسباب فراره غامضة. ورأت أن الحل الوحيد هو الاتصال برجال الكردينال.

فقال فرانسيسكو عارضاً معونته:

- يمكنني الاستعانة بشقيقتي خوسيه. لكنه قال ذلك دون حماس، لأنه غير مستعد للمغامرة باطلاع رجل عسكري على سر منظمته، حتى ولو كان هذا العسكري هو مجرد شرطي بائس يطارده رفقاء. ثم أضاف قائلاً: - للكنيسة أساليب خفية في الإنقاذ، لكنها تطالب بمعرفة الحقيقة يا سيدتي، ابني بحاجة للتحدث إلى ابنك.

أوضحت له ديغنا أنه متواجد في كهف في الجبال، على ارتفاع يصعب التنفس فيه، وللوصول إليه لا بد من تسلق منحدر لا يمكن للهاعز أن تسلقه، والبحث فيه عن موطن قدم بين الأحجار والأشواك. ليس الوصول إليه بالنزهة السهلة، فالطريق طويق وشقاق لم هو غير معتمد على التسلق.

قال فرانسيسكو:

- سأحاول.

فقررت إيرين:

- إذا أنت ذهبت، فسأذهب معك.

استلقت المرأة في تلك الليلة على الفراش الذي أعدته لها إيرين على

عجل ، وأمضت الساعات وهي تتأمل السماء الصافية بعينين ذاهليتين . وفي اليوم التالي انطلق الثلاثة إلى لوس ريسكوس في سيارة بيتريس ، بعد أن أحضرت الفتاة من مستودع المؤونة كيساً من المؤن لبراديليو . الملح فرانثيسكو إلى صعوبة تسلق الجبل مع هذا الحمل الرهيب ، لكنها تطلعت إليه ساخرة ، فلم يلعن على الأمر .

أنباء الطريق روت لها الأم كل ما توصلت إليه عن مصير إيفانخيلينا المسؤول ، منذ اللحظة التي قادها فيها الملائم والرقيب إلى سيارة الجيب ليلة الأحد التي لا تنسى . انطلقت صرخات الصبية في البراري منبهة الظلال إلى أن أطبقت فمها صفعة قوية جعلتها تتوقف عن الرفس والصياح . وفي مقر الشرطة رأهم عريف الحرس عند وصولهم ولم يتجرأ على السؤال عن المعتقلة ، مكتفياً بالنظر إلى ناحية أخرى . وفي اللحظة الأخيرة ، حين شدّها الملائم بقوة جعلتها تقفز في الهواء وحملها إلى مكتبه ، أحس الرقيب بالأسى وتجراً على الطلب منه أن يرأف بها ، لأنها مريضة ولأنها كذلك أخت رجل من رجال الموقع ، لكن رئيسه صفق الباب في وجهه ولم يسمع له بمماطلة الكلام ، فانطبق الباب على طرف قميص نوم الفتاة الأبيض ، وبقيت مزقة منه معلقة هناك مثل حمامه جريحة . انطلقت بكاء دام لحظة ثم ساد الصمت .

كانت ليلة بلا نهاية بالنسبة للرقيب فاوستينوريفيرا . لم ينم لأنه أحس بقلبه مثقلًا . تسلى بالتحدث إلى عريف الحرس ، وتجول في الموقع ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام ، ثم مضى ليجلس تحت افريز سطح اصطبل الخيول ويدخن سجائره القوية ذات التبغ الأسود ، يلفحه نسيم الفصل الدافئ ، ويشم رائحة ازهار الأشواك البعيدة والرائحة الأخرى المتبعة من روث الخيل الطازج . كانت ليلة مفعمة بالنجوم ومنيرة ، يلفها صمت مطبق . وبقي هناك لوقت طويل دون أن يعرف سبب انتظاره ، ورأى ظهور أول بوادر الفجر ، التي يلاحظها أولئك الذين ولدوا على اتصال مع الطبيعة واعتادوا الاستيقاظ مبكرين . وفي الساعة الرابعة وثلاث دقائق بالضبط ، كما قال لدیغنا رانكيليو ، وأعاد قوله فيما بعد دون ان

تمكنت التهديدات من اسكاته ، رأى الملائم خوان دي ديوس راميريث يخرج وبين يديه حمل ثقيل . ورغم بعد المسافة وانتشار الظلام إلا انه لم يشك في أنها إيفانخيلينا . كان الملائم يتربع قليلاً ، ولكن ليس بسبب السكر ، لأنه لا يشرب على الاطلاق في ساعات الخدمة . كان شعر الفتاة الطويل يكاد يلامس الأرض ، ولدى مروره في الممر المفروش بالحصى والمؤدي إلى المرآب ، لامست أطراف الشعر الحصى . وسمع ريفيرا من مكانه أنفاس الملائم المضطربة وأدرك أن ذلك لم يكن نتيجة الجهد الذي يبذله ، لأن جسد المعتقلة التحيل كان خفيفاً بالنسبة له ، هو الضخم ذو العضلات والمعتاد على ممارسة التمارين الرياضية . لقد كان يتنفس مثل منفاخ بسبب عصبيته . رأه يضع الفتاة على المنصة الاستمنية التي يستخدمونها في إفراغ شحنات المؤونة . كانت أنوار الكشافات تدور طول الليل في أعلى برج المراقبة تحسباً لمجئات محتملة ، فأضاءات لدى مرورها وجه إيفانخيلينا الطفولي . كانت عيناها مغمضتين ، ولكنها ربما كانت على قيد الحياة ، لأنه بدا للرقيب أنها تئن . اتجه الملائم إلى الشاحنة الصغيرة البيضاء ، فصعد إلى مقعد القيادة وأدار المحرك ، ثم رجع ببطء نحو المكان الذي ترك فيه الصبية . نزل ، وحملها بين ذراعيه ليضعها في القسم الخلفي من السيارة ، في الوقت الذي كانت فيه حزمة نور الكشاف تكتنس المكان . وقبل ان يغطيها الملائم بقطعة مشمع ، رأى فاوستينوريفيرا إيفانخيلينا ملقة على جانبها ووجهها مغطى بشعرها فيما قدماها الحافيتان تطلان من بين ثنياها العباءة . رجع رئيسه إلى المبني ، واحتفى وراء باب المطبخ ليعود للظهور بعد لحظة وهو يحمل رفشاً ومعولاً وضعهما إلى جانب الفتاة . صعد اثر ذلك إلى الشاحنة وتوجه بها نحو المخرج . تعرف حارس البوابة على قائدته ، فحياه بصرامة وفتح الباب الثقيل . وابتعدت السيارة على الطريق باتجاه الشمال .

انتظر الرقيب فاوستينوريفيرا مراقباً ساعته ، ودخن سيجارتين وهو يجلس القرفصاء في ظل الأصطبلات . كان يتحرك بين الحين والأخر لينشط ساقيه ، وغلبه النعاس لللحظة ، ففعلاً مستندأ إلى الجدار . ومن موقعه كان قادرًا على رؤية

كوخ الحارس ، حيث كان العريف أغناسيو برافوريمارس العادة السرية للتخلص من السم ، دون أن يرتاب بوجوده قريباً منه . عند الفجر انخفضت درجة الحرارة وأبعدت البرودة النعاس عن عينيه . وحين رجعت الشاحنة كانت الساعة تشير إلى السادسة ، وكان الأفق قد اصطبح بألوان الفجر .

سجل الرقيب فاوستينوريفيرا كل ما شاهده في الدفتر الصغير المتهريء الذي يحمله معه دوماً . كان مهوساً بتدوين الاحداث الهامة والتافهة ، دون ان يتصور أن ذلك سيكلفه حياته بعد بضعة اسابيع . راقب من خبيئه الضابط وهو ينزل من السيارة ويشد أحزمة وقرب مسدسه ثم يتجه إلى المبنى . دنا الرقيب من الشاحنة ، وليس الرفض والمعلول وتأكد من وجود تراب طازج على حواهها . لم يدر ما معنى ذلك ولا ما الذي فعله الضابط أثناء غيابه ، حسبما قال لدعيانا رانكيليو ، ولكن بامكان أي كان أن يخمن الأمر .

توقفت السيارة التي كان يقودها فرانثيسكوليال أمام بيت آل رانكيليو . خرج جميع الصبيان ليحيوا أمهم والزائرين ، لأن أحداً منهم لم يذهب إلى المدرسة . ومن ورائهم برزت ماميتا انكارناثيون بصدرها الذي يشبه صدر حمام ، وشعرها القاتم المضفور فوق رأسها والثبت بدبوس ، وساقيها الملتوتين والمصابتين بالدوالي . إنها عجوز رائعة ، واجهت كوارث الحياة بعزيمة ورباطة جأش .

قالت لهم :

- تفضلوا واستريحوا في الداخل ، سأقدم لكم الشاي .

★ ★ *

قادهما خاينتو إلى مكان براديليو ، فهو الوحيد الذي يعرف خبأ أخيه ويدرك ضرورة حفظ هذا السر ولو كلفه ذلك حياته . أسرعوا الحصانين اللذين يملكونها آل رانكيليو ، وركب الصغير مع اييرين على فرس بينما امتطى فرانثيسكوبهيمة أخرى قاسية الملامح وعصبية . لم يكن قد ركب جواداً منذ زمن طويل ، فكان يشعر

وهو على صهوتها بعدم الأمان. انه قادر على ركوب الخيل دون فن ، ولكن بثبات ، ذلك انه كان يتردد في طفولته على بستان أحد الأصدقاء ، حيث تألف مع الفروسية . أما ايرين ، فهي فارسة مجربة ، لأنها كانت تلك فرسها الخاصة في حقبة الوفرة الاقتصادية لأبوها .

اتجهوا نحو سلسلة الجبال ، صاعدين درباً وعراً ومقفرًا لا يستخدمه أحد في الأحوال العادلة ، مما جعل ملاحمه شبه مطموسة . وبعد مسيرة قصيرة أخبرهما خاينيتوباهم لا يستطيعونمواصلة التقدم على الدابتين ، وأنه عليهم الصعود بين الأحجار باحثين عن التنوءات الصخرية ليستندوا عليها . وربطوا البهيمتين إلى بعض الأشجار وبدأوا الصعود مشياً على الأقدام ، يساعد احدهم الآخر في المنحدرات الوعرة . كانت حقيقة المعلمات تقل كتفي فراثيسكو وكأنها مدفوع ، فكاد ان يطلب من ايرين ان تحملها البعضعة أمتار كونها هي التي أصرت على احضارها ، لكنه أشفق عليها حين رآها تلهث مثل من يختضر . كانت راحتا يديها قد تجرحتا من الصخور وتقرق بنطاحها عند احدى ركبتيه ، وكانت تتعرق بغزاره وتسأل في كل لحظة كم بقي أمامهم للوصول . وكان الصغير يرد بالاجابة نفسها دوماً : هناك فقط ، وراء هذا المرتفع . وظلوا على هذه الحال وقتاً طويلاً تحت الشمس القاسية ، ينهكهم التعب والعطش ، إلى أن أعلنت ايرين أنها عاجزة عن التقدم ولو خطوة واحدة .

قال خاينيتوب منها :

- ليس الصعود بالأمر المهم . انتظري النزول .

نظروا إلى أسفل ، وأطلقت ايرين شهقة من اعماقها . كانوا قد تسلقوا كالماعز فوق جرف خطير ، متمسكين بأي نبتة ناتئة بين تلك الصخور الوعرة . ومن بعيد تبینوا الأشجار التي تركوا عندها الدابتين فكانت تبدو مجرد بقع قائمة .

تمتمت ايرين وهي تتحني مفتونة بالهوة التي تمتد تحت قدميها :

- لن أستطيع النزول من هنا أبداً . اني أشعر بدوار .

فامسكها فرانتيسكوفا قائلًا :

- إذا كنت قد صعدت ، فيمكنك النزول .

وقال الصغير :

- تشجعي يا آنسة ، انه هناك ، وراء هذا المرتفع .

رأى ايرين نفسها تترنح في قمة جبل ، متأوهة من الرعب ، فانتصرت حيئذ قدرتها للتغلب على كل شيء . جمعت قواها ، وأمسكت بيد صديقها وأعلنت أنها مستعدة لمواصلة المسير . تركوا جعبة المؤونة ، مفكرين بالرجوع لأخذها فيما بعد ، فاستطاع فرانتيسكوفي الذي تحرر من ثقل كان ينبع عضلاته ، ان يساعد ايرين . بعد عشرين دقيقة من ذلك وصلوا إلى التواء في الجبل ، حيث برزت فجأة ظلال أشجار عالية ومسيل ماء ينحدر بين الصخور ، فأدركوا ان براديليو قد اختار هذا المكان لوجود النبع ، الذي يستحيل العيش بدونه في هذا الجبل المفتر . انحنوا على الجدول ليروّبوا وجوههم ، وشعرهم ، وملابسهم . وحين رفع فرانتيسكوفا رأسه ، رأى الحذاء المهزئ أولًا ، ثم البنطال القطبي الأخضر ، وبعد ذلك الصدر العاري الذي لوحته الشمس ، وأخيراً قابلاً وجه براديليو دل كارمن رانكيليو الأسمر ، الذي كان يتصوّب سلاحه العسكري اليهما . كانت لحيته قد طالت ، وانقض شعره المعجون بالغبار والعرق مثل طحالب كوكبية .

قال خاثيتو :

- لقد أرسلتها أمي . إنها آتياً لمساعدتك .

أنزل رانكيليو المسدس وساعد ايرين على الوقوف ، ثم قادها إلى كهف ضليل وبارد تحفي مدخله نباتات كثيفة وصخور . وهناك انبطحا على الأرض ، فيما قاد الصغير شقيقه بحثاً عن الحقيقة المترفة . وعلى الرغم من صغر سن خاثيتو وتحول جسده ، إلا انه كان يبدو نشيطاً كما كان عند بدء الرحلة . بقي فرانتيسكوفي وآيرين وحدين لوقت طويل . فنامت هي على الفور ، كان شعرها مبللاً وبشرتها محروقة . توقفت حشرة على عنقها ثم تقدمت إلى خدتها ، لكنها لم تشعر بها . فهز

فرانثيسكويده لهشها مبللاً وجه الشابة الناعم والدافئ مثل ثمرة صيفية. أuje به انسجام تقاطيعها، وبريق شعرها، وترانخي جسدها وهي نائمة. رغب في لسها، والانحناء لسماع أنفاسها، واحتضانها بين ذراعيه وحاليتها من الهواجس التي تعذبه منذ بدء هذه المغامرة، إلا ان الارهاق ما يلبي ان تغلب عليه أيضاً، فنام. لم يتبعه إلى مجيء الاخرين، ولذلك استيقظ فرعاً حين لمسا كتفه.

كان براديليو مارداً، يشد الانظار بجسمه الهائل الذي لا تفسير له وسط اسرة من أناس ضئيلين كاسرتته. جلس في المغارة، وفتح الحقيقة ببراعة ليستخرج كنوزها، داعب علبة سجائر بحنان مستبقاً متعة التدخين، فبدا مثل طفل در جسده. كان قد نحل كثيراً، وغارت وجنتاه وأحاطت بعينيه هالتان زرقاواناً منحه مظهر المصاب بشيخوخة مبكرة. كان جلدته مدبوغاً بشمس الجبال، وشفاته مشققتان وكفتاه مجرّحان تعطى فيها القشور والبثور. وبدأ وهو منحن في هذه المغارة المفتوحة في الصخر الأصم مثل قرصان معتوه. كان يستخدم يديه بحذر شديد، وكأنه يخشى أن يتلف ما يمسه بهاتين اليدين وأظافرهما المقروضة والقدرة. وبدأ في إسائه كمالوانه قد كبر فجأة، دون ان يتاح له الوقت الكافي للاعتياض على أبعاد جسده، وكأنه عاجز عن تقدير طول أطرافه وزنهما، فيصطدم بما حمله في بحثه الدائم عن وضع مناسب. لقد عاش في هذا الوكر الضيق أياماً طويلة، متغذياً بالأرانب البرية والجرذان التي يصطادها بالحجارة. زائره الوحيد هو خاثينتو، صلة الوصل بين عالمه المفتر ودنيا الأحياء. كان يشغل وقته بالصيد، دون استخدام سلاحه الناري الذي يحتفظ به لحالات الطوارئ. صنع مقلاعاً وشحذ الجوع حسن تصويبه بهذه الاداة لاقتراض الطيور والقوارض عن بعد. كانت تبعث من أحد أركان المغارة رائحة عفونة تشير إلى المكان الذي يكوم فيه ريش ضحاياه وجلودها الجافة، كي لا يترك أي أثر في الخارج. وليتغلب على الملل، كانت لديه بعض روایات رعاء البقر التي ارسلتها اليه أمه، فكان يقرأ فيها أطول وقت ممكن لأنها تشكل وسيلة التسلية الوحيدة في أيامه البطيئة. كانت تنتابه مشاعر الناجي الوحيد من كارثة شاملة، ولوحدته وشدة يأسه صار يحن إلى زنزانته في الثكنة.

قالت ايرين وهي تبعد النعاس الذي تغلغل في روحها:

- كان عليك ألا تفر من الخدمة.

- إذا أمسكوا بي فيسرموني بالرصاص. عليّ أن أجد ملجاً يا آنسة.

- سلم نفسك فلا يرمونك بالرصاص ..

- ابني ضائع على أية حال.

أوضح له فراثيسكي مصاعب الحصول على لجوء سياسي في مثل حالته.

وانه بعد مرور كل هذه السنوات على الدكتاتورية لم يعد هناك من يغادر البلاد بهذه الطريقة. ونصحه بالاختفاء لبعض الوقت، ريشاً يحاول الحصول له على وثائق مزيفة يمكنه الانتقال بها إلى مقاطعة أخرى ليبدأ فيها حياة جديدة. ظنت ايرين أنها لم تسمع ذلك جيداً، لأنها غير قادرة على تصور أن يكون صديقها من يتاجرون بالوثائق المزيفة. فتح براديليو ذراعيه في حركة يائسة وفهمها انه يستحيل عليه خداع عيون الشرطة بهذه القامة التي كشحرة سرو وبوجه الجندي الفار الذي له.

قالت ايرين باصرار:

- اخبرنا عن سبب فرارك.

- من أجل ايفانخيلينا، شقيقتي.

حيشد، وشيشاً فشيئاً، راح يروي الحكاية، باحشاً عن الكلمات في مياه صمته المعتمدة الراءكة، قاطعاً حديثه باطراقات طويلة. وما لم يقله ذلك المارد، سألته عنه ايرين وهي تنظر إلى عينيه. وما صمت عنه استطاعا ادراكه من خلال تحجله، ومن بريق دموعه وارتعاش يديه الضخمتين.

★ ★ ★

حين بدأت الشائعات تدور حول ايفانخيلينا ومرضها الغريب الذي يجذب الفضوليين ومحطم اسمها الطيب، ويضعها في مرتبة المجاذيب، فقد براديليو

رانكيليو لذة النوم. وبين جميع أفراد اسرته كانت هي المحببة اليه اكثر من سواها، وقد نما هذا الشعور لديه مع مرور الزمن، فلم يكن هناك ما يُفرح قلبه كتعليمه تلك الطفلة النحيلة، ذات الشعر الأشقر، المختلفة تماماً عن آل رانكيليو، أول خطواتها. حين ولدت، كان هو في مطلع صباح، له قامة أطول وبنية أمنة من هم في مثل سنها. وكان معتاداً على أداء أعمال الكبار وتولي مسؤوليات الأب الغائب. لم يكن يعرف اللهو ولا الحنان. فديغنا تقضي حياتها حبل أو مرضعة وليديها الأخير، دون أن يمنعها ذلك من العمل في الأرض وإنجاز الأعمال المنزلية، لكنها كانت تحتاج لمن تستند اليه. فكانت تشق بابها وتحوله السلطة تجاه اطفالها الآخرين. وكان براديليو يتصرف كرب البيت في مجالات كثيرة. وقد مارس هذا الدور منذ صباح المبكر، ولم يكن يتخلّى عن ممارسته حتى عند عودة أبيه إلى البيت. وفي احدى المرات تجرأ على مواجهة أبيه وهو مغمور، ليمنعه من ضرب ديغنا، فجعلت هذه الوقفة منه رجلاً. كان الفتى نائماً يومئذ، واستيقظ لدى ساعه نحيباً مكتوماً، فقفز من السرير وأطل من وراء الستارة التي تفصل الركن حيث ينام أبواه. رأى هيبيوليتو رافعاً يده، وأمه حنكمشة مثل لفافة خيطان على الأرض، تغطي فمهما كي لا توقف الصغار بشهقاتها. لقد رأى مشاهد مشابهة في أحياناً أخرى، وكان يرى في أعقابه أن للرجال الحق بمعاقبة المرأة والأولاد، لكنه لم يستطع كبح نفسه في هذه المرة، إذ أعمت عينيه غلالة من الغضب، فقفز دون تفكير على أبيه يضربه ويشتمه إلى أن توسلت إليه ديغنا أن يتوقف، لأن اليد التي تند على الآبوين تحول إلى حجر. في اليوم التالي استيقظ هيبيوليتو وجسده مليء بالبقع الزرقاء الداكنة. وكان ابنه موجوداً من الجهد الذي بذله، إنما دون أن يتحول أي طرف من أطرافه إلى حجر، كما تؤكّد الخرافات الشعبية. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي استخدم فيها هيبيوليتو العنف مع أفراد اسرته.

كان براديليو دل كارمن رانكيليو يضع في ذهنه دوماً ان اي فانخيلينا ليست شقيقته. الجميع كانوا يعاملونها كما لو كانت كذلك، أما هو فرأها بعينين مختلفتين منذ صغرها. وبذرية مساعدة أمه كان يحمّها، ويؤرّجحها ويطعمها. وكانت

الطفولة تعبده، فتستغل أي مناسبة للتعلق بعنقه، وتندس في سريره، وتتکور بين ذراعيه . وكانت تلحق به إلى كل مكان مثل كلب وفي، وتطارده بأسئلتها، وتود سماع حكاياته ولا تغفو إلا على أغانيه . كان اللعب مع ايفانخيلينا مشحوناً بالقلق، وقد تحمل براديليو الضرب مرات ومرات لأنه كان يداعبها، دافعاً بذلك ثمن خطيبته .. خطيبة الأحلام المبللة، حيث كانت تستدعيه بآيات فاحشة، خطيبة مراقبتها حين تتحنى لتبول ما بين الشجيرات، خطيبة ملاحقتها إلى الساقية عند ذهابها للاستحمام، خطيبة ابتداع ألعاب محمرة يختبئان فيها بعيداً عن الآخرين ليتبادلوا المداعبات حتى الانهاك . وبغريرة الاغراء التي لدى جميع النساء، كانت الطفلة تحفظ السر المشترك مع أخيها الأكبر وتتصرف بتكتم أيضاً . كانت تستخدم مزيجاً من البراءة والوقاحة، من التغنج والخفر، لتبعث فيه الجنون، وتبقي على حواسه متوقفة، وتبقيه أسيراً . ولم يجد قمع أبوه ومراقبتها إلا في تأجيج اللهيـب الذي يكوي دماء براديليو المراهق . قاده ذلك للبحث عن موسمات في وقت مبكر، لأنـه لم يجد السلوى في متعته المنفردة بالصبية . كان ايفانخيلينا ما تزال تلعب بالدمى حين حلم بامتلاكها، مقدراً أن قوة اندفاع ذكورـه قادرـة على اختراقـها كسيـف . كان يجلسـها على ساقـيه ليـساعدـها في وظائفـها المدرـسـية، وخلال بحـثـه عن الإـجـابةـ علىـ المسـائلـ التيـ فيـ الدـفـرـ، يـشعـرـ بـعـظـامـهـ تـذـوبـ وـيـشيـءـ دـافـءـ ولـزـجـ يـتـقدـ فيـ عـرـوـقـهـ؛ فـتـخـورـ قـوـاهـ، وـيـفـقـدـ الـقـدـرـ الـذـهـنـيـةـ عـلـىـ الـفـهـمـ، بلـ وـتـفـادـرـ الـحـيـاةـ بـسـبـبـ رـائـحةـ شـعـرـهاـ الـدـخـانـيـةـ، وـرـائـحةـ الـكـلـوـرـ الـمـبـعـثـةـ مـنـ ثـيـابـهاـ، وـعـرـقـ عـنـقـهاـ، وـتـقـلـ جـسـدـهاـ فـوـقـ جـسـدـهـ؛ وـيـرـىـ آهـ عـاجـزـ عـنـ اـحـتـمالـ كـلـ ذـلـكـ دونـ أنـ يـعـوـيـ كـلـبـ شـبـقـ، وـدـوـنـ أـنـ يـنـقـضـ عـلـيـهـ لـيـلـهـمـهاـ، وـدـوـنـ أـنـ يـهـرـعـ إـلـىـ حـيـثـ أـشـجـارـ الـحـورـ لـيـعـلـقـ نـفـسـهـ مـنـ عـنـقـهـ عـلـىـ أـحـدـ الـأـغـصـانـ كـيـ يـدـفـعـ بـمـوـتـهـ ثـمـنـ جـرـيمـةـ عـشـقـ اـنـتـهـ بـهـذـهـ الـحـاطـفـةـ الـجـهـنـمـيـةـ . كانتـ الطـفـلـةـ تـهـيـجـهـ وـتـحـرـكـ فوقـ رـكـبـيـهـ ضـاغـطـةـ، مـتـرـغـةـ، مـدـلـكـةـ، إـلـىـ آنـ تـرـاهـ يـثـنـ مـخـنـقـاـ، يـضـغـطـ عـقـدـ أـصـابـعـهـ عـلـىـ حـافـةـ الطـاـوـلـةـ وـيـتـبـسـ، وـيـلـفـهـمـاـ مـعـاـ شـذـىـ نـفـاذـ وـحلـوـ . ولـقـدـ اـسـتـمـرـتـ هـذـهـ الـأـلـعـابـ طـرـالـ طـفـولـتـهـ .

خرج بارديليو رانكيليو من بيته وهو في الثامنة عشرة لاداء الخدمة العسكرية، ولم يرجع. وقد قال لايرين وفرانثيسكوفي ذلك الكهف الجبلي معتبراً:
- ذهبت كي لا ألوث يدي باختي.

بعد انتهاء خدمته العسكرية، التحق فوراً بسلك الشرطة. وبقيت ايفانخيلينا خائبة وتائهة، دون أن تفهم سبب ذلك الهجر، يسحقها قلق لا تعرف له اسمأً وكان موجوداً في قلبها قبل وقت طويل من استيقاظ غددها. وهكذا هرب براديليو من قدره كفلاح فقير، ومن طفلة بدأت تحول الى امرأة، ومن ذكريات طفولة منكوبة بالليل الى زنا المحارم. وفي السنوات التالية احرز جسده أبعاده النهائية ووجدت روحه نوعاً من السلام. ثم جاءت الاحداث السياسية لتجعله ينضج ولتسكن من فتنه ايفانخيلينا في نفسه، إذ تحول بين يوم وليلة من شرطي ريفي تافه إلى رجل في السلطة. صار بري الخوف في عيون الآخرين، وأعجبه ذلك. أحس انه مهم، وقوى وذو جرودت. ففي الليلة التي سبقت الانقلاب العسكري أخبروه ان العدو ينوی إبادة الجنود ليقيم نظاماً استبدادياً سوفيتياً. لا شك أن هذا العدو كان خصماً خطيراً وذكياً، لأن أحداً لم يتبه حتى ذلك اليوم إلى تلك المخططات الدموية، باستثناء قادة القوات المسلحة، الحريصين دوماً على المصالح الوطنية. ولو لم يبادر هؤلاء القادة إلى تحمل مسؤoliاتهم، لغرقت البلاد في حرب أهلية، أو لكان الروس قد احتلواها، هذا ما أوضحه له الملازم خوان دي ديوس راميريث. وقد جاء حسن تصرف الجنود وشجاعتهم، ومن بينهم رانكيليو، لينقد الشعب من مصير رهيب. لهذا أشعر بالاعتزاز وأنا أرتدي الزي العسكري، رغم وجود أمور لا تعجبني. أنا أنفذ الأوامر دون أسئلة، لأنه إذا ما بدأ كل جندي بمناقشة قرارات رؤسائه، فسيتحول كل شيء إلى فوضى وسيذهب الوطن إلى الجحيم. كان عليَّ أن اعتقل أناساً كثيرين، لا أستطيع انكار ذلك، بل وبينهم بعض المعارف والأصدقاء مثل آل فلوريس. انه لأمر سيء انضمما آل فلوريس إلى النقابة الفلاحية. كانوا يبدون اناساً طيبين ولم يكن ليخطر ببال أحد انهم يفكرون بمهاجمة الشكنة. انها فكرة سخيفة.. . كيف فكر انطونيو فلوريس وأولاده

بمثيل هذه الحماقة؟ كانوا أذكياء و المتعلمين. لحسن الحظ أن أصحاب العقارات المجاورة أخبروا ملازمي رامي بـث بأنهم استطاعوا التصرف في الوقت المناسب. كان اعتقال آل فلوريس أمراً شائعاً بالنسبة لي. ما زلت أذكر صرخات إيفانخيлина المستبدلة حين قدنا رجال اسرتها. التي صرخها لأنها شقيقة الحقيقة، فهي من آل رانكيليو مثلثي تماماً. أجل، كان هناك معتقلون كثيرون في تلك الفترة. وقد أجبرت بعضهم على الإدلاء باعترافات عن طريق حشرهم في الاصطبات وهم مقيدو الأقدام والأيدي وضربيهم دون رحمة. ورمينا بعضهم بالرصاص أيضاً وفينا بأعمال لا يمكنني الخوض فيها لأنها أسرار عسكرية. كان الملازم يثق بي، ويعاملني كابنه؛ وكنت احترمه وأقدره. كان قائداً طيباً وكان يكلفني بمهام خاصة لا ينفع فيها الضعفاء والمتشددين من أمثال الرقيب فاوستينوريفيرا، الذي يفقد عقله إذا تناول كأساً من البيرة وينبذ بالثرثرة مثل عجوز شمطاء. كثيراً ما كان ملازمي يقول لي: رانكيليو، ستصل بعيداً جداً لأنك صامت مثل قبر ولأنك شجاع كذلك. فالكتنان والشجاعة هما أفضل خصال الجندي.

وفي ممارسة براديليو للسلطة، فقد الخوف من خططياته وتمكن من التخلص من شبح إيفانخيلينا، اللهم إلا أثناء زيارته لبيته. لأن الصبية كانت تعود حينئذ إلى أقلاق دمائهما بمداعباتها كطفلة بلهاء، ولكنها لم تعد تبدو طفلة، فقد صارت لها مظهر امرأة مكتملة. يوم رآها منحنية إلى الوراء وهي ترتعش وتتأوه مقلدة الفعل الجنسي بشكل مضحك، صفعته العذابات الدافئة التي كاد ينساها. ولاقصائهما عن مخيلته جـا إلى أساليب يائسة، مثل الحمامات الطويلة في المياه المثلجة عند الفجر وتناول مرارة الدجاج مع الخل، ليرى أن كان البرد في عظامه والحمد في أحشائه يعيـدان اليـه الـاتـزانـ، لكن ذلك كلـه كان بلا جـدوـيـ. واخـيراً روـيـ كلـ شيءـ للملـازـمـ خـوانـ ديـ دـيوـسـ رـاميـ بـثـ، الذيـ يـربـطـهـ بهـ توـاطـؤـ قدـيمـ.

فـأـكـدـ لهـ الضـابـطـ بـعـدـ أـنـ سـمعـ الحـكـاـيـةـ الغـرـيـةـ الشـاذـةـ:

أـنـ سـأـتـولـيـ أـمـرـهـنـهـ المشـكـلـةـ ياـ رـانـكـيلـيوـ. جـيـلـ أـنـ يـفـضـيـ لـيـ رـجـالـيـ بـمـشاـكـلـهـ. لـقـدـ أـحـسـنـ صـنـعـاـ بـالـثـقـةـ بـيـ.

في يوم الفضيحة التي وقعت في بيت آل رانكيلي وبالذات ، أمر الملازم رامير يث بحجز براديليو في الزنزانة الانفرادية ، دون أن يقدم له أية ايساحات .

بقي الشرطي هناك لعدة أيام يعيش على الخبز والماء دون معرفة السبب الذي استدعى عقوبته ، رغم اقتناعه بأن للأمر علاقة بتصرف اخته غير اللبق . ولدى تفكيره بذلك لم يكن يستطع منع نفسه من الابتسام . كان يدلوه مستحيلاً أن تكون هذه البنت التافهة مثل دودة ، وأهزلة التي ليس لها نهدان كالنساء ، وإنما شيء أشبه بحبي خوخ بارزتين بين أضلاعها ، قد تذكرت من رفع الملازم في الهواء وهزه مثل مسحة أمام مرؤوسه . ظن أنه رأى ذلك في الحلم ؛ فربما ان الجوع والوحدة واليأس قد شوشت ذهنه ، وربما ان كل ذلك لم يحدث مطلقاً . فيسأل نفسه عنئذ عن سبب اعتقاله . إنها المرة الأولى التي يُعتقد فيها ، فهو لم يعرف إلاً كهذا حتى أثناء خدمته العسكرية . لقد كان مجندًا مثالياً كما كان شرطياً جيداً خلال سنوات عديدة . كان ملازمته يقول له : رانكيلي ، يجب ان تكون البเดلة العسكرية هي مثلك الأعلى الموحيد ، عليك بالدفاع عنها والثقة برؤسائك . وهذا ما فعله على الدوام . علمه الضابط قيادة السيارات في الثكنة وجعل منه سائقه الخاص . كانا يذهبان معاً في بعض الأحيان لتناول زجاجة بيرة ولزيارة المؤسسات في لوس ريسكونس ، كصديقين حميمين . وهذا تجراً على اخباره بأمر التوبات التي تصيب اخته ، الحجارة التي تسقط على السطح ، ورقص الفناجين وهياج الحيوانات . قال كل ذلك دون أن يتصور أنه سيذهب مع ذريته من الرجال المسلمين لاتهما حرمة بيت أبويه ، وان ايقان خليلينا ستجعل منه اضحوكة وتمرغه في تراب الفناء .

كان رانكيلي يشعر بالراحة في عمله . كان روحًا بسيطة غير قادر على اتخاذ القرارات ، فهو يفضل الطاعة بصمت ، ويرى أن وضع مسؤولية أعماله في يد

الآخرين أكثر سهولة. كان يتلعم عند الكلام ويقضم أظافره حتى جذورها،
تاركاً أصابعه تدمى وكأنها مبتورة.

اعذر أمام ايرين وفرانسيسكو:

- لم أكن أقضمها في السابق.

كان يشعر في الحياة العسكرية القاسية بسعادة أكبر من تلك التي يشعر بها في بيت والديه. ولم يكن يحب العودة إلى الريف. ففي القوات المسلحة وجد مهنة، ومصيرًا وأسرة أخرى. كان يتمتع بقوة جاموس تساعدته على الصمود في المناوبات وفي أقسى التدريبات، وفي ليالي الحراسة. وكان رفيقاً طيباً، يتخلى عن وجنته لرفيق جائع وعن دثاره لمقرر. وكان يتحمل المراوح الثقيلة دون تذمر، ولا يفقد طيب مزاجه، ويشارك في الضحك حين يسخرون من جسده الفظ ومن عضو ذكورته الضخم. وكانتوا يسخرون كذلك من حماسه في إداء عمله، وحمله الدائم في تقديم حياته في سبيل العلم كبطل. وفجأة انهار كل هذا. لم يكن يعرف سبب وجوده في هذه الزنزانة، ولم يكن قادرًا على حساب الزمن الذي يمضي عليه فيها. اتصاله الوحيد بالعالم الخارجي كان ببعض الكلمات يهمس بها إليه الرجل المكلف بحمل الطعام إليه. وقد قدم له السجائر في مناسبتين ووعده باحضار رواية عن رعاة البقر أو مجلة رياضية، رغم عدم وجود نور ليقرأها عليه. وفي هذه الأيام تعلم العيش بالتممة، وبالآمال، وبالخدع الصغيرة للتغلب على الضجر. لقد شحد جميع حواسه في محاولة للمشاركة في الحياة الخارجية؛ ومع ذلك، كانت وحدته رهيبة في بعض اللحظات حتى ليخيل إليه أنه ميت. كان يسمع الجلبة التي تدور في الخارج، ويعرف موعد استبدال الحرس، ويخصي السيارات الداخلة إلى الفناء والخارجية منه، وأحكم سمعه للتعرف على الأصوات، ووقع الخطأ التي يشوهها المبعد. كان يحاول النوم لكي يمضي الوقت بسرعة، لكن العطالة والكتابة أقصت النوم عن عينيه. لقد كان بإمكان رجل أضال منه أن يتمدد أو أن يمارس بعض التمارين في هذا المجال، أما رانكيليو فكان كالملقيد. عشش قمل الفرشة في رأسه وتکاثر بسرعة مذهلة. وصارت الصيбан تقرصه تحت ابطيه وفي

عانته وتضطربه إلى الحلك حتى يدمى . كان لديه سطل لقضاء حاجته فيه ، وحين يمتليء تصبح التنانة هي عذابه الأعظم . فكر ان الملازم راميريث يختبره . وانه ربما يريد التأكيد من مقاومته وصلابة طبعه قبل أن يكلفه بمهمة خاصة ، ولهذا لم يلتجأ إلى الاستئناف الذي له الحق فيه خلال الأيام الثلاثة الأولى . حاول الاحتفاظ بالهدوء ، والصمود وعدم البكاء أو الصراخ كما كان يفعل جميع المعزولين تقريباً . أراد أن يقدم مثلاً في الصلابة الجسدية والمعنوية ، كي يقدر الضابط معدنه ، وليثبت له انه لن يضعف حتى في أقسى ظروف القسوة . حاول المشي في دائرة لينشط عضلاته ويحول دون خدرها ، فاستحال عليه ذلك ، لأن رأسه كان يصطدم بالسقف ، وكانت ذراعاه تصطدم بالجدار إذا ما حاول شدهما . لقد اعتقلوا في بعض الأحيان ستة أشخاص في هذه الزنزانة ذاتها ، ولكن لأيام قليلة فقط ، وليس مثل هذا العدد من الأيام التي أمضاها هو ، ثم أن أولئك لم يكونوا معتقلين عاديين ، وإنما أعداء للأمة ، وعملاء للسوفيت وخونة ، كما قال له الملازم بكل وضوح . ان جمود الجسد الا ضطاري هذا بدأ يتسرّب إلى ذهنه أيضاً ، هو المعتاد على تمارسة التمارين وعلى الهواءطلق ، فصار يصاب بالاغماء ، وينسى الأسماء والأماكن ، ويرى ظللاً فظيعاً . ولكي لا يصاب بالجنون كان يعني بصوت خافت . وقد أفرجه ذلك ، رغم ان خجله كان يمنعه من الاقدام على الغناء في الظروف العادية . لقد كانت ايفانخيلينا تحب الاستماع اليه ، وتصغى صامتة وعيناها مغمضتان ، وكأنها تسمع أصوات حوريات . غن لي ، غن لي اكثر . لقد فكر بها كثيراً خلال مدة حبسه ، تذكر كل حركة من حركاتها بدقة ، والرغبة المحرمة التي تقاسمهاها منذ طفولتها . كان خياله ينطلق به ليضع وجه اخته مكان أجراً الموسمات اللواتي مارسن معهن ، فكانت هي من تنفتح مثل بطيخة طازجة ، حمراء ، وملينة بالرحيق وفاترة . وهي من تتعرق رائحة نفادة كرائحة المحار . وهي التي تعشه ، تخمشه ، تمسه ، تشن ، تختضر اختناقها ولذة . كان يتخيّل انه يغرق في لحمها الجنون إلى ان يفقد أنفاسه ويتحول إلى اسفنجه ، إلى رئة او نجمة بحرية في اعالي البحار . كان قادراً على قضاء ساعات طويلة في مداعبة شبح

ايفانخيلينا ، لكن ساعات اخرى طويلة كانت تزيد دوماً. فين هذه الجدران كان الزمن متوقفاً في لحظة سرمدية. وصل في بعض الأحيان إلى حافة الجنون ، وفker بضرب رأسه في الجدار الى أن يدميه الضرب ، ويسيل الدم من تحت الباب وينبه الحارس ، لعلهم ينقلونه إلى العيادة على الأقل . وفي مساء أحد الأيام كان على وشك ان يفعل ذلك ، حين ظهر الرقيب فاوستينوريفيرا . فتح الكوة التي في الباب الحديدية ، وأدخل له سجائر وكميات وشكولاتة .

- الشباب يعيشون اليك تخفيتهم . سيشترون لك شموعاً ومجلات لتسلي بها ، انهم قلقون عليك ويريدون التحدث مع الملازم عليه يرضى برفع العقوبة عنك .

- ولماذا وضعني هنا؟

- لست ادرى ، ربما بسبب اختك .

- اني ضائع ولا بد أنها الرقيب .

- هكذا يبدو . جاءت أمك لتسأل عنك ، وعن ايفانخيلينا أيضاً .

- ايفانخيلينا؟ ماذا أصاها؟

- لا تعرف؟

فصرخ براديليو وهو يهز الباب كمحجون :

- ماذا جرى لاختي؟

قال الرقيب :

- أنا لا أعرف شيئاً . لا تصرخ ، إذا ما فاجأوني هنا ، فسأدفع الثمن غالياً يا رانكيليyo . لا تيأس ، أنا قريبك وسوف أساعدك . سأرجع عنها قريب .
ومضى مبتعداً .

انهار رانكيليyo على الأرض ، وكل من مر بالفناء ، حينئذ استطاع ان يسمع بكاء رجل هز الضمائر طوال ساعات . شكل اصدقاؤه لجنة للتتوسط لدى الضابط ، لكنهم لم يتوصلا إلى شيء . فانتشر التذمر بين الرجال ، وصاروا يتمتمون في المراحيل ، وفي المرات ، وفي صالة الأسلحة . لكن الملازم خوان

دي ديس راميريث تجاهلهم . عندئذ قرر فاوستينوريفيرا ، أكثرهم حيطة ، أن يضع الأمور في نصابها . فاستغل بعد يومين من ذلك عتمة الليل وغياب الضابط ليقترب من زنزانة السجين المنفرد . رأه الحفيرون ، وأدرك نواياه في الحال ، فتظاهر بالنوم ، لأنه كان يرى كذلك أن هذا العقاب بحق رانكيليو جائز . تناول الرقيب المفتاح المعلق بمسار على الجدار دون أن يحاول التخفى أو يتغادى أثارة ضجة ، واتجه إلى الباب الحديدى . أخرج رانكيليو من سجنه ، وأعطاه ملابسه وسلاحه النظامي مع ست طلقات ، وقاده إلى المطبخ حيث قدم له وجبة مزدوجة . ثم أعطاه بعض المال الذى جمعه عناصر الوحلة وحمله إلى أبعد ما يستطيع عن الثكنة في سيارة الجيب . من رأوهما ، نظروا إلى الجانب الآخر ولم يشاؤوا أن يعرفوا شيئاً عن التفاصيل ، وقالوا : للرجل الحق بالثار لاخته .

أمضى براديلىورانكيليو نحو أسبوع وهو يزحف في الليل ويخفي في الحقول دون حراك أثناء النهار ، ولم يتجرأ على طلب المساعدة من أحد ، لأنه كان يتخيل غضب الملازم حين سيكتشف هروبها ويعلم أن الحراس لا يستطيعون رفض الأوامر بالبحث عنه في السماء والأرض . قبع في الظلل متظراً إلى أن قاده الجوع واليأس أخيراً إلى بيت والديه . كان الرقيب ريفيرا قد زار البيت وروى لدليغنا ما كان قد أخبره به ، وبهذا لم تكن هنالك من حاجة للحديث . فالثار مسألة شخص الرجال . كان ريفيرا قد طلب منه وهو يودعه أن يبحث عن اخته ، لكن ما أراد قوله في الحقيقة هو أن يثارها ، وبراديلىو متأكد من ذلك . كان واثقاً من موتها . لم تكن لديه أية أدلة ، لكنه يعرف رئيسه بما يكفي لفترض ذلك .

قال لفرانشيسكو وايرين وهما في المغارة :

- سيكون قيامي بواجبي مكلفاً ، لأنهم سيقتلوني إذا ما نزلت من هذا الجبل .

- لماذا؟

لأنني أحمل سراً عسكرياً .

- إذا كنت تريدين أن نساعدك فعليك أن تخبرنا به .

- لن أبوج به أبداً.

كان منفعلاً جداً، يتعرق ويقضم أظافره، ويلمع في عينيه بريق ذعر. كان يمر بيده على وجهه وكأنه يريد أن يبعد عن ذهنه ذكريات فظيعة. لاشك أن لديه شيئاً كثيراً يقوله، لكنه كان مقيداً بأحزمة صمت هائلة. تتم قائلًا أنه من الخير له أن يموت سريعاً، لأنه لا مفر له من هذا المصير. وحاولت أيرين طمأنته، يجب عليه ألا ييأس، فسيجدان طريقة لمساعدته، والمسألة هي مسألة بعض الوقت. وكان فرانشيسكوبيري في تلك القصة عدداً من النقاط الغامضة ويشعر بالريبة الغريزية؛ لكنه يسترجع في الوقت ذاته اتصالاته باحثاً عن رجل ينقذ حياة هذا الرجل.

وفي اللحظة الأخيرة، قال براديليو:

- إذا كان الملازم راميريث قد قتل أخيه فأنا أعرف أين خبأ جثتها. أتعرفان منجم لوس ريسكسوس المهجور؟

وقطع كلامه فجأة، نادماً على ما قاله. ومع ذلك، ومن تعابير وجهه ونبرة صوته، أدرك فرانشيسكوبيري أنه لا يتكلم عن احتمال، وإنما عن يقين. لقد قدم لها طرف خيط.

كان الوقت أصيلاً حين ودعاه وبدأ التزول، تاركين رانكيليو مكروبياً، يختبر أفكار الموت. كان نزول الجبل شاقاً كصعوده، وخاصة بالنسبة لايرين التي كانت تنظر إلى الهوة السحيقة مرتحنة، لكنها لم تتوقف إلى أن وصلت إلى حيث تركوا الجوادين. هناك تنفست الصعداء، ونظرت إلى الجبل، فبداء لها مستحيلًا أنها قد تسلقت هذه القمم الوعرة التي تتلاشى في لون السماء.

قال فرانشيسكوبيري:

- هذا يكفي اليوم. سأرجع فيها بعد ومعي بعض الأدوات لأرى ما يوجد في ذلك المنجم.

فقالت أيرين:

- وأنا معك.

نظر كل منها إلى الآخر وأدركا أنها قد قبلًا كلاهما الوصول إلى نهاية هذه المغامرة التي قد تقودها إلى الموت، أو إلى ما هو أبعد منه.



تقدمت بيترس الكانترا تضرب كعبيها بغضيرسة على لينيلوم المطار النظيف، سائرة وراء الحمال الذي كان يحمل حقائبها الزرقاء. كانت ترتدي فستاناً من الكتان مفتوحاً حول العنق وله لون البندوره، وترتبط شعرها فوق رقبتها، لأنها لم تجد في نفسها الرغبة الكافية لتصفيه باتقان. وكانت تتذلّى من اذنيها لؤلؤتان باروكيتان كبيرة تُظهران لون السكر المحروق الذي لبشرتها وبريق عينيها القاتتين اللتين تشعلان راحه جديدة. فساعات الطيران الطويلة في المقدد غير المريح، برفقة راهبة غاليسية، لم تنزع منها سعادة لقائها الأخير مع ميشيل. كانت تشعر أنها امرأة أخرى، متتجدة الشباب وخفيفة. وكان اعتزازها من تعلم أنها جميلة يضفي على مشيتها ايقاعاً متغطراً. فعيون الرجال تلاحقها، دون أن يشك أيٌ منهم في عمرها الحقيقي. إذ أنها ما تزال قادرة على ارتداء الملابس المفتوحة حول العنق وهي مطمئنة، دون أن تظهر آثار في الصدر تشي بحقيقة سنها، ودون أن تبدو في ذراعيها أية ترهلات، بينما يحتفظ ساقاها باستدارتها الرقيقة وخط ظهرها باستقامتها الشائخة. كان هواء البحر قد منح وجهها نفحة احتفالية، وتکفلت ريشة المكياج باخفاء التجاعيد الخفيفة عند جفنيها وفمهما. يداها وحدهما، المليئتان بالبقع والاخاديد رغم المراميم السحرية، كانتا تشييان بمرور الزمن. لقد كانت راضية عن جسدها. فهي تعتبره إنجازها وصنع يديها وليس من صنع الطبيعة، لأنَّه الحصيلة النهائية لقوه ارادتها الهائلة، ونتيجة سنوات من الحمية والتمارين والمساجات واسترخاءات اليوغا والتقدم في صناعة مستحضرات التجميل. كانت تحمل في حقيبة يدها أمبولات زيت للنهددين، ودهنًا للعنق، وسوائل وكريمات هرمونية للبشرة ومستحضرات مستخرجة من النمس المسكى للشعر، وكبسولات

الرُّبُّ الملكي وبودرة الشباب الأبدى ، وأدوات وفراش مصنوعة من عرف الفرس للحفاظ على مرونة انسجتها . إنها معركة خاسرة يا أماه ، فالعمر لا يتراجع والشيء الوحيد الذي قد تحصلين عليه هو بعض التأجيل فقط . أىستحق الأمر كل هذا العناء ؟ حين تستلقي تحت الشمس على رمال أحد الشواطئ المدارية الدافئة ، دون أية ملابس سوى قطعة قماش مثانية على عضوها ، وتقارن نفسها مع نساء يصغرنها بعشرين سنة ، تبتسم فخورة . أجل يا ابني ، انه يستحق العناء .

حين تدخل أحد الصالونات أحياناً ، تشعر بالجو المشحون بالحسد وبالرغبة ، فتعلم حينئذ ان جهودها تعطي نتائج . ولكنها حين تكون بين ذراعي ميشيل بشكل خاص ، تصل إلى القناعة بأن جسدها هو رأسها رابع ، لأنها يمنحها المتعة العظمى .

كان ميشيل يجسده ترفةها السري ، والتأكيد على تقويمها لنفسها ، ومبرر غرورها الداخلي . كان أصغر منها سنًا ، حتى يمكن الاعتقاد انه ابناها . طويل القامة ، عريض الكتفين وضيق الوركين مثل مصارع ثيران ، شعره حائل اللون لكثرة تعرضه للشمس ، وعيناه زرقاء ، ولصوته نبرة عذبة عند الكلام ، وهو يتقن كل المعارف الالزمة لممارسة الحب . ان حياة البطالة ، ومارسة الرياضة ، وانعدام القيود تطبع ابتسامة دائمة على وجهه وتنحه قدرة على المتعة . نباتي ، لا يتناول المسكرات ، عدو للتدخين ، ليست لديه أية هموم ثقافية ، وأعظم متعه هي اللهو في الهواء الطلق وال اللقاءات الغرامية . عذب ، رقيق ، بسيط ، وطيب المزاج على الدوام ، يعيش في دنيا اخرى ، وكأنه ملاك هبط إلى الأرض نتيجة خطأ . كان يتبع الاساليب التي تجعل حياته تمضي في اجازة دائمة . تعارفا على شاطئه ذي أشجار نخيل مائلة ، وحين ضم كل منها الآخر للرقص في عتمة الفندق أول مرة ، ادركوا انه لا بد لها من لقاء اكتر حميمية . وفي تلك الليلة بالذات فتحت بيتريس باب حجرتها يراودها احساس بأنها فتاة مراهقة . كان بها شيء من الرهبة لخوفها من ان يكتشف علامات صغيرة تشي بحقيقة سنه ، لكن ميشيل لم يتع لها الوقت لمثل تلك المخاوف . فقد أضاء النور مستعداً للتعرف عليها معرفة كاملة . وفيها هو

يقبلها بشفتين خبيثتين، كان يعرّيها من كل زيتها: اللؤلؤتين الباروكيتين، الخواتم الماسية، وسوارات العاج.. إلى أن جعلها عارية ومكشوفة. حينئذ تنهدت مطمئنة، لأنها وجدت في عيني عشيقها التأكيد على جمالها. نسيت مرور السنوات، واستنزاف الصراع والسلام الذي غرسه رجال آخرون في روحها، وتقاسمـت معه علاقة سعيدة لم يسمـياها كلامـاً حباً.

كان القرب من ميشيل يهـج بيـاريس ويـجعلها تنسـى جميع هـمومنـها. فلهـذا الرجل القدرة الخارقة التي تـجعلـه يـحوـبـقلـاته من ذـاكـرـتها مـسـني «ـمشـيـةـ الـربـ» المـعـدـينـ، وـشـذـوذـاتـ اـبـتهاـ وـمـصـاعـبـهاـ المـادـيةـ. لأنـهاـ لاـ تـرىـ وهيـ معـهـ سـوـىـ الحـاضـرـ. كانتـ تـشمـ فـيـهـ رـائـحةـ الـحـيـوانـ الـفـتـيـ، وـانـفـاسـهـ الـنظـيفـ، وـعـرـقـ بـشـرـتهـ النـاعـمةـ، وـأـثـرـ مـلـوـحةـ الـبـحـرـ فـيـ شـعـرهـ؛ وـتـلـمـسـ جـسـدهـ، وـشـعـرـ صـدـرـهـ الـخـشنـ، وـنـعـومـةـ خـدـيـهـ الـحـلـيقـيـنـ، وـقـوـةـ ذـرـاعـيـهـ، وـصـلـابـةـ عـضـوـهـ الـمـتـجـدـدـةـ. لمـ تـعـرـفـ حـبـاـً وـلاـ جـمـاعـاـً مـثـلـ هـذـاـ مـنـ قـبـلـ. فـعـلـاقـتـهاـ بـزـوـجـهـاـ كـانـتـ مـصـبـوـغـةـ بـأـحـقادـ مـتـراـكـمـةـ وـصـدـ لـاـ اـرـادـيـ، وـكـانـ عـشـاقـهـاـ الـعـابـرـونـ رـجـالـاـ مـتـقدـمـينـ فـيـ السـنـ يـعـوـضـونـ نـقـصـ قـوـهـمـ بـفـنـونـ مـنـ التـصـنـعـ. فـلـمـ تـكـنـ تـحـبـ أـنـ تـذـكـرـ شـعـورـهـ الـخـفـيفـ، وـأـجـسـادـهـ الـمـتـرـهـلةـ، وـرـوـاـحـهـمـ الـوـبـيـلـةـ الـتـيـ هيـ مـزـيـعـةـ مـنـ رـائـحةـ التـبـغـ وـالـخـمـ، وـأـعـضـاءـهـ الـتـيـ تـتـدـفعـ بـمـشـقـةـ، وـهـدـاـيـاهـ الـبـائـسـةـ وـوـعـودـهـمـ الـخـادـعـةـ. أـمـاـ مـيـشـيلـ فـلـاـ يـكـذـبـ.

لمـ يـقـلـ هـاـ أـبـداـ: أـحـبـكـ، وـانـسـاـ: تـعـجـبـيـنـيـ.. أـشـعـرـ بالـرـاحـةـ إـلـىـ جـانـبـكـ.. أـرـيدـ مـارـسـةـ الـحـبـ مـعـكـ. كـانـ مـسـرـفـاـ فـيـ السـرـيرـ، مـنـهـمـكـاـ فـيـ تـقـدـيمـ السـعـادـهـ لـهـ، وـارـضـاءـ أـهـواـهـهـاـ، وـاستـنبـاطـ مـتـعـ جـدـيـدةـ لـهـ.

كانـ مـيـشـيلـ يـمـثـلـ الـجـانـبـ الـخـفـيـ وـالـأـكـثـرـ اـضـاءـةـ فـيـ حـيـاتـهـ. وـكـانـ يـسـتـحـيلـ عـلـيـهـاـ اـطـلـاعـ أـحـدـدـ عـلـىـ هـذـاـ السـرـ، لـأـنـ أـحـدـاـ لـنـ يـتـفـهـمـ عـاطـفـتـهاـ تـجـاهـ رـجـلـ أـصـغرـ مـنـهـ بـكـثـيرـ. وـيـمـكـنـهـ أـنـ تـتـصـورـ الـتـعـلـيقـاتـ الـتـيـ سـيـتـبـادـلـهـاـ مـعـارـفـهـاـ إـذـاـ مـاـ عـلـمـواـ بـالـأـمـرـ: بـيـارـيسـ فـقـدـتـ عـقـلـهـاـ مـنـ أـجـلـ صـبـيـ أـجـنـبـيـ، لـاـ شـكـ اـنـهـ يـسـتـغـلـهـاـ وـيـمـرـدـهـاـ مـنـ كـلـ أـمـواـلـهـاـ، عـلـيـهـاـ اـنـ تـخـجلـ وـهـيـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ السـنـ. لـنـ يـصـدـقـ أـحـدـ الـفـرـحـ الـمـشـرـكـ وـالـخـنـانـ، وـلـنـ يـقـتـنـعـ أـحـدـ بـصـدـاقـتـهـ لـهـ، وـيـانـهـ لـاـ يـطـلـبـ مـنـهـاـ شـيـئـاـ

على الاطلاق، ولا يقبل هداياها. كانا يلتقيان مرتين في السنة، في أي مكان من الخريطة، ليعيشا أياماً من الأمل تعود بعدها وجسدها شاكر وروحها منشحة، فتمسك بياتريس الكانترا بزمام أمورها من جديد، وتتولى مسؤoliاتها، وترجع إلى علاقاتها المتأفقة مع عشاقها المعهودين، من متزلجين ومطلقين وأزواج خائنين لروجاتهم ومخادعين مزمنين يعدقون عليها اتهامهم دون أن يمسوا قلبها.

اجتازت البوابة الزجاجية التي تفصل المنطقة المسيحية في المطار، ورأت ابنتها في الجانب الآخر ذاتية وسط الجموع. كان يرافقها ذاك المصور الذي لم يعد يفارقها في الشهور الأخيرة، ما اسمه؟ ولم تستطع ان تواري تكشيرة ضيق وهي ترى ايسرين مهملاً لظهورها إلى هذا الحد. فحتى حين كانت تلبس ثيابها الفجرية، كانت تُظهر شيئاً من الأصالة على الأقل، أما وهي بهذا البطل المجنود وشعرها المربوط مثل ذيل فانها تبدو كمعلمة ريفية. وعندما دنت منها لمح علامات اخرى مثيرة للقلق، لكنها لم تتمكن من تحديدها. فقد رأت في عينيها مسحة كتابة، وتكشيرة في فمهما، ولم تستطع التتحقق من امارات وجهها الأخرى لانشغلها بوضع الحقائب في السيارة والانطلاق في الطريق إلى البيت.

- أحضرت معي ملابس فاخرة لجهاز عرسك يا ابني.

- ربما لن أستطيع استخدامها يا ماما.

- ماذا تعنين؟ هل حدث شيء مع خطيبك؟

نظرت بياتريس إلى فرانسيسكوليلال عرضاً وكاد أن يصدر منها تعليق لاذع، لكنها اعتصمت بالصمت إلى ان تنفرد بايرين. أخذت نفسها عميقاً ملأ رئتها ثم زفرت الهواء في ست دفعات متالية، مرخية عضلات عنقها ومفرغة روحها من كل عدوانية، لتضع نفسها في انسجام ايجابي، كما يعلمها معلم اليوجا. أحسست بالتحسن للحال وصار بامكانها الاستمتاع بمنظر المدينة البديع في الربيع، وبالشوارع النظيفة، والجدران حديثة الطلاء، والناس المهذبين والمنضبدين، وأحسست انه لا بد من شكر السلطات على ذلك، فكل شيء مراقب جيداً وتحت السيطرة. تأملت واجهات المحال التجارية المترعة بالبضائع الأجنبية التي لم تكن

تستهلك في البلاد من قبل، والأبنية الفخمة التي أقيمت على سطوحها مسابح مسيجة بقصب قصير، ومجمعات الاسمنت الخلوذنية حيث المتجول الخيالية لارضاء أهواء الآثرياء المحدثين، والأسوار التي تخفي منطقة البؤس، حيث الحياة تسير بعيداً عن نظام الزمن وقوانين الرب. فأمام استحالة القضاء على البؤس، فرض الحظر على ذكره. أخبار الصحافة كانت مطمئنة، فهم يعيشون في مملكة مسحورة. أما الشائعات عن نساء وأطفال يسطون على المخابز بداع الجوع فليست إلا أكاذيب. والمساويء الجديدة لا وجود لها إلا في الخارج، حيث العالم بأسره يعاني من مشاكل لا حل لها، لكنها لا تمس الوطن الفاضل. وتذرع الشوارع سيارات يابانية شديدة المشاشة حتى لتبدو وكأنها صُنعت لتسبدل؛ وفي كل ناحية اعلانات تعرض للبيع مساكن مخصصة لفتة محددة من الناس، وآخرى تعلن عن رحلات ماركت بولو بالتقسيط وعن آخر منجزات الالكترونيات. وتزايد دور اللهو بأضوائها المشعة وأبوابها المحروسة حتى ساعة حظر التجول. ويدور الحديث عن الشراء وعن المعجزة الاقتصادية، ورؤوس الأموال الأجنبية التي جذبها بزيارة صلاح النظام. أما المتبرمون فهم معادون للوطن، لأن السعادة اجبارية. ويُمْوِّجُ قانون تمييز غير مكتوب، لكنه معروف للجميع، كان هناك بلدان اثنان يموحان ضمن التراب الوطني نفسه: اولها بلد النخبة الذهبية والقوية، والآخر بلد الكتلة الهاشمية الصامتة. ويفسر الاقتصاديون الشباب من اتباع المدرسة الجديدة الأمر قائلين: انه الثمن الاجتماعي. فتردد وسائل الاعلام هذا الكلام.

توقفت السيارة عند شارة ضوئية، دنت ثلاثة كائنات صغيرة ترتدي الاسهال لتمسح زجاج السيارة الامامي، وتعرض للبيع بطاقات دينية وأبر خياطة، أو لطلب صدقة وحسب. تبادل فرانسيسكو وايرين النظارات، لأنهما كانا يفكران بالشيء نفسه :

قالت ايرين :

- في كل يوم يزداد عدد الفقراء .

فردت بيتريس معتبرة :

- هل ستبدئين هذه الترتيلة؟ في كل مكان يوجد متسولون. كل ما في الأمر ان الناس هنا لا يريدون أن يستغلوا، انه بلد ضعفاء.

- ليس هناك عمل للجميع يا أماه.

- وماذا تريدين؟ ألا تكون ثمة فروق بين الفقراء وبين الناس المحترمين؟

أحسست ايررين بالخجل ولم تتجرأ على النظر إلى فرانشيسكو، لكن أمها تابعت باصواتها:

- هذه مرحلة انتقالية، وعما قريب ستتحسن الأمور. لدينا نظام على الأقل الآن، أليس كذلك؟ ثم ان الديمقراطية تقود إلى الفوضى، لقد قال الجنرال ذلك ألف مرة.

أمضوا بقية الطريق صامتين. وعند وصولهم إلى البيت، حمل فرانشيسكو الحقائب إلى الطابق الثاني، حيث كانت روسا تتضرر مضيئه الأنوار. شكرته بياتريس على هذه اللفتة ودعته للعشاء معهما. وكانت تلك هي لفتها الودية الوحيدة، فوافق على الفور.

قالت ايررين:

- قدمي الطعام باكراً يا روسا، فلدينا مفاجأة في «مشيئة الرب».

كانت بياتريس قد أحضرت معها، بناء على رغبة ابنتها، هدايا صغيرة للمسنين وللعاملات في خدمتهم. واشتريت ايررين حلوي وأعدت شراب بونش الفواكه لاقامة حفلة. بعد العشاء نزلوا إلى الطابق الأول، حيث كان التزلاء يتظرون وهم يرتدون أفضل مالديهم من ثياب، والمرفات يزدهرين ببريل بيضاء منشأة. وكانت أول أزهار الفصل تشرب من المزهريات لترحب بالسيدة.

أعلنت خوسيفينيا بيانتشي ، الممثلة، أنها ستمتعن بتقديم مشهد تمثيلي.

التقط فرانشيسكو غمرة من ايررين، فهم منها انه يشارك في مؤامرة سرية ، فأراد الانسحاب قبل فوات الأوان، لأن السخرية من الآخرين كانت تسبب له الألم.

لكن صديقتها لم تتع له الوقت ليختلق عذرًا وينسحب. أجبرته على الجلوس إلى جانب روسا وأمها على مقاعد الشرفة، واختفت مع خوسيفينيا في داخل البيت.

انتظرت البعثة دقائق أحمس فرانثيسكوكو خلامها بالضيق. كانت بيترس تدلّي بتعليقات تافهة حول الأماكن التي زارتها في رحلتها، فيما المشرفات يضعن المقاعد مقابل نافذة المطبخ. جلس النزلاء متذرين بالشلالات والحرامات، لأن التقدم بالسن يجمد الطعام إلى حد لا يمكن معه لليلة ربيعية ان تحفف من برودة الشيخوخة. أطفأوا مصابيح الحديقة، وطعنت على الجو انعام سوناتا قديمة، ثم ازاحوا الستارة. وحار فرانثيسكولبره متداً بين الحياة الذي يدفعه إلى الهرب وبين سحر هذا الاستعراض غير المألوف. ظهر أمام عينيه مشهد مغمور بالضوء، مثل بحيرة في الظلام. وقطعة الأثاث الوحيدة في المشهد الفسيح الخاوي كانت اريكة من البروكار الأصفر إلى جانب مصباح ذي قاعدة وكمة من الرق، ينشر دائرة ذهبية من الضوء تبدو وسطها امرأة من الماضي ، روح من القرن التاسع عشر لم تتبدل. لم يتعرف فرانثيسكوكو أول الأمر على خوسيفينيا بيانتشي وظنها ايرين ، لأن آثار الزمن كانت قد اختفت من ذلك الوجه. فالفتور، والإغراء، والانسجام كانت بادية في كل حركة من حركاتها. كانت ترتدي فستانًا فاخرًا ذي كشاش ومطرزاً بلون العاج، وكان ذلك الفستان باهتاً، مجعداً، لكنه ما يزال يحتفظ بروعته رغم رماد السنين والسفر الطويل في الحقائب والصناديق. وكان حفييف حريره الناعم يسمع عن بعد. بدت المثلة وهي جالسة كأنها تطفو بخفة حشرة طيارة، مسترخية، حسية، اوثية إلى أقصى الحدود. وقبل ان يتمالك فرانثيسكوكو نفسه من وقع المفاجأة، صمتت الموسيقى وسمع صوت غادة الكامييليا دون سن محددة، فقد مقاومته واستغرق في سحر ذلك العرض. كانت تصل إلى اذنيه مأساة الموسم ، والحسنة الطويلة التي لا يشوهها نشار، مما ضاعف من شدة تأثيرها. كانت تصد الحبيب اللا مرئي باحدى يديها، وتتوسل إليه وتداعبه باليد الأخرى. ويدا المسنون غائبون وصامتون وكلّنهم يعيشون ذكرياتهم، وأحسست المشرفات المذهولات بتلك المرأة المثضة والخفيفة التي يمكن لنفخة أن تحولها إلى غبار، أحمسن بصدرهن مفعمة بالتأثير. ولم يكن هناك من هو قادر على السهر عن ذلك السحر.

أحس فرانسيسكو بيد ايرين على كتفه، لكنه كان عاجزاً عن الالتفات، مسحوراً بالاستعراض حين انطلقت نوبة سعال حادة، كجزء من المشهد التمثيلي أو بسبب الشيخوخة، ووضعت حداً لكلمات العاشقة الحالدة. كانت عيناها تقدان وتوشكان على البكاء. سيطر عليه الاسى، ولم يستطع التصفيق مع الآخرين، ثم نهض عن مقعده وسار نحو طرف الحديقة، إلى المكان الأكثر ظلماً، فتبعته الكلبة متقاتفة بين قدميه. ومن هناك راقب حركة المسنين والمرشفات وهم يتناولون البوتشو ويقتربون هداياهم بأصابع متعددة، فيما مرغريتا غاويتير، وقد كبرت مئة سنة بشكل مفاجيء، تبحث عن حبيبها ارماندو دوفال حاملة في احدى يديها مروحة من الريش، وفي اليد الأخرى قطعة من حلوى الكريمة. أشباح تنزلق بين المقاعد وتتسكع في المرات المحفوفة بالازهار وبشذى الياسمين العابق، ويريق المصايب الأصفر. فساهم كل ذلك في خلق احساس بالنعاشر. وكان هواء الليل يبدو مترعاً بالنبوءات.

بحثت ايرين عن صديقها، وحين رأته اقتربت منه مبتسمة. لاحظت حيـشـذـ تعـبـيرـ وجهـهـ وأدركت ماهية الانفعالـاتـ التيـ تـنـتـابـهـ. أـسـنـدـتـ جـبـهـتهاـ إلىـ صـدـرـ فـرـانـشـيـسـكـوـ،ـ فـدـاعـبـ شـعـرـهاـ المشـعـثـ بـفـمـهـ.

- بماذا تفكـرـ؟

كان يـفـكـرـ بـأـبـوـيهـ.ـ بـعـدـ بـضـعـ سـنـواتـ سـيـصـبـحـانـ فيـ سنـ نـزـلـاءـ «ـمشـيـئـةـ الـربـ»ـ الـذـيـنـ انـجـبـواـ مـثـلـهـاـ أـولـادـاـ لـلـدـنـيـاـ وـعـمـلـواـ بـلـاـكـلـلـ لـتـقـدـيمـ العـونـ هـمـ،ـ دونـ أنـ يـدـورـ فيـ خـلـدـهـمـ اـنـهـمـ سـيـنـهـونـ آـخـرـ أـيـامـهـمـ وـيـنـتـظـرـونـ الـموتـ مـحـاطـينـ بـعـنـيـةـ أـيـدـ مـأـجـورـةـ.ـ كـانـ آلـ لـيـالـ يـعـيـشـونـ دـوـمـاـ كـاـمـاـ فـيـ قـبـيـلةـ،ـ مـتـقـاسـمـيـنـ الـبـؤـسـ وـالـسـعـادـةـ،ـ وـالـأـلـمـ وـالـأـمـلـ،ـ مـرـتـبـطـيـنـ بـوـشـائـجـ الـدـمـ وـالـمـسـؤـولـيـةـ.ـ وـمـاـ زـالـتـ هـنـاكـ عـائـلـاتـ كـثـيرـةـ تـعـيـشـ هـكـذـاـ؛ـ وـرـبـماـ كـانـ الـمـسـنـوـنـ الـذـيـنـ شـهـدـواـ عـرـضـ خـوـسـيـفـيـناـ بـيـانـتـشـيـ هـذـهـ الـلـيـلـةـ لـاـ يـخـتـلـفـونـ عـنـ أـبـوـيهـ.ـ وـمـعـ ذـلـكـ،ـ فـهـاـمـ وـحـيـدـونـ.ـ اـنـهـ الضـحـاياـ الـمـنـسـيـةـ للـرـيـحـ الـتـيـ شـتـتـ شـمـلـ النـاسـ فـيـ كـلـ الجـهـاتـ،ـ الـمـؤـجلـونـ مـنـ الشـتـاتـ،ـ وـمـنـ بـقـواـ دونـ مـكـانـ خـاصـ بـهـمـ،ـ وـدـونـ مـوـقـعـ فـيـ الـأـزـمـنـةـ الـجـدـيـدـةـ.ـ لـيـسـ هـمـ أـحـفـادـ قـرـيبـونـ

يعتنون بهم أو يرثونهم يكبرون ، ولا أبناء يساعدونهم في مهمة العيش ، وليس لديهم حديقة يزرونون فيها بذوراً ، ولا كناري يغني عنده الغروب . شغفهم الشاغل هو تفادي الموت من خلال التفكير به على الدوام ، من خلال احتضانه والخوف منه . أقسم فرانشيسكو انه لن يسمح بحدوث مثل هذا لأبويه أبداً . وكرر الوعد بصوت عال صدر من شفتيه المختفيتين في شعر ايبرين .

القسم الثالث

الوطن العذب

حين أسيافر بعيداً عن ارضنا،
تحيا معي هناك في البعيد، عناصر وطني الطولاني.

بابلو نيرودا

بعد زمن سيسأله كل من ايرين وفرانشيسكو عن اللحظة التي انعطاف فيها مسار حياتهما بالتحديد، وسيشيران إلى يوم الاثنين المسؤول، ذلك اليوم الذي دخلوا فيه إلى منجم لوس ريسكوس المهجور. ولكن ربما كان الانعطاف قبل ذلك، في يوم الأحد الذي تعرقا فيه على ايفانخيلينا رانكيليو، أو في مساء اليوم الذي عاهدا فيه ديجنا على البحث عن الفتاة المفقودة، أوربما كانت دروبهما محظوظة منذ الأزل ولم يستطيعا إلا اختيارها.

ذهبا إلى المنجم على الدراجة النارية - فهي أكثر كفاءة من السيارة في الأرضي الوعرة - وحملا معهما بعض أدوات الحفر، وترمس مليء بالقهوة الساخنة ومعدات التصوير، دون أن يذكرا لأحد الغرض من الرحلة لشعورهما المشترك بأنهما يقتربان حماقة بعملهما هذا. فقد عمليا كلاهما، مذ اتخاذ قرار فتح المنجم، إن همازتها قد تكلفها حياتهما.

درس المخطط إلى أن حفظاه عن ظهر قلب وتأكدوا من أنهما يستطيعان الوصول إلى هدفهم دون أن يسألوا أحداً أسئلة قد تثير الشكوك . لم يكن هناك أية خطأ في ذلك الريف ذي التلال الوديعة ، ولكن لدى الدخول في دروب الجبال الوعرة ، حيث تخيم الظلام قبل غياب الشمس بوقت طويل ، تحول المشهد إلى مكان وعر وموحش ، وصار الصدى يعيد اندفاع أفكارهما المتدافعة مع صرخة

الصقر النائية . وقدر فرانثيسكو القلق انه ليس من المناسب اصطحاب صديقه في مغامرة يجهل أبعادها .

لكنها سخرت منه ، وربما كانت محققة في قوله :

- أنت لن تأخذني معك إلى أي مكان ، بل أنا التي ستأخذك معها .

كانت هناك لوحة متأكلة بالصدأ ، لكنها ما تزال مقروءة ، تقول إن المكان مسيح ومحروس ، ومحظور الدخول اليه . وكانت بعض الاسلاك الشائكة تسد الطريق بصورة متوعدة ، فراودت الشابين للحظة الرغبة في التذرع بهذه الحجة ليرجعا على اعقابهما ، لكنهما استبعدا فكرة التهرب في الحال وببحثا عن ثغرة في شبكة الاسلاك ليدخلان منها الدراجة النارية . لقد جاءت اللوحة الصدئة والاسلاك الشائكة لتؤكد هوا جسهما بوجود شيء جدير بالاكتشاف . وكما خططا ، فقد اكتنفهما الليل عند وصولهما إلى هدفهم ، مما سيسهل من حركتها . كان مدخل النجم عبارة عن فجوة في الجبل تطل مثل فم أبكم يصرخ دون صوت . وكانت تلك الفجوة مسدودة بأحجار وتراب موطوء وبنوع من البناء . راودهما احساس بان أحだما لم يطأ هذا المكان منذ سنوات . فالعزلة تبدو وكأنها استقرت هناك لتبقى مقيمة الى الأبد ، ماحية آثار الدروب وذكرى الحياة . خباء الدراجة النارية تحت بعض النباتات الكثيفة ، وجابا المكان بعد ذلك في جميع الاتجاهات ليتأكدا من عدم وجود حراسات . وبعثت نتيجة التفتيش الطمأنينة في نفسيهما ، لأنهما لم يجدا أثراً بشرياً في المنطقة المحيطة ، ولم يكن هناك سوى كوخ بايس صغير مهجور للرياح والنباتات البرية ، على بعد مئة متر من النجم . وكانت الريح قد أطارت نصف سقفه ، وانهار أحد جدرانه على الأرض ، بينما غزت النباتات أرضه مغطية كل شيء بسجادة من العشب البري . بدت لها هذه العزلة وهذا الهجران في مكان شديد القرب من لوس ريسكوس ومن الطريق العام أمراً مريباً .

همست ايرين :

- انتي خائفة .

- وأنا كذلك .

نزعاع غطاء الترمس وشربها رشفة كبيرة من القهوة، أراحت جسديها وروحيهما. مازحا بالقول إن كل هذا ليس إلا لعباً وحاول كل منها أن ينقل إلى الآخر عدوى الاعتقاد بأنه لا يمكن لأي ضرر أن يطالهما، هما المحميان بروح خيرة. كانت ليلة مقمرة، وسرعان ما اعتادا على العتمة، فتناولوا المغول والمصباح اليدوي واتجها إلى الحفرة. لم يكن أي منها قد رأى منجحاً من الداخل من قبل، وكانت يتخيلاه مثل مغارة في الأرض تصل إلى أعماق سحرية. وتذكر فرانثيسكوان التقاليد تحظر وجود النساء في المناجم، لأنهن يجلبن الكوارث تحت الأرضية، لكن ايرين سخرت من هذه الخرافة، وأصرت على مواصلة التقدم بأي شكل.

انقض فرانثيسكوان على المدخل بمعوله. كانت خبرته قليلة في هذا النوع من الأعمال الشاقة، وكان لا يكاد يحسن استخدام المغول، فأدرك أن العمل سيستغرق أكثر مما توقعاه. لم تخلو صديقته مساعدته، بل جلست على صخرة، متدرّبة بكنزتها الصوفية، لتحمي نفسها من الهواء الذي يندفع بقوّة في غرات الجبال الضيقه. كان أي صوت غريب يزعزعها، وكانت تخشى وجود ضوار، أو ما هوأسوا من ذلك، وجود جنود يتر بصون في مكان قريب منها. حاولا أول الأمر لا يصدرا أيّة ضجة، لكنهما لما لبشا أن رضخاما لا مفر منه، لأن ضربة المعدن على الصخر كانت تنتشر عبر الجبال القربيّة، فيتلفّقها الصدى ويكررها ألف مرّة. ولو كانت هناك دوريات، كما يقول الإعلان، فليس أمامهما من مفر. وقبل مضي نصف ساعة كانت أصابع فرانثيسكوان قد تشنّجت وامتلأت راحتا يديه بالفتقاقيع، ولكن مجدهذه أدى إلى فتح ثغرة استطاعا انطلاقاً منها ان يزيجا المواد الفتّة. فساعدته ايرين وتمكنا من فتح فجوة واسعة تكفي للإنزال عبرها إلى الداخل.

أشار فرانثيسكوان إلى الحفرة وقال مازحاً:
- السيدات أولاً.

وببلغة أكبر من أي جواب، أعطته المصباح اليدوي وترجعت خطوطين إلى الوراء. دخل الشاب رأسه وذراعيه في الحفرة منيراً أعماقها بالمصباح،

فضفت انفه هبة هواء متن. كان على وشك التراجع، لكنه فكر بأنه لم يصل إلى هنا ليتخلى عن المهمة قبل أن يبدأ بها. أضاءت حزمة الضوء بقعة في الظلام ليظهر رواق ضيق، لم يكن يشهي في شيء تصوارته عن الناجم: كان المكان عبارة عن حجرة محفورة في قلب الجبل الصلد، ينطلق منها نفقان ضيقان، تردمهما الانقضاض. وكانت ما تزال موجودة هناك السفالات الخشبية التي كانت تحول دون انهيار النجم حين كان المعدن يستخرج منه، لكن مرور الزمن جعلها تتآكل وتهترىء لدرجة أن بعضها كان ما يزال قائماً في مكانه بمعجزة، وكان مجرد النفح عليها كافياً لتقويض توازنها الهش. وفجأة اصطدم جسم سريع بذراعه ومرق على بعد سنتمرات قليلة من وجهه، فأطلق صرخة قوية، كانت تعبرأ عن المفاجأة أكثر منها تعبرأ عن الخوف، وافت المصباح من يده. سمعته ايرين وهي في الخارج، فأمسكت به من ساقيه وراحت تشده، لاعتقادها بأن شيئاً فظيعاً قد حدث.

صاحت وروحها معلقة في فمها:

- ماذا جرى؟

لا شيء. انه فأر فقط.

- هلم بنا من هنا! هذا المكان لا يعجبني في شيء...

- انتظري، سألهي نظرة في الداخل.

دخل فرانسيسكيو من الفتاحة متسلقاً بحذر ليفادي الحجارة البارزة واختفى وقد ابتلعه فم الجبل. رأت ايرين الحفرة السوداء تغيب رفيقها فأحسست بالأسى، رغم ان العقل كان يقول لها ان الأخطار ليست في داخل النجم، وإنما خارجه. فإذا ما فوجئا وهما هناك فقد يتلقيان رصاصة في العنق وقبراً مجھولاً هناك بالذات.

فالناس يموتون لأسباب أتفه بكثير من هذا السبب. تذكرت حكايات الأشباح التي كانت ترويها لها روسا في طفولتها: العفريت المقيم في المرايا لترويع المزهوات بانفسهن؛ والغول حامل الكيس الممتليء بفتیات مخطوفات؛ والكلاب ذات الحراشف التمساحية في ظهرها وأظلاف التيوس في قوائمها؛ والرجال ذوو الرأسين

الذين يترصدون في الزوايا لاختطاف الفتيات اللواتي ينمن وأيديهن تحت الغطاء. حكايات قاسية كانت تسبب لها الكوابيس، لكن انبهارها بها كان كبيراً لدرجة أنها لم تكن تستطيع رفض سماعها، بل كانت تطلب من روسا أن تقصصها عليها وهي ترتجف خوفاً، وترغب في صم اذنيها واغراض عينيها كيلا تسمعها وتنجح في الوقت ذاته التقصي عن أدق التفاصيل: إذا ما كان العفريت يظهر عارياً، وإذا كانت للغول رائحة كريهة، وإذا كانت الكلاب خاطفة النساء تحول إلى حيوانات أخرى مخيفة، وإذا كان الرجال ذوو الرؤس قادرين على الدخول إلى المخادع المحمية بوجود صورة للسيدة العذراء فيها. وأمام الخفرة، عادت ايرين لتعاني - في تلك الليلة من ذلك المزيج من الخوف واللذة الذي كانت تشعر به منذ زمن بعيد، حين كانت مرببتها تخيفها بحكاياتها الخرافية. واحيراً قررت اللحاق بفرانثيسكرو ودخلت من خلال الفتاحة بيسر، لكونها نحيلة ورشيقه. ولم تفتح سوى لبضع ثوانٍ كي تعتاد على العتمة. بدت لها الرائحة غير محتملة، وأحسست كأنها تستنشق سماً زعافاً. نزعت شال الغجرية الذي كان مربوطاً على خصرها وغطت به نصف وجهها.

جب الرفيقان المغارة واكتشفا وجود مرين فيها. المر الذي إلى اليمين كان ييدو وكأنه مسدود بالانقضاض والتراكم فقط، فيما كان المر الآخر مغلقاً بجدار مبني. اختارا اكثراهما سهولة وبدأ بازاحة الحجارة وجرف التراب عن النفق الأول. وفيما يبعدان الانقضاض، كانت رائحة العفننة تشتدّ مما جعلهما يضطران إلى الاكتثار من اخراج رأسيهما إلى الخارج عبر فتحة المدخل ليستنشقا نفساً من الهواء النقي الذي كان يأتيهما نظيفاً وصحياً مثل دفقة ماء بارد.

وحين أحسست ايرين باتقاد كفيها المخدشين، سألتـه قائلة:

- عم نبحث بالتحديد؟

فرد عليهـا فرانثيسـكـو:

- لست أدرـيـ . وواصلـ العمل صامتـاً ، لأنـ ذبذـبات صـوـتـيهـماـ كانتـ تـؤـثرـ علىـ الدـعـائمـ المـعـفـنةـ .

استولى عليهما الخوف من المخاطرة. كانا يتطلعان من فوق كثفيهما إلى الفراغ المظلم وراءهما، ويتصوران أن ثمة عيوناً تراقبهما، وظلاً تتحرك وراء ظهرهما، وهمسات تأتي من الأعماق. كانا يسمعان أنين الأخشاب القديمة ويشعران بالقوارض التي تركض بين أقدامهما. وكان الهواء كثيفاً ومثقالاً يكتسم الأنفاس.

أمسكت ايرين بصخرة وحركتها بكل ما أوتيت من قوة لتزكيها من مكانها. جاهدت قليلاً، واستطاعت انتزاعها، فتدحرجت عند قدميها، وظهرت وراءها فتحة معتمة إلى جانب ضوء المصباح اليدوي. دون أن تفك مدّ يدها للتلمس ما في الداخل، وأطلقت في اللحظة ذاتها صرخة رهيبة من أعماقها زعزعت القبة، واصطدمت بالجدار في صدى أصم وغريب لم تعرف فيه على صوتها. التصقت بفرانثيسكو الذي حماها بحشرها إلى جوار الجدار، بينما كانت أحدي الدعائم تفلت من السقف وتهوي بصخب. بقيا متعانقين، وعيناهما مغمضتان، وهو لا يكادان يقويان على التنفس لزمن سرمدي. وحين ساد الصمت في آخر الأمر وهدأ الغبار الذي أثاره الانهيار، تمكنا من استعادة المصباح اليدوي وتأكدنا من أن المخرج ما يزال سالكاً، وجه فرانثيسكو، دون أن يفلت ايرين، الضوء نحو المكان الذي حركت فيه الصخرة، فظهرت هناك اللقية الأولى في هذه المغامرة المرعبة. كانت توجد يد بشريّة، أو بكلمة أدق؛ بقايا يد بشريّة.

قاد الفتاة إلى خارج النجم وشدها إلى صدره، مجرأً اياها على استنشاق أنفاس طويلة من هواء الليل النقى. وحين أحس أنها قد استكانت قليلاً، احضر الترس وقدم لها قليلاً من القهوة. كانت مذهولة، عاجزة عن النطق، وغير قادرة، لارتعاشها، على امساك الفنجان بين أصابعها. ساعدتها على تناول الشراب كما يساعدون المرضى، وداعب شعرها، ثم حاولطمأنتها بان بين لها أنها وجدت ما كان يبحثان عنه، ولا شك في أن الجثة هي جثة ايفانخيليما رانكيليو. وأنه على الرغم من حضور الموت، إلا أن ذلك لا ينطوي على أي تهديد، لأنها مجرد جثة. ومع أن ايرين لم تستوعب شيئاً من تلك الكلمات، لأن

انفعالها لم يمكنها من ان تعرف أنها كلمات من لغتها، إلا ان ايقاع الصوت منحها بعض الموسعة. وبعد مرور وقت طويل، وحين هدا اضطرابها، قرر فرانشيسكو اتمام عمله.

- انتظريني هنا. سأرجع إلى المنجم لبعض لحظات. استطعيين البقاء وحدك؟

هرت الشابة رأسها موافقة وهي صامتة، وثبتت ساقيها ثم غرست رأسها بين ركبتيها مثل طفل، محاولة الا تفكير، والا تسمع، والا ترى، بل والا تنفس أيضاً، غارقة في أعظم كآبة، فيما رجع هو إلى المدفن حاملاً معه آلة التصوير ومقطعاً وجهه بمنديل.

رفع فرانشيسكو الاحجار وأزاح التراب إلى ان كشف عن جسد ايفانخيلينا رانكيليyo سانتشيث كله. تعرف عليها من لون شعرها الاشقر. كان نصف جسدها ملفوفاً بعباءة، وكانت حافية القدمين وترتدى شيئاً شبهاً بشبهاً بتنورة ثقانية أو بقميص نوم. كانت في حالة فطيعة من التحلل، تتعرّف في الدهن الذائب الذي تتغذى به الديدان، وتختهر في تفسخها، مما اضطره إلى بذل مجهد هائل للتحكم في تفزره ومواصلة التقدم. لم يكن بالرجل الذي يفقد السيطرة على نفسه بسهولة، فقد مارس تدريبه المهني على الجثث، وكان قادرًا على التحكم بمعدته، لكنه لم يجد نفسه حتى ذلك اليوم أمام مثال هذا المشهد، حيث اجتمعت قذارة المكان، ورائحة العفونة النفاذه والخوف المتراكم في داخله لتوهن من عزيمته. كان عاجزاً عن التنفس، فالتحقق عدة صور بأسرع ما استطاع، دون ان يتم بضبط الكادر أو المسافة، لأن فقاعة غشيان كانت تعبّر عنجرته مع كل ومضة نور تضيء المشهد.

عجل بالانتهاء بأسرع ما يمكنه وخرج هارباً من ذلك المدفن.

ما أن أصبح في الهواءطلق حتى أفلت الكاميرا والمصباح وانهار على ركبتيه فوق الأرض ورأسه متدل، محاولاً الاسترخاء والسيطرة على تشنجات معدته. كانت الرائحة ملتصقة بجلده مثل طاعون ومحفورة في حدقيه صورة ايفانخيلينا المطهوة في رعبها الأخير. فكان على ايرين ان تساعده على النهوض.

- ما الذي علينا عمله الأن؟

فقر وصوته لا يكاد يخرج بسبب المخلب المتقد الذي يضغط على صدره:

- لنسد مدخل النجم، وبعد ذلك سترى.

جعا الحجارة نفسها ووضعها فوق الفتحة. كانوا يعملان بسرعة وعصبية وتهور، وكأنهما باغلاقهما الفتحة سيمحوان ما تحويه وسيعودان في الزمان الى اللحظة التي كانوا ما يزالان فيها جاهلين بالحقيقة، وسيحتفظان ببراءتها في الجانب المشرق من الواقع، بعيداً عن ذلك الاكتشاف. أمسك فرانثيسكو بيد صديقه وقادها إلى الكوخ الغرب، الملجأ الوحيد المرئي في الجبل.

★ ★ *

كانت ليلة هادئة. وعلى الضوء الباكر كان المنظر يكشف، وتحتفي رؤوس الجبال وأشجار اليوكايليتوس المغمورة بالظل. كان الكوخ يتتصب فوق الجبل ولا يكاد يبدو للنظر في الظلمة المخلخلة، منبثقاً من الأرض وكأنه ثمرة طبيعية من ثمارها. وبالمقارنة مع النجم، بدا الكوخ من الداخل للشابين مريحاً كعش. توسدا العشب في أحد الأركان وراحَا يتأملان السماء ذات النجوم التي يلمع في قبتها الlanئائية قمر حلبي. وضعت ايرين رأسها على كتف فرانثيسكو وبكت مفرجة عن كل غمها. فطوقها بذراعه وبقيا على هذه الحال لوقت طويل، ربما امتد الى ساعات، باحثين في السكينة والصمت عن مُسكنٍ لما اكتشفاه، وعن قوى لا تحتمل ما عليها احتياله. استرحا معاً منصتين إلى حفيظ اوراق الشجيرات التي يحركها النسيم، وإلى اصوات طيور الليل القرية، وإلى مرور الأرانب البرية الرشيق فوق العشب.

وشيئاً فشيئاً أخذت تنحل العقدة التي كانت تضغط على روح فرانثيسكو. فانتبه إلى جمال السماء، ونعومة الأرض، ورائحة الريف النفاذة، واحتياك ايرين بجسمه. فوعى أبعاد جسدها وزن رأسها على ذراعه، وانحناءيتها المستندة على ينته، وحصل شعرها التي تداعب رقبته، ونعومة بلوزتها الحريرية التي تصاهي نعومة بشرتها. تذكر يوم تعرف عليها؛ حين فتنته ابتسامتها، فأعجبها منذ ذلك الحين، ولم تكن جميع الحماقات التي أوصلته إلى هذه المغارة إلا ذريعة ليصل

أخيراً إلى هذه اللحظة الشمينة التي تصبح فيها ملكاً خالصاً له؛ قريبة منه، مخدولة ومستسلمة. أحس بالشهوة مثل موجة قاهرة ومتسلطة. توقف الهواء في صدره وانفلت قلبه في خفق مجنون. نسي خطيبها العين، وبياتريس الكانترا، ومصيره المجهول وجيع العوائق الأخرى التي تفصل بينهما. ستكون ايرين له لأن ذلك مكتوب منذ بدء تكوين الدنيا.

لاحظت التبدل الذي طرأ على نفسه، فرفعت وجهها ونظرت إليه. وعلى ضوء القمر الخافت لمع كل منها الحب في عيني الآخر. وأحاط قرب ايرين الدافئ فرانثيس코 بـ دثار من المخنان، فأغمض عينيه وجذبها باحثاً عن شفتيها، وفتحها في قبلة مطلقة مشحونة بالوعود، وبصفة كل الآمال. قبلة طويلة، ورطبة، ودافئة تحدي الموت. قبلة مداعبة، وهب، وتهيبة، واجهاشة حب. ذرع فمهما، ورشف ريقها، واستنشق أنفاسها، مستعداً لاطالة تلك اللحظة حتى نهاية حياته، يهزه اعصار حواسه، وائقاً من أنه لم يحي حتى الآن إلا من أجل هذه الليلة العجيبة التي سيغوص فيها وإلى الأبد في أعماق أميّق هذه المرأة. ايرين يا عسلاً وظلاً، ايرين يا ورق الأرز، يا حبة دراقن، يا زبداً، بالاستدارة اذنيك، يا المرائحة عنقك، يا لحامتى كفيك، ايرين، يا لهذا الحب.. هذه العاطفة التي تصهرنا معاً في حرقة واحدة، أحلم بك مستيقظة، أشتهدك نائمة، يا حياتي، يا امرأتي، يا ايريني. لم يدرك من الكلمات قال لها ولا ما همست به إليه في تلك التمتمة المتواصلة.. في ذلك النبع المتندق من الكلمات إلى اذنيه، ذلك النهر من تأوهات واختناقات من يمارس الحب عن حب.

وفي ومضة اتزان أدرك أن عليه عدم الاستسلام للدفاغ التمرغ واياها على الأرض أو انتزاع ملابسها بعنف وتمزيقها في حمى تسرعه. خشي أن يكون الليل قصيراً، بل والحياة كلها كذلك، بحيث لا تكفي لاستنزاف هذا الاعصار الذي في أعماقه. وبيضاء، وبشيء من الاضطراب، لأن يديه كانتا ترتعشان، فتح ازرار بلوزتها واحداً واحداً وكشف عن فجوري ابطيها الدافترين، وعن انحناء كتفيها، وعن نهديها الصغيرين وحلمتها، فوجدهما كما تخيلهما حين كان يحس باحتكاكهما

في ظهره وهو يركبان الدرجة النارية، أو حين كان يراها منحنية على طاولة الالخاراج، أو عندما ضمها بين ذراعيه في تلك القبلة التي لا تنسى. وعشش في كفيه عصفوراً سنونو دافئاً ولدا على مقاس راحتيه، فارتعدت لتلك الملائمة بشرة الفتاة المصبوغة بزرقة قمرية. رفعها من خصرها، فانتصبت واقفة فيها هو جاث أمامها، وراح يبحث عن الدفء المختبئ بين نهديها، وعن شذى الخشب واللوز والقرفة؛ حل أربطة صندلها فظهرت قدماها اللتان كقدمي طفلة، وداعبها متعرفاً عليها، لأنه كان قد حلم بها كقدمين بريشتين وخفيفتين. شد سحاب بنطاملها وازله كاشفاً عن درب بطنه الصقيل، وظل سرتها، وخط ظهرها الطويل الذي ذرعه بتصاعي ملتهبة، وفخذيها المتين المكسوين بزغب ذهبي. رآها عارية أمام اللانهاية، فخط دروبها بشفتيه، حفر انفاقها، صعد تلال جسدها، وجال في وديانه راسماً بذلك الخرائط اللازمية لجغرافيتها. جشت هي أيضاً، وحين حركت رأسها رقصت حوصلات الشعر القائمة على كتفيها، مختلطة مع لون الليل. عندما خلع فرانشيسكو ملابسه بدوا وكأنهما الرجل الأول والمرأة الأولى قبل الخطيبة الأزلية. لم يكن هناك من متسع لآخرين، فبساعة العالم والنهاية الوشيكة كانت بعيدة جداً شاسعاً عنها، ولم يكن هناك سوى نور هذا اللقاء.

لم تكن ايりين قد عرفت حباً كهذا، وكانت تحهل ذلك النوع من الاستسلام، بلا حواجز وبلا مخاوف أو تحفظات، ولا تذكر أنها أحست بمثل هذه اللذة، ومثل هذا التواصل العميق والتبادل. كانت تكتشف مذهولة الشكل الجديد والمفاجيء بجسد صديقها، ودفعه، وطعمه، ورائحته، فترتابه مستكشفة كل ما فيه شبراً شبراً، وتزرعه بدماغيات ابتدعتها لتوها. لم تكن قد استمتعت من قبل بمثل هذه السعادة في حفلة الحواس. خذني، امتلكني، احتضنني، لاني آخذك أنا أيضاً، امتلكك، احتضنك. أخفت وجهها في صدره مستنشقة دفء جلدته، لكنه أبعدها برفق ليتأملها. فعكست مرآة عينيها السوداء البراقة صورته وقد أحالها الحب المتبادل أكثر تألقاً. وخطوة بعد خطوة راحا يمارسان طقساً أزلياً. احتضنته فغاب غارقاً في أكثر جنانها خصوصية، واحتفظ كل منها بايقاع الآخر في

تقدّمها نحو النهاية نفسها. ابتسِم فرانتيسيكوب بسعادة تامة لأنَّه وجد المرأة التي طالما لاحقها في مخيلته منذ كان مراهقاً، ويبحث عنها في كل جسد عرفه على امتداد سنوات عديدة: إنها الصديقة، الاخت، الحبيبة، الرفيقة. وفي سكينة الليل، أقام فيها طويلاً وبلا تسرع، متوقفاً عند عتبة كل متعة، حبيباً كل لذة، متخدداً وضعياً من الاستسلام التام. وبعد مرور وقت طويل، حين أحس بارتعاش جسدها مثل آلة حساسة وحين خرجت من فمها آهة عميقه لتغذى آهته، انفجر خزان هائل في بطنه وهزته قوة هذا السيل، وأغرقت ايرين في أمواه سعيدة.

بقيا ملتصقين في راحة هادئة، يكتشفان الحب في أبعاده المتشعة، يتفسان وبينض قلباهما في ايقاع متواافق، إلى أن هيج الاتصال الحميم رغبته ثانية. أحست به ينمو فيها من جديد وبحثت عن شفتيه في قبلات لا نهاية. كانت النساء شاهداً عليهما، فيما حصى الأرض يخدهما، ويغطيهما الغبار والأوراق الجافة التي نفتت في فوضى الحب. كانت تدفعهما رغبة جارفة، وعاطفة لا تحمد. تبادلا المداعبات تحت القمر إلى أن ندت روحاهما في تنهات وعرق، وآخرأ، ماتا متعانقين، وشفاهما متهددة ، يحملان الحلم نفسه. لقد بدأ طريقاً لا رجعة فيه. استيقظا مع أول أنوار الصباح وزفقة عصافير الدوري، مبهوريين بلقاء الجسدين وانسجام الروح. لكنهما تذكرا عندئذ الجثة في المنجم واستردا الاحساس بالواقع . وبخياله الحب الذي تقاسمه، ارتديا ملابسهما وهما يرتجفان ويلفهما الذهول. ثم ركبا الدرجة النارية وانطلقا في الطريق نحو بيت آل رانكيليyo.

★ ★ ★

كانت المرأة منحنية فوق طشت الغسيل ، تدعك الملابس بفرشاة قاسية. كانت قدماها العريستان مستقرتين بثبات فوق قطعة من الخشب كي لا تخوض في الوحل ، ويداها الثقيلتان تعملان بهمة ، تدعكان وتعصران ثم تضعان الاسمال في سطل ، حيث تراكم تلك الملابس لتنظف من الصابون في مياه الساقية الجارية

فيما بعد. كانت المرأة وحيدة، لأن أولادها يذهبون في مثل هذا الوقت إلى المدرسة. وكانت بشائر الصيف قد بدأت بالظهور من خلال الفواكه شبه الناضجة، وتشكيلية الأزهار ذات الألوان الصاخبة، والقيلولات الخانقة والفراسات البيضاء التي تطير في كل اتجاه مثل مناديل يحملها النسيم. وكانت أسراب العصافير تنزو الحقول ليتحدد تغريدها بطنين النحل والناموس المتواصل. لم تكن ديننا تشعر بشيء من هذا وذراعها غائصان في طشت الغسيل، غير عابثة إلا بعملها المرهق. لكن ضجة الدراجة النارية وكورال الكلاب لفنا انتباها فرفعت عينيها، ورأت الصحفية ورفيقها الذي لا يفارقها، صاحب آلة التصوير، يتقدمان في الفتاء متوجهلين النباح. مسحت يديها بالمريلة وخرجت للقائهم دون أن تبتسم، لأنها أحست بالأنباء السيئة حتى قبل أن تنظر في عينيهما. اختضتها ايرين بيльтان في عناق خجول، هي الطريقة الوحيدة التي خطرت لها لتقديم العزاء. ففهمت الأم في الحال. لم تكن ثمة دموع في عينيها المعتادتين على كل تلك الأحزان المتنوعة أطبقت فيها بحركة مغمومة وأفلتت من صدرها تنهيدة مبحوحة لم تستطع كبحها، فسعلت لتختفي هذا الضعف وأزاحت خصلة شعر عن جبهتها، ثم أشارت للشابين كي يتبعاها إلى داخل البيت. جلسوا ثلاثة حول الطاولة، وخيم عليهم الصمت لبضع دقائق، إلى أن جمعت ايرين الكلمات اللازمة لتقول ممددة:

ـ أظن إننا قد وجدناها ..

وروت لها ما رأياه في المترجم دون ان تشير إلى التفاصيل المرعبة، ومفسحة المجال للشك بأن ما وجداه قد يكون رفات شخص آخر، لكن ديننا أبعدت هذا الأمل، لأنها تنتظر منذ مدة ظهور الأدلة على موت ابنتها. كانت تعرف أنها قد ماتت بسبب الإحساس بالحداد الذي استقر في قلبها منذ الليلة التي اعتقلوا فيها الفتاة وللمعلومات التي تراكمت خلال سنوات الدكتاتورية.

قالت:

ـ إنهم لا يعيدون أبداً من يعتقلونهم.

فرد فرانثيسكو:

- هذا الأمر لا علاقة له بالسياسة يا سيدتي ، إنها جريمة مبتذلة .
- الأمر سيان . لقد قتلها الملازم راميريث وهو سيد القانون هنا ، فما الذي
استطاع عمله أنا؟

ايرين وفرانثيسكو كانا يشكان بالضابط أيضاً ، وكانا يفكرا أنهما اعتقلوا
إيفانخيلينا ليجعلها تدفع بطريقة ما ثمن الاتهame التي وجهتها اليه أمام عيون كل
ذلك العدد من الشهود . ربما يكون قد فكر باحتجازها ليومين فقط ، لكنه لم يأخذ
بالحسبان ضعف بنية سجيته ، وتجاوزت يده الحد في تعذيبها فماتت . وبحسب رأي ما
فعله قرار أخفاء جسدها في المنجم وتزوير سجل المناوبة ليحمي نفسه من أي
تحقيق . لكن هذا كله لم يكن سوى تكهنات . وكان هناك طريق طويل لا بد من
السير فيه للوصول إلى أعماق هذا السر . وفيما الشباب يغسلان في الساقية ،
أعدت لها ديننا الفطور ، موارية حزنها بالانهيار في أعمال البيت الروتينية من
اشعال النار ، وغلي الماء ، وترتيب الأطباق والفناجين . لأنها كانت تشعر بخجل
شديد من ظهور انفعالاتها .

على رائحة الخبز الطازج ، أدرك فرانثيسكو وايرين كم هما جائعان ، فهم لم
يتذوقا طعاماً منذ اليوم السابق . أكلابيطة ، واثناء ذلك كانوا يتبادلان النظرات
وكان كلاً منها يود التعرف على الآخر ، وبيتسمان متذكرين الحفلة التي عاشاها
للتتو ، ويلمس كل منها يد الآخر في وعد مشترك . ورغم المأساة التي تحيط بهما ،
فقد كانوا ينعمان بسلام أناني ، وكأنهما قد جمعا فتات حياتهما البعض وتمكنوا أخيراً من
رؤية مصيريهما . وتخيل إليهما أنها بمنأى عن أي شر ، في كتف سحر هذا الحب
الجديد .

قالت ايرين مفترحة :

- يجب إخبار برادييوكي لا يواصل البحث عن أحنته .
- فقرر فرانثيسكو :
- أنا سأصعد الجبل . انتظري هنا لستريحي قليلاً ولتبقى إلى جانب
السيدة ديننا .

بعد الانتهاء من تناول الطعام، قبل صديقته وانطلق على الدرجة النارية. كان ما يزال يذكر الطريق، فوصل دون صعوبة إلى المكان الذي تركوا فيه الجحودين حين ذهبوا مع خاينستوف في المرة الأولى. وهناك خباً الدرجة بين الأشجار وببدأ الصعود على الأقدام. كان وائقاً من قدرته على التوجه للعثور على المخاب دون كثير من الدوران، لكنه ما لبث أن أدرك أن الأمر لن يكون سهلاً، لأن المشهد كان قد تبدل خلال هذه الأيام. فحرارة الصيف التي لوحظت سفوح الجبال، أحرقت الخضراء ولم تبق إلا على الأرض العطشى. فغلب الشحوب على الألوان فقدت رونقها الذي كانت عليه. لم يتعرف فرانتيسك على نقاط العلام التي ثبتها في ذاكرته، وترك نفسه تنقاد بالغربيزة. توقف في منتصف الطريق مكتئباً، وموقاً من أنه ضل الطريق، فقد خيل إليه أنه يمر ويعود للمرور من المكان ذاته. ولو لا أنه كان يمضي صاعداً، لأقسم أنه يدور في حلقة. كان منهوكاً بفعل التوتر الذي تراكم في الأيام الأخيرة وبتأثير الليلة الماضية في المنجم. فهو يبتعد عادة ما يمكنه ذلك عن اختبار أعصابه في أعمال متھورة. وأن عمله السري يقتضي الدخول في الأخطار والمجازفة، إلا أنه كان يفضل وضع خطط دقيقة والتقييد بها. فالمفاجآت لم تكن تروقه. لكنه شعر بعدم جدوى المخططات الآن، لأن حياته كلها قد دخلت في متاهة من الفوضى. كان معتاداً على الاحساس بالعنف معلقاً في الهواء مثل غاز غير مرئي، تكفيه شرارة واحدة لينفجر في حريق لا ينطفيء، لكنه لم يكن ليفكر به، مثله في ذلك مثل آخرين كثيرين يعيشون ظروفاً مشابهة لظروفه. كان يحاول تنظيم حياته ضمن حدادني من الطبيعية. لكنه أدرك، هنا في وحشة الجبال، انه قد اجتاز حداً لا مرئياً ودخل في منطقة جديدة ومرعبة.

ما أن حللت الظهريرة حتى أصبح الحر كانه الحمم البركانية. لم تكن هناك من خضراء حانية يجد في كنفها الحماية. فاستغل وجود نتوء صخري، وجلس ليستر يقع في ظله قليلاً، ساعياً لاستعادة ايقاع قلبه. اللعنة، من الأفضل لي أن أرجع قبل أن أسقط فاقداً قواي هنا. مسح العرق عن جبهته وواصل الصعود

بسطء متزايد ووقفات أكثر. وأخيراً رأى مسياً ينحدر عكراً بين الصخور، فتنهد براحة لأنّه تأكّد من أن خيط الماء سيقوده إلى خبا براديليورانكيلي. بلّ عنقه ورأسه وهو يحس باتقاد الشمس في جلده، ثم تسلق الأمتار الأخيرة، فوجد منبع المسيل، وبحث عن الكهف بين الشجيرات، منادياً على براديليو بأعلى صوته، فلم يجده أحد. كان المكان جافاً، الأرض مشقة والشجيرات مغطاة بغياريلون يمكن بحاجة للدخول إليها كي يعرف إنها مقفرة. تحول في الجوار دون أن يعثر على آثار الهاوب وافتراض أنه قد غادر المكان منذ عدة أيام، لأنّه لم يجد هناك بقايا طعام أو أية علامات على الأرض التي كنتها الرياح. عُشر في الكهف على علب مأكولات فارغة وعدد من روایات رعاة البقر أوراقها صفراء ومهترئة، وكانت تلك هي الآثار الوحيدة التي تشير إلى أن أحداً قد مر من المكان. كان شقيق إيفانخيلينا قد نظم كل شيء بدقة، كما هو شأن من اعتاد على النظام العسكري. تفحص فرانثيسكو هذه الأشياء البائسة بحثاً عن علامة أو رسالة. فلم يجد هناك ما يشير إلى وقوع أعمال عنف، واستنتج من ذلك أن الجنود لم يعثروا عليه؛ وأنه تمكّن دون ريب من الذهاب قبل أن يصلوا إليه. ربما يكون قد نزل إلى الوادي وحاول الابتعاد عن المنطقة أو انه غامر باجتياز سلسلة الجبال في محاولة للوصول إلى الحدود.

جلس فرانسيسكو ليال في المغارة وراح يتصفح الكتب .. إنها مطبوعات جيب شعبية ، ذات رسوم قبيحة ، مشتراء من دكاكين بيع الكتب المستعملة أو من أكشاك الصحف . ابتسם وهو يستعرض غذاء برادييليو رانكيليتو الثقافي : رجل السهوب المتوحد ، هو والونغ كاسيدى ، وأبطال آخرون من الغرب الاميركي ، أولئك المدافعون الخرافيون عن العدالة ، وحمة الباسين في مواجهة الاشرار . تذكر حديثهما خلال اللقاء الفائت ، واعتزاز ذلك الرجل بسلاحه الذي يعلقه في حزامه . فالمسدس والاحزمة والخداء التي كان يستخدمها هي مثل تلك التي يستخدمها أنطال قصصه ، إنها العناصر السحرية التي يمكنها أن تحول شخصاً

نافهاً إلى سيد يتحكم بالحياة والموت ، وتنحه مكانة في الدنيا . أنها أشياء شديدة الأهمية بالنسبة لك يا براديليو ، وحين سلبوك إياها ، لم يُمكّنك من الاستمرار في الحياة إلا براءتك الحقة وأملك باستعادة تلك الأشياء . اقنعوك بأنك صاحب سلطة ، وطرقوا رأسك بصخب مكبرات الصوت في الثكنة ، ثم أمروك باسم الوطن ، وهذا أعطوك جرعتك من الذنب كي لا تستطيع رفع يدك وتبقى مكبلاً إلى الأبد بسلاسل الدم يا رانكيليو البائس .



تذكر فرانسيسكو وهو جالس في المغارة تلك الانفعالات التي سيطرت عليه حين حل سلاحاً للمرة الوحيدة في حياته . كان قد تجاوز فترة المراهقة دون اضطرابات تذكر ، فاهتمامه بالمطالعة كان أقوى من اهتمامه بالنضال السياسي ، وذلك كرد فعل على المطبعة السرية وخطابات أبيه التحريرية اللاحبة . ومع ذلك ، فقد جندته جماعة متطرفة ، جذبته إلى صفوفها بحمل الثورة ، وكان يومها قد أنهى دراسته الثانوية . لقد رجع بذاكرته إلى تلك المرحلة مرات ومرات ليسأل نفسه عن سحر العنف ، وعن ذلك الدوار الذي لا يُقاوم نحو الحرب والموت . فقد كان عمره ستة عشر عاماً حين مضى مع مجموعة من رجال العصابات المستجددين إلى الجنوب ، ليتدربوا هناك على اتفاضة غامضة وعلى مسيرة عظمى نحو مكان ما . كانوا سبعة فتيان أو ثمانية - يحتاجون لمربية أكثر من حاجتهم لбинدقية - هم الذين يشكلون تلك القوة الهزيلة ، يقودهم زعيم أكبر منهم بثلاث سنوات ، هو العارف الوحيد بقوانين اللعبة . لم يكن دافع فرانسيسكو إلى الالتحاق بهم هو نشر نظريات «ما» في أميركا اللاتينية ، لأنه لم يكن قد كلف نفسه عناء قراءتها ، لكن دافعه كان رغبة بسيطة وساذجة في المغامرة . كان يود الابتعاد عن وصاية أبوه . وفي سعيه إلى اثبات أنه قد صار رجلاً ، غادر بيته في أحدى الليالي دون أن يقول وداعاً ، ودون أن يحمل معه سوى سكين كشاف ، وزوج جوارب صوفية ودفترًا يكتب فيه أشعاراً .

بحثت عنه اسرته حتى وصل بها الأمر إلى اللجوء للشرطة ، وحين عرفوا طريقه لم يجدوا عزاء لمصيبة كهذه . أطبق البروفسور ليال فمه وغرق في الكآبة ، جريج الروح بجحود هذا الابن الذي مضى دون أن يقدم تفسيراً لذهابه . ولبيست أمه مسح عذراء لورديس ، مطالبة المساء برقة عينها اليها . ولا شك في ان ذلك كان تضحيه عظيمة بالنسبة لها ، هي الحريصة على مظهرها والمتابعة لتطور الازياء كي ترفع طرف تورتها أو تخفضه باضافه بعض الثنائي او نزعها منه . أما زوجها ، الذي تاهب أول الأمر لوضع تجربته التربوية موضع التطبيق وانتظار عودة ابنه العفورة دون ان يفقد هدوئه ، ما لبست ان فقد صبره حين رأى زوجته بالعباءة البيضاء وحزام لورديس السماوي . وفي اندفاعه اللاواعي ، نزع عنها تلك الملابس عزقاً إيساماً ، ومطلقاً الشتائم ضد البربرية ومهدداً بترك البيت ، والبلاد ، بل وترك أميركا كلها إذا ما عادت لارتداء هذه القباه والظهور بها . بعد ذلك استنهض حاسته ، ونفض الغباء عن طبعه المندفع ، وانطلق بحثاً عن ابنه الضائع . ذرع دروب البغال لأيام وأيام ، متفحصاً كل ظل اجتازه في طريقه ، وكان يراكم الغضب أثناء ترحاله من ضيعة إلى ضيعة ، ومن جبل إلى جبل ، ويضع الخطط لضرب الفتى للمرة الأولى في حياته . واخيراً أخبره أحد هم ان طلقات نارية تسمع في الغابة بين حين وآخر ، وان بعض الشبان الذين تعطش لهم القذارة يخرجون من هناك أحياناً ليتسولوا الطعام وليسقوا الدجاج ، ولكن أحداً لم يكن ليفكر في الحقيقة انهم الحلقة الأولى من مشروع ثوري للقاراء بأسرها ، وانها مجرد طائفه دينية هرطقوة متأثرة ببيانات الهند ، مثل طوائف اخرى شوهدت في بعض الانحاء . وكانت هذه المعلومات كافية كي يصل البروفسور ليال إلى معسكر رجال العصابات . حين رأهم متسللين بالأسماك ، مت BXHIN ومسترسل الشعور ، يأكلون الفاسولياء المعلبة والسردين القديم ، ويتدربون على بندقية من الحرب العالمية الأولى ، غالباً جلودهم لسعات الزنابير وحشرات الجبل الأخرى ، انزاح منه كل الغضب فجأة وطفى عليه احساس بالشفقة موجود دائياً في اعماقه . ان انضباطه السياسي كان يدفعه إلى اعتبار العنف والارهاب خطأ استراتيجياً

فادحاً، وخصوصاً في بلد يمكن الوصول فيه إلى التغيير الاجتماعي عبر سبل أخرى. كان على قناعة من أن الجماعات الصغيرة المسلحة لا تتمتع بأدنى حظ من النجاح، وإن هؤلاء الشبان لن يتوصلا إلا إلى تمكين الجيش من التدخل لذبحهم. كان يقول أنه لابد للثورة من المجيء من خلال شعب واع، يدرك حقوقه وقوته، فيمسك بزمام حريته وينطلق في مسيرته، وليس من خلال ستة صبيان برجوازيين يلعبون لعبة الحرب.

كان فرانسيسكو يجلس القرفصاء إلى جوار موقد صغير يغلي عليه ماء، حين رأى ظهور وجه غريب بين الأشجار. كان وجه رجل عجوز يرتدي بلدة قاتمة وربطة عنق، يغطيه الغبار والشووك، وله ذقن لم تُخلق منذ ثلاثة أيام وشعر مشعرٌ ومحضر، يحمل حقيقة سوداء في أحدى يديه وغضناً جافاً يتوكأ عليه في اليد الأخرى. نهض الفتى واقفاً من المفاجأة، وحذا حذوه رفقاء الذين حوله. وحينئذ فقط تعرف على القاسم. كان يذكر والده كرجل قصير مهيب، ذي عينين عاطفيتين وصوت خطيب، ولكن ليس بأي حال من الأحوال مثل هذا الكائن المحطم والكئيب الذي يتقدم وهو يعرج، بظهره المنحنى، وحذائه المغفر بالغبار. واستطاع فرانسيسكو ان يهتف، قبل ان تخنق صوته اجهاشة:

بابا!

أفلت البروفسور ليال عكاشه الخشنة وحقيقة الصغيرة، وفتح ذراعيه. قفز ابنه من فوق الموقد راكضاً أمام رفقاء المذهولين، والتحم بابيه متيناً إثناء ذلك انه لم يعد قادراً على الاختباء في كتف صدره، لأنه صار أطول من أبيه بمقدار نصف الرأس وأتمن منه بنية بكثير.

- أمك في انتظارك.

- هاؤنذا قادم.

وبينما الصبي يجمع أشياءه، انتهز الروفسور الفرصة ليوجّه خطبة للأخرين، متعللاً بأنهم إذا كانوا يريدون القيام بشورة فعلتهم التصرف وفق بعض القواعد، وليس بهذا الأسلوب الارتجالي.

فقال أحدهم :

سحن لا نرتجل .. اننا بكينيون.

فرد الروفسور ليال بحزم :

- انتم مجانين. ما كان صالحًا للصينيين لن ينفع هنا.

بعد ذلك بزمن طويل، سينطلق هؤلاء الفتىان في الجبال والغابات، مطلقين الرصاص والشعارات الآسيوية في قرى نسيها التاريخ الاميركي . لكن البروفسور ليال لم يكن ليتصور كل ذلك يوم أخذ ابنه من المعسكر، وحين هز أولئك الفتىان أكتافهم وهم يرونها يتعدان.

أثناء رحلة العودة في القطار، بقي الأب صامتاً يتأمل فرانثيسكو، وحين وصلا إلى المحطة أفضى له بكل ما في قلبه بكلمات قليلة :
- انتظر لا يتكرر هذا. لأنني في المرة القادمة سأضربك ضربة الحزام مقابل كل دمعة من دموع أمك. أترى هذا عدلاً؟
- أجل يا بابا.

كان فرانثيسكو راضياً في أعماقه عن عودته إلى البيت . وبعد مرور زمن قصير، حين شفي تماماً من أغراء حرب العصابات، غرق في النصوص السيكولوجية مفتوناً بلعبة الأوهام تلك، وبالأفكار المتضمنة في أنكار أخرى والمتضمنة بدورها في غيرها، وذلك في تحدٍ لانهائي . واستغرقته الأداب أيضاً فشغف بأعمال الكتاب الاميركيين اللاتينيين، ونبهه ذلك إلى أنه يعيش في بلد كأنه رسم ملون، أوبيقة على الخريطة ، محاطة بقاربة فسيحة وعجيبة ، حيث التقدم يصل متاحراً بضميمة قرون: أرض، أعاصر، ويراكين، وأهار عريضة كالبحار، وغابات كثيفة لا يخترقها ضوء الشمس ، وأرض مغطاة بالدبال تدب فوقها حيوانات خرافية ، وتعيش عليها كائنات بشرية لم تتغير منذ نشوء العالم ، وجغرافية مضطربة يولد الماء فيها وعلى جبنته نجمة ، علامه الدهشة ؟ منطقة مسحورة ذات جبال رهيبة حيث يصبح الهواء رقيناً مثل حجاب ، وصحابي لا نهاية ، وغابات وارفة ، ووديان بلا قرار. هناك تندمج جميع أجناس البشر في بوتقة

العنف: هنود معممون بالريش، ورجالات من جمهوريات نائية، وزنوج جوالون، وصينيون يدخلون تهريباً في صناديق التفاح، وأتراك مختلطون، وفتيات نار، ورهبان، وأنبياء، وطغاة، جميعهم جنباً إلى جنب، الأحياء وأشباح أولئك الذين وطشوا على امتداد القرون هذه الأرض المباركة بشتى الآلام. وفي كل مكان منها هناك رجال ونساء أميركيون، يcabدون في حقول القصب، ويرجفون من الحمى في مناجم القصدير والفضة، ويهيمون تحت المياه لاصطياد محار اللؤلؤ، ويبقون على قيد الحياة في المعقلات رغم كل شيء.

ويحثاً عن أنماط معيشية أخرى، قرر فرانسيسكيوأن يتابع دراسته في الخارج، فأطلق ذلك والديه بعض الشيء، لكنهما وافقا على تمويله، وكانا من الرقة بحيث صمتا ولم يوجبهما التنبهات المتعادة حول الشرور التي ترصد الشبان حين يرحلون بمفردهم. أمضى بعض سنوات في الخارج، حصل في نهايتها على درجة دكتوراه ومعرفة معقولة للغة الانكليزية. ولكي يغطي نفقاته، كان يجلو الأطباق في أحد المطاعم ويصور حفلات ضيئلة الأهمية في أحياe المهاجرين.

كان وطنه يمور في تلك الفترة بغليان سياسي ، وفي السنة التي رجع فيها فاز بالانتخابات مرشح اشتراكي . ورغم التكهنات المشائمة والمؤامرات للوقوف في وجه هذا المرشح، إلا أنه جلس على كرسي الرؤساء أمام ذهول السفارة الاميركية.

لم يكن فرانسيسكيو قد رأى أباه في مثل تلك الحالة من البهجة.

- أرأيت يا بني؟ لم تكن هناك من حاجة لبندقيتك.

فيقول فرانسيسكيو ساخراً:

- ولكنك فوضوي أيها العجوز، وحزبك ليس مثلاً في الحكومة.

- هذه صفات! المهم ان الشعب هو من يملك السلطة الآن، ولن يستطيعوا انتزاعها منه أبداً.

لقد كان يخلق في الوهم كعادته. ويوم وقع الانقلاب العسكري ظن أنها جماعة متمرة لن تثبت القوات المسلحة الموالية للدستور والجمهورية ان تسيطر

عليها. وبقي يتضرر ذلك لعدة سنوات فيما بعد. كان يقارع الدكتاتورية بوسائل غريبة. ففي أوج القمع، وحين أعدوا حتى الملاعب الرياضية والمدارس لاعتقال آلاف السجناء السياسيين، طبع البروفسور ليال بعض المنشورات في مطبخ بيته، وصعد إلى الطابق الأخير من مبنى البريد وألقى بها إلى الشارع. كانت تهبط رياح مواتية، فحالف مهمته النجاح، إذ حط عدد من تلك المنشورات في وزارة الدفاع. كان نص المنشور يتضمن بعض الأفكار التي بدت له مطابقة للخطبة التاريخية التي تعيشها البلاد:

ان تربية العسكريين، من الجندي العادي وحتى أعلى المراتب، تحولهم بالضرورة إلى أعداء للمجتمع المدني وللشعب. حتى ان زيهم، بكل تلك الزينة المضحكة التي تميز الوحدات والرتب، وكل تلك الحماقات الصبيانية التي تحتل قسماً منهاً من وجودهم، تجعلهم يبدون كالمهرجين، لو لا الهديد الدائم الذي يشكلونه، وهذا كله يفصلهم عن المجتمع. ان هذه الزينة، والطقوس الكثيرة التي تدور حياتهم وسطها دون هدف آخر سوى الاستعداد للمذبحة والدمار، هي مذلة بالنسبة لرجال لم يفقدوا الاحساس بالكرامة الانسانية. ان الطاعة العميماء هي ميزةهم الأولى، وفي خصوصهم للانضباط المستبد، يتنهون إلى الاحساس بالرعب من كل من يتحرك بحرية. انهم يريدون ان يفرضوا بالقوة الانضباط الغاشم، والنظام الآخر الذي يشكلون هم أنفسهم ضحاياه.

ليس هناك من سبيل إلى حب الخدمة العسكرية إلا بمعاداة الشعب.

● باكونين

لو ان الروفسور ليال أمعن التفكير، أو بحث عن رأى من هو أكثر خبرة، لأدرك انه نص طويل جداً بالنسبة لمنشور سيلقى في الهواء، لأن أحداً لن يتمكن من قراءة نصفه إلا ويكون قد اعتُقل. لكن احترامه لأبي الفوضوية كان شديداً لدرجة انه استغرق كل ذهنه دون ان يبقى شيئاً خططه. ما ان انقضت اربع وعشرين ساعة حتى علم أولاده وزوجته بالأمر، وذلك حين نشرت الصحف

والاذاعة والتلفزيون ببلاغاً عسكرياً، فقطعه من الجريدة ليحتفظ به في ألبومه الخاص.

بلاغ رقم / ١٩٧

١ - نحذر المواطنين من ان القوات المسلحة لن تساهل بشأن المظاهرات العامة منها كان نوعها.

٢ - على المواطن باكونين، الذي وقع منشوراً ينال فيه من شرف القوات المسلحة المقدس، المثول طوعاً في وزارة الدفاع قبل الساعة ١٦,٣٠ من هذا اليوم.

٣ - ان عدم حضوره يعني انه قد وضع نفسه تحت طائلة تدابير مجلس القادة العامين، وعرض نفسه للتنتائج التي يمكن تصورها.

في ذلك اليوم بالذات قرر الاخوة ليال الثلاثة نقل آلة الطباعة من المطبخ ليحلوا دون وقوع أيهم في شراك مثاليته العاطفية . وحاولوا منذ ذلك الحين عدم تعريضه لأي نوع من القلق. فلم يطلعه أحد منهم على نشاطاته في المعارضة ، لكنهم لم يستطيعوا منع البروفسور ليال حين اعتقل خوسيه مع عدد من رهبان وراهبات المطرانية ، من الجلوس في ساحة السلاح وهو يرفع لافتة كتب عليها: انهم يعتذرون ابني في هذه اللحظة . ولو لا وصول حبيب فرانشيسكوفي في الوقت المناسب ليقوداه من ذراعيه بعيداً عن ذلك المكان ، لبلى ملابسه بالبنزين وأشعل النار في نفسه مثل بوذى أمام عيون من اجتمعوا حوله مشفقين .

انضم فرانشيسكوفي إلى مجموعة منظمة تعمل على تهريب الملاحقين عبر احدى المناطق الحدودية ودخول عناصر من المعارضة عبر منطقة أخرى . وكان يؤمن المال اللازم لمساعدة الناجين المتارين عن الأنظار ولشراء الطعام والأدوية ، ويجمع المعلومات لارسالها إلى الخارج مخبأة في نعال رهبان أو في شوردمي . وأنجز بعض المهام شبه المستحيلة : فقد صور جزءاً من الأرشيف السري للشرطة السياسية وسجل على ميكروفيلم صوراً للهويات الشخصية للقائمين على عمليات التعذيب ، مفكراً بأن هذه المعلومات قد تكون ذات نفع في أحد

الأيام لاحقان العدالة. ولم يطلع على هذا السر أحد سوى خوسيه، الذي لم يكن يرغب في سماح الأسماء أو الأماكن أو غيرها من التفاصيل، لأنه كان قد تأكد من صعوبة الصمت تحت بعض أصناف التعذيب.

ولأنهما كانا يشاركان في مهمات متماثلة، فقد فكر فرانثيسكو باخيه وهو في مغارة براديليو رانكيلي، وندم لأنه لم يطلب منه المساعدة. فإذا كان المارب قد ولج المنطقة الصامتة من الجبال، فلن يجد له من أثر، وإذا كان قد نزل إلى الوادي لينفذ ثأره واعتقل هناك، فسيكون من المستحيل مدد يد المساعدة إليه. نفض فرانثيسكو التعب، وبلل ثيابه بالماء ليستمتع بالبرطوبة ويدأ بالنزول وقيظ القليلة ينقل رأسه، ويغشى عينيه أحياناً بنقاط ملونة تراقص أمام حدقته.

واخيراً وصل إلى المكان الذي ترك فيه الدرجة النارية، وهناك وجد ايرين في انتظاره. فصديقه التي فقدت الصبر وهي تنتظره في بيت آل رانكيلي، أوقفت أول عربة خضار عابرة وطلبت من فيها أن يحملوها معهم. تعانقا بشوق، وقادته إلى ظل الأشجار حيث سوت الأرض مبعدة الحصى، وساعدته على الاستلقاء. وفيما هو يحاول الراحة والسيطرة على ارتعاش ساقيه، مسحت العرق عن وجهه، ثم قطعت شامة أهدتها إياها ديفنا واعطته ليأكل منها، متزرعة القطع بأسنانها لتضعها في فمه مرفة بقبة. كانت الفاكهة دافئة وشديدة الحرارة، لكنه أحسن أن كل لقمة منها هي بمثابة دواء عجيب، قادر على الغاء أثر الإجهاد وعلى مكافحة الخمود. وحين لم يبق من الشامة سوى قشورها المقضومة، بللت ايرين المنديل من جدول ماء ونظفها به ديدنها ووجهها. وتحت شمس الساعة الثالثة اللاهبة، جددا العهود التي همسا بها في الليلة السابقة، وتبادلوا المداعبات المجرية التي تعلمها حديثاً.

ورغم سعادة هذا الحب الذي لم يكدر يبدأ، فإن ايرين لم تكن تستطيع إبعاد ذكرى المنجم من ذاكرتها. فتساءلت:
- كيف عرف براديليو بمكان جثة اخته؟

الحقيقة ان فرانثيسكولم يكن قد فكر بذلك، ولم يكن يرى ان تلك اللحظة هي اللحظة المناسبة للتفكير بأمر كهذا. كان يشعر بالارهاق، وكانت رغبته الوحيدة هي النوم قليلاً ليتخلص من الدوار، لكنها لم تتح له الوقت لذلك. كانت مجلس مقاطعة ساقيها مثل فقير هندي ، وتكلمت بسرعة، قافزة من فكرة الى اخرى، كما هي عادتها. وكانت ترى انه في هذه النقطة بالذات يمكن مفتاح بعض الأسرار الأساسية . وفيها صديقها يستجمع قواه ويحاول تصفية ذهنه ، كانت هي تبحر في الموضوع موضحة الشكوك وباحثة عن اجابات ، إلى أن استخلصت بشكل مؤكد ان برادييليو رانكيليويعرف منجم لوس ريسوكوس لأنه كان يتعدد عليه مع الملازم خوان دي ديوس راميريث . لابد انها استخدمته ليحفيا فيه شيئاً ، لأن الشرطي كان يعرف انه مكان آمن وقد افترض ان رئيسه سيعود إلى استخدامه عند الحاجة .

قال فرانثيسكوفي عينيه نظرة من فوجيء وهو يسير نائماً:

- لست أفهم شيئاً.

- الأمر في غاية البساطة . فلنذهب إلى المنجم وفتح النقق الثاني . فقد نجد هناك مفاجأة .

سيتذكر فرانثيسكوهذه اللحظة فيما بعد مبتسماً، إذ بينما دائرة الربع تطبق من حولها، فإن شعوره الغالب كان معانقة ايرين ، ناسيماً الموتى الذين بدأوا يبتثرون من تحت الأرض مثل شجيرات برية ، والخوف من الاعتقال أو الاغتيال . كان ذهنه مشغولاً تماماً بالرغبة الجاححة في ممارسة الحب . وبدلًا من تلمس الطريق في المتابهة التي يتقدمان فيها ، كان يحاول البحث عن مكان مریح ليلعب معها . وكان اندفاعه لضمها بين ذراعيه ، واحتضانها ، وشمها ، والاحساس بها تحت جلد ، وامتلاكها على مرأى من الاشجار أقوى من الارهاق والحر والعطش ، كان يريد ان يفعل كل ذلك هناك بالذات ، إلى جانب الطريق ، تحت أنظار من يصادف مروره الآن . ولحسن الحظ أن أفكار ايرين كانت أكثر صفاء ، فقالت له حين حاول احتضانها فوق العشب: أنت محظوظ . ثم شدته من ملابسه لتقوده إلى

الدراجة النارية وأفنته بالانطلاق، متطية الدراجة خلفه ومحضنة حاشرته، هامسة بأوامر جازمة وبكلمات غرامية في اذنه، إلى ان خفت اهتزازات الدراجة وضوء الشمس المבהיר من اندفاع عواطفه واعادت اليه السكينة، فواصلا طريقهما إلى منجم لوس ريسكونس.



كان السوق ليلاً حين وصلت اييرين مع فرانسيسكو إلى بيت آل ليال. وكانت هيلا قد انتهت لدورها من اعداد عجة البطاطا فيما كانت رائحة القهوة تعطر المطبخ. لقد أشرقت هذه الحجرة الفسيحة للمرة الأولى، وظهرت أبعادها الحقيقية بعد اخراج آلة الطباعة منها، فاتيح للجميع تقدير سحرها: الاثاث الخشبي القديم المغطى بقطع من الرخام، والثلاثة العمرة والطاولة الموضوعة في الوسط والتي تستخدم لألف غرض ويجتمع أفراد الأسرة حولها. كان هذا المطبخ يشكل المكان الأكثر دفئاً وحناناً في الدنيا خلال فصل الشتاء، فيه، وإلى جانب آلة الخياطة والمذياع والتلفزيون، يجدون ضوء ودفء مدفأة الكبير وسين والفرن والمكواة. ولم يكن فرانسيسكو يجد مكاناً أفضل من تلك الحجرة، فأجل ذكريات طفولته حدثت اثناء لعبه ودراسته واحاديثه الماتفاقية الطويلة مع خطبية ذات جداول مدرسية في هذه الحجرة، فيما امه التي كانت ما تزال شابة وفاتها في ذلك الحين، تقوم بآعمالها مدندة بأغانيات من وطنها الاسباني البعيد. كان الجو يعيق دوماً برائحة الاعشاب الطازجة ويهارات تبيل الطعام والمقالى. وتحتلط رائحة أغصان اكليل الجبل، وأوراق الغار، وفصوص الشوم، ورؤوس البصل، والفانيليا، واليانسون والشوكلاته المستخدمة في صنع الحلوي والبسكويت.

في تلك الليلة، كانت هيلا تصفي قليلاً من قهوة ممتازة أهدتها إياها اييرين بيلزان. ووجدت ان هذه المناسبة تستدعي اخراج الفناجين الخزفية الصغيرة التي تحفظ بها في الصوان، والتي مختلف كل منها عن الآخر وتبدو لرقتها وكأنها

تهيدات . كانت رائحة القهوة هي أول ما تلقاه الشابان عند فتح الباب ، وقادتها إلى قلب البيت .

أحس فرانسيسكو لدى دخولهما انه محاط بداء الجو ، الدفء الذي كان يشعر به في طفولته ، حين كان صبياً نحيلًا وضعيفاً ، وضحية الألعاب الخشنة مع اولاد أكثر منه قوة وفسوة . كانت قد اجريت له جراحة وهو حديث الولادة بسبب تشهو خلقي في احدى ساقيه ، وقد رعته امه التي كانت داعمة طفولته في ظل تصورتها ، وأرضعته لفترة اطول بكثير من فترة الرضاعة المعتادة ، وحملته على ظهرها أو يبن ذراعيها أو على وركها وكأنه جزء من جسدها ، إلى أن شفيت عظامه تماماً وصار قادرآ على الاعتماد على نفسه . كان يأتي من المدرسة وهو يجر جراب لوازمه ، متهيئاً للقاء امه في المطبخ ، حيث تتظاهر بابتسامتها الهدئة المرحبة وقد أعدت له وجبة طعامه . لقد تركت هذه الذكرى أثراً خالداً في روحه على مدى الحياة ، وكلما احتاج لاستذكار الطفولة ، كان يعيد في ذاكرته بناء أدق تفاصيل هذه الحجرة ، رمز الحضور الكلي للحب الامومي . ولقد أحس في تلك الليلة بالاحساس ذاتها حين رأها تحرك العجة في المقلة وتدنن بصوت خافت . وكان أبوه عاكفاً على دفاتره يصحح اختبارات التلاميذ ، تحت ضوء مصباح السقف .

أفزع منظر القادمين الزوجين ليال . فقد كان الشابان شاحبين ، ثيابهما مجعدة ومتسخة ، وتطل من عينيهما تعابير غريبة .

سألهما البروفسور:

- ماذا أصابكما؟

فرد فرانسيسكو:

- وجدنا مدفناً سرياً . توجد فيه جثث كثيرة .

- كونيوا ! - صاح أبوه ، متلفظاً لأول مرة في حياته بكلمة نابية أمام زوجته . رفعت هيلدا منديل المطبخ إلى فمهما ، وفتحت عينيها الزرقاويين المستديرين برعب ، متتجاوزة بذاءة زوجها . وكان الشيء الوحيد الذي استطاعت

ان تتمتم به :

- أيتها العذراء المقدسة!

قالت ايرين:

- أظن انهم من ضحايا الشرطة.

- هل هم من المفقودين؟

وقال فرانثيسكو:

- هذا ممكن. - ثم أضاف وهو يخرج بضعة أفلام من حقيبته ويضعها فوق الطاولة: - لقد التقى بعض الصور.

رسمت هيلدا اشارة الصليب بحركة آلية. وانهارت ايرين فوق أحد المقاعد وقد نفذت قدرتها على الصمود، فيما كان البروفسور ليالي يتمشى بخطوات واسعة دون ان يجد الكلمات المناسبة في قاموسه الواسع والعني. كان ميالاً إلى الفصاحة، لكن وقع ذلك البنا افقده القدرة على النطق.

روى فرانثيسكو وايرين ما جرى. فقد وصلا إلى منجم لوس ريسكوس عند الأصيل، منهكين وجائعين، ولكنهما كانا على استعداد للتحري بدقة، ومتشبدين بأمل العودة إلى حياتهما الطبيعية وتبادل الحب بطمأنينة بعد حل هذا اللغز. لم تكن تبدو على المكان أية علامات شؤم في وضح النهار، لكن ذكرى ايفانخيلينا اجبرتهما على التقدم بحذر. أراد فرانثيسكو الدخول وحيداً، لكن ايرين قررت التغلب على ترددها ومساعدته في فتح النفق الثاني ليتهما ويخرجا من هناك بأسرع ما يمكن. ازاحتا الانقضاض والأحجار عن المدخل بسهولة، وشقا المنديل إلى قطعتين، ربطاها إلى وجهيهما ليقيا رائحة العفونة القوية ودخلوا الرواق الأول. لم يحتاجا إلى اضاءة المصباح اليدوي، فالشمس كانت تنفذ من الفتحة مضيئه جسد ايفانخيلينا رانكيليتو، فغطاه فرانثيسكو بالعباءة ليحجبه عن عيني صديقته.

اضطررت ايرين إلى الاستناد إلى الجدار كي تحفظ توازنها، لأن ساقيها انهارت. حاولت التفكير بحديقة بيتها حين تفتح فيها أزهار اللاتسيني فوق قبر الوليد الذي سقط من كوة النور، أو بالثمار المقدسة في سلال ضخمة أيام السوق.

رجاها فرانشيسكو أن تخرج ، ولكنها تمكنت من السيطرة على معدتها وتناولت قطعة حديد عن الأرض ، وانهالت بها على طبقة الاسمنت الرقيقة التي تسد مدخل النفق . وشاركتها فرانشيسكو في هذه المهمة مستخدماً المعلول . لا بد أن مزيج مواد البناء قد أعدته أيد غير خيرة ، لأنه كان يتفتت قطعاً صغيرة أمام أدنى الجهد . وانتشرت في الجو ، اضافة لرائحة التنانة ، سحابة كثيفة من غبار الاسمنت ، لكنها لم يتراجعا ، ليقينهما الذي كان يترسخ مع كل ضربة يهويان بها في انها سيجدان شيئاً في انتظارهما وراء هذا الحاجز . سيجدان حقيقة خبأة منذ زمن طويل . وبعد عشر دقائق من الحفر وجداً قطعاً قماشية وبعض العظام . كانت هناك اضلاع مغطاة بقميص أبيض وصدرية زرقاء . وفيها الغبار يهدا ، أشعلا المصباح اليدوي ليتفحصا هذه العظام ويتأكدا من انها عظام بشرية . وكان يكفي ان يحفرا قليلاً بين الانقضاض لتدحرج حيثشذ عند أقدامهما ججمة ما تزال عالقة في جبهتها خصلة شعر . لم تستطع ايرين احتسال المزيد ، فخرجت من المجمم متعرضة ، فيها واصل فرانشيسكو الحفر دون تفكير ، وكأنه آلة صامتة . بدأت تظهر بقايا اخرى ، فأدرك أنه في مدفن مليء بالجثث المدفونة منذ سنوات ، كما يبدو من حالتها . كانت الاجزاء البشرية تظهر من تحت التراب مختلطة بالملابس المهرئة الملطخة ببقع من مادة زيتية قاتمة . التقى فرانشيسكو قبل أن ينصرف بعض الصور بكل هدوء ودقة ، وكأنه في حلم ، لأنه كان قد اجتاز حدود الذهول ، وصار الأمر يبدوه طبيعياً على غرابته ، واكتشف نوعاً من المنطق في ذلك الوضع ، كما لو ان العنف كان يتنتظره ، دوماً . ورأى ان هؤلاء الموتى الذين بروزاً من تحت التراب بأيديهم المعروقة وجباههم المقوية بالرصاص ، كانوا يتظرونه منه وقت بعيد ، وينادونه دون توقف ، لكنه لم يسمعهم حتى ذلك اليوم . وفاجأ نفسه وهو يتكلم بصوت عال ليوضح لهم سبب تأخره باحساس من تخلف عن موعد . نادته ايرين من الخارج ، لتعيده إلى الواقع ، فخرج من المجمم وهو يجر جر روحه .

تعاونا على سد مدخل المجمم محاولين جعله يندو كما وجداه . واستراحوا لبضع دقائق استنشقا خلاماً الهواء النظيف ملء رئتيهما ، فيها كل منها يشد على

يد الآخر ويسمع نبضات قلبه المفلترة المكابح . وذكرهما تنفسهما المضطرب وارتعاش جسديهما بانهما ما يزالان على قيد الحياة على الأقل . اختفت الشمس خلف الجبال واصطبغت السماء بلون البترول ، فركبا الدراجة النارية واتجها صوب المدينة .

تساءل البروفسور ليال عندما انتهيا من القصة :

- ماذا ستفعل الأن؟

تجادلوا طويلاً حول الطريقة المثلثى لكشف القضية ، مستبعدين فكرة اللجوء إلى القانون ، لأن ذلك سيكون كمن يضع عنقه في انشطة . فقد افترضوا أن براديسيور انكيليو كان يعرف أن اخته في التجمّع لكونه استخدم هو نفسه هذا المكان لإخفاء جرائم أخرى ، وانذار السلطات قد يعني اختفاء ايرين فرانشيسكو كذلك خلال بضع ساعات ، وتغطية منجم لوس ريسكوس ببصمة رفوش جديدة من التراب . فالعدالة ليست إلا مصطلحاً منسياً من اللغة التي لم تعد تستخدم ، لأن هذا المصطلح هيئته توحى بالتمرد ، مثله مثل كلمة حرية . كان العسكريون ينعمون بعفوم العقاب عن كل ما يقترفونه ، وكان ذلك يشكل عائقاً أمام الحكومة ذاتها ، فلكل فرع من القوات المسلحة جهازه الامني الخاص ، اضافة إلى الشرطة السياسية التي تحولت إلى السلطة العليا في الدولة ، وكانت بمنأى عن أية رقابة . إن الغيرة المهنية لمن يتولون هذه الأجهزة كانت تؤدي إلى وقوع أخطاء مؤسفة وإلى انعدام الفعالية . فقد يحدث أن تتنازع جماعتان أو ثلاث جماعات أمنية على أحد المعتقلين ، وكل جماعة منهم تزيد استجوابه لأسباب متناقصة ، أو انهم يخطئون بالعملاء المزدوجين وتنتهي الجماعة إلى تصفية أفرادها .

تنهدت هيلدا :

رباً ! كيف خطركما الدخول إلى ذلك المنجم ؟

ورد البروفسور :

- ما فعلتاه هو عين الصواب . و يجب البحث الآن عن طريقة تخرجان بها من هذه المشكلة .

فاقتربت ايرين وهي تفكك بمجلات المعارضة القليلة التي ما زالت متداولة:

- الشيء الوحيد الذي يخطر لي هو أن نعلم الصحافة بالأمر.

وقرر فرانسيسكو:

- سأذهب غداً ومعي الصور.

فأكمل لها البروفسور ليال:

- لن تستطعوا المضي بعيداً. سيفتلونكم عند أول ناحية.

ومع ذلك، كانوا جميعهم متفقين على أن الفكرة ليست بالجنونية. فالحل الأفضل هو في اعلان الخبر، واطلاقه ليجوب العالم ويهز الضمائر ويزعزع ركائز الوطن ذاتها. عندئذ ذكرتهم هيلدا، بغرائزها الخفية، ان الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة التي ما زالت تقف على قدميها، في حين حلت جميع المنظمات الأخرى وكُنست بالقمع. وبمساعدة الكنيسة هناك فرصة حيال المستحيل، وبالإمكان كشف أمر النجم دون المخاطرة بفقدان الحياة. فاتفقوا حيثند على وضع هذا السر بين يدي الكردينال.

تمكن فرانسيسكو من العثور على سيارة اجرة توصل ايرين إلى بيتها قبل موعد حظر التجول، لأنه لم تعد لدى الفتاة قوة تمكنها من تثبيت نفسها على مقعد الدراجة النارية الخلفي. ونام في ساعة متأخرة بعد ان انهي تحميض الأفلام. نام نوماً قلقاً، وكان يتقلب في فراشه بيساس، وهو يرى في الظلال وجه ايفانخيلينا محاطاً بعظام صفراء تدق مثل الجلاجل. فصرخ في أحلامه واستيقظ ليجد هيلدا إلى جواره:

لقد أعددت لك زهر الرizinfon ، اشربه.

- أظن اني بحاجة لشيء أقوى ..

فأمرته مبتسمة:

- اصمت وأطع ، فلهذا لك أم.

جلس فرانثيسكوفي السرير، ثم نفع على الشراب، وبدأ يتناوله برشفات بطيئة، فيما كانت أمه تتأمله دون مواربة.

- لماذا تنظرلين إلى هكذا يا أماه؟

- لم تخبرني بكل ما حدث يوم أمس. فأنت وايرين مارستها الحب، أليس صحيحاً؟

- يا لطبعك! أتريدين التدخل في كل شيء؟

- لي الحق بمعرفة ذلك.

فضحك فرانثيسكو:

- لقد أصبحت كيراً على تقديم الحسابات.

- انتبه، أريد أن انبهك إلى أن هذه الشابة هي فتاة محترمة، وانتظر أن تكون نويايك طيبة تجاهها وإلا فاني سأختلف معك كثيراً، هل تفهمي؟ والآن، تناول شراب الزيزفون، وإذا كان ضميرك نقياً فستنام بهدوء - قالت هيلدا ذلك وهي ترب غطاء سريره لتخرج.

رأها فرانثيسكوتغادر الغرفة، بعد أن تركت الباب موارباً للستطيع سماعه إذا ما ناداها، فاحس بالحنان الذي كان يشعر به في طفولته، حين كانت هذه المرأة تجلس في فراشه لتداعبه بيد حانية إلى أن ينام. لقد انقضت سنوات طويلة منذ ذلك الحين، لكنها ما زالت تعامله بالعنابة البالغة نفسها، متاجهله أنه كثيراً ما يضطر إلى حلاقة ذقنه مرتين في اليوم الواحد، ومتناسية درجة الدكتورة في الطب النفسي التي يحملها، وكونه قادراً على رفعها بيد واحدة. كان يسخر منها، ولكنه لم يكن يفعل شيئاً لتغيير عادتها باغلاق الحنان المفرط عليه. كان يشعر انه يملك امتيازاً ويحرص على التمتع به طالما هو متاح له. فعلاقتها التي بدأت منذ لحظة الحب وقتنت من خلال تعرف كل منها على مساوى الآخر وحسناته، كانت هبة ثمينة يحرصان على إطالة أمدها إلى ما وراء موت أي منها. نام فرانثيسكوبقية تلك الليلة نوماً عميقاً وحين استيقظ لم يتذكر شيئاً من أحلامه. استرح طويلاً

تحت دوش الماء الساخن، ثم تناول الفطور مع بقایا القهوة المستوردة وخرج بعد أن وضع الصور في حقيبته متوجهاً إلى الحي الشعبي الذي يعيش فيه أخوه.

كان خوسيه ليال يعمل سباكاً. وحين لا يكون لديه ما يفعله بموقده اللحام أو بالفتح الانكليزي، فإنه يشغل وقته في مهارات ونشاطات متنوعة لصالح جماعة المؤسأء الذين اختار العيش بينهم، وذلك انسجاماً مع ميله الذي لا شفاء منه لدى العون إلى الآخرين. كان يعيش في حي واسع ومكتظ لا يظهر للناظر من الطريق العام، لأنّه عاطل بأ娑وار وبصف من أشجار الحور المشربة نحو السماء بأغصانها الجرداء، إذ لا يمكن حتى للنباتات أن تنمو سليمة في هذا القطاع.

وراء تلك ستارة الكثيمة توجد شوارع يملؤها الغبار والتراب في الصيف، والوحول والمطر في الشتاء، وبيوت مشادة بمواد مستخرجة من النفايات والقمامه؛ وملابس منشورة، وعراكات كلاب. وهناك يجتمع الرجال العاطلون عن العمل على النواصي لتمضية الوقت، فيما الأطفال يلعبون بخردة الحديد، والنساء ينهمكن في مقاومة تردي جاهن. عالم من الندرة والفتاق، حيث العزاء الوحيد المضمون هو التكافف. فلا أحد يموت هناك جوعاً، لأنّه ما أن يصل المرء إلى حافة اليأس، حتى تندّ إليه يد صديقة، هذا ما كان يقوله خوسيه ليال ليوضح حقيقة القدر المشتركة التي يلقى فيها كل واحد من الجيران ما هو قادر على تقديمها لحساء الجميع. والاقرباء يعيشون هناك ملتحمين بالأسرة، لأنّهم منفردين سيكونون أفقير من الفقراء ولن يجدوا سقفاً يأويهم. وفي مطاعم الأطفال، تتولى الكنيسة تقديم جزء من الطعام اليومي للصغار، والراهب الذي كان متقدماً على رؤية كل هذا منذ سنوات طويلة، لم تتصلب مشاعره أمام صرف الأطفال المستحبّين ومسرحي الشعور الذين يتظرون دورهم للدخول إلى ذلك المطعم المكشوف، حيث صحون الالئيوم تتظاهر فوق طاولات طويلة، فيما اخوتهم الكبار، من لا ينالهم الاحسان، يتجلّون حول المكان عساهم يظفرون بشيء من البقايا. كانت هناك امرأتان تقومان بطبعي الطعام الذي يجمعه الرهبان بالتسلل وبالتهديدات الروحية. وإضافة إلى تقديمها الطعام، كانتا تتوليان مراقبة

الأطفال كي يأكل كل منهم حصته، لأن كثيرين منهم كانوا يخبنون الطعام والخبز ليأخذوه إلى بيوتهم، حيث بقية أفراد أسرهم لا يملكون شيئاً يأكلونه، اللهم إلا بعض الخضار التي يجمعونها من حاويات القمامة في السوق أو قطعة عظم غليت مراراً وتكراراً لتمنع الحساء شيئاً من التكهة.

كان خوسيه يعيش في كوخ خشبي شبيه بأكواخ كثيرة هناك، لكنه أكثر اتساعاً منها لأنه يستخدمه لتقديمه الخدمات ولحل ما تعانيه رعيته التعيسة من مشكلات دنيوية وروحية. وكان فرانشيسكو يتربّد على الحبي برفقة محام وطبيب ليساعدوا الأهالي في نزاعاتهم القضائية وأمراضهم وقنوطهم، شاعرين أن مساعدتهم تلك ليست ذات جدوى في معظم الأحيان، لأنه لم يكن هناك من حل لا يقدّس المأسى التي يواجهونها.

وجد فرانشيسكو أخيه يستعد للخروج، كان يرتدي ملابس العمال ويحمل حقيبة العدة الثقيلة. وبعد التأكد من أنها وحيدان، فتح فرانشيسكو حقيقته. وفيما كان الراهب يتأمل الصور، ويزداد شحوباً لحظة بعد أخرى، راح فرانشيسكو يروي له القصة، بادئاً من إيفانخيلينا رانكيليو ونوبات القداسة التي كانت تصيبها، وكان أخوه يعرف بعض المعلومات حولها مذ ساعدتهم في البحث عنها في مستودع الجثث، ووصولاً إلى اللحظة التي تدرجت فيها على قدميه البقايا البشرية التي يحمل صورها في يده. ولم يغفل شيئاً باستثناء اسم ايرين بيلتران ليتركها بعيدة عن النتائج التي قد يؤدي إليها هذا الأمر.

استمع خوسيه ليال حتى النهاية واحتفظ بعد ذلك بالصمت لوقت طويل، ونظره مثبت بالأرض، في وقفة تأمل. وأدرك أخوه أنه يحاول السيطرة على أعصابه. ففي شبابه، كان أي شكل من أشكال التعسف أو الظلم أو الشر يبعث فيه شحنة كهربائية يجعل الغضب يعممه. لكن السنوات التي أمضاها كقس وتصلب طبعه منحاه القدرة للسيطرة على هذه الهيجانات عبر منهج تدريسي على الخشوع، فبدأ يتقبل الدنيا على أنها إنجاز غير مكتمل، يختبر الرب فيه صلاح

الارواح . واحيراً رفع رأسه ، وكان وجهه قد استعاد هدوءه كما استرد صوته نبرة الصافية ، فقال :

- سأكلم الكردينال في الأمر .

★ ★ ★

قال الكردينال :

- فليوفقنا الرب في هذه المعركة التي سنخوضها .
وأضاف خوسيه ليال :

- عسى أن يكون كذلك .

أمسك النائب الرسولي الصور بأطراف أصابعه ثنائية ، متأملاً الأسماء المسخة ، والمحاجر التي بلا عيون ، والآيدي المقيدة . ان من لا يعرف الكردينال سيفاجأ برؤيته . ففي الاحتفالات العامة ، وعلى شاشات التلفزيون ، وحين يقود القداس في الكاتدرائية بمسووحه المطرزة با ذهب والفضة مع بطانته من المساعدين ، يبدورقيقاً وانيقاً . لكنه كان في الواقع رجلاً وضيع النشأة . متيناً ، وخشنًا ، له يداً فلاح ثقيلتان ، قليل الكلام ولكلامه حين يتحدث نبرة خشنة على الدوام ، وذلك بسبب الخجل وليس بداعف العجرفة . وكان طبعه الصامت يظهر بوضوح في حضرة النساء وفي اللقاءات الاجتماعية . أما عند ممارسة عمله فلم يكن يظهر عليه ذلك . كان له أصدقاء معدودون ، لأن التجربة علمته ان للتحفظ في منصب كمنصبه فضائل لا يستهان بها . والقلة الذين استطاعوا الوصول إلى إقامة علاقة وثيقة معه يزكدون ان له طبعاً بشوشًا ، مثل طباع الريفيين . فهو ينحدر من أسرة ريفية كبيرة العدد ، ومحتفظ من بين والديه بذكرى وجبات الغداء المسخية ، والمائدة التي كان يجلس إليها اثنا عشر آخراً ، والنبيذ المتعق الذي يُعبأ في زجاجات في البهو بعد حفظه لسنوات طويلة في القبو . وبقي له من تلك الحياة جبه لحساء الخضار اللذيذ ، ولخلوى الذرة ، ومرق الدجاج ، والأسماك المطبوخة ، وقبل كل ذلك جبه للحلويات البيتية . والراهبات اللواتي يتولين شؤون منزله كن يسعين

لنسخ وصفات المأكولات التي كانت تعدّها أمه ويعُذن إلى غرفة الطعام بالأطباق التي كان يأكلها في طفولته. ومع أن خوسيه ليال لا يمكنه أن يفاخر بكسب صداقات الكردينال، إلا أنه كان يعرف من خلال عمله في مقر المطرانية، حيث كانا يتلقيان باستمرار، تجمعهما الرغبة المشتركة في إيصال التضامن الإنساني إلى حيث يبدوان الحب الرباني عاثب. كان يشعر كلما رأه بالحيرة التي أحس بها في اللقاء الأول، فهو يحتفظ له في ذهنه بصورة رجل وجيه، مختلف عن هذا العجوز الذي يبدو أشبه بقروي منه بأمير للكنيسة. وكان يكن له احتراماً شديداً، لكنه يتزلم جانب الخدر في ابداء هذا الشعور، لأن الكردينال لا يتحمل أي نوع من أنواع التملق. وقبل أن تتمكن البلاد بأسرها من تقدير شخصيته الحقيقية واحترامه، كانت لدى خوسيه ليال أدلة على شجاعته وحسن ادارته ودهائه، وهي الحال التي اظهرها فيها بعد في مقارعته للدكتاتورية. لم تستطع حلة العداء، ولا زوج الرهبان والراهبات في المعتقلات، ولا تحذيرات روما أن تحرّف عن أهدافه. فقد ألقى زعيم الكنيسة على كاهله مسؤولية الدفاع عن ضحايا النظام الجديد، واضعاً مؤسسته المهيءة في خدمة المطاردين. فإذا ما اشتتدت المخاطر، غير من استراتيجيةه مستندًا إلى ألفي سنة من الدهاء ومن معرفة السلطة. وبهذا كان يحول دون مواجهة مفتوحة بين مثلي يسوع ومثلي الجنرال. كان يبذّل في بعض الأحيان وكأنه يتراجع، لكنه سرعان ما يبيّن أن ذلك لم يكن سوى مناورة سياسية طارئة. لم يكن ليُنحرف ولو قليلاً عن مهمته في رعاية الأرامل والأيتام، وفي مساعدة المعتقلين، واحصاء القتلى واللجوء إلى الشفقة حين تعز العدالة. هذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة، رأى فيه خوسيه الأمل الوحيد للكشف عن سر لوس ريسكونس.

كانا حينئذ في مكتب الكردينال. وفوق طاولة الخشب القديمة الثقلة كانت الصور المغمورة بالضوء الداخلي عبر الزجاج. وكان بإمكان الزائر وهو في مقعده أن يرى من خلال النافذة سماء الربيع الصافية وقمم أشجار الشارع المعمرة. كانت الحجرة مؤثثة باثاث قائم وبخرازين للكتب. ولم يكن على الجدران سوى صليب مصنوع من سلك شائك، أهداه إيه سجناء أحد معسكرات الاعتقال. وكان

العاملون قد قدموا الشاي في فناجين كبيرة من الخزف الأبيض ، فوق طاولة ذات عجلات ، وقدموا معه رقائق من الحلوى والمربي الذي يعده دير الآباء الكرمليين . رشف خوسيه ليال آخر ما تبقى من الشاي وتناول الصور ليضعها في حقيبة أدوات السباكة . وضغط الكردينال على جرس ، فحضر سكرتيره في الحال .

- أرجو ان ترتب لي موعداً اليوم مع هؤلاء الأشخاص المذكورين في القائمة .

قال الكردينال وهو يمد اليه ورقة سجل عليها بخطه الدقيق مجموعة من الأسماء . فأخذها السكرتير ، والتفت الكردينال إلى خوسيه قائلاً :

- كيف علمت بهذه القصة أيها الأب ليال؟
فابتسم خوسيه مبدياً عدم رغبته في الكشف عن ذلك ، وقال :
- لقد اخبرتنيافتكم . انه من اسرار الاعتراف .
- إذا ما قررت الشرطة استجوابك فلن تقتنعني بهذه الاجابة .
- سأحتمل المخاطرة .
- أتفنى ألا يكون ذلك ضروريأ . أعلم أنك اعتقلت مرتين من قبل ، أليس كذلك؟

- أجل يا صاحب النيافة .
- عليك ألا تلتفت الانظار إلى تحركاتك . وأنا أفضل عدم ذهابك حالياً إلى هذا المنجم .

فرد خوسيه متورداً :
- اني مهتم بهذا الأمر جداً وأرغب في الوصول به إلى نهايته ، ان كنت تسمح لي يا صاحب النيافة .

تأمله الشيخ منفصلاً لبعض ثوان ، ومتقصياً أعمق دوافعه . لقد عمل معه منذ سنوات ، وهو يعتبره أحد العناصر الشجاعة في المطرانية ، حيث يتطلب العمل أساساً أشداء وقوفي قلوب سمحاء مثل هذا الرجل الذي يرتدي ملابس العمال ويوضع فوق ركبتيه حقيقة مليئة بأدلة على الشر . لكن نظرة الكردينال اقنعته ان

ذلك الرجل لا يتصرف مدفوعاً بالفضول أو التفاخر، وإنما بحماسة الوصول إلى الحقيقة.

- كن حذراً أينما الأب ليال، ليس من أجل نفسك وحسب، بل من أجل مكانة الكنيسة أيضاً. لسنا راغبين في خوض حرب مع الحكومة، هل تفهمي؟

- تماماً يا صاحب النيافة.

- تعال هذا المساء إلى الاجتماع الذي دعوت إليه. وإذا سمع الله، فستفتح هذا المنجم غداً.

نهض الكردينال عن كرسيه ورافق الزائر حتى الباب، كان يمشي متمهلاً وقد أسد أحدى يديه إلى ذراع هذا الرجل المتين الذي اختار مثله المهمة الصعبة: حب الآخرين فوق حب الذات.

- ليكن الله معك . . - قال العجوز مودعاً، وضغط على يد خوسيه بهمة، قبل أن يقوم هذا بتقبيل خاتمه.

عند الفרוב اجتمعت في مكتب الكردينال مجموعة من الشخصيات المتقنة. ولم تمر الحادثة دون أن تنتبه إليها عيون رجال الشرطة السياسية وجماعات أمن الدولة الذين أعلموا الجنرال شخصياً بالأمر، لكنهم لم يتجرأوا على منع الاجتماع نظراً للتعليمات المشددة بتفادي النزاعات مع الكنيسة. اللعنة، فهو لاء الرهبان اللعينون يزجون أنفسهم في أمور لم يطلب أحد منهم التدخل فيها، لماذا لا يلتفتون إلى الشؤون الروحية ويتركون شؤون الحكم لنا؟ ولكن دعوهم . . لا نريد مشكلة أخرى - قال الجنرال غاضباً - وتقصوا في آية شياطين يتداولون لستطيع استخدام المرهم قبل أن يحدث الجرح، وقبل أن يبدأ هؤلاء الأشقياء باطلاق الرسائل الرعوية في الكنائس ليخوزقوا الوطن ولا يبقى أمامنا حيئند سوى تلقينهم درساً، رغم أنني لا أجد في ذلك آية مسرة، فأنا كاثوليكي، رسولى، ورومى عحافظ، ولا أفكر في الحرب ضد الرب.

لم يعرفوا مدار من حديث في تلك الليلة، رغم أحجزة التنصت المشتركة من أرض توراتية، والقادرة على التقاط حتى أنفاس وتنفسات العاشقين الذين

يمارسون الحب في فنادق بعيدة؛ ورغم مراقبة هواتف الجميع لسماع أدنى همسة في المعتقل الفسيح الذي يشكله التراب الوطني؛ ورغم العملاء المبثوثين حتى في بيت الكردينال ذاته والمتذمرين بملابس مبتدئي الصراصير أو صبيان المتأخر أو الجنائيين، بل وأولئك العرجان والعميان ومرضى الصرع الذي يقبعون عند الباب طالبين الصدقات والباركات لدى مرور ذي المسوح. بذلك جماعات الأمن جهودها، ولكنها لم تتحقق إلا من أن هؤلاء الواردة اسماؤهم في هذه القائمة قد اجتمعوا لعدة ساعات وراء أبواب موصدة ياسidi الجنزال، ثم خرجوا من المكتب ليدخلوا إلى صالة الطعام، حيث قدم لهم حساء الواقع البحري، ولهم عجل مشوي مع البطاطا والبقدونس، وكانت الحلوي عبارة عن.. تكلم في المهم أيها الكولونييل. لا تقدم لي وصفات مطبخ، بل أخبرني بها تبادلوه من حديث! ليست لدينا أدنى فكرة عنها قالوه يا سidi الجنزال، ولكن إذا شئت فيمكننا استجواب السكرتير. لا تكن أحق أيها الكولونييل.

عند متتصف الليل صافح المدعون بعضهم بعضاً عند باب منزل الكردينال، وذلك أمام عيون رجال الشرطة الذين انتشروا في الشارع بشكل مكشوف. وعلم جميع المشاركين أن حياتهم قد أصبحت في خطر منذ هذه اللحظة، لكن أيّاً منهم لم يتردد، فهم معتادون على السير فوق شفير الهاوية، منذ بدأوا العمل لصالح الكنيسة منذ سنوات. وباستثناء خوسيه ليال، كانوا جميعهم من العلمانيين، بل إن بعضهم كان بعيداً عن الإيمان ولم يعرف اتصالاً بالدين إلا اثر الانقلاب العسكري، حين اجتمعوا على الالتزام بالمقاومة في الظل. وحين يقي الكردينال وحيداً، أطفأ الأنوار ومضى إلى غرفته. كان قد صرف سكرتيره وجميع عناصر الخدمة في وقت مبكر، لأنه لا يرغب في جعلهم يسهرون مثله. كانت السنوات قد قلصت من وقت نومه، وصار يفضل النوم متأخراً، ويقضي سهراته في مكتبه مكرساً إياها للعمل. حال في لرجاء البيت ليتأكد من أن جميع الأبواب موصدة، فمنذ انفجار القنبلة الأخيرة في حدائقه صار يتخذ بعض الاحتياطات. ورفض باصرار العرض الذي قدمه الجنزال لوضع

طاقم حراسة شخصية كما أنه لم يقبل طلب مجموعة من الشبان الكاثوليكين المتطوعين الذين عرضوا أنفسهم للسهر على أمنه. كان موقفنا من أنه سيعيش حتى ساعته المعلومة دون أن يتاخر عنها لحظة واحدة أو يتقدم . ثم أن مثلي الكنيسة، كما كان يقول، لا يمكنهم ان يتجلوا في سيارات مصفحة أو بقمصان مضادة للرصاص مثلما يفعل السياسيين وزعماء المافيا والطغاة . وإذا ما نجحت أية محاولة للتعرض لحياته ، فسرعان ما سيحتل كاهن آخر مكانه ليواصل عمله . وكان هذا يمنجه طمأنينة عظمى .

دخل حجرة نومه ، وأغلق الباب الخشبي الثقيل ، ثم خلع ملابسه وارتدى ثوب النوم . وفي هذه اللحظة أحس بالتعب وبثقل المسؤولية التي يتولاها ، ولكنه لم يسمح لأية شكوك أن تسيطر عليه . جثا في كرسي الرکوع ، وأغرق وجهه في راحتيه وتكلم إلى الرب مثلما يفعل في كل لحظة من لحظات حياته ، واثقاً من أن كلماته مسموعة ومن أنه سيتلقى الرد على استفساراته . فالرب لم يتخل عنه أبداً .. قد يتاخر حالقه أحياناً في اسماعه صوته أو قد يتجلى له عبر سبل مواربة ، ولكنه لا يسكت سكوتاً تماماً أبداً . غرق في الصلوات لوقت طويل إلى أن أحسن بقدميه تجمدان وبثقل السنوات يرهق كاهله . وتذكر أنه لم يعد في سن تمكنه من مطالبة عظامه بمثل هذه الجهدود ، فاستلقى في السرير مطلقاً تنبيدة رضى ، لأن الرب قد وافق على قراره .

★ ★ ★

أشرق يوم الأربعاء مشمساً وكأنه يوم صيفي . ووصلت اللجنة إلى لوس ريسكوس في ثلاثة سيارات ، يقودها المطران المساعد ، ويدلها على الطريق خوسيه ليال الذي رسم خريطة تبين خط السير حسب تعليمات أخيه . كان الصحفيون وممثلو الهيئات الدولية والمحامون يخضعون عن بعد لمراقبة رجال المخازل الذين اقتدوا آثارهم منذ الليلة السابقة .

أرادت ايرين الذهاب مع المجموعة باسم مجلتها ، لكن فرانشيسكو منها

من ذلك . فهـما لا يستندان إلى أية حماية كما هو شأن بقية أفراد اللجنة الذين يؤمن لهم وضعهم نوعاً من الحماية . وإذا ما ظهرت علاقتها في الكشف عن الجثث ، فلن يكون لها منأمل في الخروج أحـياء ، ويمكن لعلاقتها ان تكشف لأنـها كانتا حاضرين يوم طوحت ايفانـخيلينا بالـلـازـم رـامـيرـيث في الهـواء ، كما أنها شـوهـدا وـهـما يـبـحـثـان عن الفتـاة المـفـوـدة ، إضـافـة إلى عـلـاقـتها بـأـسـرـة رـانـكـيلـيوـ.

توقفت السيارات قريباً من النجم . وكان خوسـيه ليـال هو أول من انقضـ على الانـقاـضـ التي تـغـطـيـ المـدـخلـ ، مستـخدـماً ذـراعـيـ اللـذـينـ كـذـارـاعـيـ دـبـ وـمـسـتـفـيدـاً مـنـ مـارـسـتـهـ لـلـأـعـمـالـ الشـافـةـ . وـهـذاـ الـآـخـرـونـ حـذـوهـ لـيـفـتـحـواـ بـعـدـ عـدـةـ دقـائـقـ ثـغـرـةـ عـلـىـ مـرـأـيـ مـنـ جـمـاعـاتـ الـأـمـنـ الـتـيـ كـانـتـ تـقـفـ بـعـيـداًـ ، وـتـنـصـلـ بـأـجـهـزـةـ الـلـاسـلـكـيـ لـتـخـبـرـ انـ الـشـبـوـهـينـ يـخـرـقـونـ حـرـمـةـ النـجـمـ الـمـغـلـقـ رـغـمـ اـعـلـانـاتـ التـحـذـيرـ الـمـوـجـودـةـ ، وـنـحنـ نـتـنـظـرـ التـعـلـيمـاتـ يـاـ سـيـديـ الـجـزـرـالـ ، حـوـلـ . اـكـفـواـ بـالـمـراـقبـةـ كـمـ اـمـرـتـكـمـ وـلـاـ تـفـكـرـواـ بـالـتـدـخـلـ . . لـاـ تـدـخـلـوـاـ مـهـمـاـ حـدـثـ ، حـوـلـ .

كان المطران المساعد ، الذي قررأخذ زمام المبادرة ، هو أول من دخل إلى النجم ، لم يكن رشيقاً ، لكنه استطاع التلوى مثل نمس ليـدـخـلـ سـاقـيـهـ ثم يـنـزـلـ بـبـقـيـةـ جـسـدـهـ إـلـىـ الدـاخـلـ . صـفـعـتـهـ رـائـحةـ التـنـانـةـ مـثـلـ ضـرـبةـ هـرـاـوةـ ، لـكـنـهـ لـمـ يـطـلـقـ الصـرـخـةـ الـتـيـ شـدـتـ اـنـفـاسـ الـآـخـرـينـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ اـعـتـادـ عـيـنـاهـ عـلـىـ الـعـتـمـةـ وـرـأـيـ بـقـايـاـ اـيـفـانـخـيلـينـاـ رـانـكـيلـيوـ . سـاعـدوـهـ عـلـىـ الـخـرـوجـ وـأـوـفـعـوـهـ عـلـىـ قـدـمـيـهـ ، ثـمـ قـادـوـهـ إـلـىـ ظـلـ الـأـشـجـارـ لـيـسـتـعـدـ اـنـفـاسـهـ . وـفـيـ اـنـاءـ ذـلـكـ ، صـنـعـ خـوسـيهـ ليـالـ مـشـاعـلـ مـنـ أـورـاقـ الـجـرـائـدـ الـمـفـوـدةـ ، وـأـعـزـ لـلـجـمـيـعـ بـاـنـ يـغـطـواـ وـجـوهـهـمـ بـمـنـادـيلـ ثـمـ قـادـهـمـ وـاحـدـاًـ بـعـدـ آـخـرـ إـلـىـ الـمـدـفـنـ ، حـيـثـ اـسـطـاعـ الـجـمـيـعـ اـنـ يـرـواـ جـسـدـ الـصـبـيـةـ الـمـتـفـسـخـ وـبـحـمـوـعـةـ الـعـظـامـ الـمـتـصلـةـ بـعـضـهـاـ بـعـضـاًـ ، وـالـشـعـورـ وـالـمـلـابـسـ الـمـهـرـئـةـ . كانـ يـكـفيـ تـحـريكـ الـحـجـارـةـ قـلـيلاًـ لـتـدـحرـجـ رـؤـوسـ أـدـمـيـةـ جـدـيـدةـ . وـلـمـ يـكـنـ أـيـ مـنـهـمـ قـادـراًـ عـلـىـ الـكـلـامـ لـدـىـ خـرـوجـهـ ، فـقـدـ كـانـوـاـ يـخـرـجـوـنـ مـرـتـعـشـينـ وـشـاحـيـنـ ، وـيـحـدـقـوـنـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاًـ فـيـ مـحاـولـةـ لـاـدـرـاكـ حـجـمـ هـذـهـ الـلـقـيـةـ . كانـ خـوسـيهـ ليـالـ هوـ الـوـحـيدـ الـذـيـ وـجـدـ

في نفسه الحماسة الكافية لاعادة اغلاق المنجم ، مفكراً بالكلاب التي قد تشم رائحة العظام ، أو بفاعلي هذه الجرائم الذين قد ينتبهون إلى المدخل المفتوح فيعلموا أن أمرهم قد انكشف ، ومحاولون اخفاء الأدلة . لكن ما فعله كان بلا جدوى ، فعلى بعد مئتي متر ، وفي شاحنة مغلقة ، كان رجال الشرطة يرصدون المكان بمناظير مستوردة من أوروبا وبأجهزة تعمل بالأشعة تحت الحمراء مجلوبة من ولايات الشمال ، مما أتاح للكلوونيل معرفة ما يحتويه المنجم في اللحظة التي عرف بها ذلك المطران المساعد؛ لكن تعليمات سيدي الجنرال واضحة : لا تدخلوا في مواجهة مع الرهبان ، وانتظروا إلى أن يقوموا بالخطوة التالية لنرى أي خراء ينونون ، والأمر كله في نهاية المطاف ليس إلا بضعة موتى مجهولي الهوية .

رجعت اللجنة إلى المدينة في وقت مبكر ، وبعد أن أقسم جميع افرادها على عدم اطلاع أحد على الأمر ، تفرقوا ليتلقوا في المساء ، ويجتمعوا بالكردينال كي يقدموا له تقريراً عن مهمتهم .

يقى النور مضاء تلك الليلة في المطرانية حتى الفجر ، أمام بلبلة المخبرين الذين تسلقوا أشجار الشارع حاملين اجهزتهم المستوردة من الشرق الأقصى ليتمكنوا من رؤية ما يدور وراء الجدران . ولكننا ما زلنا نجهل ما ينونوه يا سيدي الجنرال ، لقد بدأ حظر التجول وهم ما زالوا يتحدثون ويشربون القهوة ، إذا ما أصدرت لنا الأوامر فاننا سندخل ، ونعتقل الجميع ، ما قولك؟ لا تكونوا خصيـان يا رجل !

تفرق الزائرون عند الفجر وودعهم رئيس المطرانية عند الباب . هو وحده كان ثابت الجنان لأن روحـه مطمئنة ولا تعرف الخوف . نام قليلاً ، وبعد تناول الفطور اتصل هاتفياً برئيس المحكمة العليا ليطلب منه استقبال ثلاثة مبعوثين من طرفه بأسرع ما يمكن ، لأنـهم يحملون اليـه رسالة بالـغـةـ الأـهـميةـ . بعد ساعـةـ من ذلك كان المـلـفـ في يـدـ القـاضـيـ ، الذـيـ تـمـنـىـ عـنـدـئـذـ لـوـأـنـهـ كـانـ فـيـ الجـانـبـ الـآخـرـ مـنـ الدـنـيـاـ ، بـعـيـداـ عـنـ هـذـهـ القـبـلـةـ الزـمـنـيـةـ الـتـيـ سـتـنـفـجـرـ دونـ رـيبـ :

السيد رئيس المحكمة العليا .
تحية .

السيد الرئيس : منذ أيام أبلغ أحد الأشخاص كاهناً ، تحت سر الاعتراف ، أن لديه معلومات وأدلة على وجود عدة جثث في مكان حده له . وقد نقل هذا الكاهن ، بناء على موافقة من أخيه ، المعلومات إلى السلطات الكنسية .
وبهدف التحقق من المعلومات ، قامت يوم أمس لجنة مؤلفة من الموقعين أدناه ، والصادرة مدراء تحرير صحيفتي «اكونتيشير» و«سيانا» ، وموظفين من مكتب حقوق الإنسان ، ووصلتنا إلى المكان الذي أشار إليه ناقل الخبر ، وهو عبارة عن منجم قديم ، مهجور حالياً ، يقع على سفح الجبال القرية من قرية لوس ريسكوس .

ولدى الوصول إلى المكان ، وبعد ازاحة بعض الأنقاض التي تغطي فتحة المنجم ، تأكد لنا وجود بقايا بشريّة لعدد غير محدد من الأشخاص . وحين تحققتنا من الواقعه أوقفنا تفتيشنا للمكان ، لأن هدفنا كان التتحقق من صحة الاخبارية فقط ، ولأننا لا نستطيع التدخل أكثر من ذلك في مهمة هي من مهام التحقيق القضائي .

ومع ذلك ، فإننا نقدر ان مواصفات المكان وحالة الاشلاء التي تحققتنا من وجودها ، تجعل الاخبارية القائلة بوجود عدد مرتفع من الضحايا أمراً محتملاً .
ان حالة الذعر العام التي قد تثيرها هذه المعلومات ، دفعتنا لأن نضعها مباشرة تحت تصرف أعلى سلطة قضائية في البلاد ، كي تتخذ المحكمة المؤقة الاجراءات اللازمة لفتح تحقيق سريع وشامل .

مع فائق احترامنا للسيد الرئيس
اربانو اور بانيخو (المطران المساعد)
خيسوس بالدوبيнос (القاضي الاسقفي)
اولوخيو غارسيا دي لاروسا (محام)

كان القاضي يعرف الكرديناł . فادرك ان الأمر ليس مجرد مناورة منه ، إنما دليل على أنه مستعد لخوض معركة مواجهة : ولا بد في هذه الحالة أن جميع الأوراق الرابحة في يده ، فهو من الدهاء بحيث لا يمكنه أن يضع له هذا الركام من العام بين يديه ويدعوه لتطبيق القانون ، دون أن يكون واثقاً من النتائج . والأمر لا يحتاج لخبرة كبيرة لاستخلاص أن منفذى هذه الجرائم إنما عملوا بمحاباة من نظام القمع القائم ، ولذا فإن الكنيسة تتدخل وهي لا تملك الثقة بالعدالة . مسح العرق عن جبهته وعنقه ، وتناول أفراداً لمقاومة الاختناق وتسرع نبض القلب ، خائفًا أن تكون ساعة الحقيقة قد أزفت بعد سنوات من تصريحه لشئون العدالة حسب تعليمات الجنرال ، وبعد سنوات وسنوات من إخفائه للملفات وعرقلته لمهمة محامي المطرانية في متأهلات البر وقراطية ، وبعد سنوات وسنوات من فبركته القوانين بأثر رجعي على جرائم ابتدعت حديثاً . كان من الخير لي أن اعتزل العمل في الوقت المناسب ، أن أتقاعد حين كان ما يزال بالإمكان عمل ذلك مع الاحتفاظ بباء الوجه ، أن أنصرف إلى زراعة زهوري بسلام وأنقل إلى التاريخ دون احتفال هذا العباء من الشعور بالذنب والعار الذي لا يتركتني أيام وبمحاصري في آية لحظة شرود طوال النهار ، رغم أنني لم أفعل ما فعلت لطامع شخصية ، وإنما لأخدم الوطن كما طلب مني الجنرال بعد أيام من توليه القيادة ؛ لكن الوقت قد فات الآن ، فهذا النجم اللعين ينشق تحت قدمي وكأنه قبرى ، وهؤلاء الموتى لن يصمتوا كما صمت كثيرون غيرهم ما دام الكرديناł قد قرر التدخل . كان عليَّ أن استقيل يوم الانقلاب العسكري ، حين قصفوا قصر الرئاسة ، وسجناوا الوزراء ، وحلوا البرلمان ، وحين كانت عيون العالم بأسره تتضرر أن يرفع أحد رأسه ويدافع عن الدستور ؛ في ذلك اليوم بالذات كان عليَّ أن أذهب إلى بيتي متذرعاً ببني رجل عجوز ومرهض ، هذا ما كان عليَّ عمله بدل وضع نفسي تحت تصرف مجلس القادة العكسريين وبدء عمليات التطهير في محكمي .

كان رد الفعل الأول لرئيس المحكمة العليا هو الاتصال بالكرديناł وتقديمه

عرضًا للوصول إلى اتفاق معه، لكنه سرعان ما تبين أن الأمر قد تجاوز قدراته التفاوضية. فتناول الهاتف وأدار الرقم السري واتصل بالجنرال مباشرة.

★ ★ *

أقاموا حول منجم لوس ريسكوس دائرة من الحديد والخوذ والآذية العسكرية، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا انتقال الخبر من فم إلى فم، ومن بيت إلى بيت، ومن واد إلى واد، إلى أن انتشر في كل مكان وهز أركان الوطن هزة عنيفة. أبعد الجنود الفضوليين، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا تقدم الكريدينال وموكيه، كما فعلوا بالصحفين ومراقبى القوى العظمى الأجنبية الذين جذبتهم فضيحة تلك المجزرة. فمنذ الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة قام عناصر من إدارة التحريرات، يرتدون أقنعة واقية وقفازات مطاطية، باخراج الأدلة الرهيبة بناء على تعليمات المحكمة العليا، التي تلقتها بدورها من الجنرال: افتحوا هذا المنجم اللعين وأخرجوا منه كومة الموتى وأكدوا للرأي العام اننا سنعاقب الجناة، وفيما بعد سترى، فذاكرة الناس ضعيفة. جلووا في شاحنة ومعهم اكياس بلاستيكية صفراء وكبيرة وطاقم عمال بناء لازاحة الأنقاض. وسجلوا كل شيء بنظام دقيق ومتا匹ق: جسد بشري لاثى في حالة تحلل مغطى بحرام قاتم لللون، حداء، بقايا شعر، عظام طرف سفلي، عظم لوح كتف، عظم عضد، فقرات، جذع مع طرفيه العلوين، سروال، ججمتين، أحدهما كاملة والآخرى دون فك سفلي، أسنان اصطناعية ميم اطار معدني، مزيد من الفقرات، بقايا أضلاع، جذع مغطى بمزرق من ملابس، قمصان وجوارب متنوعة الألوان، عظم حرقفي وعدد آخر من العظام المتفرقة. كل ذلك ملأ ثمانية وثلاثين كيساً خُتمت أصولاً، وأحصيت ونقلت إلى الشاحنة. واضطروا إلى نقلها على عدة دفعات إلى المعهد الطبي. وقد أحصى موضوع التفتيش أربع عشرة جثة، استناداً إلى الرؤوس التي وجدت، لكنه لم يستبعد فطاعة العثور على أجساد أخرى مخفية تحت طبقات الزمن والتراب إذا ما

جرى الحفر بعنابة أكبر. وأطلق أحدهم وقتئذ تلك السخرية الرهيبة القائلة إنهم إذا حفروا أكثر قليلاً فسيجدون هيكل من عظام الغزاوة الإسبان، ومومياءات ملوك الانكا ومستحاثات كرماغنون، لكن أحداً لم يبتسם لأن الكابة كانت تخيم على الجميع.

كان الناس قد بدأوا بالتواجد منذ الصباح الباكر، مقتربين إلى الحد الذي رسمته البنادق، ووقفوا وراء الجنود يراقبون. كان أول القادمين هم آراميل وأيتام المنطقة، وكان كل منهم يضع شريطة سوداء على ذراعه الأيسر كإشارة حداد. وفيما بعد جاء الآخرون، جميعاً فلاحياً من منطقة لوس ريسكوس تقريباً. وعند منتصف النهار وصلت حافلات من الأحياء الهاشمية في العاصمة. كانت الكابة تطفو في الجو مثل نذير عاصفة، موقفة طiran العصافير. انتظروا ساعات طويلة تحت شمس زرقاء ضاربة إلى السواد تصبح بلونها أشياء العالم وألوانه، فيما الأكياس البلاستيكية تمتليء بالعظم. ومن بعيد، كانوا يحاولون التعرف على فردة حذاء، أو قميص، أو خصلة شعر. وكان أقواء النظر ينقلون ما يرونه للآخرين: ظهرت الآن ججمة أخرى عليها خصل من شعر شائب، قد تكون ججمة الصديق فلوريس، أتذكرون؟ لقد ختموا الأن كيساً آخر، لكنهم لم يتتهوا بعد، انهم يخرجون المزيد، يقال انهم سينقلون الرفات إلى مستودع الجثث وهناك يمكننا رؤيتها عن قرب. وكم سيكلفنا هذا؟ لا أعرف، ولكن لا بد لنا من دفع شيء. أيقضون كذلك من أجل التعرف على قتلامهم؟ لا، لا يارجل، لا بد أن يكون ذلك مجاناً..

انقضى وقت الأصيل كله والناس يتواجدون إلى أن شكلوا حشدًا كبيراً فوق الرابية، وكانوا يسمعون صوت الرفوش والمعاول وهي تقلب التراب، ويرون ذهاب الشاحنة الرسمية وإليها، وحركة رجال الشرطة، والموظفين والمحامين، وتذمرات الصحفيين الذين لم يسمع لهم بالاقتراب. وحين غابت الشمس ارتفع كورال أصوات ينشد صلاة جنائزية. وكان هناك من نصب خيمة مرتجلة من بعض البطانيات، مبدياً بذلك استعداده للبقاء إلى وقت غير محدد، لكن الحراس

عاجلوه بأعقاب بنادقهم قبل أن يجدوا آخرون حذوه. كان ذلك قبل قليل من ظهور الكريدينال، الذي اجتاز حاجز الجنود في سيارة المطرانية غير مكترث بالاشارات التي تدعوه للتوقف، ثم نزل من السيارة وسار بخطوات واسعة ليتوقف أمام الشاحنة، حيث راح يخصي الأكياس بعينين لا تسماحان، فيما مفوض التفتيش يرتجل التفسيرات. حين انطلقت الشحنة الأخيرة من الأكياس البلاستيكية الصفراء وأمر رجال الشرطة الناس باخلاء المنطقة، كان الظلام قد خيم، وبدأت الجموع تنسحب تحت جنح الليل وبعضهم يروي مأساته للبعض الآخر، مثبتاً بذلك أن جميع النكبات متصلة.

في اليوم التالي ازدحم جميع القادمين من كل أرجاء البلاد على أمل التعرف على متهم، لكنهم منعوا تقديمهم بانتظار صدور أوامر جديدة، كما أشار الجنرال. لأن الجثث شيء، وعرضها أمام بصر الجميع كما في معرض شيء آخر تماماً، ما الذي يتصوره هؤلاء الأنذال، أهيلوا التراب على هذه المسألة أيها الكولونيل قبل أن أفقد صبري.

- وماذا ستفعل للرأي العام، وللدبلوماسيين والصحافة يا سيدي الجنرال؟

- ما قلناه دوماً أيها الكولونيل. ففي الحرب لا يمكن تبديل الاستراتيجية.

علينا أن نتعلم من الأباطرة الرومان..

في شارع المطرانية جلس مئات الاشخاص حاملين في أيديهم صور مفقودتهم، ومدمدين دون توقف: أين هم؟ فيما مجموعة من الرهبان العمال والراهبات ذوات السراويل يشاركون في الكتدرائية بدعم مطالب الجميع. وفي يوم الأحد رأيت في جميع الكنائس الرسالة الاسقفية التي حررها الكريدينال، وتجرأ الناس للمرة الأولى منذ زمن طويل ومظلم من الالتفات نحو من هم إلى جوارهم ليشكوا معـاً. وصاروا يتساءلون ليتداولوا في كل حالة من حالات الضحايا الكثيرة إلى أن نسوا عددهـا. ونظموا موكبـاً دينـياً للصلـاة على القـتلى ، وقبل أن تتمكن السلطات من استيعاب ما حدث ، كان حشد متـدفق يـقدم في الشـوارع حـاملـاً الـريـات والـلافـات المـطالـبة بالـحرـية والـخبـز والـعدـالة . بدأ المـوكـب بـصفـوف بـشرـية

مهلهلة كانت تخرج من الأحياء الهمامشية، وراحت تتجمع شيئاً فشيئاً وتعاظم، إلى أن التفت في كتلة متراصصة راحت تشتد بأعلى صوت الأناشيد الدينية والشعارات السياسية المكتومة منذ سنوات عديدة والتي بدا أن الناس قد نسيتها إلى الأبد. ثم تجمع الشعب في الكنائس والمقابر، وهي الأماكن الوحيدة التي لم يدخلها رجال الشرطة بمعذاتهم الحربية حتى ذلك الحين.

- ماذا نفعل بهم يا سيدي الجنرال؟

ورد عليه من أعماق الملجأ:

- كالعادة أيها الكولونيل.

في أثناء ذلك كان التلفزيون يقدم برامجه المعتادة من موسيقى خفيفة، ومسابقات، ومسلسلات وأفلام حب وضحك. والصحف تقدم نتائج مباريات الكورة، ونشرة الأخبار تعرض الزعيم الأعلى للأمة وهو يقص شريط مركز مصرى جديد. لكن أخبار اللقى في المنجم وصور الجثث كانت تجوب العالم بأسره عبر أجهزة التيليفيسب بعد عدة أيام. واستولت وكالات الأنباء عليها وأعادتها إلى بلد المنشأ، حيث صار من المستحيل كتم الفضيحة لوقت أطول، رغم الرقابة ورغم التفسيرات الخيالية التي قدمتها السلطات. ورأى الجميع المذيع المزهو وهو يقرأ الرواية الرسمية: انهم ارهابيون أعدتهم زملاؤهم؛ ولكن أحداً لم يشك في أنهم معتقلون سياسيون مقتولون. وجرى التداول في القضية المرعبة بين أكاداس الخضار والفواكه في الأسواق، وبين التلاميذ ومعلميهم في المدارس، وبين عمال المعامل، بل وفي صالونات البرجوازية المغلقة، حيث فوجيء بعضهم باكتشاف ان هنالك شيئاً يسير على غير ما يرام في البلاد. والتمتمة الخائفة التي دارت خلال سنوات عديدة متخفية وراء الأبواب والنواذن الموصدة، خرجت مدوية إلى الشارع للمرة الأولى، وظهرت هذه الحسرة المتعاظمة إلى التور بالف حالة جديدة، لتهز جميع الضمائر. ان أشد المبلدين هم وحدهم الذين استطاعوا تجاهل هذه الظواهر مرة أخرى ومواصلة حياتهم بهدوء. وكانت بيتريس الكانترا واحدة من هؤلاء.

★ ★ ★

في يوم الاثنين ، وعند موعد الغداء ، وجدت بياتريس ابنتها تقرأ الصحيفة في المطبخ ولاحظت ان طفها يغطي ذراعيها .

- أنت مصابة بالجرب !

- إنها حساسية يا أماه .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- فرانثيسكو قال لي .

- المصوروون صاروا يشخصون الأمراض الآن ! أين سنته ؟

لم تجب ايرين بشيء ، وأمعنت أنها النظر في الطفح عن قرب لتأكد حقاً من أنه ييلو غير معدٍ ، وأن هذا الفتى قد يكون على حق ، إذ أنها لم تكن سوى بشور من تلك التي يسببها الربيع . وحين اطمأنـت ، تناولت بعض الصحف لتصفحها ، فاصطدمت عينها بالعنوان الكبير الذي يتصدر الصفحة الأولى : «مفقودون ! ها ! ها ! ها !» ، شربت عصير البرتقال مذهولة ، لأن ذلك كان يشكل صدمة حتى لمن هم مثلها . ومع ذلك ، فقد سُئمت من سماع حكاية لوس ريسكوس في كل مكان ، وانهزمت الفرصة لتحدث في الأمر مع روسا وابتها : فمثل هذه الأحداث هي أمور منطقية في حرب كالحرب التي شنها العسكريون الوطنيون ضد السرطان الماركسي ، وفي جميع الحروب تقع خسائر ، ومن الأفضل نسيان الماضي وبناء المستقبل .. شطب كل شيء وفتح صفحة جديدة .. عدم التحدث مجدداً عن المختفين ، واعتبارهم متوفى وحل المسائل القانونية نهائياً .

فسألتها ايرين وهي تحك بيديها الاثنين :

- لماذا لا تفعلين ذلك فيما يتعلق بأبي ؟

تجاهلت بياتريس السخرية . وراحت تقرأ المقال بصوت عال : «المهم الآن هو التقدم في طريق التنمية ومحاولة لألم الجراح وتجاوز الضغائن . ولتحقيق ذلك لن يفيد البحث عن الجثث في شيء . ففضل العمليات التي قامت بها القوات

المسلحة، اتيحت بمرحلة الجديدة التي تعيشها الأمة. وقد اقتضت فترة الطوارئ التي تم اجتيازها بسعادة، منح صلاحيات واسعة للسلطة القائمة، بحيث تتمكن من العمل في عدة مستويات بكل الحزم اللازم لفرض النظام واقرار التعايش الأهلي.

وأضافت بيتريس:

- اني موافقة تماماً. ما هو الغرض من تحديد هوية تلك الأجساد التي وجدت في المنجم والبحث عن مذنبين؟ لقد حدث ذلك منذ عدة سنوات. انهم متوفى معقون.

وهماهم الناس ينعمون أخيراً بالرفاهية، ويستطيعون شراء ما يرغبون، وليس كما كان الحال في السابق، حين كان عليهم الانتظار في الدور حتى من أجل شراء فروج باس. أما الآن فيمكن طلب كل شيء بسهولة عن طريق الخدمة المنزلية، وقد انتهت حالة الهيجان الاشتراكي التي تسببت في الماضي بأفخر الأخطار. على الشعب أن يعمل أكثر ويتكلم أقل في السياسة، مثلما قال الكولونييل اسبينوسا في عبارة ملهمة، وكررت العبارة من ذاكرتها: «اننا نناضل معاً من أجل هذا البلد الجميل، ذي الشمس الجميلة، والأشياء الجميلة والحرية الجميلة».

هزلت روسا كتفيها وهي منحنية تجلو الأطباقي، وأحسست ايرين بازدياد الحكة في جسدها كله.

- لاحكي، فستلفين بشرتك، وحين يأتي غوستافو ستبدين وكأنك مصابة بالجذام.

- لقد جاء غوستافو ليلاً يا أماه.

- آه ! ولماذا لم تخبريني بذلك؟ متى ستتزوجان؟

فردت ايرين :

- لن نتزوج مطلقاً.

توقفت يد بيتريس التي تحمل الفنجان في وسط المسافة بين الطبق

وشفتيها. كانت تعرف ابنتها بما يكفي لتدرك حين تكون قراراتها نهائية ولا عودة عنها. فبريق عينيها ونبرة صوتها أعلمتهما ان سبب هذه السعادة ليس مسألة عاطفية، وإنما هي قضية من نوع آخر.

فاستعرضت أحداث الأيام الأخيرة واستنتجت ان ثمة شيئاً غير عادي قد حدث في حياة ايرين. فقد تبدل نظام حياتها، وصارت تغيب خلال النهار وترجع منهكة من التعب والسيارة مقطأة بالغاربار، وقد هجرت تنانيرها الفجرية واساور الخرز التي كأساور ساحرة لتبس ملابس الصبيان، وصارت تأكل قليلاً وتستيقظ في الليل صارخة، ولكن بيتريس كانت بعيدة رغم ذلك عن ربط هذه الاشارات بمنجم لوس ريسكوس. أرادت التقصي اكثر، لكن الفتاة انتهت من تناول قهوتها وهي واقفة، وانصرفت قائلة انها ستجري تحقيقاً صحيفياً خارج المدينة ولن ترجع حتى المغيب.

هتفت بيتريس بعد خروج ابنتها:

- المصور هو السبب، ابني متأكدة!

فردت روسا:

- حيث يميل القلب، تسير القدم.

- لقد اشتريت لها جهاز عرس فاخر، وهاهي ذي تخرج على الآن بهذه البدعة. بعد كل هذه السنوات من الحب مع غوستافو تأتي لتختلف معه في اللحظة الأخيرة.

- رب ضارة نافعة يا سيدتي.

فخرجت بيتريس صافقة الباب وهي تقول:

- ما عدت أحتمل يا روسا!

لم تقل روسا شيئاً مما رأته في الليلة السابقة، حين رجع الكابتن بعد عدة شهور من الغياب واستقبلته الصغيرة ايرين كما لو كان غريباً عنها. كانت تكتفي رؤية وجهها لأنسى أمر فستان الزفاف وكل الخطط التي وضعتها ل التربيةأطفال شقر وذوي عيون زرق في أيام شيخوختي. الانسان يطلب والرب يمنع. وإذا ما قدمت

امرأة خدعاً كي لا يقبلها خطيبها من شفتيها، فسيلاحظ حتى الأعمى أنها لا تشعر نحوه بالحب؛ وإذا قادته إلى الصالون، وجلست في أبعد مكان ممكن عنه وراحت تنظر إليه بصمت، فذلك لأنها تفكّر بـأنه تقول له دون مواربة ذلك الكلام الذي سمعه الكابتن: إنني آسفة جداً، لكنني لن أتزوج منك لأنّي أحب شخصاً آخر؛ هذا ما قالته له، ولم يحب بشيء. يا للمسكين، لقد أثار شفقي. احتجزه بشدة، وارتعدت ذقنه مثل طفل سينفجر بالبكاء، فأنا رأيته من فرحة الباب الذي يقع موارياً، ولم أفعل ذلك بداع الفضول، ليتجنّبني الرب منه، وإنما لأنّي الحق في معرفة مشاكل صغيرتي، وإذا لم أفعل فكيف سأتمكن من مساعدتها؟ فأنا لم أرّيها وأحبّها كلّ هذا الحب الذي يسوق حب أمها عيشاً، لقد انقضى قليلاً حين رأيت هذا الفتى جالساً على طرف الأريكة ومعه العلب الملقفّة بورق المدايا، دون أن يدرّي أين يذهب بكلّ هذا الحب الذي جمعه لا يرى طوال سنين؛ يبدوّلي أنه شاب جيد، انه طويلاً وأبيق مثل أسر، وحسن المندام كما هي عادته دوماً، وصلب مثل عصا مكنسة؛ انه جنتلمن حقيقي، لكنّ مظهره المتألق لم يفده في شيء، لأنّ الصغيرة لا تتبّع إلى هذه الأمور، وخصوصاً الآن بعد أن أحبّت المصور؛ فالحبار الذي ينام لا بد أن يحمله التيار. ما كان على غوستافو أن يذهب ويتركها وحيدة طوال هذه الشهور. أنا لا أفهم شبان هذه الأيام، ففي زمان لم تكن هناك حربات كثيرة، وكل شيء كان يسير كما يحب: المرأة تقبع في بيتها والخطيبات يتظاهرن العريض وهن يطرزون الشراف، ولا يمضين ليركبن على القعد الخلفي لدراجة رجل آخر؛ كان على الكابتن أن يحتاط لهذا الأمر بدلاً من سفره مطمئناً، فقد رأيت هذه النتيجة منذ البدء، وقلت له: بعد يسبّ النساء؛ لكن أحداً لم يهتم بي، ونظروا إلى بشفقة، كما لو كنت معتوهه، ولكن ليس لدى قدر شعرة واحدة من الجنون، والشيطان يعرف الكثير لأنّه عجوز وليس لأنّه شيطان. أظن أن غوستافوكان يعرف أنه لم يعد مرغوباً فيه، ولم يكن هناك ما يفعله، لهذا الحب كان ميتاً ومدفوناً. كانت يداه تتعرّقان عندما وضع علب هداياه فوق طاولة الصالة، وسأل إن كان ذلك القرار نهائياً، سمع الجواب ومضى

دون أن يلتفت إلى الوراء ودون أن يسأل عن اسم غريمه، وكأنه يعرف في أعماقه أنه لا يمكن أن يكون إلا فرانثيسكوليال. إنني أحب شخصاً آخر، كان هذا هو كل ما قالته ايرين، ولا بد أنه كان كافياً، لأنه قطع أوصال خطوبية دامت لسنوات ما عدت أذكر عددها. إنني أحب شخصاً آخر، قالت صغيرتي، وشعت عيناها ببريق لم أره فيهما من قبل.

★ ★ *

بعد أسبوع تراجع خبر لوس ريسكوس ليفسح المجال لغيره من الأخبار، فقد كانته هي تغذية فضول الجمهور بآس جديد. وكما تنبأ الجنرال، بدأ النسيان يغيب الفضيحة، ولم تعد تختل الصفحة الأولى في الجرائد، وإنما اقتصر ظهورها على بعض المجالات المعارضة محصورة التداول فقط. وحين رأت ايرين هذا الوضع، قررت البحث عن أدلة، وإضافة تفاصيل جديدة إلى القضية لتُبقي الاهتمام مشدوداً إليها على أمل أن يتغلب التذمر الشعبي على الخوف. أصبح هاجسها هو كشف النقاب عن القاتلة وتحديد أسماء الضحايا. كانت تعلم أن خطوة خاطئة واحدة أو تصرف غير مدروس سيكون كافياً لإنتهاء حياتها، لكنها كانت مصممة على الحيلولة دون السماح لتعتيم الرقابة وتواطؤ القضاء بمحو الجرائم. ورغم الوعيد الذي قطعه لفرانثيسكوبالبقاء في الظل، إلا أنها أحست بالانقياد وراء اهواها.

حين اتصلت ايرين بالرقيب فاوستينور يغير التدعوه إلى الغداء بحججة اجراء ربيو تاج حول حوادث الطرق، كانت تدرك حجم المخاطرة، ولذلك ذهبت دون أن تخبر أحداً، براودها شعور بانها تقوم بخطوة متهرة، ولكن لا بد منها. وأظهر لها صمت الرقيب الطويل وهو يرد عليها في الهاتف أنه يشك في أن ما طلبته ليس إلا ذريعة للوصول إلى موضوعات أخرى، لكن قتلى النجم كانوا يشكلون بالنسبة اليه أيضاً كابوساً يرغب في اطلاع أحد عليه.

اتفقا على اللقاء بعد كوارتين عن ساحة القرية، في الاستراحة التي التقى

فيها من قبل . كانت رائحة الفحم واللحم المشوي تنتشر في الشوارع المجاورة ، وكان الرقيب يتضرر عند الباب بملابس المدنية ، محتمياً تحت الشرفة القرميدية . وجدت ايرين صعوبة في التعرف عليه ، بينما تذكرها هو بدقه وقام بأول إشارة تحية . كان يفاخر دوماً بأنه رجل قوي الملاحظة ، معتاد على التقاط أدق التفاصيل ، وهي صفة لا بد منها في مهنته البوليسية . لاحظ الفروق التي طرأت على مظهر الشابة وتساءل أين هي أساورها الفاضحة ، وتنانيرها ذات الكشاكس ومكياجها الدراميكي الذي يظلل عينيها اللتين صدمتا يوم تعرف عليها . فالمرأة التي وجدها أمامه بشعرها المرسوط في ضفيرة ، وبنطاطها القطني ، وحقيقةها الضخمة المتدرلة من كتفها كانت لا تكاد تشبه الصورة التي يحفظ بها في مخيلته . جلسا إلى طاولة متواهية في طرف الفناء ، تحت ظلال شجيرات أزهار الثالوث الوارفة .

وأثناء تناول الحساء الذي لم تذقه ايرين بيلتران ، ذكر الرقيب بعض الاحصائيات حول ضحايا حوادث المرور في هذه المنطقة ، دون أن يتوقف عن مراقبة مضيافته بطرف عينه . لاحظ تململها ، لكنه لم يفسح لها المجال لحرف الحديث بالاتجاه المرغوب إلى أن يتأكد من نوایاها . وعندما أحضروا لها خنزيراً صغيراً أحالة الشواء ذهبياً ، فوق فرشة من البطاطا المحمرة ، وفي فمه جزرة وعلى أذنيه عدد من عروق البدونس ، تذكرة ايرين ذلك الخنزير الذي ذبح في بيت آل رانكيليو ، فصعدت موجة من الغثيان إلى حلتها . كانت تقلبات معدتها تقلقها منذ اليوم الذي دخلت فيه إلى النجم ، فما تكاد تضع شيئاً في فمها حتى ترى صورة الجسد المتفسخ ، وتتذكر رائحة التنانة التي لا تنسى ، فترتعش برباع كالسرعب الذي أحسست به في تلك الليلة . حدت في سرها لحظة الصمت التي سادت ، وحاولت أن تصرف نظرها عن أسنان ضيفها الكبيرة وشاربه الملوث بالدهن الدافئ .

وقالت أخيراً وهي تبحث عن طريقة مباشرة للدخول في الموضوع :
- أظن أنك على علم بأمر موتي منجم لوس ريسكوس .

- أجل يا آنسة.

- يقولون أن ايفان خيلينا رانكيليو بينهم.

سكن الرجل كأساً آخر من النبيذ، وألقى إلى فمه بقطعة أخرى من الخنوص. وأحسست ايرين بأنها تسيطر على الموقف، فلو كان فاوستينوريفيرا لا ينوي التكلم، لما وافق على هذا اللقاء. وكونه موجوداً معها هو دليل كاف على استعداده للتعاون. أتاحت له الوقت ليبتلع بعض اللقم ثم بدأت باستخدام بعض خدعها الصحفية وغنجها الطبيعي، لاجباره على اطلاق العنان للسانه.

- لا بد من خوذقة مثيري الشغب، والمعدنة هذه الكلمة يا آنسة. ومثل هذه المهمة تقع على عاتقنا وانجازها شرف كبير لنا. فالمدنيون يتمرون تحت أية ذريعة، ولا بد لنا من الشك بهم وضررهم بيد قوية، كما يقول ملازمي راميريث. ولكن هذا لا يعني القتل دون قانون، لأن الأمر سيصبح في مثل هذه الحالة مجرد مجرزة.

- ألم يكن كذلك يا حضرة الرقيب؟

لا. لم يكن موافقاً على ذلك، لأنها افتراءات يروجها خونة الوطن واساءات يتبعدها السوفيت لتتشوّه سمعة حكومة سيدى الجنرال. والاهتمام بمثل هذه الشائعات أمر لا يطاق؛ فوجود بعض جثث في قاع منجم لا يعني أن جميع من يرتدون الزي العسكري هم قتلة؛ انه لا ينكر وجود بعض المتطرفين، ولكن ليس من العدل تحميل الجميع المسؤولية. ثم ان بعض القسوة خير من عودة القوات المسلحة إلى ثكناتها، وترك البلد في يد السياسيين.

- أتعلمين ما الذي سيحدث لو سقط سيدى الجنرال، لاقدر الله؟ سينهض الماركسيون ويذبحون جميع الجنود مع نسائهم وأطفالهم. انهم يعرفوننا. وسيقتلوننا جميعاً. هذا هو جزاء قيامنا بواجبنا.

كانت ايرين تستمع اليه صامتة، لكن صبرها ما لبث أن نفد بعد قليل وقررت محاصرته نهائياً:

- اسمع أيها الرقيب ودعك من اللف والدوران. لماذا لا تقول لي ما يحول في ذهنك؟

حيثند، وكما لو أن الرجل كان يتضرر هذه الاشارة، تخلى عن مقاومته وأعاد عليها ما كان قد رواه لبراديليسورانكيليو حول مصير اخته، وأطلعها على شكوكه التي لم يبع بها لأحد من قبل. رجع بذاكرته إلى فجر ذلك اليوم المئيك، حين عاد الملازم خوان دي ديوس راميريث إلى الموقع بعد أن حمل المعتقلة. في ذلك اليوم كانت ذخيرة مسدسه ناقصة طلقة. وكان لا بد من إبلاغ عريف الحرنس عن أي إطلاق للنار بالأسلحة الخدمية. لتبين ذلك في سجل خاص بالأسلحة. وأوضح لها الرقيب أنه خلال الشهور الأولى التي تلت التحرك العسكري، سادت الفوضى في السجلات، لأنه كان من المستحيل حساب الذخائر التي تطلقها جميع الرشاشات والبنادق والمسدسات في الموقع، ولكن حين هدأت الأمور، عادوا إلى الروتين السابق. وهذا قال الملازم عندما أراد تقديم تفسير لإطلاقه الرصاصية، إنه قتل كلباً مساعراً. كما سجل في سجل الحراسة أنه تم إطلاق سراح الفتاة في الساعة السابعة صباحاً، وإنها ذهبت بمشيتيها.

ثم أضاف الرقيب وفمه ممتليء بالطعم:

- وهذا ليس صحيحاً يا آنسة، كما هو مثبت في دفتر الملاحظات هذا.

ومد لها مفكرة جيب صغيرة مهرئة الغلاف، وقال:

- انظري، كل شيء موجود هنا. موجود فيها كذلك انتا سنلتقي اليوم، وسجلت أيضاً حدثنا الذي تبادرناه منذ أسبوعين، أتذكري؟ أنا لا أنسى شيئاً، وكل شيء يمكن قراءته هنا.

حين أمسكت ايرين المفكرة أحسست بها ثقيلة كالصخر. فتأملتها مذعورة، وأدركت بوضوح خطورة ما تحتويه. كانت على وشك أن تتسلل اليه ليتلفها، لكنها أقصت هذه الفكرة عن ذهنها، جاهدة للتصرف بشكل طبيعي. فقد راودتها في الأيام الأخيرة بكثرة تلك الهواجس التي تدفعها للشك في اتزان تفكيرها.

روى لها الرقيب كيف وقع الملازم على ما صرّح به وكيف أمر العريف أغناسيو برافوبان يخدو حذوه. وكيف انه لم يذكر شيئاً عن حمله لا يفانخيلينا

رانكيليو خلال الليل، كما أن رجاله لم يسألوه عن ذلك، لأنهم يعرفون جيداً سوء نوایاه ولا يريدون الانتهاء إلى الزنزانة الانفرادية مثل براديليو.

وقال الرقيب:

- لقد كان رانكيليو شاباً طيباً.

- كان؟

- يقولون انه مات.

كتمت ايرين بيلزان صرخة يأس. فمثل هذا الخبر يحيط خططاتها. لأنها كانت تأمل في خطوطها التالية أن تعثر على براديليو رانكيليو وتقنعه بالثول أمام المحاكم. فربما كان هو الشاهد الوحيد على ما جرى في لوس ريسكونس، المستعد للشهادة ضد الملائم وكشف النقاب عن الاغتيالات، لأنه يمكن لرغبة في الانتقام لاخته أن تتغلب على خوفه من العواقب. وأعاد الرقيب رواية ما اشيع عن أن براديليو قد وقع في جرف في الجبل، رغم أنه، ولشرف الحقيقة، غير واثق من ذلك، لأن أحداً لم يرجشه. حين بدأ ريفيرا بتناول زجاجة النبيذ الثانية، كان قد تخلى عن جميع أشكال الخدر وبدأ في البوج بجميع شكوكه. صحيح أن الوطن أولاً، ولكن هذه القضية ليست لعبة، ولا بد للعدالة من أن تكون أولاً، هذا ما أقوله أنا، رغم أنهم يهددوني، ورغم اني سأفقد عملي وينتهي بي الأمر إلى حراثة الأرض مثل أخوتي. اني مصمم على الوصول إلى النهاية، سأذهب إلى المحكمة، وسأقسم على العلّم والكتاب المقدس، وسأروي الحقيقة للصحافة. لهذا دونت كل شيء في مذكرتي : اليوم ، وال الساعة ، وجميع التفاصيل الأخرى. لقد كنت أخبرتها تحت قميصي دوماً، فأنا أحب أنأشعر بملامستها الصدرى ، حتى اني أسام وأنا أحلمها معي ، لأنهم حاولوا سرقها في أحد الأيام . هذه الملاحظات تساوى ذهباً يا آنسة ، أنها الأدلة التي حاول آخرنون محوها ، ولكن كما قلت لك : أنا لا أنس مطلقاً . سأعرضها على القاضي إذا اقتضى الأمر ، لأن براديليو وايفانخيلينا يستحقان العدالة ، فهما من أقربائي .

كان بإمكان الرقيب أن يتصور ما حدث ليلة اختفاء ايفانخيلينا وكأنه يراه في

شريط سينمائي . قاد الملازم راميـث السيارة على الطريق وهو يصفر ، فهو يصفـر دائمـاً حين يكون عصبيـاً ؛ وكان يفكـر بالطريق رغم معرفـة الجـيدة بالمنطقة وعلـمه بـأنه لن يجد أـية سيـارة في مثل هـذا الوقت . انه سائقـ حـذر . وقدـر انه بعد أـربع دقـائق أو خـمس دقـائق من اجـتيازـه بوـابة المـوقع وتـلوـيـه مـودعاً للـعـرـيف اـغـنـاسـيوـبرـافـوـ، الـذـي كان يـحرـسـ الـبـابـ، وصلـ إلىـ الـطـرـيقـ العـامـ، واتـجهـ شـهـلاـ . وبعد بـضـعة كـيلـومـترـاتـ انـحـرـفـ عـبـرـ الـطـرـيقـ المـؤـديـ إـلـىـ الـمـنـجـمـ . طـرـيقـ سـيـءـ، غـيرـ مـعـبدـ ومـلـيءـ بـالـحـفـرـ، هـذـاـ السـبـبـ كـانـتـ السـيـارـةـ مـلـوـثـةـ لـدـىـ عـودـتـهـ وـالـأـطـارـاتـ مـلـطـخـةـ بـالـوـحـلـ . وافتـرضـ انـ الضـاطـ قدـ اـخـتـارـ مـكـانـاًـ مـعـيـناًـ قـرـيبـاًـ جـداًـ منـ الـمـنـجـمـ ليـتـوقفـ فـيـهـ . ولمـ يـطـفـيـ أـنـوارـ السـيـارـةـ لأنـهـ كـانـ بـحـاجـةـ إـلـىـ اـسـتـخـدـامـ يـدـيـهـ الـاثـتـيـنـ، وـلـنـ يـتـبـعـ لهـ ذـلـكـ اـسـتـعـمـالـ الـمـصـبـاحـ الـيـدـويـ . بـعـدـ ذـلـكـ ذـهـبـ إـلـىـ الـقـسـمـ الـخـلـفيـ مـنـ الشـاحـنةـ، فـنـزـعـ الـغـطـاءـ وـرـأـيـ الـفـتـاةـ . لـاـ بـدـ اـنـهـ اـبـتـسـمـ تـلـكـ الـابـتسـامـةـ الـمـعـوجـةـ الـقـيـ الـعـرـفـهاـ مـرـقـ وـسـوـهـ وـيـخـشـونـهاـ . أـزـاحـ شـعـرـ اـيـفـانـخـيلـيـنـاـ عنـ وـجـهـهاـ وـاسـطـاعـ رـؤـيـةـ تـقـاطـيـعـ الـوـجـهـ، وـالـعـنـقـ، وـالـكـتـفـيـنـ، وـنـهـيـ الـفـتـاةـ الـتـيـ فيـ سنـ تـلـمـيـذـاتـ الـمـدارـسـ . وـبـدـتـ لـهـ جـيـلـةـ رـغـمـ الـكـدـمـاتـ وـالـجـرـوحـ، مـثـلـ جـيـعـ الصـبـاـيـاـ تـحـتـ النـجـوـمـ . وـأـحـسـ بـدـفـءـ مـعـرـوفـ بـيـنـ سـاقـيـهـ، وـاضـطـربـ تـفـسـهـ، فـضـحـكـ بـمـكـرـ وـهـوـ يـهـمـسـ لـنـفـسـهـ: يـالـيـ مـنـ بـهـيـةـ .

- اـعـذـرـيـ لـصـراـحتـيـ يـاـ آـنـسـةـ .

قالـ فـاوـسـتـيـنـوـ رـيـفـراـ ذـلـكـ، قـاطـعـاًـ روـايـتـهـ، وـكـانـ يـمـصـ ماـ تـبـقـىـ مـنـ عـظـامـ الـغـدـاءـ .

لـمـ المـلـازـمـ خـوانـ دـيـ دـيـوسـ رـاميـثـ صـدـرـ الـفـتـاةـ وـرـبـاـ تـأـكـدـ حـيـثـنـذـ مـنـ اـنـهاـ مـاـ زـالـتـ تـتـنـفـسـ . هـذـاـ أـفـضـلـ كـثـيرـاـ بـالـنـسـبـةـ لـهـ، وـأـسـوـاـ كـثـيرـاـ بـالـنـسـبـةـ لـهـ . كـانـ يـدـوـ علىـ الرـقـبـ وـكـانـهـ يـرـىـ بـعـيـنـيـهـ مـلـازـمـهـ حـينـ نـزـعـ مـسـدـسـهـ وـوـضـعـهـ فـوقـ صـنـدـوقـ الـعـدـةـ إـلـىـ جـانـبـ الـمـصـبـاحـ الـيـدـويـ، ثـمـ فـكـ حـزـامـهـ الـجـلـديـ وـاـزـرـارـ بـنـطـالـهـ وـأـلـقـيـ بـنـفـسـهـ فـوقـ الـفـتـاةـ بـعـنـفـ لـاـ طـائـلـ مـنـهـ، لـأـنـهـ لـمـ يـوـاجـهـ أـيـةـ مـقاـمـةـ . اـخـتـرقـهاـ عـلـىـ عـجلـ، سـاحـقـاـ جـسـدـهاـ فـوقـ أـرـضـيـةـ الشـاحـنةـ الـمـعدـنـيـةـ، وـعـاصـرـاـ الصـغـيرـةـ الـضـائـعـةـ

تحت نقل وزنه البالغ ثمانين كيلوغراماً، ونقل احزمته ويدلته العسكرية، وجزمه الثقيلة. كان يخمشها، وبعضاها ليسترد بذلك كبريه رجولته التي انتزعتها منه في يوم الأحد ذاك وسط فناء بيتها. وشعر الرقيب ريفيرا بالغثيان وهو يفك بذلك، لأن له ابنة في مثل عمر ايفان خيلينا. لا بد انه استراح فوق المعتقلة بعد ان انتهى منها، وبقي كذلك إلى أن لاحظ أنها لا تقوم بأية حركة، ولا تشكو، وعيناها مسمرتان بالسماء، مذهولتان لميتها هذه. حينئذ أعاد ترتيب ملابسه، وأمسكها من قدميها وسحبها إلى الأرض ثم بحث عن المصباح اليدوي والمسدس، ووجه حزمة الضوء نحو الرأس، وقرب فوهه المسدس، وبعد أن نزع مسامير الأمان، أطلق النار عن قرب، متذكراً صباح ذلك اليوم البعيد حين أطلق بحركة عائلة رصاصة الرحمة على قتيله الأول. فتح مدخل المنجم بالرفش والمعول، وحمل الجثة ملفوفة بالعباءة، وأدخلها كيما اتفق ساحياً إليها حتى النفق الذي إلى اليمين، وغضها بالانفاس والاحجار ثم خرج من هناك. وقبل ان ينصرف، أعاد إغلاق مدخل المنجم، وحرك التراب بقدمه ليغطي البقعة القائمة وفتات المادة اللينة التي نثرتها الطلقة على الأرض، ثم فتش المكان بدقة إلى ان وجد غلاف الرصاصة، فخبأها في جيب سترته ليقدمها إلى رقابة الدخائر، انسجاماً مع الأنظمة. ولا بد أنه ابتعد في تلك اللحظة حكاية الكلب المسعور. طوى قطعة المشمع، ووضعها في مؤخرة الشاحنة، وجمع بقية الأدوات، ووضع المسدس في قرابه وألقى نظرة الأخيرة فيها حوله ليتأكد من أنه لم تبق آية آثار للعملية. ثم صعد إلى السيارة وتقدم نحو الطريق المؤدي إلى الثكنة وهو يصرُّ.

ختم الرقيب ريفيرا كلامه قائلاً:

- وكما قلت لك يا آنسة، فهو يصرف كلما كان عصبياً. وأعترف باني لا أملك أدلة على ما قلت له لك، ولكنني أقسم بأمي الطاهرة، لسترح روحها بسلام، ان الامور حدثت بهذا الشكل تقريباً.

- ومن هم الموئي الآخرون الذين كانوا في المنجم؟ من قتلهم؟

- لست أدرى . أسألي فلاحي المنطقة ، فقد اخترى كثيرون في هذه الانحاء . اذهبى إلى حيث يقيم آل فلوريس .
- أأنت واثق من انك ستجرؤ على اعادة ما قلته لي في محكمة ؟
- أجل . واثق تمام الثقة . فتحليل الرصاصة وتشريح رفات ايفانخيلينا سيثبتان انني على حق .

دفعت ايりين الحساب، ثم وضعت آلة التسجيل في حقيبتها خفية، وودعت ضيفها. حين صافحت يده أحسست ثانية بذلك القلق الغامض الذي ساورها حين أمسكت المفكرة. ولم تستطع النظر في عينيه.

لم يتمكن الرقيب فاوستينوريفيرا من تقديم شهادته أمام القاضي ، لأن شاحنة بيضاء صدمته في تلك الليلة بالذات ، فقتلته في الحال ولاذ بالفرار. وكان شاهد العيان الوحيد هو العريف اغناسيو برافو الذي أكد ان كل شيء حدث بسرعة شديدة لم يستطع التتحقق من لوحة السيارة ولا من السائق. ولكن لم يُعثر للمفكرة على، أثر.

بحث ايسرين عن بيت آل فلوريس . كان بيتأ من الأخشاب والسواح التوتية ، مثل غيره من بيوت تلك المنطقة . ويشكل البيت جزءاً من ضيعة فلاحين فقراء استفادوا من بضعة هكتارات من الأرض أثناء الاصلاح الزراعي ، لكنها انتزعت منهم فيما بعد ، فلم يبق لهم سوى بساتينهم العائلية الصغيرة . الطريق الطويل الذي يقطع الوادي ويصل الأراضي بعضها ببعضاً ، شقه الفلاحون بعملهم الجماعي ، وساهم في نقل أحجاره حتى الشيوخ والأطفال . وعبر ذلك الطريق جاءت السيارات العسكرية بالجنود ليتهكوا حرمة البيوت بيتأ بيتأ ، وليصفعوا الرجال في صف طویل ، ويخذلوا واحداً من بين كل خمسة رجال دون تعين لعدموهم كبيرة لآخرين ، ثم يطلقوا النار على البهائم ، ومحرقوا الحقول ثم ينصرفوا مختلفين هناك الدماء والدمار . كانت الولادات الجديدة نادرة في هذا

المكان، لأن بيتوً كثيرة كانت بلا رجال منذ عدة سنوات. فكان يُحتفل بالولادات القليلة ببهجة، وتطلق عليهم أسماء الموتى، كي لا ينساهم أحد.

ظنت ايرين لدى وصوتها أن البيت مهجور، وهذا ما كان يوحى به مظهره المتواحد والكئيب. قرعت الباب لبعض الوقت دون أن تسمع حتى ولو نباح كلب. وكادت أن تدبر ظهرها لتصرف، حين ظهرت من بين الأشجار امرأة ترتدي ثياباً قائمة، ولا تكاد تكون مرئية في المشهد وأخبرتها ان السيدة فلوريس وابنتهما في السوق، حيث تبيعان الخضار.

على بعد بضع خطوات من ساحة لوس ريسكوس، كان السوق ينفجر بالصلب والألوان. بحثت ايرين بين أكدام فواكه الموسم من دراقن وشمام وبطيخ، واجتازت متأهات الخضار الطازجة، واكواوم البطاطا والذرة الطيرية، والطاولات المترعة بالملاميز والأعنة، وبالاسرحة وقبعات القش، وصفوف الفخار الأحمر والأسود، وأفلاص الدجاج والأرانب، وسط فوضى المناداة والمساومة. ووراء كل ذلك كانت تقوم محلات بيع اللحوم، والأسماك، والقواقع البحرية، وجميع أنواع الأجبان، وسط خليط من الروائح والطعوم. جابت السوق في جميع اتجاهاته على مهل متلذذة بالتفرج، وباستنشاق رائحة الأرض والبحر، متوقفة لتدوّق حبة من بواعير العنب، أو ثمرة فريز ناضجة، أو محاراً حياً في قوقعته اللؤلؤية، أو فطيرة رقائق أعدتها يداً بائعاً. وفكّرت وهي مفتونة بهذه الأشياء انه لا يمكن لأمور مزعجة أن تحدث في عالم تُزهر فيه وفرة كهذه. ولكنها التقت حيـثـذاـ بايفانـخـيلـيناـ فـلـورـيسـ وـتـذـكـرـتـ سـبـبـ وجـودـهاـ فـيـ ذـلـكـ المـكـانـ.

كان الشبه شديداً بين الفتاة وديغنا رانكيليـوـ، لدرجة ان ايرين أحست بالالفـةـ نحوـهاـ فـيـ الـحـالـ،ـ وكـلـنـهاـ تـعـرـفـهاـ مـنـ قـبـلـ.ـ كانتـ مـثـلـ أـمـهـاـ وـجـمـيعـ اـخـوـتـهـاـ،ـ ذاتـ شـعـرـ نـاعـمـ وـأـسـودـ،ـ وـبـشـرـةـ بـيـضـاءـ وـعـيـنـيـنـ سـوـدـاوـيـنـ وـوـاسـعـتـيـنـ،ـ قـصـيرـةـ السـاقـيـنـ،ـ مـتـيـنـةـ الصـدـرـ،ـ نـشـيـطـةـ وـمـعـافـةـ،ـ تـنـحرـكـ بـحـيـوـيـةـ وـتـكـلـمـ بـدـقـةـ وـبـسـاطـةـ،ـ مشـدـدـةـ عـلـىـ كـلـمـاتـهاـ بـحـرـكـاتـ مـنـ يـدـيهـاـ.ـ كانتـ تـخـتـلـفـ عـنـ أـمـهـاـ،ـ دـيـغـنـاـ رـانـكـيلـيـوـ،ـ بـطـعـهـاـ الـبـشـوشـ وـشـجـاعـهـاـ فـيـ الـاعـرابـ عـنـ رـأـيـهـاـ دـوـنـ خـوفـ.ـ وـكـانـتـ تـبـدوـ أـكـبـرـ

سنًا، واكثر نضجاً وتطوراً من ايفانخيلينا الأخرى، التي احتلت مكانها نتيجة خطأ وماتت بدلاً منها. ولم يجعلها الألم الذي تراكم في سنوات عمرها الخمس عشرة تذعن وتنقاد، بل منحها العزم والاندفاع. وكان وجهها ذو التفاطع الحشنة يشرق ويتألق حين تبتسم. كانت رقيقة وحنونةً في معاملتها لأمها التي تبنتها، فهي تتصرف معها باحساس الحماية، وتبدو كأنها ترحب في إبعادها عن احزان جديدة. وكانت تعاملان معاً في تصريف شؤون محل صغير تبيعان فيه منتجات بستانهما.

روت ايفانخيلينا قصتها وهي جالسة على صندوق من قش القصب. لقد تعرضت اسرتها العقوبة أقسى مما تعرضت له الأسر الأخرى، وجاءتهم الشرطة بعد التمهيد الأول. وقد تأكد لمن بقي حيًّا من أفراد العائلة خلال السنوات التالية أنه لا جدوى من البحث عنمن أخذوهم، وأدركوا مدى خطورة الاتيان على ذكرهم. لكن روح الصبية كانت جامحة. فحين علمت بأمر الاكتشاف الجاث في منجم لوس ريسكوس، راودها الأمل بالحصول على خبر عن أبيها واحتوتها بالتبني، وهذا السبب استقبلت الصحافية المجهولة وأبدت استعدادها للحديث معها. أما أمها فقد انتاحت جانبًا واعتصمت بالصمت وهي تراقب ايرين بربة.

قالت الشابة موضحة :

- آل فلوريس ليسوا أهلي، لكنهم ريوني، وهذا أح恨هم كما لو كانوا أهلي. كانت قادرة على تحديد تاريخ بدء التعasse في حياتها. ففي أحد أيام تشرين الأول، قبل خمس سنوات، جاءت سيارة جيب تابعة للشرطة عبر الطريق المؤدي إلى الضيعة وتسقطت أمام البيت. كان ذلك لاعتقال انطونيو فلوريس، وكان على برادييليو رانكيليو أن يقوم بهذه المهمة. طرق الباب متورداً من الخارج، لأن القدر ربطه بهذه العائلة بأواصر تصل في مانتها إلى رابطة الدم. فأوضح باحترام أن الأمر لا يتعدي استجواباً روبيانياً، وسمح للمعتقل بان يتذر بكنزة صوفية وقاده دون ان يمسه إلى السيارة. حينئذ رأت السيدة فلوريس وأولادها صاحب كرم «لوس اروموس»، جالساً إلى جانب السائق واستغربوا الأمر، فهم لم يتورطوا في أية مشاكل معه، حتى ولا أثناء مرحلة الاصلاح الزراعي العاصفة،

ولهذا لم يفهموا سبب وشایته. بعد أن أخذوا انطونيو فلوريس، توافد الجيران
لمواساة الأسرة وأمتلاً البيت بالثاسوس. فكأن هناك عدد كبير من الشهود حين ظهرت
بعد نصف ساعة من ذلك شاحنة ممتلئة بالحراس المسلمين. نزلوا من الشاحنة
بمناورة قتالية وهم يطلقون صرخات المجنون ليعتقلوا الأخوة الأربع الكبار.
جروهم إلى السيارة بعد الضرب والركل وإشراف الأخوة على فقدان الوعي، ولم
يقي من اثرهم إلا سحابة غبار خلعتها الشاحنة على الطريق. وقف من شهدوا
الواقعة مذهولين أمام تلك الوحشية، لأنهم لم يكن لأي من الأخوة سوابق
سياسية، وكانت جريمة الوحيدة هي انضمامهم إلى النقابة. بل إن واحداً منهم
لم يكن يعيش في المنطقة، وإنما كان يستغل كعامل بناء في العاصمة وجاء في ذلك
اليوم لزيارة أبيه. وفكرة الفلاحون بأن اعتقالهم لا يمكن أن يكون إلا سيحة خطأ
ما، وراحوا يتظرون أعادتهم. كان الجميع قادرٍ على تحديد هوية رجال
الحرس الذين تولوا اعتقالهم، وكأنوا يعرفونهم بأسمائهم، فقد ولدوا في المنطقة
وتعلموا معهم في المدرسة ذاتها. وبما أن براديليو رانكيليو لم يأت مع أفراد المجموعة
الثانية، فقد تصوروا أنهم تركوه في الثكنة لحراسة انطونيو فلوريس. وذهبوا إليه فيما
بعد ليستفسروا منه عن بعض الأمور، خارج أوقات الخدمة، لكنهم لم يحصلوا
على شيء، لأنه كان مستحيلاً الحصول على كلمة واحدة من ابن رانكيليو
الكبير.

وقالت ايفان خيلينا فلوريس:

- كانت حياتنا هادئة حتى ذلك الحين. كنا جماعة عبة للعمل ولم يكن ينفعنا شيء. كان والدي يملك حصانًا ويدخر المال لشراء جرار. لكن السلطة القت بثقلها علينا وتبدل كل شيء.

- النكبة تسرى مع الشعاء في العروق - دمدمت السيدة فلوريس وهي تفك

بذلك المنجم اللعين الذي ربما كان فيه ستة من أفراد أسرتها .
 بحثوا عنهم . وقاموا طوال شهور باللحظ الاضطراري الذي يقوم به كل من
 يقتفيون أثر ذويهم المفقودين . ذهبوا من مكان إلى آخر يسألون دون جدوى ، ولم

يتلقوا سوى النصيحة بالكف عن البحث واعتبارهم ميتين وتوقع تصريح قانوني، وبهذا يصبح لهم الحق في تلقي اعانة الایتمام والأرامل. وكانوا يقولون لها: قد تجدين زوجاً آخر يا سيدتي ، فأنت ما زلت حسنة المظهر. كانت الاجراءات طويلة ومرهقة ومكلفة . فاستنفذت كل مدخراتهم واضطربتهم إلى الاستدانة . وكانت الأوراق تضيع في مكاتب العاصمة ، فيضمحل أملهم مع مرور الوقت مثل تلاشى أثر قديم . واضطر من بقي حياً من الابناء إلى هجر المدرسة والبحث عن عمل في المزارع المجاورة ، لكنهم لم يمنحوهم العمل لكونهم مشبوهين . فحزموا ممتلكاتهم البائسة ومضوا في دروب مختلفة بحثاً عن أماكن أخرى حيث لا أحد يعرف شيئاً عن سوء طالعهم . تشتت شمل الأسرة ولم يبق مع السيدة فلوريس بعد سنوات إلا طفلة مستبدلة . كان عمر ايفان خيلينا عشر سنوات حين اعتقلوا أبيها واخوتها بالبني . وكلما أغمضت عينيها كانت تعود لرؤيتها تلك اللحظة التي جروهم بها وهم ينزفون . تساقط شعرها ، وتحلت ، وصارت تسير وهي نائمة ، وتبدلوا وكأنها تطفو في البلاهة وهي مستيقظة ، مما جعلها محط سخرية الأطفال الآخرين في المدرسة . وفكرت السيدة فلوريس بابعادها عن البيت الذي يغض بالذكريات الكريهة ، فأرسلتها إلى بيت أحد أخواها في قرية أخرى ، كان يعمل في تجارة حطب وفحm ناجحة ، ويمكّنه أن يؤمّن لها حياة أفضل ، لكن الصغيرة لم تحتمل فقدان الحب وسأط حالتها . فأعادوها لتبقى في بيتها ، ولم يستطع أي شيء مواتتها لزمن طويل . ولكنها حين أقتلت الثانية عشرة من عمرها وجاءها الحيض لأول مرة ، ازاحت الحزن نهائياً ، ونضجت فجأة لتنستيقظ في صباح أحد الأيام وقد غدت امرأة كاملة . وكانت هي التي فكرت ببيع الحصان واقامة كشك لبيع الخضار في سوق لوس ريسكوس ، وهي التي قررت كذلك وقف ارسال الطعام والملابس والنقود بواسطة العسكريين إلى ذويها المفقودين ، لعدم توفر اي أدلة تشير إلى انهم ما زالوا على قيد الحياة . صارت الشابة تعمل عشر ساعات كل يوم في بيع الخضار والفاواكه ونقلها ، وخلال الساعات الست الأخرى المتبقية قبل أن تهوي منهوبة على السرير ، كانت تدرس في الدفاتر التي تعدد لها معلمة المدرسة كخدمة

خاصة . لم تعد تبكي ، وبدأت تتحدث عن أبيها واختوتها بصيغة الماضي ، لتجعل
أمها تعتمد شيئاً فشيئاً على فكرة أنها لن تراهم أبداً .

عندما فتحوا المنجم كانت تقف بين الجموع ، وراء الجنود ، واضعة على
ذراعها شريطة سوداء . ورأت من بعيد الاكياس الصفراء الكبيرة ، وأمعنت النظر
عليها تلمع علامه ما . وقد حدثها أحدهم عن استحالة تحديد هوية البقايا دون
دراسة الأسنان وكل قطعة من العظام أو الملابس التي وجدت ، لكنها كانت واثقة
من أن قلبها سيدلها عليهم إذا ما رأتهم عن قرب .

وطلبت من ايرين :

- أستطيعن أخذني إلى حيث يحتفظون بهم الأن؟
- سأعمل ما أقدر عليه ، لكن الأمر صعب .
- لماذا لا يعودون إلينا موتاناً؟ لا نريد سوى قبر يستريحون فيه مطمئنين ،
ونضع لهم الزهور عليه ، ونصلي من أجلهم ، ونزارهم في يوم جميع المرضى ..

سألتها ايرين :

- أتعرفين من اعتقل أباك واختوك؟
- فردت ايفانخيلينا فلوريس دون تردد :
- الملائم خوان دي ديوس راميريث وتسعة من رجاله .

★ ★ ★

بعد ثلاثين ساعة من مقتل الرقيب فاوستينوريفيرا ، تعرضت ايرين إلى
اطلاق النار عليها عند مدخل المجلة . كانت خارجة من عملها في وقت متأخر ،
حين دار محرك سيارة كانت تقف على الرصيف المقابل وانطلقت بسرعة لتمر إلى
جانبها مثل ريح مشوّومة وتنطلق منها زخة رصاص من مسدس رشاش قبل أن
تضيع في زحمة السير . أحسست ايرين بصدمة قوية في مركز حياتها ولم تدرد ما الذي
حدث . انهارت دون أن تصدر عنها صرخة واحدة ، وتمكنت في لحظة صholm من
لمس الدم الذي كان يسيل مشكلاً بركة فيها حولها ، ثم غرفت في السبات .

لم يتبعه البواب وبعض الشهود كذلك لما حدث . فقد سمعوا صوت الرصاص ولم يستطيعوا تحديده ، معتقدين أنه صادر عن انفجار محرك أو عن مرور طائرة ، ولكنهم هرعوا لمساعدتها حين رأوها تهوي . وبعد عشر دقائق كانت ايرين في سيارة اسعاف تطلق صفيرًا مدوياً وأنواراً متقطعة . وكانت في بطئها عدة ثقوب تفلت منها حياتها .

علم فرانسيسكوليلال بالحادث مصادفة بعد ساعتين ، حين اتصل بيها ليدعوها إلى العشاء ، لأن عدة أيام كانت قد انقضت دون أن يلتقيا منفردين وكان الشوق إليها يخنقه . فأعلمه روسا بالخبر وهي تبكي . كانت تلك هي أطول ليلة في حياته ، فقد أمضاهما جالساً إلى جانب بيتريس على مقعد في غرفة المستشفى ، مقابل باب جناح العناية المديدة ، حيث كانت حبيبته تهيم تائهة في غيبوبة الاحتضار . وبعد عدة ساعات في غرفة العمليات ، لم يكن هناك من يظن أنها ستعيش . فكانت تنتظر الموت وهي موصولة بعدد من الانابيب والأسلاك .

كان الجراحون قد شقوا بطئها وفتشوا أحشاءها ليكتشفوا بعد كل غرزة ثقباً جديداً بحاجة لأن يرقصوه . غذوها بليترات من الدم والمصل ، وعاجلوها بالمضادات الحيوية ثم صالحوها فوق السرير ويرفقتها كل تلك الانابيب ، وابقوها غارقة في ضباب الغيبوبة كي تحتمل آلامها . واستطاع فرانسيسكوكرويتها البعض لحظات بتواطؤ من الطبيب المناوب الذي رق حاله . كانت عارية ، شفافة ، تطفو في انوار الصالحة القوية البيضاء ، وإلى جانبها جهاز تنفس متصل بالرغمي ، وأسلاك تصل بينها وبين جهاز لتخطيط القلب لا بعث حركته التي لا تكاد تكون ملحوظة أي أمل في النفس . وكانت في اورتها عدة ابر متصلة بانابيب ، بينما كان لونها شاحباً مثل لون شراشف السرير ، وحول عينيها هالتان بنفسجيتان ، وعلى بطئها كتلة متهاسة من الضمادات ، تبرز من بينها انابيب النضع البطنية . توقفت صرخة بكلاء في صدر فرانسيسكوكوبيقيت عالقة هناك لوقت طويل .

حين رأت بيتريس الكائنرا فرانسيسكوكو ، بادرته متهمة :
- إنها جريمتك ! فمنذ ظهرت في حياة ابنتي بدأت المشاكل !

كانت محطمـة، وفـاقـدة السيـطـرة عـلـى نـفـسـهـا. فأـحـسـ فـرـانـثـيـسـكـوـ بالـعـطـفـ علىـهاـ، لأنـهـ كانـ يـراـهاـ لأـولـ مـرـةـ دونـ تـصـنـعـ، وـمـتـقـدـةـ، وـأـنـسـانـيـةـ، مـتـلـلـةـ، وـقـرـيـةـ منـهـ. انهـارتـ السـيـدـةـ عـلـى مـقـعـدـ فيـ المـرـوـبـكـتـ إـلـىـ انـ استـفـدـتـ دـمـوعـهـاـ.

لمـ تـسـتـطـعـ اـدـرـاكـ ماـ حدـثـ. كانتـ تـرـغـبـ فيـ اـقـنـاعـ نـفـسـهـاـ بـاـنـهـ عـمـلـ اـجـرـامـيـ عـادـيـ، كـمـ أـكـدـتـ الشـرـطـةـ، لأنـهـ لمـ تـحـتـمـلـ فـكـرـةـ أنـ تكونـ اـبـتـهـاـ مـطـارـدـةـ لـأـسـبـابـ سـيـاسـيـةـ. ولمـ تـكـنـ لـدـيهـاـ ايـةـ فـكـرـةـ عنـ مـشـارـكـتـهـاـ فيـ العـثـورـ عـلـىـ لـقـيـةـ الجـثـثـ فيـ النـجـمـ، ولمـ تـكـنـ تـرـيدـ تـصـورـهـاـ مـتـورـطـةـ فيـ قـضـائـاـ شـائـكـةـ معـ السـلـطـةـ. ذـهـبـ فـرـانـثـيـسـكـوـ بـحـثـاـ عـنـ فـنـجـانـيـ شـايـ وجـلـساـ مـعـ اـلـتـنـاوـلـهـاـ صـامـتـينـ، يـجـمعـهـاـ الـاحـسـاسـ المشـترـكـ بـالـانـهـيـارـ.

كـانـ بـيـاتـرـيسـ قدـ شـارـكـتـ خـلـالـ الحـكـمـ السـابـقـ، مـثـلـ كـثـيرـاتـ غـيرـهـاـ، بـالـخـرـوجـ إـلـىـ الشـارـعـ وـهـيـ تـدـقـ الطـنـاجـرـ الفـارـغـةـ عـلـامـةـ الـاستـكـارـ. وـتـعـاطـفـتـ معـ الـانـقـلـابـ الـعـسـكـريـ لأنـهـ بـدـاـ لهاـ أـفـضـلـ أـلـفـ مـرـةـ منـ نـظـامـ اـشـتـراـكـيـ، وـحـينـ قـصـفـواـ قـصـرـ الرـئـاسـةـ الـقـدـيمـ مـنـ الجـوـ، فـتـحـتـ زـجاجـةـ شـمـبـانـيـ لـتـحـتـفـلـ بـالـحـدـثـ. كـانـتـ تـتـقدـ بـحـمـىـ الـوطـنـيـةـ، لـكـنـ حـاسـهـاـ لمـ يـصـلـ بـاـهـاـ إـلـىـ حدـ التـبـرـعـ بـمـجوـهـراتـهاـ لـصـنـدـوقـ اـعـادـةـ الـاعـمـارـ الـوطـنـيـ، لأنـهـ خـافـتـ اـنـ تـرـىـ تـلـكـ المـجـوـهـراتـ تـزـينـ صـدـورـ نـسـاءـ الـكـوـلـونـيـلـاتـ، كـمـ كـانـتـ تـشـيـعـ أـلـسـنـةـ السـوـءـ. وـتـأـقـلـمـتـ مـعـ النـظـامـ الـجـدـيدـ وـكـانـهـ ولـدـتـ فـيـهـ، وـتـعـلـمـتـ أـلـاـ تـأـتـيـ عـلـىـ ذـكـرـ ماـ يـسـتـحـسـنـ عـدـ مـعـرـفـتـهـ. وـبـدـاـ لهاـ الجـهـلـ أـمـرـاـ لـاـ بـدـ مـنـ أـجـلـ رـاحـةـ الـبـالـ. وـفـيـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ الـمـشـوـرـةـ فـيـ الـمـشـفـيـ، كـانـ فـرـانـثـيـسـكـوـ عـلـىـ وـشـكـ اـنـ يـجـدـهـاـ عـنـ اـيـفـانـخـيلـيـنـاـ رـانـكـيلـيـوـ، وـعـنـ مـوـتـيـ لـوـسـ رـيـسـكـوسـ، وـعـنـ مـئـاتـ الـضـحـيـاـ، وـعـنـ اـبـتـهـاـ، لـكـنـهـ رـثـيـ لـهـاـ. لـمـ يـشـأـ اـسـتـغـلـالـ هـذـهـ الـلـحـظـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـرـتـعـشـ فـيـهاـ اـنـفـعـالـاـ لـيـدـمـرـ الـاـسـسـ الـتـيـ كـانـتـ تـسـتـندـ إـلـيـهاـ حـتـىـ ذـلـكـ الـحـينـ. اـكـتـفـيـ بـالـسـؤـالـ عـنـ اـيـرـينـ، عـنـ سـنـوـاتـ طـفـولـتـهاـ وـمـراهـقـتـهاـ، رـاضـيـاـ بـالـنـوـادـرـ الصـغـيرـةـ، وـطـالـبـاـ تـفـاصـيلـ دـقـيقـةـ بـفـضـولـ الـمـحـيـنـ تـجـاهـ كـلـ مـاـ يـتـعـلـقـ بـالـحـبـوبـ. تـحدـثـاـ عـنـ الـماـضـيـ فـمضـتـ سـاعـاتـ وـسـطـ النـجـوـيـ وـالـدـمـوعـ.

فـيـ لـيـلـةـ الـعـذـابـ تـلـكـ أـوـشـكـتـ اـيـرـينـ عـلـىـ الـمـوـتـ مـرـتـيـنـ، وـكـانـتـ اـعـادـتـهـاـ إـلـىـ

عالم الأحياء أشبه بالمعجزة. وفيما الأطباء منهمكون من حوطها في تنشيط قلبها بخدمات كهربائية، أحس فرانشيسكوليال أن عقله يضيع منه، وانه يرجع إلى أقدم العصور، إلى الكهف، والظلمام، والجهل، والرعب. رأى قوى شريرة تشد ايرين نحو الظلالم، وفكريأس ان السحر، والحظ، وتدخل قدرة المية هي وحدها القادرة على منع الموت. رغب في الصلاة، لكن ذاكرته لم تسعفه في استحضار الكلمات التي تعلمها من أمه في الطفولة. وحاول في بلبلته ان ينقدها بقوه جبه، فعمم الاحلاك بذكرى سعادته، وواجه ظلام الاحتضار بنور لقائهما. ابتله من أجل وقوع معجزة، من أجل أن تتبدل عافيته ودماؤه وروحه اليها لتساعدها على الحياة. كراسها ألف مرة متوصلاً اليها ألا تستسلم وان تواصل الصراع، حدثها سراً من مقعده في المر، وبكى دون مداراة وأحس بانفاسه مثقلة بقرون من الانتظار، ومن البحث عنها، واشتهائها وحها، متذكرةً نمش جلدتها، وبراءة قدميها، ودخان حدقتيها، وشذى ملابسها، وحرير بشرتها، وخط خصوها، وزجاج ضحكتها والطمأنينة التي تستسلم بها للذراعيه بعد النشوء. وبقي يتمتم بين اسنانه ويتالم دون عزاء إلى أن تفتحت اضواء الفجر، واستيقظ المشفي، وسمعت ضجة الأبواب وهي تنوس، والمصاعد، ووقع الأحذية، وصوت الأدوات فوق الصوانى المعدنية، وصوت قلبه الجامع؛ حينئذ أحس بيد بياتريس الكاترال تلمس يده، فتذكر حضورها. تأمل كل منها الآخر وكانت مرهقين تماماً. لقد أمضيا كل هذه الساعات في ظروف متهائلة. كان وجهها مضطرباً، لا أثر فيه لساحيق المكياج، بينما بدت فيه خطوط عمليات التجميل الدقيقة. وكانت عيناهما متفتحتين، وشعرها لزجاً من العرق، وبلوزتها مجعدة.

سألته :

- هل تحبها يا بني؟

فرد فرانشيسكوا:

- كثيراً.

حينئذ تعانقا. لقد اكتشفا أخيراً لغة مشتركة تجمع بينهما.

انقضت ثلاثة أيام وايرين على تحوم الموت . بعد تلك الأيام أفاق من غيبوبتها لتوسل بعينيها كي يتركوها تناضل بوسائلها الخاصة أو تموت بكرامة ، فأبعدوا عنها جهاز التنفس الاصطناعي ، وببدأ الهواء يتنظم شيئاً فشيئاً في رئتيها وایقاع الدم في عروقها ، فنقلوها عندها إلى غرفة خاصة حيث استطاع فرانشيسكو ليال البقاء إلى جانبها . كانت الفتاة غارقة في غيبوبة المخدرات ، تائهة في ضباب كوابيسها ، لكنها كانت تدرك حضوره ، وحين كان يبتعد عنها تنديه بصوت ضعيف وواهن كصوت طفل وليد .

في مساء ذلك اليوم حضر غوستافو مورانتي إلى المشفى . فقد علم بالأمر عندما قرأ نشرة الواقع البوليسية ، وكان الخبر قد نُشر فيها متأخراً ، بين مجموعة من الأحداث الدموية الأخرى ، ونُسب إلى مجرمين عاديين . لم يتشبث أحد بهذه الرواية للحادث إلا بيتريس الكاتنرا التي رأت كذلك في انتهاء حرمة بيتها تصرفأ شاذأ من الشرطة . أما الكاتبن فلم تراوده الشكوك في الأمر . لقد حصل على تصريح بالسفر من موقع الحامية التي كان مفروزاً إليها ، ليزور خطبته القديمة ، حضر بالملابس المدنية ، تنفيذاً لتوصية من القيادة العليا ، التي لم تكن ترغب في ظهور العسكريين بزيهم الرسمي في الشوارع للمحيلولة دون اعطاء انطباع بأن البلد محظي . طرق باب الغرفة ففتح له فرانشيسكو الذي فوجيء برؤيتها . تفحص كل منها الآخر بعينيه ، متقصياً نواياها الآخر ، إلى أن جعلتها تنهيدة أطلقتها المريضة يهرعان إلى جانبها . كانت ايرين مشلولة فوق السرير المرتفع ، مثل أميرة منحوتة من مرمر أبيض فوق ضريحها . كان شريط شعرها الحبي وحده هو الذي يشع بالضوء . وكانت ذراعاها موشومين بأثار الأبر والمجسات ، وكانت تتنفس بصعوبة وهي مغمضة العينين وتلمح ظللاً قائمة من خلال رموشها . أحس غوستافو مورانتي بشحنة رعب تجتاح جسده ويتركه يرتعش حين رأى هذه المرأة ، التي أحب حيويتها ، وقد تحولت إلى جسد باشّ ذاويكاد يتبعّر في هواء الحجرة اللاوقي .

دمد متسائلًا :
- أيمكن أن تعيش ؟

منذ عدة أيام وفرانسيسكوليال يراقبها إلى أن عتاد على ادراك أدق علائم التحسن ، كان يحصي أنفاسها وأغفاءاتها ، ويراقب حركاتها الواهنة . وكان سعيداً لأنها صارت تنفس دون مساعدة جهاز ، وأصبح بإمكانها تحريك أطراف أصابعها في حركة خفيفة ، لكنه أدرك أن هذا المنظر بالنسبة للكابتن - الذي لم يرها وهي تختضر - هو ضربة قاسية . نسي تماماً أن الآخر هو ضابط في الجيش ، ولم ير فيه إلا رجلاً يتالم من أجل المرأة التي يحبها هو أيضاً .

طلب منه مورانتي وهو يحتوي رأسه بقلقه :
- أريد أن أعرف ما حدث .

وروى له فرانسيسكوليال كل شيء ، دون أن يخفي مشاركته في اكتشاف الجثث ، أملاً أن ينتصر حب ايسرين على الولاء للزي العسكري . ففي يوم الحادث بالذات أقتحم عدد من الرجال المسلحين بيت الشابة وقلبوا كل ما وجدوه في طريقهم ، ابتداء من الفراش الذي نزعوا أحشائه بالسكاكين ، وحتى علب مستحضرات التجميل وأواني المطبخ التي أفرغت محتوياتها على الأرض . أخذوا آلة تسجيلها ، ودفاتر ملاحظاتها ، ومفكرتها وسجل العنوانين . وقبل أن يخرجوا أطلقوا رصاصة مجانية على « كليبو » ، وخلفوا الكلبة تختضر وسط بركة من الدماء . لم تكن بيترس في البيت ، لأنها كانت تسهر في ذلك الوقت في مر المشفى حيث ابنته تختضر . حاولت روسا إيقافهم ، لكنها تلقت ضربة بعقب بندقية في صدرها أفقدتها الصوت والنفس إلى أن ذهبوا ، حينئذ حملت الكلبة في مريلتها واحتضنها كي لا تموت وحيدة . ألقى أولئك الرجال نظرة سريعة على « مشيطة الرب » ، زارعين الرعب بين النزلاء والمشرفات ، لكنهم انسحبوا سريعاً حين أدركوا ان هؤلاء المسنين المذعورين يعيشون على هامش الحياة ، وهم بالتالي على هامش السياسة أيضاً . وفي صباح اليوم التالي اقتحموا مكاتب المجلة وفتشوا كل ما وجدوه في مكتب ايسرين بيльтان ، بما في ذلك شريط آلتها الكاتبة القديم وورق الكربون

المستعمل. وروى فرانثيسكو للكاتب كذلك عن ايفانخيلينا رانكيلي، وعن موت الرقيب ريفيرا المريض، وعن اختفاء براديلىو وأل فلوريس، وعن المذابح المقرفة ضد الفلاحين، وعن الملازم خوان دي ديوس راميريث، وكل ما خطط على باله، واضعاً الحبيطة جانباً بعد ان حلها كجلد آخر له طوال عدة سنوات. أفرغ الغضب المترافق خلال كل هذه الفترة من الصمت وأظهر له الوجه الآخر للحكومة - الوجه الذي لم يكن الضابط يراه لكونه خارج الحصار - دون أن ينسى ذكر من قاسوا التعذيب، والموتى، والفقراء الوقورين والاثرياء الذين يتقاسمون الوطن وكأنه صفة اخرى من صفاتهم، فيما الكاتب، الشاحب والصامت، يستمع إلى ما لم يكن يتصور يوماً ان يقال بحضوره.

كانت كلمات فرانثيسكو تصطدم في ذهن مورانتي بكلمات اخرى تعلمها في دوراته الحربية. ووجد نفسه للمرة الأولى أمام ضحايا النظام، وليس بين من يهارسون السلطة المطلقة. وصار عليه ان يعاني من ذلك النظام في اكثر مواجهة ايالاماً، في هذه الصبية المعبودة، المشلولة بين شرائف السرير، والتي تهز صورتها روحه مثل ناقوس يُقرع للموت. لم يتخل عن جبهها ولو لحظة واحدة في حياته، ولم يحبها يوماً مثلما أحبها في تلك اللحظة، وهو يفقدها. تذكر السنوات التي كبر فيها معها، وخططاتها للزواج، وبجعلها سعيدة. وبصمت راح يقول لها كل ذلك الكلام الذي لم تسعن له الفرصة لقوله من قبل. أنها لعدم ثقتها به، لماذا لم تخبرني؟ لو أنها أخبرته لكان ساعدتها وفتح بيديه ذلك القبر اللعين، لا ليعرفها وحسب، بل ومن أجل شرف القوات المسلحة أيضاً. فلا يمكن لهذه الجرائم أن تمر دون عقاب، لأن المجتمع سيذهب حيثما إلى الشيطان، ولن يكون ثمة معنى لحمل السلاح من أجل اسقاط الحكومة السابقة واتهامها باللا شرعية، إذا كانوا هم أنفسهم يهارسون السلطة بعيداً عن كل القوانين والأخلاق. ان المسؤولين عن مثل هذه الأفعال غير المنضبطة هم بعض الضباط الذين لا بد من معاقبتهم، لكن طهارة المؤسسة العسكرية لم تتلوث يا ايرين، ففي صفوتنا رجال كثيرون مثل، مستعدون للنضال في سبيل الحقيقة، ولازاحة الانقضاض واظهار كل القهامة وتقديم

حياتهم من أجل الوطن إذا اقتضى الأمر. لقد خنتني يا حبيبي، وربما لم تخبني يوماً مثلكم أحبيتك، وهذا السبب تركتني دون ائحة الفرصة لي كي أثبت لك انني لست شريكأ في هذه المهمة، وأن يدي نظيفتان، وانني عملت دوماً بحسن نية. أنت تعرفيني ؟ فقد كنت في القطب الجنوبي أثناء الانقلاب، وعملي هو أجهزه الكومبيوتر، ولوحات المفاتيح والأزرار، وملفات الارشيف السرية، والاستراتيجية. وأنا لم أطلق النار من سلاحي إلا في التدريب على الرماية. كنت أعتقد أن البلاد بحاجة إلى نقلة سياسية، بحاجة إلى النظام والانضباط للتغلب على البؤس. كيف كان بمقدوري أن أتصور أن الشعب يكرهنا؟ لقد قلت لك مرات ومرات يا ايرين ان هذه العملية قاسية، لكننا سنتجاوز الأزمة. مع انني لم أعد واثقاً تمام الثقة من ذلك، وربما ان الوقت قد حان للعودة إلى الثكنات واعادة الديمقراطية. أين كنت أنا كي لا أرى الحقيقة؟ كيف لم تخربني من قبل؟ لم تكن هنالك حاجة لتلقيك رشة من الرصاص لكي أصحوا وفتح عيني، ما كان عليك أن تذهب وتركتي لي هذا الحب الهائل والحياة لأعيش بدونك. كنت تبحثين عن الحقيقة منذ طفولتك، وهذا احبك كل هذا الحب، وهذا بالذات انت ثقتي هنا الآن صامته.

بقي الكابتن يتأمل ايرين لوقت طويل، حتى تلاشى الضوء الذي كان يدخل من النافذة وغرقت الغرفة ببطء في العتمة، فضاعت حدود الأشياء وتحولت الشابة إلى بقعة خفيفة فوق السرير. نظر إليها مورانتي نظرة الوداع، واثقاً من أنه لم يحب أحداً كما أحبهها، ومستجعاً قواه للمهمة التي سيواجهها. انحنى ليقبل شفتيها المشققتين، كابحأ نفسه مستشنقاً رائحة الدواء التي تفوح من جلدتها، متخيلاً شكل جسدها، ومساحاً على شعرها المتمزد. حين خرج عريض المنية كانت عيناه جاقتين، ونظرته قاسية، وقلبه ثابت العزم. سيحبها إلى الأبد ولن يعود إلى رؤيتها مطلقاً.

وكان كل ما قاله:

- لا ترکوها وحيدة، لأنهم سياتون للإجهاز عليها. أنا لا أستطيع حمايتها.
يجب اخراجها من هنا واحفاظها.
فرد فرانثيسکو:

- حسن
ثم شدَّ كل منها على يد الآخر طويلاً وبحزم.

★ ★ ★

كانت إيرين تحسن ببطء شديد، حتى بدا أنها لن تشفى بشكل كامل أبداً، وكانت تعاني آلاماً فظيعة. وصار فرانثيسکو هوراعي جسدها، يرعاه باهتمام مثل اهتمامه به قبل منحه اللذة. لم يكن يبتعد عنها خلال النهار، وكان يستلقي في الليل على أريكة إلى جوار سريرها. كان من عادته أن ينام نوماً هادئاً وثقيلاً، لكنه شهد سمعه في تلك الأيام مثل حيوان متوفز. فكان يستيقظ مذعوراً ما أن يسمع تبدلاً في نفسها، أو حركة أو أنه ضعيفة.

توقفوا عن تغذيتها بواسطة الوريد في ذلك الأسبوع، وتناولت طبقاً من الحساء، أطعمنها إياه فرانثيسکو بالملعقه وبطول أناة. فابتسمت حين لاحت جزعه كما لم تبسم منذ زمن، فكانت تلك الابتسامة كابتسامتها اللعوب التي اسرته منذ اللحظة التي تعرف عليها. خرج قافزاً في غرات المشفى وقد أطارت السعادة عقله، وانطلق إلى الشارع، فاجتازه وسط السيارات، وترك نفسه يهوي على عشب الساحة. لقد حطم حاجز الانفعالات الحبيسة الذي ارتفع خلال أيام طويلة، وراح يضحك ويبكي دون أن يداري تأثره أمام أنظار المريضات المذهولات والمتقاعدين الذين كانوا يتمشون تحت الشمس في ذلك الحين. جاءت أمه لتبحث عنه هناك ولتشاركه سعادته. كانت هي لهذا تقضي ساعات طويلة وهي تحوك الصوف صامتة إلى جانب المريضة لتعود نفسها شيئاً فشيئاً على أن ابنها الأصغر سيمضي كذلك، لأن الحياة لن تبقى على حالها بالنسبة إليه وبالنسبة للمرأة التي أحبها. أما البروفسور ليال، فقد حمل كونشيراته إلى إيرين ليملأ لها الغرفة

بالموسيقى ويعيد إليها الرغبة في الحياة. كان يزورها كل يوم ويجلس ليروي لها قصصاً سعيدة، دون أن يأتي على ذكر الحرب الإسبانية، أو ما رأه في معسكرات الاعتقال، أو قسوة المنفي وغيرها من الأمور المحزنة. وكان حنانه عليها يصل إلى حد احتمال بيتريس الكاتنرا دون أن يفقد طيب المزاج.

بعد فترة قصيرة تحكت إيرين من المشي بضع خطوات، مستندة إلى فرانسيسكو. كان شحوب وجهها يشير إلى درجة اعتلالها، لكنها طلبت أن يقلصوا من كمية المسكنات التي يعطونها إليها، لأنها كانت تريد استعادة وضوح الذهن والاهتمام بشؤون الدنيا.

توصل فرانسيسكو إلى معرفة إيرين كما يعرف نفسه. فهي ليالي الأرق الطويلة تلك، روى كل منها حياته للأخر. لم يبق لديها ذكري من الماضي، أو حلم من الحاضر، أو خطة للمستقبل إلا وتقاسماها. تبادلاً تسليم أسرارهما وتجاوزاً حدود الجسد ليسلم كل منها روحه إلى الآخر. كان يغسل جسدها باسفنجه، ويدعكه بالكولونيا، ويسرح شعرها ليسطن التجاعيد التمردة، وكان يحركها ليبدل شراشف السرير، ويطعمها، ويعرف أدنى احتياجاتها المستعجلة. وكان يتلقف كل أيامه، وكل نظرة ليقوم بها يجب عليه أن يفعله وكأنه يفعله لنفسه. لم يلحظ عليها يوماً أي أثر للحياة، فقد كانت بحاجة إليه ك حاجتها للهواء والضوء، فتطلبه وتري أن وجوده إلى جانبها في الليل والنهار أمر طبيعي. وإذا ما خرج من الغرفة كانت تسمّر عينيها على الباب بانتظار عودته. وإذا ما أشتد عليها الألم بحثت عن يده وهمست باسمه طالبة المساعدة. شرعاً جميع أبوابها، فولد ذلك بينها رابطة لا سبيل إلى فصمها، ساعدتها على تجاوز الخوف المقيم في حياتهما من الواقع الرهيب.

ما أن سمع بزيارة إيرين، حتى بدأ أصدقاؤها في المجلة بالتوارد. جاءت العرافية مرتدية عباءة مسرحية، وحاملة معها هدية هي عبارة عن علبة سرية وغريبة، ونصحت قائلة:

- دلكوها بهذا المرهم من رأسها حتى قدميها، انه علاج محقق للوهن.

ولم يفدي شيئاً قوله لها ان سبب هذا الانهاك هو طلقات مدفع رشاش. وأصرت على تحميل البرج المسؤولية: العقرب يجذب الموت. ولم يفدي كذلك تذكرةها بأن ايرين ليست من مواليد هذا البرج.

صار يتعدد على المشفى صحفيون، ومحرجون، ورسامون، وملكات جمال. كما جاءت عاملة التنظيف في مبني المجلة حاملة معها للمربيضة عدداً من عبوات الشاي الصغيرة وكيس سكر. لم تكن قد دخلت إلى مشفى خاص من قبل، فكانت تعتقد انه لا بد من المشاركة في تقديم بعض الأغذية، وظننت أن المرضى يعانون الجوع، كما هو الحال في مشارف القراء العامة. ولكنها هتفت حين رأت الغرفة، والأزهار التي على الطاولة والتلفزيون:

- هنا يطيب الموت يا ايرين.

وتباوب مسنون «مشيّة الرب» على زيارتها برفقة المشرفات. فقد كان الاحساس بغياب الشابة في ملجة العجزة مثل انقطاع طويل للنور. كان المسنون يضعفون وهو يتظرون حلواماها، ورسائلها، ومداعباتها. لقد علموا بنكبتها، لكن بعضهم نسيها في الحال، لأنهم كانوا عاجزين عن الاحتفاظ بالنكبات الجديدة في اذهانهم المدببة. وكانت خوسيفينا بياتشي هي الوحيدة التي أدركت ما حدث تماماً. وأصرت على الذهاب إلى المشفى كلما استطاعت، حاملة في كل مرة هدية لاييرين: زهرة من الحديقة، أو شال قديم من صناديقها، أو بيت من الشعر تكتبه بخطها الانكليزي المنمق. كانت تظهر في المشفى طافية ومتسربة بفساتين من التول الرقيق الباهت أو من الدانتيلا المعتقة، يفوح منها عطر الورد، نحيلة مثل شبح من عصر آخر. فيتوقف الأطباء والمرضات عن أعمالهم ليرواها وقد فاجأهن مظاهرها.

في اليوم التالي لضرب ايرين بالرصاص، وقبل ان تنشر الصحافة الخبر، علم به ماريومن خلال قنوات سرية، فحضر في الحال لتقديم المساعدة. وكان أول من انتبه إلى أن المشفى مراقب. كانت هناك سيارة ذات زجاج قاتم ترابط ليلاً ونهاراً في الشارع، قريباً من مدخل البناء، وكان مخبر الشرطة السياسية

يتجلون حول المكان متظاهرين بعدم المبالغة، رغم افصاح أمرهم من القمصان الرياضية التي يرتدونها، وسترات الجلد المزيف المتخفخة بسبب وجود اسلحتهم تحتها. وعلى الرغم من وجودهم في الخارج، فقد نسب فرانشيسكو محاولة الاغتيال إلى المجموعات شبه العسكرية أو إلى الملازم راميريث بالذات، لأنه لو كان هناك أمر رسمي بتصرفية ايرين، لدخلوا بكل بساطة ضاربين الأبواب بأقدامهم حتى يصلوا إلى غرفة العمليات ويجهزوا عليها. أما هذه الحراسة المتخفية فتشير إلى انهم غير قادرين على العمل بشكل مكشوف وانهم يفضلون انتظار اللحظة المناسبة لانجاز عملهم. كان ماريود قد اكتسب خبرة في مثل هذه الشؤون خلال عمله السري ، فراح بعد خطة لتهريب ايرين عندما يصبح بامكانها الوقوف على قدميها .

كانت بيترس الكانترا في ذلك الحين تصر على أن المسدس الرشاش الذي كاد يودي بحياة ابنته، كان موجهاً إلى أشخاص آخرين . وكانت تقول : - تصرفات أوغاد. أرادوا قتل مجرم فأصابت الرصاصات ايرين .

قضت أياماً وهي تتصل بمعاشرها للقص عليهم روايتها للواقعة . لم تكن ترغب في البقاء على أي شكوك حوله ابنته . وكانت تنقل اليهم أثناء ذلك أخبار زوجها الذي استطاع المخبرون اخيراً، وبعد سنوات من البحث والعقاب أن يحددوا مكانه في هذا العالم الفسيح . فاوسيسيو بيلتران ، الذي سئم من البيت الكبير ، ومن تعنيفات زوجته ، ومن لعوم الأغنام وللاحقة دائنه ، خرج في مساء ذلك اليوم ، وما ان مسّى بضع خطوات حتى أدرك ان سنوات طولية من الحياة ما زالت أمامه ، وأن الوقت لم يفت للبدء من جديد . ومندفعاً وراء أهواء روحه المغامرة ، سافر إلى منطقة الكاريبي باسم مستعار وقليل من المال في جيوبه ، ويعقل يغض بالآفكار العظيمة . عاش كفجري لبعض الوقت ، ومر بأيام خشي فيها أن تلتهمه حمى النسيان . لكن حاسة الشم الدقيقة التي يتمتع بها تجاه الثروة حولته إلى رجل ثري عن طريق الآلة التي ابتكرها لجني محصول جوز الهند . فذلك الجهاز العجيب ، الذي لم يكن يتمتع بأدنى حد من العلمية حين صممها ، اثناء

حماسة مليونير محلي. وخلال زمن قصير انتشرت آلات جنی جوز الهند في المنطقة كلها، واستطاع بيلتران ان يبيع لنفسه ذلك الترف الماجن الذي كان معتمداً عليه والذي لا يمكن لغير الاثرياء الحصول عليه. كان سعيداً. واتخذ له عشيقه أصغر منه بثلاثين سنة، سمراء وذات مؤخرة عريضة، متأهبة دوماً للمتعة وللفرح.

- ما زال هذا التعيس زوجي شرعاً. سأنتزع منه حتى الهواء الذي يتنفسه، فلهذا السبب يوجد حامون جيدون - هذا ما كانت تؤكده بيترис لصديقاتها وهي مهتمة بالطريقة التي ستقذف بها القفاز في وجه ذلك الخصم السافل، أكثر من اهتمامها بصحة ابنتها. كانت تشعر بالرضا لاثباتها أن اوسيبيو بيلتران هو رجل منحط، ولكنه ليس يسارياً بأي شكل من الأشكال كما حاولت بعض المفتريات أن يشنعن.

لم تعلم بيترис بأحداث البلاد لأنها لم تكن تقرأ في الصحف سوى الأخبار السارة. ولم تكن تعلم انه قد تم التعرف على هوية جثث منجم لويس ريسكوس بدراسة الاسنان وبعض العلامات الفارقة الأخرى، وإن تلك البقايا هي لفلاحين من إبناء المنطقة، اعتقلهم الملازم راميريث بعد الانقلاب العسكري بقليل، إضافة إلى جثة ايفان خيليما رانكيليو، التي كانت تُنسب إليها معجزات صغيرة. تجاهلت الضجة الشعبية التي هزت الأمة رغم الرقابة وانتشرت في جانبي العالم لتضيع قضية المفقودين في ظل الدكتاتوريات الاميركية اللاتينية في المقام الأول من جديد. وكانت هي الوحيدة التي ظنت حين سمعت الطرق على الطناجر يدوى في عدة أحياط من المدينة، انهم يفعلون ذلك تأييداً لعمل العسكريين، كما في زمن الحكومة السابقة، وذلك لعجزها عن ادراك قدرة الشعب على استخدام النهج ذاته ضد مبتدعيه. وحين سمعت أن فريقاً من الحقوقين يساند عائلات المولى في الدعوى ضد الملازم راميريث ورجالاته بتهمة اتهام حرمته البيوت، والاختطاف، ومارسة العقوبات اللاشرعية والأخلاقية، أشارت إلى الكردينال على انه المسؤول عن هذه الفوضاعة، وقالت انه لا بد للبابا من استبداله، لأن مجال عمل الكنيسة يجب أن يكون الروح وحدها، وليس الأحداث الدينية القدرة.

- وعلقت السيدة وهي في المطبخ في ذلك الصباح قائلة :
- إنهم يتهمون هذا الملائم المسكين بالقتل يا روسا، لكن أحداً لا يفكربانه ساعدنا على التحرر من الشيوعية .
 - من عمل شرًا سيدفع الثمن عاجلاً أم آجلاً - ردت عليها روسا بتصميم وهي تتأمل أول أزهار الالاتنسيني .

★ ★ *

قدم الملائم خوان دي ديوس راميريث وعدد من رجال وحدته للقضاء .
وعادت أخبار جرائم لوس ريسكونس تحتل صفحات الجرائد، فللمرة الأولى منذ الانقلاب العسكري يمثل عناصر من القوات المسلحة أمام قاض . عمّت طول البلاد وعرضها موجة من الشعور بالفرج ، وخيل للناس أن شرحاً قد أصاب المؤسسة المتساكة التي تمارس السلطة ، وحلّموا بنهاية الدكتاتورية . في أثناء ذلك كان الجنرال يضع بكل وقاحة حجر الأساس لنصب منقذى الوطن ، دون أن تظهرحقيقة نواياه التي يخفيها وراء نظارته السوداء . لم يكن يقبل الرد على أسئلة الصحفيين الحساسة ، ويكتفي بحركة ازدراء إذا ما ورد ذكر القضية بحضوره .
خمس عشرة جثة في منجم لا تستدعي كل هذه الضجة . وحين ظهرت قضايا أخرى وكشفت مدافن جديدة ، وقبور جماعية في المقابر ، وأحداث على الدروب ، واكياس على شاطئ البحر قذفها الأمواج ، ورماد ، وهياكل عظمية ، وأجزاء بشرية ، بل وأجساد أطفال أطلقت رصاصة بين أعينهم لأنهم رضعوا من أنداء أمهاطهم العقائد الغربية الهدامة التي تلحق الضرر بالسيادة الوطنية وبأعلى قيم العائلة ، وبحق الملكية والتقاليد ، هز الجنرال كتفيه بهدوء ، لأن الوطن أولًا ثم ليحاكمني التاريخ فيما بعد .

- وماذا ستفعل بالمشكلة التي أخذت تتسع يا سيدي الجنرال؟
ورد من حام الساونا ، المشيد في الطابق الثالث تحت الأرض :
- كالعادة أيها الكولونيل .

نشرت أقوال الملازم في المحكمة تحت عناوين كبيرة، وكانت ذات فائدة لا يرثى لها اعادت اليها فجأة الرغبة في الحياة والنضال.

أعلن رئيس موقع لوس ريسكوس أمام المحكمة أن صاحب مزرعة «لوس اروموس» اتهم عائلة فلوريس بعد الانقلاب العسكري بقتليل بان أفرادها يشكلون خطراً على الأمن الوطني، لارتباطهم باحزاب اليسار. وقال اتهم من نشطاء هذه الاحزاب ويخططون لمهاجمة الثكنة، لهذا بادرت إلى اعتقالهم يا صاحب السعادة. أقيمت القبض على خمسة من أفراد هذه الاسرة وعلى تسعه أشخاص آخرين في تهم متنوعة، ابتداء من اقتناء السلاح وحتى تعاطي الماريجوانا. وقد اعتمدت في ذلك على قائمة وجدتها بحوزة أنطونيو فلوريس. كما وجدت لديه خريطة للثكنة، وهذا دليل على سوء نواياه. استجوبناهم حسب الاجراءات المتبعة وحصلنا منهم على الاعترافات: تلقوا تدريبات ارهابية على يد عملاء خارجين تسللوا إلى البلاد عبر الحدود البحرية، ولكنهم عجزوا عن تقديم التفاصيل، وبدت لي اعتراضاتهم متناقضة، وأنت تعلم يا صاحب السعادة كيف هم هؤلاء الناس. انتهينا من التحقيق معهم بعد منتصف الليل، فأمرت عندئذ بنقلهم إلى الاستاد الرياضي في العاصمة، وكان يستخدم في ذلك الحين كمعسكر اعتقال. وفي اللحظة الأخيرة، طلب أحد المعتقلين مقابلتي، وعلمت منه ان المشبوهين قد تورطوا في جريمة اخفاء أسلحة في منجم مهجور. حملتهم في شاحنة وأخذتهم إلى المكان المشار اليه. وحين أصبح الطريق وعراً، نزلنا مع المشبوهين وهو مقيداً بالأذرع وتحت حراسة مشددة، وواصلنا السير على الأقدام. ما ان تقدمنا قليلاً في الظلام حتى وقعن ضحية هجوم مباغت بأسلحة نارية أطلقت علينا من عدة أماكن، فلم أجدهم مفرأً من اصدار الأوابي إلى رجال ليدافعوا عن أنفسهم. لا يمكنني أن أقدم تفاصيل كثيرة لأن الظلام كان دامساً، لكنني أوّل لكم انه جرى تبادل اطلاق نار غزير لعدة دقائق. وبعد ذلك توقفت الرماية وتذكرت من اعادة تنظيم وحدتي. بدأنا البحث عن المعتقلين ونحن نظن انهم قد لاذوا بالفرار، لكننا وجدناهم على الأرض، وكانوا جميعهم ميتين، وبعشرين هنا

وهناك. ولا أستطيع أن أحده إذا كانوا قد قتلوا برصاصنا أم برصاص المهاجرين. وبعد أن فكرت بالأمر، قررت أن أفعل ما وجدته صائباً، حتى لا أغعرض رجالي وعائلاتهم لاعمال انتقامية. فأخذينا الجثث في المنجم ثم أغلقنا المدخل بالانقضاض، بالحجارة والتراب، ولم نقم بأية أعمال بناء، لهذا لا أستطيع أن أقول شيئاً حول هذا الأمر. وبعد أن أغلقنا المنجم، أقسمنا جياعنا على كتمان السر. أني أعترف بمسئوليتي كقائد للمجموعة، ويجب أن أوضح انه لم تقع اصابات بين من هم تحت أمرتي ، باستثناء بعض الخدوش البسيطة من جراء زحفنا في أرض وعرة. أمرت بتفتيش المنطقة المحيطة بحثاً عن المهاجرين، لكننا لم نعثر لهم على اثر، كما لم نجد أغلفة رصاصات فارغة. اعترف اني قد أسأت إلى الحقيقة حين ذكرت في تقريري ان المعتقلين ارسلوا إلى العاصمة ، لكنني وكما قلت لكم لم أفعل ذلك إلا لحماية رجالي من انتقام محتمل. لقد مات في تلك الليلة أربعة عشر شخصاً. وقد فوجئت بورود ذكر مواطنة تدعى ايفانخيلينا رانكيليو سانتشيث ، لأن المذكورة اعتقلت في ثكنة لوس ريسكوس لبعض ساعات ، ثم اطلق سراحها كما هو مثبت في سجل المناوبة. وهذا هو كل ما يمكنني قوله لسعادتكم.

اثارت هذه الرواية في المحكمة ما اثارته لدى الرأي العام من ريبة وعدم تصديق . ووجد القاضي انه يستحيل عليه القبول بها دون ان يتحول إلى اضحوكة ، فأعلن انه غير مؤهل للبت في المسألة ، وأحال القضية إلى المحكمة العسكرية .

رأى ايرين وهي على سرير النقاوة ان احتفالات معاقبة المذنبين تبتعد ، فطلبت من فرانثيسكو ان يذهب في الحال إلى ملجاً «مشيئة الرب». قالت له متسللة :

- خذ هذه الملاحظة إلى خوسيفينيا بيانتشي ، فهي تحفظ لي بشيء مهم ، فإذا كان قد نجا من حملة المداهمة ستعطيك إياه.

لكنه رفض تركها وحيدة ، وأمام أصرارها أخبرها أنها مراقبة. كان قد أخفى عنها الأمر حتى ذلك الحين كي لا ينفيها ، ولكنه لاح أنها على علم بذلك ،

لأنه لم يلمح عليها أية امارات للمفاجأة. كانت ايرين قد هيأت نفسها لاستقبال الموت كاحتمال وشيك ويصعب تفاديها. لكن فرانتيسكولم يذهب لزيارة العجوز إلا عندما جاء البروفسور وهيلدا برفقة ممرضة ليحلما مكانه.

رحبت به روسا وهي تتحرك بصعوبة، لأن ثلاثة أصلاع في صدرها كانت قد تمشت. وكانت قد هزلت وبذا عليها الارهانق. قادته عبر الحديقة وأشارت إلى الأرض المقلوبة حديثاً حيث دفت كليو، قريباً من قبر التوليد الذي سقط من فتحة النور.

كانت خوسيفينيا بياتشي متکئة إلى الوسائل في حجرتها وهي ترتدي قيمص نوم واسع الأكمام، مشغول على مغزل تطريز، وتتصنع دثاراً متقن الصنع على كتفيها، وشرطيطاً في عنقها علقت فيه حلية ثلوجية. وفي متناول يدها كانت توجد آلة من الفضة المزخرفة وصينية مترعة بأوان مملوءة بمسحوق الأرز، وفراش من وبر السמור، وكريسمات من جميع الأنواع، ومرودة من ريش البجع، ودبابيس شعر من عظم السلاحف. لقد كانت تقوم برسم مكياجها، وهي مهمة حساسة تؤديها منذ أكثر من سبعين عاماً، دون أن تهملها ولو لثيم واحد. كان وجهها يبدو على ضوء الصباح مثل قناع ياباني، رسمت فيه يد متعددة خط الفم الارجوانى. وكانت رموشكها ترتعش زرقاء، وخضراء، وفضية فوق الوجه المطل بالمساحيق. لم تعرف المثلثة العجوز على فرانتيسكو، فقد كانت غارقة في حلم بعيد، ربما وسط مسرح قبل رفع الستارة في ليلة افتتاح عرض جديد. ارتعشت حدقاتها تائهة في الماضي وبدأت روحها بالعودة شيئاً فشيئاً إلى الحاضر. ابتسمت، فعاد الشباب إلى ملاعها بظهور صفين من الأسنان الاصطناعية المنتظمة.

لقد تعلم فرانتيسكولم خلال شهور صداقته مع ايرين التعرف على خصائص المسنين واكتشف ان الحنان هو المفتاح السري الوحيد للتواصل معهم، وان التعقل ما هو إلا متأهله يضيعون فيها بسهولة. جلس على حافة السرير وداعب يد خوسيفينيا بياتشي. لم تكن هنالك من جدو في استعجالها. تذكر الفترة الزاهية من حياتها، حين كانت صالات المسارح تغص بالمعجبين بها، وكانت حجرتها في

الكواليس تزدهي بباقيات الزهور، حين كانت تحبوب القارة في جولات صاحبة وتحتاج لخمسة حالين ليحملوا أمتعتها ~~ويمتنلوها~~ من السفن والقطارات.

- ما الذي جرى يابني؟ أين النبيل، والقبلات، والمرح؟ أين الرجال الذين أحبوبي؟ وأين الجموع التي صفت لي؟

- كل شيء هنا، في ذاكرتك يا خوسيفينا.

- ابني عجوز، لكنني لست معتوهة. وأنا أدرك أنني وحيدة. رأت حقيقة آلة التصوير فأرادت أن تتخذ وضعًا للتقطاط صورة تبقى ذكرى منها حين تموت. تزيينت بعقود الماس زائفه، وشرائط خملية، وطربحة ذات لون خبازي، وحملت مروحتها الريشية ورسمت على وجهها ابتسامة من عصر آخر. واتخذت وضعية للصورة، وبقيت مستعدة لذلك بضم لحظات، لكنها مالت أن تعبر بسرعة، فاغمضت عينيها واتكأت ثانية وقد اضطررت تنفسها.

- متى سترجع إيرين؟

- لست أدري. لقد بعثت إليك بهذه الملاحظة. تقول إنك تخبيئين لها شيئاً. تناولت العجوز الورقة بين أصابعها وشدتها إلى صدرها دون أن تقرأها.

- أنت زوج إيرين؟

فرد فرانشيسكو:

- لا، أنا حبيبها.

- لحسن الحظ! يمكنني أن أقول لك أذن إيرين مثل عصفور، لا جلد لها على الثبات.

ضاحك فرانشيسكو:

- أنا لدى ما يكفي لي ولها.

وافقت على تسليمه ثلاثة أشرطة تسجيل كانت تخبيئها في حقيقة رقص مطرزة بالخرز. لم تستطع إيرين أن تجد يوماً تبريراً لاتهامها المثلثة على تلك الأشرطة، وكان السبب الوحيد الذي دفعها إلى عمل ذلك هو لفترة كرم نحو المرأة العجوز. لأنها لم تكن تعلم أنهم سيحاولون قتلها وسيداهمون بيتهما ومكتبهما بحثاً

عن الاشرطة، ولكنها كانت تدرك قيمة هذه الاشرطة بوضوح. ولقد أعطتها للعجز لتجعلها تشارك في شيء لم يكن قد تحول إلى سر بعد، مانحة بذلك معنى جديداً لحياة المثلثة. كانت لغة عفوية مثل تلك اللفظات الكثيرة التي تقدمها إلى نزلاء «مشيّة الرب»، من الاحتفال بأعياد ميلاد لا وجود لها، وتنظيم الألعاب، وابتداع العروض المسرحية، إلى تقديم المدائح وكتابة الرسائل باسم أقرباء وهميين. لقد زارت خوسيفينيا بيانتشي في أحدى الليالي ووجدتها حزينة، تدمدم أنها تفضل الموت، لأنها لا تملك الحب وليس هناك من هو بحاجة إليها. كانت صحتها قد تدهورت خلال الشتاء الأخير، وحين رأت نفسها هرمة ومستنزفة، صارت تعاني حالات من الانقباض، رغم أنها لم تفقد الاتزان أو الذاكرة. وأرادت ايرين أن تقدم لها ما يحرف اهتمامها عن الوحدة ويشدّها إلى اهتمامات أخرى، وهذا أعطتها الاشرطة وبنتها إلى أهميتها وطلبت منها أن تخبعها. وقد فنت هذه المهمة السيدة العجوز، فمساحت دموعها ووعدت بالبقاء حية ومعافاة لمساعدتها، وهي تظن أنها تصون سراً غرامياً. وهكذا؛ فإن الأمر الذي بدأ مجرد لعبة، انتهى إلى إداء فائدة عظيمة. فلم تنجُ الأشرطة من فضول بيتريس الكانترا وحسب، بل ومن التفتيش البوليسي كذلك.

قالت خوسيفينيا بيانتشي لفرانثيسكونو:

- قل لايرين أن تأتي. لقد وعدت أن تساعدني في ساعة موتي.
- لم تحن هذه الساعة بعد. أمامك عمر طويل تعيشيه، فأنت مازلت معافاة وقوية.
- اسمع أيها الشاب، لقد عشت حياتي كسيدة وأريد أن أموت كسيدة. أشعر أنني متعبة، وأريد ايرين.
- لا تستطيع المجيء الآن.
- السيء في الشيخوخة أن أحداً لا يحترمنا. يعاملوننا كما لو كنا أطفالاً لجوجين. لقد عشت حياتي على طريقتي وكما أشتئي، دون أن ينقصني أي شيء، فلماذا تمنع عني ميتة نظيفة؟

قبل فرانشيسكو يديها بحنان واحترام . ولدى خروجه رأى التزلاء في الخدبة تحت مراقبة المشرفات ، مقعدين متوجدين في كراسיהם ذات العجلات ، ومتدثرين بشالاتهم الصوفية ومتلكلاتهم البائسة ، صنمًا ، وشبه عميان ، مخنطين ، أشباه أحياء يعيشون بعيداً عن الحاضر والواقع . كان الكولونييل ، بميدالياته الصفيحية المتذلية على صدره يحيى كعادته العلم الوطني الخفاق الذي لا يظهر إلا لعينيه . وكانت أفقر أرملة في المملكة تشد إلى حضنها علبة معدنية تضم بعض الكنوز البائسة . وكان المفلوج يتضرر البريد بحكم العادة ، رغم ادراكه في أعماق نفسه ومنذ البداية أن ايرين هي التي تخترع له الردود لسعده ، فيما هو يتكلف تصديق أكاذيبها المشفقة حتى لا يغبنها . وحين توقفت عن المجيء إلى «مشيحة الرب» ، لم يبق لديه ما يحمل به . وأوقف عجوز آخر فرانشيسكو عند الباب .

- اسمع أيها الشاب ، حيث انهم يجدون قبوراً الآن ، أنتظرن ان ابني وكتني والصغير سيظهرون أيضاً؟ .

لم يعرف فرانشيسكو ليال بماذا يجيب ، وخرج هارباً من عالم الأجداد المؤثر ذاك .

★ ★ *

الاشرطة التي سجلتها ايرين بيلتران كانت تضم أحاديثها مع ديجنا وبراديليو رانكيليتو ، ومع الرقيب فاوستينوريفيرا وايفان خيلينا فلوريس .

قالت لفرانشيسكو :

- خذها إلى الكريدينال ليستخدمنها في محاكمة الشرطين .

- لكن صوتك فيها يا ايرين . إذا تعرفوا عليه فسيكون بمثابة الحكم عليك بالموت .

- سيقتلوني في كل الأحوال إذا استطاعوا . عليك أن تسلمها .

- عليّ أن أنقلك إلى مكان آمن قبل ذلك .

- استدع ماريوبادن ، لأنني سأخرج من هنا مساء هذا اليوم بالذات .

عند المساء جاء خبير المكياج حاملاً حقيبة الشهيرة التي يستخدم محتوياتها في تغيير الشخصيات، فحبس نفسه معهما في غرفة المشفى، حيث قام بقص شعرهما وتغيير لونه، وتعديل قوس حواجبها، واختبار نظارات مناسبة، ومكياج وشوارب وجميع حيل مهنته، إلى أن جعل منها كائنين مختلفين. نظر كل من الشابين إلى الآخر مذهولاً، ولم يتعرفا على بعضهما بعضاً تحت هذه الأقنعة، وابتسموا غير مصدقين. فبهذا المظهر الجديد سيترتب عليهما أن يتعلماً كيف يحب أحدهما الآخر منذ البداية.

سألها ماريو:

- هل يمكنك السير يا ايرين؟

- لست أدرى.

- عليك أن تفعلي ذلك دون مساعدة. هيا بنا يا صغيرتي، قفي على قدميك ..

نزلت ايرين عن السرير متمهلة دون أن تقبل الاستناد إلى يد صديقها. نزع ماريو عنها قميص النوم، وأخذ صريحة كادت تفلت منه وهو يرى بطنها المغطى بالضمادات ويقع المظهر الحمراء التي على الصدر والفخذين. أخرج من حقيبة العجيبة حشوة من الاسفنج ليجعلها تظهر كحبل، فثبتها بالكتفين وما بين الساقين، لأنها ما كانت لتحمل ربطها حول خصرها. ثم ألبسها في الحال فستان حل وردي اللون، وأنعلها صندل بلا كعب ووودعها بقبلة ممتيناً لها حظاً سعيداً.

خرجت ايرين من المشفى بعد ذلك بقليل برفقة فرانثيسكو دون أن يثيراً اهتمام العاملين الذين قدموا اليهما الخدمات خلال الوقت الفايت، ومرا أمام السيارة ذات الزجاج القائم المتوقفة في الشارع، وسارا متهملين حتى الناصية، وهناك صعدا إلى سيارة الخلاق.

قرر ماريو:

- ستخبتاً في بيتي إلى أن تتمكنا من السفر.

قادهما إلى شقته، وفتح الباب الذي من برونز وزجاج، أبعد هر الأنقرة من طريقهما، وأمر الكلب أن يستلقي في أحد الأركان ثم انحنى مازحاً ليُرحب بهما، لكنه لم يتمكن من انهاء حركة الترحيب تلك لأن ايرين انها رت على السجادة دون نفس. حملها فرانشيسكو بين ذراعيه ولحق مضيفه إلى الغرفة التي خصصها لها، حيث احتضن المريضة سرير عريض مغطى بشراشف قطنية فاخرة.

قال فرانشيسكو متأثراً :

- انك تجذف بحياتك من أجلنا.

فرد ماريو وهو يخرج :

- سأعد القهوة، فنحن جميعنا بحاجة إليها.

أمضت ايرين عدة أيام وهي تسترد قواها في هذا الجو النقي والهدوء، حيث كان فرانشيسكو وماريو يتناوبان العناية بها. حاول صاحب البيت تسليةتها بالطالعة الخفيفة، وبالألعاب الورق، وبرواية التوادر الكثيرة التي جمعها خلال حياته، وسرد لها حكايات صالون التجميل، وغرامياته، ورحلاته وعداياته حين كان مجرد الابن الصال لعامل منجم. وحين لاحظ أنها تحب الحيوانات، نقل الكلب الأسود الضخم والقطط إلى حجرتها، وكان يغير موضوع الحديث إذا ما سألت عن كلبيو، لأنه لم يكن راغباً في اطلاعها على نهاية الحزينة. طهى لصديقه وجبات مرضى، وسهر على نومها وساعد فرانشيسكو في علاجها. أغلق نوافذ شقتها، وأسدل ستائر السميك، واستبعد الجرائد وأطفأ التلفزيون كي لا تقلقلها فوضى ما يحدث في الخارج. فإذا ما عوّت صفارات عربات الشرطة، أو مررت طائرات الهليوبتر وهي تنزل مثل طيور خرافية، أو دوى في بعيد الطرق على الطناجر أو قعقة البنادق الرشاشة، كان يرفع صوت الموسيقى كي لا تسمع شيئاً من ذلك. وكان يذيب المسكنات في حسائصها ليجبرها على الراحة، ويمتنع في حضورها عن ذكر الأحداث التي كانت تزعزع أمن الدكتاتورية.

وكان ماريو هو الذي حل إلى بيترис الكاترا خبر مغادرة ابنتها المشفى.

كان ينوي ان يوضح لها ضرورة اخراجها من البلاد لانقاذ حياتها، لكنه لا حظ منذ العبارة الأولى عجزها عن احتمال الوضع. فقد كانت السيدة تسكن عالماً وهياً حيث كل هذه النكبات ملغاً بمرسوم. ففضل أن يقول لها ان ايرين وفرانشيسكو قد سافرا للقضاء اجازة قصيرة، وهي رواية لا يمكن تصديقها، نظراً لحالة الفتاة الصحية، لكن الأم اقتنت بها لأن أي ذريعة كانت مفيدة لها. تأملها ماريودون شفقة وهو يتميز غيظاً أمام تلك المرأة الانانية اللامبالية، المختبئة وراء طلاوة من الشعائر والصيغ الجاهزة، في هذا الصالون المحكم الذي لا تصله هسات التبرم. نصورها منساقة فوق طوف مع شيوخها المسنين والمقطعين في بحر ساكن. فقد كانت بيتريس مثل اولئك الشيوخ، تعيش خارج الواقع، لأنها فقدت مكانها في هذا العالم. وكان يمكن لأمنا الواهن ان ينهار في لحظة واحدة، بهبة من اعصار الازمة الجديدة الغاضب. كانت الصورة في ذهnya مغلقة بالحرير وجلود الغزلان، فخرج من عندها دون كلمة وداع.

كانت روسا واقفة في الخارج، تتنصل للحديث كعادتها من وراء الباب.
فأشارت اليه ان يتبعها إلى المطبخ:

- ماذا جرى لصغيرتي؟ أين هي؟

- أنها في خطر. علينا مساعدتها للخروج من هنا.

- إلى المتن؟

- نعم.

- ليحفظها الله لي ومحميها! هل سأتمكن من رؤيتها يوماً؟

- حين تسقط هذه الدكتاتورية، ترجع ايرين.

فتوسلت روسا وهي تسلمه لفافة صغيرة:

- أعطها هذه، انه تراب من حدائقها، ليكون معها اينما ذهبت. وأرجوك
أن تقول لها ان نبته اللاتنسيني قد أزهرت...



رافق خوسيه ليال ايفانخيلينا فلوريس للتعرف على رفات أبيها وأخوها .
كانت ايرين قد حدثه عنها وطلبت منه مساعدتها ، لثقتها من أن الفتاة ستحتاج
لمساعدته ، وهذا ما فعله . كانوا قد أفرغوا محتويات الأكياس الصفراء على طاولتين
خشبيتين كبيرتين في قاعة مديرية المباحث : ثياب مهترئة ، قطع عظام ، خصل
شعر ، مفتاح صدئ ، مشط . ذرعت ايفانخيلينا ذلك المعرض الرهيب ببطء ،
مشيرة بصمت إلى كل شيء تعرفت إليه : هذه الكنزة الزرقاء ، هذا الحذاء
الممزق ، هذا الرأس ذو الاسنان القليلة . مرت ثلاث مرات أمام الطاولتين وهي
تأمل بدقة ، إلى أن وجدت شيئاً ما من كل واحد من موتها وأثبتت أن الخمسة
موجودون هناك ، لا ينقص منهم أحد . ولم يش بالجهد الرهيب الذي كانت تبذله
في كل خطوة سوى العرق الذي يبلل بلوزتها . كان الراهب يمشي إلى جانبها دون
أن يمسها ، كما كان معها موظفان من المحكمة يسجلان الملاحظات . وآخرها
قرأت الفتاة التصريح الذي كتباه ووقعت عليه بيد ثابتة وخرجت من هناك
بخطوات واسعة ، ورأس مرفوع . حين أصبحت في الشارع ، وبعد أن سمعت
صوت إغلاق الباب وراءها ، استعادت للحظات قصيرة مظهر الطفلة الريفية .
فاحتضنها خوسيه ليال ، وقال لها :

ـ ابك يا صغيرتي ، فهذا يريحك .

فردت وهي تنفض الدموع بحركة من يدها وتواصل السير مسرعة :

ـ سأبكي فيما بعد يا أباها . لدى عمل كثير الآن .

بعد يومين من ذلك استدعيت للمثول أمام المحكمة العسكرية لتقدم
شهادتها حول المقتلى المزعومين . جاءت بملابس العمل وهي تضع شريطاً أسود
على ذراعها ، وهو نفس الشريط الذي استخدمته يوم فتحوا منجم لوس
ريسكوس ورأت ان وقت الحداد قد حان . كانت المحكمة سرية ، فلم يسمحوا
لأمها ولا لخوسيه ليال ولا لمحامي المطرانية المكلف من الكريدينال بمراقبتها ، قادها
جندي عبر معربيض يتردد وقع الخطى فيه بصوت كصوت الجرس ، حتى
وصلت إلى قاعة المحكمة . كانت القاعة عبارة عن صالة فسيحة شديدة

الاضاءة، وليس فيها من زينة سوى علم وصورة ملونة للجنرال وعلى صدره وشاح الرؤساء.

تقطعت ايقان خيلينا دون خوف إلى ان وقفت أمام منصة الضباط العالية. وتطلعت اليهم واحداً واحداً محدقة في عيونهم مباشرة ثم روت لهم بصوت واضح القصة التي روتها لايرين بيلتران من قبل ، دون ان تتمكن تلميحات التخويف من اجبارها على تعديل روايتها. أشارت دون تردد إلى الملازم خوان دي ديوس راميريث وإلى كل رجل شارك في اعتقال أفراد اسرتها ، لأنها كانت تحمل صورهم مطبوعة في ذاكرتها بالنار خلال السنوات الماضية.

قال لها ضابط برتبة كولونيل :

- يمكنك ان تتصاري في الان أيتها المواطنـة . لكنك ستبقـين تحت تصـرف هذه المحكمة . لا تغـاديـي المدينة .

قادـها الجنـدي نفسه إـلـى المـخرج . وـكان خـوشـيه ليـال يـنتـظرـها فـي الـخارـج فـانـظـلـقا يـسـيرـان مـعـاً فـي الشـارـع . اـنـتـبهـ الكـاهـنـ إـلـى أـنـ هـنـاكـ سـيـارـةـ تـلاـحـقـهاـ ، وـلـأـنـهـ كانـ مـسـتـعدـاً مـثـلـ هـذـاـ الاـحـتـمالـ ، فـقـدـ أـمـسـكـ الفتـاةـ مـنـ ذـرـاعـهاـ وـرـكـضـ وـهـوـ يـدـفعـهاـ مـعـهـ وـيـشـدـهاـ لـيـخـتـلـطـ بـالـجـمـوـعـ . بـحـثـ عـنـ مـلـجـأـ فـيـ أـوـلـ كـنـيـسـةـ صـادـفـهاـ فـيـ طـرـيقـهـ وـاتـصلـ مـنـ هـنـاكـ بـالـكـرـدـيـنـالـ .

أنـقـذـتـ ايـقـانـ خـيلـيناـ فـلـورـيسـ مـنـ مـخـالـبـ القـعـمـ وـأـخـرـجـتـ إـلـىـ خـارـجـ الـبـلـادـ فـيـ ظـلـالـ الـلـيـلـ . كـانـ هـاـ مـهـمـةـ لـاـ بـدـ مـنـ اـنـجـازـهاـ . وـقـدـ نـسـيـتـ خـلـالـ السـنـوـاتـ التـالـيـةـ الـرـيفـ الـهـادـيـ الـذـيـ وـلـدـ فـيـ ، لـتـجـوبـ الـعـالـمـ مـشـهـرـ بـهاـ يـتـعـرـضـ لـهـ وـطـنـهاـ مـنـ مـآـسـ . مـثـلـ أـمـامـ جـمـيـعـةـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ ، وـفـيـ مـؤـمـرـاتـ صـحـفـيـةـ ، وـفـيـ نـدـوـاتـ تـلـفـزـيـوـنـيـةـ ، وـمـؤـمـرـاتـ ، وـجـامـعـاتـ ، وـفـيـ كـلـ مـكـانـ لـتـكـلـمـ عنـ الـمـفـقـودـيـنـ وـلـتـحـولـ دونـ أـنـ يـمـحـوـ النـسـيـانـ أـوـلـئـكـ الرـجـالـ وـالـنـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ الـذـينـ اـبـلـعـهـمـ الـعـنـفـ .

حـينـ تمـ التـعـرـفـ عـلـىـ جـثـثـ لـوـسـ رـيـسـكـوسـ ، التـمـسـ ذـوـهـمـ استـعادـهـمـ لـدـفـنـهـمـ بـشـكـلـ لـائـقـ ، لـكـنـ طـلـبـهـمـ رـفـضـ خـوـفـاًـ مـنـ الـبـلـبـلـةـ الـعـامـةـ ، وـلـأـنـ الـحـكـومـةـ لـمـ تـكـنـ رـاغـبـةـ فـيـ مـزـيدـ مـنـ الـفـوـضـيـ ، عـنـدـئـذـ دـخـلـ أـقـرـباءـ هـؤـلـاءـ الـضـحـاـيـاـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ

عُشر عليهم في قبور سرية أخرى، دخلوا إلى الكتدرائية واعتصموا أمام المذبح الكبير وأعلنوا اضراباً عن الطعام منذ تلك اللحظة وإلى أن يستجاب طلبهم. لقد تخلصوا من الخوف وخاطروا دون تردد بحياتهم، وهي الشيء الوحيد الذي تبقى لهم بعد أن خسروا كل شيء.

- ما الذي تعنيه هذه الفوضى أنها الكولوني؟
- انهم يسألون عن مفتودتهم يا سيد الجنرال.
- قل لهم ليسوا أحياء ولا أموات.
- وماذا نفعل بالمضربين عن الطعام يا سيد الجنرال؟
- كالعادة أنها الكولوني، ولا تزعجي بالصغار.

حاولت الشرطة اخراج المعتصمين من المعبد بخراسطيم المياه والغازات المسيلة للدموع، لكن الكريدينال وقف أمام الباب مع أشخاص آخرين كانوا يشاركون في حملة التضامن، فيما مراقبو الصليب الأحمر، وبلجنة حقوق الإنسان والصحافة العالمية يتقطعون صوراً للمشهد. بعد ثلاثة أيام لم يعد ضبط الوضع ممكناً، واحتراق صخب الشارع جدران الملجأ الرئاسي، فأمر الجنرال مكرها باعادة رفات الموتى. ولكن في اللحظة الأخيرة، وحين كانت عائلات الضحايا تتضرر حاملة آكاليل الزهور والشموع المضاءة، انحرفت سيارات الماتم عن الطريق بناء على أوامر عليا، ودخلت خفية من البوابة الخلفية للمقبرة وأفرغت الأكياس في قبر جماعي. أما جثة إيفان خيليينا رانكيليو سانتيشيت، التي كانت متزال في مستودع الجثث لاجراء التشريح عليها، فقد سلمت إلى أبوها. حملها إلى خورانية الأب تيريلو، حيث حصلت على ضريح متواضع. لكنه كان قبراً على أية حال، لم تنقصه الزهور الطازجة أبداً، لأن فلاحي المنطقة كانوا يؤمنون بمعجزاتها الصغيرة.

تحول منجم لوس ريسكوس إلى مكان للحج. وذهبت إليه أرتال لا نهاية من الناس في مهرجان شعبي يتقدمه خوسيه ليال. جاؤوا مشياً على الأقدام وهم يرتدون الصلوات ويرددون شعارات التمرد، ويحملون الصليبان، والمشاعل وصور

موتاهم . فأقام الجيش في اليوم التالي سياجاً عالياً من الأسلاك الشائكة وبوابة حديدية ، لكن الأسلاك الشائكة والجنود الذين أقاموا مراقبين لدعفهم الرشاشة لم يستطيعوا منع تدفق المهاجرين . حينئذ استخدمو المتفجرات لمحو المنجم من الأرض ، حاولين بذلك محوه من التاريخ أيضاً .

سلم فرانشيسكو وخوسيه ليال تسجيلات ايرين إلى الكردينايل . كانوا يعلمون أنها ستصل إلى يد المحكمة العسكرية ، وسيتم التعرف على صوت الفتاة واعتقالها . وهذا كان عليهما أن يتقدما إلى مكان آمن باسرع ما يمكن .

سألهما رئيس المطرانية :

- كم يوماً يلزمها لتهرب .

- أسبوع ، إلى أن تتمكن من السير دون مساعدة .

اتفقوا على ذلك ، وقام الكردينايل بتسجيل عدة نسخ من الأشرطة ، وبعد سبعة أيام وزع النسخ على الصحافة وسلم النسخة الأصلية إلى النائب العام . وحين أرادوا اتلاف الأدلة ، كان الوقت قد فات ، لأن المقابلات ظهرت منشورة في الصحف وراحت تجوب العالم ، مثيرة موجة من الاستنكار العام . أصبح اسم الجنرال أضحوكة في الخارج وصار سفراوه يقابلون بوابل من البدوره والبيض الفاسد كلها ظهروا في مكان عام . فلم تجد العدالة العسكرية ، أمام هذه الضجة المتحدية ، مفرأً من ادانة الملائم خوان دي ديوس راميريث ومن شارك من رجاله في المذبحة بتهمة القتل ، استناداً إلى شهادتهم المتناقضة ، وإلى الأدلة المخبرية التي حددت طريقة القتل كما جرى في الواقع ، وإلى تسجيلات ايرين بيلزان . واستدعيت الصحفية للشهادة عدة مرات وبحثت عنها الشرطة السياسية ، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليها .

لم يستمر الشعور بالرضا الذي أثاره الحكم إلا بضع ساعات ، حيث أطلق سراح المذنبين بناء على مرسوم عفو صدر في اللحظة الأخيرة . فترجم الغضب الشعبي في مظاهرات صاحبة في الشوارع ، لم تتمكن فرق الشرطة الصدامية ولا معدات الجيش الحربية من السيطرة على الناس الذين تدفقوا إلى الشوارع .

وأمام مشروع نصب «منقذى الوطن»، أغلت الشعب خنزيراً ضخماً مزييناً بشرائط ملونة ووشاحاً ثلاثياً وعباءة مراسم وقبعة جنرال. ركض الحيوان مذعوراً وسط الحشود التي راحت تبصق عليه وتركله وتشتمه أمام عيون رجال الشرطة المغتاظين الذين استخدموها كل براعتهم لمحاصرة الخنزير وانتزاع الرموز المقدسة التي اهينت ثم انتهوا أخيراً إلى قتلها بالرصاص وسط الصراخ والعصبي ولعلة الصفارات. ولم يبق من الحيوان إلا جثته الضخمة المهاهنة في بركة من الدم الأسود تمرغ فيها شعاراته وقبعاته كطاغية.

رفع الملازم راميريث إلى رتبة نقيب. وراح يتجلو مطمئناً ومرتاح الضمير في كل مكان، إلى أن علم أن مارداً يلبس الاسماك ويهيم على وجهه في دروب الجنوب، جائعاً وزائعاً العينين، يبحث عن قاتل اخته. لم يتلفت إليه أحد، وقالوا أنه معتوه. لكن الضابط كان يعرف الثأر السلطان فوق رأسه، فقد راحة النوم، وأدرك أنه لن يجد السلام ما دام براديليو رانكيليرو على قيد الحياة.

في حامية من حاميات الأقاليم، بعيداً عن العاصمة، كان غوستافو مورانتي يضع خططاته موضع التنفيذ. فحين حصل على كل الأدلة حول عدم شرعية النظام، بدأ التحرك سراً بين رفقاء في السلاح. كان قد فقد أحلامه، واقتنع أن الدكتورية ليست بالمرحلة المؤقتة على طريق التطور، وإنما هي المرحلة الأخيرة في طريق الظلم. لم يعد قادراً على احتمال آلة القمع التي يخدمها بولاء وهويفكر بمصالح الوطن. فالرعب لم يؤد إلى فرض النظام كما لقنه في دورات الضباط، بل زرع حقداً لن تكون حصيلته إلا مزيداً من العنف. ومنحته سنوات خدمته العسكرية معرفة عميقة بالمؤسسة، فقرر استخدامها للإطاحة بالجنرال. رأى أن هذه المهمة تقع على عاتق الضباط الشباب، وأمن أنه ليس وحيداً في حمل هذه المشاعر، فالفشل الاقتصادي، والتفاوت الاجتماعي الصارخ، ووحشية النظام وفساد ذوي الرتب العالية، تدفع عسكريين آخرين إلى التأمل والتفكير. كان موقتاً بوجود آخرين مثله، راغبين في غسل صورة القوات المسلحة وخارجها من الهوة التي حشرت فيها. لو ان رجلاً آخر، أقل جرأة وحسنة، حمل مثل هذه

الأفكار، فربما كان سيتوصل إلى تحقيق أهدافه، لكن مورانتي كان متسرعاً في استجابته لدعاوى قلبه، فاقترب خطيرة تحرير جهاز المخابرات، الذي كان يعرف مفاصله جيداً، فاعتقل وبقي على قيد الحياة لمدة اثنتين وسبعين ساعة فقط، لم يستطع أمهر الخبراء خلاها اجباره على الكشف عن اسماء متورطين آخرين في حركة التمرد. فجردوه من رتبته العسكرية وأعدموه اعداماً رمزاً باطلاق الرصاص على ظهره عند الفجر، جزاء له. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات، تسررت القصة. وحين علم فرانتيسيكوليال بما حدث، تذكر عريس المنية باحترام. وقال معلقاً: إذا كان يوجد في القوات المسلحة رجال من هذا الطراز، فما زال هناك أمل. ولن يتمكنوا من السيطرة على الانفاسة دوماً، لأنها ستتكرر وتتعاظم في الثكنات، إلى أن يعجز الرصاص عن سحقها. حينئذ سيلتحم الجنود بالناس في الشارع، ومن الألم والعنف الذي تجاوز الحدود، سينبعث وطن جديد. فرد عليه البروفسور ليال:

- أنت تحلم يا بني! فحتى لو وجد عسكريون مثل مورانتي هذا، إلا أن جوهر القوات المسلحة لن يتبدل فالعسكرية تسببت في شرور فظيعة للإنسانية، ولا بد من الغائنا.

★ ★ ★

أخيراً أصبحت ايرين بيلتران في حالة تسمع لها بالحركة. حصل خوسيه ليال على جوازي سفر مزيفين، لها ولفرانتيسيكو، الصقت عليهما صورة كل منها بوجهه الجديد. لم يكن التعرف عليهما ممكناً. فقد صار شعرها قصيراً ومصبوغاً، وعلى وجهها نظارة تبدل من لون حدقتيها. فيما صار هو بشارب كث ونظارة. تأملنا نفسيهما أول الأمر جاهدين في التعرف أحدهما على الآخر، لكنهما ما لبثا ان اعتادا على هذا التذكر ونسيا وجهيهما اللذين أحبا بعضهما بهما. وفاجأ فرانتيسيكو نفسه وهو يحاول أن يتذكر لون شعر ايرين الذي طلما فتنه. لقد أرفقت اللحظة التي

عليهم فيها مغادرة عالمها المعروف والالتحاق بموجة المشردين الهائلة التي عرفها عصرهم : المبعدين ، المهاجرين ، المنفيين ، اللاجئين .

عشية الرحيل ، ذهب آل ليال لوداع الفارين . فحبس ماريون نفسه في المطبخ ليعد العشاء ، دون ان يسمح لأحد بمساعدته . ثم زين المائدة بأزهار وفواكه ، بعد ان وضع عليها أفضل شرشف لديه ، مبدياً استعداده بذلك للتحفيض من وطأة المأساة التي تلف الجميع . اختار موسيقى هادئة ، وأضاء شموعاً ، وراح يبرد النبيذ ، متمنياً بهجة كان بعيداً جداً عن الاحساس بها . ومع ذلك ، فقد كان مستحيلاً تفادياً موضوع الفراق الوشيك والمخاطر التي تترصد الشابين ما ان يضعا أقدامهما خارج هذا المخبأ .

قالت هيلا ليال :

- بعد ان تجتازا الحدود يا ابني ، اظن انه عليكم الذهاب إلى بيتنا في ترويل .

وذهل الجميع ، لأنهم كانوا يظنون ان هذه الذكرى هي واحدة من الذكريات التي حماها فقدان الذاكرة من ذهنها .

لكنها لم تكن قد نسيت أي شيء . حدثتهم عن ظل جبل الباراثين الهائل وهو يندوبتورةً في الشفق مثل هذه الجبال التي يمتد عند سفحها الوطن الذي تبنها ؛ وعن الكروم الجرداء الخزينة الملتوية في الشتاء وهي تجمع الرحيق لتتفجر أعناباً في الصيف ؛ عن تلك الطبيعة البخافة والوعرة المحاطة بالجبال ، وعن البيت الذي هجرته يوماً لتلحق برجلها إلى الحرب ، بيت مهيب ويدائي مبني من الأحجار والخشب والقرميد ، ذي نوافذ ضيقة مزودة بقضبان حديدية ، ومدخلة شاهقة فيها أطباق من الخزف مغروسة في البناء وكأنها عيون تراقب عبر السنين .

كانت تذكر بدقة رائحة الخطب لدى اضرام النار في المساء ، وشذى الياسمين والنعنع تحت النافذة ، وبرودة ماء البشر ، وصدق البياضات ، وحرامات الصوف على الأسرة . وساد بعد استحضارها للذكريات صمت طويل ، بدا كما لو أن

روحها قد انتقلت خالله إلى بيتها القديم . ثم قالت أخيراً، متجاوزة بكلماتها كل الزمن الذي انقضى وكل هذا البعد :
- البيت ما يزال ملكاً لنا . وهو يتظركم .

فكرة فرانسيسكو بأهواه القدر الذي أجبر والديه على هجر موطن ميلادهما والخروج إلى المنفى ، ربما ليعيده اليه بعد سنوات طويلة للسبب ذاته . تخيل نفسه يفتح الباب بحركة مائلة لحركة أمه حين أفلته من ذنب نصف قرن ، فأحس أنه إنما كان يسير في حلقة طوال هذا الزمان . وأدرك أبوه ما يجول في ذهنه فتحدىت عما عناه لها هجر أرضهما والبحث عن آفاق أخرى ؛ وكيف إنما احتاجا الشجاعة لمواجهة الآلام ، والسقوط ، واستهلاص قوى الروح من أجل الوقوف مرة وألف مرة ، والاعتياض على العيش بين الغرباء . لقد صمدوا ثابتين وراسخين إنما حلوا ، حتى ولو كان ذلك للبقاء أسبوعاً واحداً أو شهراً ، لأنه لا شيء يستنزف الصلابة الداخلية مثل احساس المرء بأنه عابر .

- ليكن الحاضر وحده معكم . لا تضيعا جهودكم في البكاء على الأمس أو الحلم بالغد . فالحنين يستنزف ويفني ، انه خواء المنفيين . عليكم ان تستقروا وكمانكم ستبقيان إلى الأبد ، ولا بد لكم من الاحساس بالاستقرار .
هكذا انه البروفسور ليال حديث ، فتذكر ابنه انه قد سمع الكلمات ذاتها من فم المثلة العجوز .

قاد البروفسور فرانسيسكو جانباً . كان متائراً ، فعانقه وهو يرتعشوعيناه حزستان . ثم أخرج من جيبه شيئاً صغيراً وقدمه إليه بارتباك : كانت تلك هي المسطرة الحسابية ، الكنز الوحيد الذي يرمي إلى ألم هذا الفراق وصعوبته . وقال بصوت أحش :

- إنما مجرد تذكرة يا بني . لا نفع فيها لحساب حلليا .
لقد كان يحس بذلك فعلاً . وبعد مشوار حياته الطويل ، أدرك عدم جدواي الحسابات . إذ لم يخطر بباله يوماً أن يجد نفسه متعيناً وحزيناً فيها أحد أبنائه في القبر ، وأخر في المنفى ، وأحفاده بعيدون عنه في قرية منسية ، وخوسية ، الوحيد

القريب منه ، تهدده الشرطة السياسية . تذكر فرانشيسكو شيوخ «مشيئه الرب» فانحنى ليقبل جبهته ، متنيناً بقوه ان يتمكن من ثني اهواه القدر كي لا يموت ابواه وحيدين .

حين لاحظ ماريوا انهيار المعنويات ، قررت تقديم العشاء . فوقوا حول المائدة ، عيوبهم غضلة وأيديهم متشجنة ، ورفعوا الكؤوس معاً حين قال البروفسور ليال :

- نخب ايرين وفرانشيسكو . وليرافقكم الحظ يا ابني .

وأضافت هيلدا دون أن تنظر اليهما ، حتى لا يظهر حزنها :

- وأنا أضيف : نخب ازيداد حبكم يوماً بعد يوم .

حاولوا جاهدين للحظات الظهور بمظهر المختلفين ، فأطروا على الأطعمة اللذينة وشكروا لطف هذا الصديق النبيل ، لكن القنوط ما لبث ان خيم مثل ظل ، واكتفوا جيئاً . ولم يعد يسمع في صالة الطعام سوى صوت الملاعق والزجاج .

كانت هيلدا تجلس إلى جوار ابنتها الحبيب ، تتأمله بعينيها ، وترسم في ذاكرتها وإلى الأبد ملامح وجهه ، وتعابير نظرته ، والتبعاعيد الخفيفة حول عينيه ، وشكل يديه الطويلتين والصلبتين . كانت تمسك الشوكة والسكنين بين أصابعها ، لكن طبقها ما يزال على حاله . كانت صلبة في ألها ، وقدرة على كبح دموعها ، لكنها لم تستطع اخفاء كآيتها . أحاط فرانشيسكو كففي أمه بذراعه وقبل صدغها وهو متأثر مثلها . فهمست هيلدا في اذنه :

- إذا أصابك مكروه يا بني فلن أقدر على الاحتمال .

- لن يحدث أي مكروه يا أماه ، اطمئني .

- ومتي سنلتقي ثانية؟

- قريباً ، إنني واثق . وحتى ذلك الحين سنكون معاً بأرواحنا . مثلما كنا على الدوام ..

انتهى العشاء بهدوء . وانتقلوا للجلوس في الصالة حيث راحوا ينظرون إلى

بعضهم بعضاً، ويتسمون دون سعادة، إلى أن اقترب موعد حظر التجول مشيراً إلى لحظة الوداع. فادها فرانشيسكو حتى الباب. كان الشارع في تلك الساعة مفراً وساكناً، والأبواب موصدة، وليس هناك من نور يشع من النوافذ المجاورة، فكانت أصواتهم وخطاهم تشير صدى أصصم يتردد مثل نذير شؤم في هذا الجو المغير. كان على الوالدين ان يسرعا ليصلا إلى بيتهما في الوقت المناسب. تبادلوا العناق للمرة الأخيرة وهم متوترون وصامتون. اتحد الأب وابنه في عناق طويل وقوي ، مليء بوعود وتنبيهات بكلاء . ثم أحمس فرانشيسكو بأمه بين ذراعيه ، كانت ضئيلة وهشة ، وجهها الذهبي ضائع في صدره ، ففاض الدمع حينئذ ، وأمسكت يداتها التحيلتان بقماش سترته ، وتشبت به مثل طفل يائس ، فأبعدها خوسيه واجبرها على الدوران والسير دون النظر إلى الخلف .رأى فرانشيسكو شبحي والديه المتزدين والمحطمين والمنكمشين يبتعدان في الشارع المغير. فيما بدا له شبح أخيه متهاسكاً وصلباً ، شبح رجل يعرف المخاطر التي تهدده ويرضى بمصيره . وحين اختفوا عند المنعطف ، انطلق من صدره نحيب وداع وفاضت إلى عينيه كل الدموع التي حبسها طوال تلك الليلة الرهيبة . انهار عند عتبة الباب ووجهه بين كفيه ، تهزه أعمق مشاعر الحزن . وهناك وجدته ايرين ، وجلست إلى جانبه صامتة .

★ ★ *

لم يتم فرانشيسكو ليال يوماً في احصاء عدد النساء الذين مدد إليهم يد المساعدة خلال تلك السنوات . لقد عمل أول الأمر منفرداً ، لكن مجموعة من الأصدقاء راحت تتشكل من حوله شيئاً فشيئاً ، تجمعهم الخامسة لمساعدة المطاردين ، وتأمين اللجوء السياسي لهم عندما يكون ذلك ممكناً أو حملهم حتى الحدود عبر دروب مختلفة . كان يرى ذلك في البداية على انه مجرد عمل انساني وتحتمي إلى حد ما ، لكنه تحول مع مرور الوقت إلى نوع من الهوى . كان يتغاضى المخاطر بمشاعر مضطربة ، هي مزيج من الغضب والسعادة الضاربة ، وكان يشعر

بدوار المقامرين ، ويتحفز القدر الدائم ، لكنه لم يفقد خصائصه كرجل متيقظ حتى في أكثر لحظات تهوره ، لعلمه انه سيدفع حياته ثمناً لأي سهو . كان يخطط أعماله حتى أدق تفاصيلها ويسعى لتنفيذها دون مفاجآت ، مما أتاح له أن يعيش على شفير الهاوية لزمن أو لآخر . لم تكن تراود الشرطة السياسية أية شكوك حول منظمته . وكثيراً ما كان ماريوبو شقيقه خوسيه يعملاً معاً . وفي المرتين اللتين اعتقلوا فيها الراهن ، كانوا يستجوبونه حول نشاطاته في المطرانية وفي حيه وحسب ، حيث كانت مطالبته بالعدالة وشجاعته في مواجهة السلطة واضحة تماماً . أما الحلاق ، فكان يتمتع بمظهر مناسب . لأن زوجات الكولونيالاتكن يترددن إلى صالونه ، وكثيراً ما كانت تحمله سيارة مصفحة لتنقله إلى القصر القائم تحت الأرض ، حيث تتظره السيدة الأولى في ملجنها السعيد والمزخرف . فيوجهها في اختيار ملابسها ومجوهراتها ، ويتبع لها تسلیفات جديدة يُبرّز فيها سمو السلطة ، وبين لها رأيه في التحف الرومانية والمرمر الفرعوني وثريات الكريستال المصقول المجلوبة من الخارج لتزيين منزلاً . وكانت شخصيات النظام البارزة تتردد على حفلات الاستقبال التي يقيمهها ماريوبو ، كما كانت تدور وراء البارابان الهندي الذي يقسم محل اثرياته ، مفاوضات مع شبان ذوي مظهر حسن من أجل المتع المحرمة . وكانت الشرطة السياسية تنفذ الأوامر بحماية عملياته التهريبية ، وتجارته ، وادارته لرذائل سرية ، دون ان تتصور أن المتألق ذا الحظوة يستغفلها أمام أنفها .

كان فرانشيسكو قد قاد مجموعته في مهمات صعبة ، لكنه لم يتصور انه سيعهد اليهم يوماً بإنقاذ حياته وحياة ايرين .

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً عندما وصلت شاحنة صغيرة محملة بنباتات غريبة وأشجار قرمة من أجل شرفات ماريوبو . نزل منها ثلاثة عمال يرتدون الأفرهولات ، والقبعات الواقية وأقنعة الجمایة من للمبيدات ، فحملوا النباتات الاستوائية ، وأزهار الكاميليا المتفتحة ، وشجيرات البرتقالي الصينية ، ثم وصلوا الخرافات بخزان مبيد الحشرات وراحوا يعقمون النباتات وقد غطوا وجوههم

بالأقنعة الواقية . وفيما وقف أحدهم ليراقب المرء ، نزع الآخرون ملابس عملها بناء على اشارة من ماريو ، وارتداها كل من ايرين وفرانسيسكو وغطيا وجهيهما بالأقنعة ، ثم نزلا متمهلين ليتحققا بالسائق وينظلقا دون أن يخطر لأحد أن يوجه نظره ثانية اليهما . أمضيا بعض الوقت في التجول في المدينة ، والتنقل من سيارة أجرة إلى أخرى ، إلى ان التقى عند ناصية أحد الشوارع بجدة عجوز ذات مظهر صريح البراءة ، فسلمتها مفاتيح سيارة صغيرة ووثائقها .

قال فرانسيسكو لايرين وهو يجلس وراء عجلة القيادة :

- كل شيء على ما يرام حتى الآن . كيف تشعرين ؟

فردت ايرين الشاحبة ، التي بدت وكأنها ستتحول إلى ضباب :

- على أحسن حال .

غادرا المدينة عبر الطريق الجنوبي . وكانت خطتها تقضي الوصول إلى مر بين الجبال لاجتياز الحدود قبل ان يطبق حصار القمع عليهم . فاسم ايرين بيلتران وأوصافها كانت في حوزة السلطات على طول التراب الوطني وعرضه ، وكانوا يدركون انها لن ينجوا من الدكتاتوريات المجاورة ، لأن تلك الأنظمة كانت تتبادل المعلومات ، والمعتقلين ، والباحث . وكان يزيد في تلك المقابلات بعض الموقن لدى هذا الجانب وبطاقات هوية لدى الجانب الآخر ، مما يسبب البلبلة عند التعرف على الضحايا ، وكان يحدث ان يُعتقل شخص في هذا البلد ثم تظهر جثته مقتولاً في بلد آخر وباسم غريب ، أو يتلقى الأهل جثة مجهول ليذفونها على أنها جثة ابنهم . ورغم وجود من سيساعدها في الجانب الآخر من الحدود ، إلا أن فرانسيسكو كان يعلم انه لا بد له من سرعة التحرك للوصول إلى آية ديمقراطية في القارة أو إلى هدفه الأخير ، إلى الوطن الأم ، كما صار الفارون من أميركا يسمون إسبانيا . قطعا الطريق على مرحلتين ، لأن ايرين كانت ما تزال متعبة وغير قادرة على احتمال ساعات طويلة من الجلوس ثابتة . كانت تعاني الدوار والألم . يا حبيبي المسكينة ، لقد نحلت كثيراً في الأسابيع الأخيرة ، وقد نمش وجهاً وجهاً بريقه الذهبي تحت الشمس ، لكنك جيلة مثلما كنت دوماً ، رغم انهم قصوا شعرك

الملكي الطويل . لست أدرى كيف أساعدك ، أود لو ألقى آلامك ومخاوفك على كاهلي ، اللعنة على الحظ الذي يقودنا متغرين والخوف مسلط على أفكارنا . كيف يمكن لي أن أعيدك يا ايرين إلى أزمنة الاعتقاب ، حين كنا نتنزه مع كلبي في الجبل ، حيث كنا نجلس تحت الأشجار لتأمل المدينة تحت أقدامنا ، ونشرب النبيذ على قمة الدنيا شاعرين أنها أحجار وخلدون ؛ لم أكن أتصور في ذلك الحين أني سأقودك اليوم عبر هذا الطريق الطويل من الكوابيس ، أتودك وأنا متيقظ الخواص ، متتبه إلى كل صوت ، مترصد ومرتاب . مذ كادت تلك الرصاصات الرهيبة ان تشطرك شطرين ، لم أجد الراحة في النوم ولا في اليقظة . عليَّ أن أكون قوياً يا ايرين ، أن أكون هائلاً وغير قابل للهزيمة كي لا يستطيع أي شيء الحقنضررك ، ولا حميك من الألم والعنف . حين أراك على هذه الحال ، يضئيك الارهاق ، مستندة إلى المقعد ، مستسلمة لام Hazelations السيارة ، وعيناك مغمضتان ، أحس ان جزعاً رهيباً يحيط على صدري ، أحاف أن أفقدك ، وأرغب في البقاء معك إلى الأبد وحاتيك من كل سوء ، والسهر على نومك ، ومنحك أياماً سعيدة ..

توقفا عند الغروب في فندق ريفي صغير . وقد تأثر صاحبه لنظر الفتاة الضعيفة . وخطواتها المترددة ، وتلك الغيوبية التي نفذت حتى عظامها ، فرافقهما حتى الغرفة وأصر على تقديم بعض الطعام اليها . نزع فرانسيسكو ملابس ايرين ، وسوى الضمادات الخفيفة التي كانت تتضاعفها للوقاية وساعدها على الاستلقاء . أحضروا لها حساء وكأس نبيذ دافئ ممزوج بالسكر والقرفة ، لكنهما لم تستطع مجرد النظر إلى الطعام ، فقد كانت مرهقة تماماً . استلقى فرانسيسكو إلى جوارها ، فلقت ذراعيها حول جسده ، وألقت برأسها على كتفه ، ثم تهدلت وغرقت للحال في النوم . لم يتحرك فرانسيسكو ، وابتسم في الظلام سعيداً ، كعادته كلما وجد أنها معاً . فتلك المرافقة الحميمة التي يعيشانها منذ عدة أسابيع كانت ما تزال تبده له كالمعجزة . كان يعرف هذه المرأة حتى أعمق أسرارها ، ولم يكن يرى سراً في عينيها الدخانيتين اللتين تحولان إلى عينين ضاربيتين في اللذة وتحضلان سعيدتين حينما تقوم بجردة لغرامياتها . لقد جاب جسدها مرأة ومرات إلى أن

أصبح قادرًا على رسمها من الذاكرة، وواثقاً من أنه سيذكر حتى انتهاء حياته هذه الجغرافية الرقيقة المتساكة؛ لكنه كلما امتنع عنها بين ذراعيه، طفت عليه الانفعالات الخانقة التي أحسها في لقائهما الأول.

استيقظت ايرين في اليوم التالي وهي تفيض حيوية وحماسة كما لو أنها أمضت الليل في المرح، لكن طيب نواياها لم يكن كافياً لأخفاء لون الشمع الذي يصبح بشرتها وهالات المرض التي تحيط بعينيها. قدم لها فرانشيس코 فطوراً غنياً، عساهما تسترد شيئاً من قواها، لكنها لم تكن تتدفق الطعام. كانت تنظر من النافذة وترى أن الربيع قد انتهى. وبعد زمن طويل قضته في أرض الموت، اكتسبت الحياة بالنسبة لها قيمة أخرى. كانت تشعر وهي مبهورة بتبدلاته الدنيا، وتبدىء امتنانها للأشياء الصغيرة التي يأتي بها كل يوم.

ركبـ السيارة في وقت مبكر جداً، فأمامهما ساعات من السفر. اجتازا قرية ثملة بالضوء، ومرا أمام عربات الخضار، وبائعـ المأكولات الخفيفة، والدراجات، والحافلـات التي تغضـ بالركاب حتى ظهرـها. دوت نواقيـس الكنيسة، وتقـدمـتـ امرأـتانـ عجوزـانـ متـشـحتـانـ بالـسوـادـ فيـ الشـارـعـ. ومرـتـلـ منـ التـلامـيـذـ معـ مـعلـمـتـهمـ باـتجـاهـ السـاحـةـ وـهمـ يـغـنـونـ: أيـهاـ الحـصـانـ الأـبـيـضـ، خـذـنـيـ منـ هـنـاـ، اـحـلـنـيـ إـلـىـ وـطـنـيـ. إـلـىـ حـيـثـ ولـدـتـ. وـكـانـتـ تـتـشـتـرـ فيـ الجـوـرـائـحةـ خـبـزـ طـازـجـ وـصـوتـ جـوـقةـ منـ الزـيـزانـ وـالـزـرـازـيرـ. كـلـ شـيءـ كـانـ يـبـدوـ نـظـيفـاـ وـمـرـتـبـاـ وـهـادـئـاـ، وـالـنـاسـ مـنـهـمـ كـوـنـ فـيـ أـعـمـالـهـمـ الـيـوـمـيـةـ فـيـ جـوـمـنـ الـأـمـانـ. اـرـتـابـاـ لـلـحظـةـ فـيـ سـلـامـةـ عـقـلـيـهـاـ. رـبـاـهـاـ ضـحـيـةـ دـوـارـ أوـ وـهـمـ فـطـيـعـ، وـلـيـسـ هـنـاكـ مـنـ خـطـرـ يـتـهدـدـهـاـ. تـسـاءـلـاـ إـذـاـ ماـ كـانـاـ يـهـرـبـانـ مـنـ ظـلـلـهـمـ، وـلـكـنـهـمـ لـمـ سـاـحـيـشـ وـثـائـقـهـمـ الـمـزـيـفـةـ الـتـيـ تـحـرـقـ جـيـوـهـاـ، وـرـأـيـاـ وـجـهـيـهـاـ الـمـخـلـفـينـ وـتـذـكـرـاـ قـضـيـةـ النـجـمـ. لـاـ، لـيـسـ مـخـبـولـيـنـ. وـلـيـاـ زـمـنـ هـوـ الـذـيـ اـخـتـلـ.

سارـاـ فـيـ هـذـهـ الـدـرـوبـ الـأـزـلـيـةـ لـسـاعـاتـ، إـلـىـ أـنـ فـقـدـاـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ رـؤـيـةـ المشـهدـ، وـصـارـ كـلـ شـيءـ يـبـدوـ لـهـاـ مـتـشـابـهـاـ فـيـ آخـرـ النـهـارـ. أـحـسـاـ وـكـانـهـاـ يـسـبـحـانـ فـيـ الـفـضـاءـ. وـلـمـ يـقـطـعـ رـحـلـتـهـاـ سـوـىـ حـوـاجـزـ الشـرـطـةـ الـتـيـ فـيـ الـطـرـيـقـ. وـكـلـمـاـ قـدـمـاـ

و شائقها أحسا بالخوف يسري في جسديها مثل صدمة كهربائية تركتها متعرقين وذاوين . كان الحراس يتصرفون صورتيها وهم ساهون ويشرون اليها بمواصلة المسير . لكنهم أجبروها على التزول في احدى النقاط ، وأوقفوها لعشر دقائق كي يردا على أسئلة محددة ، وفتشوا جميع أنحاء السيارة . وحين كانت ايرين على وشك الصرارخ ، واثقة من انهم قد اكتشفوا أمرها أخيراً ، سمع لها الرقيب بمواصلة السير ، وأوصاها قائلاً :

- كونا على حذر ، ففي هذه المنطقة يوجد ارهابيون .
لم يستطيعوا التكلم لبعض الوقت ، لأنهما لم يشعرا بالخطر قريباً منها ومؤكداً كما شعر ابه حينئذ .

واستنجدت ايرين وهي مذهولة :

- الرعب أقوى من الحب والخذل .

★ ★ ★

تجاوزا ابتداء من تلك اللحظة الخوف بالسخرية منه ، وتبادل المزاح ليوفرا على نفسيهما خاوف لا طائل من ورائها . وأدرك فرانشيسكو أن هذه هي نقطة الحياة الوحيدة لدى ايرين . فقد كانت تجهل جميع أشكال الحياة والخجل ، وتسلّم لانفعالاتها بصفاء وبحريّة مطلقة . إنها كان يوجد في أعماقها حصن حياء متطرف . فهي تورّد أمام ذلك الضعف الذي تراه غير محتمل في الآخرين وغير مسموح به لها . لقد كان الخوف المكشوف يملؤها بالخرج ، فتحاول اخفاءه حتى عن عيني فرانشيسكو . وكان يقبع في روحها خوف عميق ومطلق ، لا يشبه في شيء ذلك الخوف الأولى الذي غالباً ما كانت تداريه بالضحك . لم تكن تتصرّن الشجاعة أمام حالات الذعر البسيطة ، مثل ذبح خنزير أو سماع صرير باب في بيت مسكون بالأشباح ، ومع ذلك ، فقد كانت تشعر بالخجل من هذا الشعور الجديـد الملتصق بجلدها ، والذي اقتحم اعماقها ، وصار يدفعها إلى الصرارخ وهي نائمة ، وإلى الارتعاش وهي مستيقظة . كان وقع الكوابيس عليها قوياً في بعض الاحيان حتى

لا تعود تعرف ان كانت تعيش حملة أم أنها تعيش. وفي تلك اللحظات العابرة التي تطل فيها من عتبة حياتها، من عتبة خجلها، كان فرانشيس코 بيزداد حبا لها.

غادراً أخيراً الطريق العام ودخلوا في طريق الجبال، إلى أن وصلا إلى محطة استراحة، كان المتوجع مشهوراً في زمن مضى بعياته التي تصنع المعجزات، لكن صناعة الأدوية الحديثة أغرقته في النسيان. كان البناء ما يزال يحتفظ بذكرى ماض مزدهر، حين كان يستضيف في أوائل القرن العاثلات الراقية والأجانب القادمين من بعيد بحثاً عن الشفاء. لم يقوس الاهمال صالاته الفسيحة ذات الدرازيات والافاريز، ولا ائاته القديم، ولا ثرياته البرونزية وستائره ذات المداب والشراسيب. اعطوهما حجرة فيها سرير ضخم وخزانة وطاولة وكرسيين عاديين. كانت الكهرباء تنقطع في ساعة معينة، فيتوجب على النزلاء حينئذ التجول على ضوء الشموع. وعند غياب الشمس، تنخفض درجة الحرارة بشكل مفاجئ، كما يحدث عادة في مثل هذه المناطق شاهقة الارتفاع، فيضرمون عندئذ في مدافء الحطب جذوع أشجار شذوذية. وتدخل من النوافذ رائحة لاذعة من الأوراق الجافة التي تُحرق في الفناء. كان نزلاء الفندق، باستثنائهما، وباستثناء العاملين فيه، هم مرضى يعانون أمراضًا متنوعة أو متقدعون يعالجون أنفسهم بالسلوى. كل شيء كان يسير ببطء ونعومة هناك، ابتداء من خطوات النزلاء في الممرات، وحتى الصوت الرتيب المنبعث من مضخات تضخ الماء والوحول العلاجي في أحواض ضخمة من المرمر والحديد. وفي أثناء النهار، كان رتل من الآملين في الشفاء يتسلقون حافة هوة يتصاعد منها البخار، مستندين إلى عكاكيزهم، ومتذرين بملاءات شاحبة وكأنهم أرواح قديمة. وفي الأعلى، عند حافة البركان، حيث تتدقق ينابيع الماء الساخن وأعمدة كثيفة من البخار الكبيرتي، يجلس المرضى وقد حجبهم الضباب. وعند الظهيرة، كانوا يقرعون ناقوساً في الفندق، فيتردد دويه المنادي في أرجاء الجبل، وفي الوهاد والكهوف الخفية. انه اشارة استدعاء مرضى الروماتيزم والتهاب المفاصل، والمقرwhine، والموسسين، والمصابين بالحساسية،

والمسنين الذين لا شفاء لهم. فوجبات الطعام تقدم في ساعات محددة في حالة فسيحة تصدق فيها تيارات الهواء وتصلها رواحة المطبخ.

- الأمر السيء الوحيد هو انسالسنا في شهر العسل - قالت ايرين المفتونة بالمكان وهي تخشى ظهور دليلهما بسرعة، ليقودهما عبر الحدود.

تعانقا فوق الفراش الذي وفره لها الحظ بعد الرحلة المضنية، وفقدا في الحال احساسهما بالزمن. وعندما أيقظتها أول أنوار الفجر المشع، لاحظ فرانسيسكو باطمئنان ان حالة ايرين أفضل بكثير مما كانت عليه في اليوم السابق. بل أنها أعلنت أنها تشعر بجوع مثل جوع بحار. ارتدية ملابسها بعد ان مارسا الحب وخرجوا لاستنشاق هواء الجبال. كانت حركة التزلاء الذاهبين إلى الحمامات الحارة تبدأ منذ الصباح الباكر. وفيها كان الآخرون يحاولون الاستشفاء، انهمك الشبابان في ملء الساعات المتاحة لها بالحب وبالقبلات المختلسة والوعد الأبدي. أحبا بعضهما وهما يسيران على مرات البركان الوعرة، وأحبا بعضهما وهما جالسان على دبال الغابة الشذى، وأحبا بعضهما هامسين وسط البخار الحليزيوني الأصفر المنطلق من الينابيع الكبريتية، إلى ان حضر عند انتصف النهار رجل جبلي يتعلن حذاء بدائياً من الجلد، وعباءة سوداء وقبعة بلا حواف، ويقود ثلاث دواب ويحمل خبراً سيئاً :

- لقد وجدوا طريقكم. عليكم بالرحيل اليوم بالذات.

- من أمسكوا؟ سأله فرانسيسكو وهو خائف على أخيه، وعلى ماريو، وعلى كل اصدقائه الآخرين.

- لم يمسكوا أحداً. صاحب الفندق الذي قضيتم عنده الليلة الفائتة ارتبا بأمركم ووشى بكم.

- استطعيم ركوب الحصان يا ايرين؟

فابتسمت :

- أجل.

لف فرانسيسكو خصر صديقه بمشد متين، لتحمل الاهتزازات فوق ظهر

الدابة. وحملوا امتعتها وانطلقو سائرين وراء بعضهم في سيل يكاد يكون غير مرئي، يؤدي إلى درب من nisi بين نقطتي حدود، كان فيما مضى طريقةً للمهربين. حين اختفت آثار الطريق تماماً، وقد ابتلعتها هذه الطبيعة الجاحظة، استرشد الدليل بعلامات محفورة على جذوع الأشجار. لم تكن تلك هي المرة الأولى - ولن تكون الأخيرة - التي يستخدم فيها هذا الطريق مطموس المعالم لأنقاذ الملاحدين. ساروا دون توقف لساعات. ولم يتقدوا خلال الطريق بكائن بشري؛ فقد كانوا يجوسون في عزلة بشرية، باردة وبلا ضفاف، في متاهة من الخضراء لا يمشي فيها سواهم. وسرعان ما وصلوا إلى حيث يقع الثلوج الضخمة المتبقية من فصل الشتاء. نفذوا إلى الغيوم الواطئة، وأحاط بهم زيد لا يمكن الامساك به، مما من حولهم آثار الحياة. وعندما خرجوا من بين الغيوم ظهرت سلسلة الجبال فجأة أمام عيونهم وهي تتلوى إلى الالاتجاه بقممها البنفسجية، وبراكيتها العممة بالبياض، بوديانها وانكساراتها، وبكتلها الثلجية التي تذوب في الصيف. وبين الحين والآخر كانوا يلمحون صليباً مغروساً في مكان قضى فيه نحبه أحد المسافرين الذين تصرعهم الوحشة، فيرسم الدليل الجبلي شارة الصليب بخشوع، ليستنهض هممها.

كان الدليل يمضي في المقدمة، ووراءه ايرين، فيما يقف فرانثيسكو الرتل دون أن يرفع نظره عن حبيته، متأهلاً لأي بادرة ارهاق أو ألم، ولكن الفتاة لم تُبدِ علائم التعب. كانت تسلم نفسها لخطى البغلة الشايبة، وعيناها هائمتان في الطبيعة العجيبة المحيطة بها، وروحها تدمع. أنها تودع بلدتها. كانت تتضع في صدرها، تحت ملابسها، لفافة التراب الصغيرة التي بعثتها إليها روسا لتزرع فيها نبتة لا تنسيني في الجانب الآخر من البحر. كانت تفكك بحجم خسارتها: لن تعود إلى السير في شوارع طفولتها، ولا إلى سماع نبرة لغتها المحببة العذبة؛ ولن ترى جبالها عند الغروب، ولن يهدل لها خرير أنهارها، ولن تشم شذى الحق في مطبخها ولا رائحة المطر الذي يتبعثر على سطح بيتها. لن تفقد روسا، وأمهما، وأصدقاؤها، وعملها وماضيها فقط، بل ست فقد وطنها أيضاً. يكتب:

- بلدي . . . ، بلدي . .

فأسرع فرانشيسكو على بسيمته ليسر إلى جانبها ويمسك بيدها.

عندما خيم الظلام، قرروا أن يعسكروا لقضاء الليل، لأنه لا يمكن التقدم دون ضوء في متاهة الجبال تلك، ذات المنحدرات الجرداء، والوهاد الرهيبة والوديان التي بلا قرار. لم يتجرأوا على اشعال نار، خشية وجود دوريات رصد قرب الحدود. وتقاسم الدليل معهما اللحم المملح والقاسي، وقطعة الخبز اليابسة والخمر الذي كان يحمله في حُزْجه. تذروا جيداً بالعباءات الثقيلة وقعوا بين البهائم محظيين بعضهم بعضاً وكأنهم ثلاثة إخوة، لكن البرد نفذ رغم ذلك إلى عظامهم وأرواحهم. وأمضوا الليل يرتحفون تحت سماء كثيبة، رمادية، سوداء الليل، يحيط بهم حفيظ حفيظ وصغير ناعم، تطلقه أفواه الغابة الlanائية.

أخيراً طلع الفجر وتقدم الصبح مثل زهرة نار، مجرأ العتمة على التراجع ببطء. أشرقت الشمس وتبدي جمال المشهد الثقيل أمام أعينهم مثل عالم حديث النشوء. نهضوا واقفين، ونفضوا الأوراق الجافة عن أغطيتهم، وحركوا أعضاءهم الخدرة وشربوا ما تبقى من الخمر ليستردوا الحياة.

قال لها الدليل وهو يشير إلى نقطة بعيدة :-

- الحدود هناك.

فقرر فرانشيسكو:

- فلنفترق هنا أذن. ثمة من ينتظرون في الجانب الآخر.

- عليكما مواصلة الطريق مشياً على الأقدام. اتبعوا العلامات المحفورة على الأشجار ولن تضلوا، فالطريق آمن. حظاً سعيداً أيها الرفاق ..

عائقاه مودعين. ورجع الدليل على أعقابه مع البهائم، فيها واصل الشابان طريقهما بالتجاه الخط الوهبي الذي يفصل هذه السلسلة الهائلة من الجبال والبراكين. أحسا بالضاللة، والوحدة، والهشاشة . . بحاران وحيدان في بحر من القمم والغيوم، في الصمت القمري؛ لكنهما أحسا كذلك أن حبهما قد اكتسب بعداً جديداً وانه سيكون حصنهما الوحيد في المنفى.

وعلى ضوء الفجر الذهبي ، توقفا لينظرا إلى أرض وطنها للمرة الأخيرة .

فهمست ايرين :

- هل سنعود؟

ورد فرانثيسكرو:

- سنعود .

وسترسم هذه الكلمة مصيرهما خلال السنوات التالية : سنعود ، سنعود ..



ممثلة لا المسرحية

في عام ١٩٧٩ ، وفي بلدة لورنكيين ، على بعد ٦٠ كيلومتراً من العاصمة التشيلية سانتياغو ، تم اكتشاف ملقط سري في منجم مهجور ، أخفى فيه رجال الدرك جثث خمسة عشر فلاحاً من أهالي المنطقة . ومن هذه الواقعية الحقيقة تتعلق إيزابيل الليتشتي لترسم عالماً من الحب والأمل في مواجهة عالم آخر من العنف والخذلان ، كل ذلك في أجواء سحرية تضيع فيها الحدود بين الواقع والخيال لتشكل في نهاية المطاف عملاً أدبياً رائعاً وشهادة تاريخية مأساوية ، تروي وقائع جريمة سياسية وقصة تضامن إنساني .

الناشر

السعر ١٢٥ ل.س